ملامح ومقومات السيرة الذاتية في الشعر الأندلسي

(من القرن الرابع إلى القرن السادس الهجري)

رسالة مقدمة للحصول على درجة دكتوراه الفلسفة في الآداب

فرع اللغة العربية وآدابها تخصص / الأدب والبلاغة والنقد

إعداد الطالبة

مريم بنت سعيد بن محمد آل جابر

إشراف الأستاذ الدكتور

حسن عيسى أبو ياسين

أستاذ الأدب والنقد المشارك بكلية الآداب

جامعة الأميرة نور بنت عبد الرحمن

١٤٣٣هـ - ١٤٣٤هـ

شـــكـــــر وعـــرفـــان

الحمد لله وكفى ،وأُصلّي وأُسلّم على النّبيّ المُجتبى.

وبعد :-

فلا يسعنى بعد أنْ منّ الله علي بإتمام هذه الأطروحة العلمية إلاَّ أنْ أرفع يديّ بعظيم الحمد ، وجزيل الثناء لله الكريم الذي أمدني – وحده – بالتوفيق ، ووهبني التيسير ، فاللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك .

ثم لوالدي الكريمين أسوق الشكر المتتابع والامتنان العظيم الذي يقصر عند قدميهما أمام فضلهما عليّ ،ويتواضع عند عظيم إحسانهما إليّ، وحرصهما على تعليمي ودراستي ، ويقف ثنائي كَلاّ حسيراً عندما تكبّدا عناء السفر من مكان بعيد لحضور مناقشة هذه الرسالة التي أسأل الله أن تكون باب برٍّ بهما ، وأن يجزل لهما عظيم الأجر، ويرفع درجتهما في عليِّين ويسكنهما الفردوس الأعلى من الجنة .

و إلى زوجي عبد الله من آيات اشكر أسماها ، ومن آيات التقدير أوفاها ، فقد كان نعم الرفيق والسنّد لي ، منذ بداية دراستي لمرحلة البكالوريوس انتساباً حتى إتمام هذه الأطروحة .

ولاابنتي وصديقتي الحبيبة (نوره) أسوق شكري ورضاي عنها ، فقد شاركتني همّ هذه الأطروحة صفحةً صفحةً ، وخطتها سطراً سطراً ، وبفكرها الوقّاد رفأت هفواتها ، وكانت إذا دهاني اليأس أيقظت همتي ، وأرهفتْ حدّي نقداً و مراجعة .

ومعها أبنائي وبناتي زينتي من الدنيا وعقدي الفريد (فيصل ، نجلاء ، دعد ، نايف) فقد أهمّهم من أمرهذه الرسالة ما أهمّني، تحلّوا بالمسؤولية عند اشتغالي بها عنه، وبنفوس راضية أمَدّوني بالأمل ، فعذراً ثم عذراً عن كل تقصير مسّ حقوقهم أثناء هذه الدراسة ،فاللهم هبْهم قّرة عين لي ترضيك ثم ترضيني بها

ويمتدالشكر والتقدير الكبيرين لإخواني و أخواتي ، لاهتمامهم بي ، ومؤازرتهم لي ، رفع الله قدرهم ، و جزاهم الله عني خير الجزاء .

وأتقدم بالشكر وجزيل الامتنان لأستاذي الدكتور: حسن أبو ياسين أستاذ الأدب المشارك بجماعة الأميرة نوره ، المشرف على هذه الأطروحة،فقدكان لتوجيهاته الأثر الكبير في إضاءة الدرب لي وتسهيل المسالك الوعرة التي واجهت الدراسة ، فبارك الله في علمه و ذريته .

وأتقدم بالشكر الجزيل لعضوي لجنة المناقشة أ.د : حمدبن ناصر الدخّيل أستاذ الأدب والنقد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وأ.د : بدرية بنت محمد المعتاز أستاذ الأدب المشارك بجامعة الأميرةنورة على تفضلهمابقراءة هذه الأطروحة ومناقشتها وتصويبها .

ولزاماً علي أن أقدّم خالص شكري وامتناني لأستاذي القدير أ.د: عبد الرحمن الخانجي أستاذ الأدب بجامعة الملك سعود، فقدكان لي نعم الناصح الأمين،أفاضّ عليّ بعلمه وكريم خلقه ، ولم يبخل عليّ بشيء من وقته الثمين ،فجزاه الله عني خير الجزاء.

لا أنسي رفيقة دربي العلمي د.:سامية الهاجري من جامعة الدمام ، قاسمتني هموم هذه الأطروحة سؤالاً ودعاءً ، ولها مواقف مشرفة لن أنساها . بارك الله في علمها وذريتها .

والشكرموصول للجامعة ولعميدة كلية الآداب أ.د:البندري العجلان ووكيلة الدراسات العليا السابقة د : هدى الدريس ، والوكيلة الحالية أ.د:منيرة الفريجي، ورئيسة قسم اللغة العربية السابقة د.: نورة البشري ،والحالية د.عايدة على جهودهن ومساندتهن لي.

وكل العرفان والتقدير لمن وقف بجانبي سؤالاً ودعاءً وحضوراً ، مما لا يسعني المقام لذكره فجزي الله الجميع عني خير الجزاء .

ختاما:أسأل الله أن يجعل هذاالعمل زاداً لحسن المصيرإليه إنه بكل جميلٍ كفيل،وهو حسبناو نعم الوكيل . والحمدلله رب العالمين.

الفهـــــرس

الـــمـــوضـــــــــــــوع	رقم الصفحة
شـــكـــروعـــــرفـــــان	أ.
الـــفـــهـــــرس	١
الـــمـــقـــدمـــــــــة	٥
الـــتـمـــهـيـــــــــد	١١
أولاً:تـــعـــريف مـــفهوم الـسيـــرة الـذاتية	١١
ثـانيـاً:فـن الـــسيرة بين الأدب و الـواقع .	١٥
ثـالـثـاً:عـــلاقـة الـشعر بـفـن الـسيـرة.	١٨
رابـــعاً:لم نبحث عن ملامح السيرة الذاتية في الشعرالأندلسي تحديداً؟	٢٦
الـبـاب الأول:أهـم الملامح السيرية لذات الشاعر و مجتمعه	٣٢
تمـــهـــيـــــد	٣٣
الـفـصـل الأول:مـلامـح من السيرة السياسية في الشعر الأندلسي –المعتمد بن عباد نموذجاً–.	٣٤
الـمبـحث الأول:المكونات و المؤثرات.	٣٥
أولاً:مـكون الـتـنـشئـة .	٣٥
ثـانـياً:الـمكون العسكري.	٣٩
ثـالـثاً:الـمكون الأســري.	٤٦
رابـعًا:الـمكـون الاجـتماعي.	٥٠
خـامـساً:مـأســاة الأســر.	٥٣
المبحث الـثاني:الـشعر يترجم مكونـات سيرة المعتمد السياسية	٥٧
أولاً:الـــشـعـر و مـكـون الـتـنـشئة.	٥٧

ثانياً:الشعر و المكون العسكري.	٦٣
ثالثاً:الشعر و المكون الأسري.	٧٣
رابعاً:الشعر و المكون الاجتماعي.	٧٩
خامساً:الشعر ومأساة الأسر.	٨٨
الفصل الثاني:ملامح من السيرة الفكرية في الشعر الأندلسي–الإلبيري نموذجاً–	١٠٠
المبحث الأول:المكونات و المؤثرات.	١٠١
أولاً:المكون الثقافي.	١٠١
ثانياً:مكون الإصلاح السياسي.	١٠٧
ثالثاً:ظاهرة تيار الزهد.	١١٠
المبحث الثاني:الشعر يترجم مكونات سيرة الإلبيري الفكرية.	١١٤
أولاً:الشعر و المكون الثقافي.	١١٤
ثانياً :الشعر ومكون الإصلاح السياسي.	١٢٥
ثالثاً:الشعر و ظاهرة تيار الزهد.	١٣٢
الفصل الثالث:ملامح من السيرة العاطفية في الشعر الأندلسي–ابن زيدون نموذجاً–.	١٤٥
المبحث الأول:المكونات و المؤثرات.	١٤٦
أولاً:مكون النشأة.	١٤٧
ثانياً:مكون الطموح السياسي.	١٥٠
ثالثاً:مكون العلاقات الاجتماعية.	١٥٤
رابعاً:حب ولاّدة.	١٥٦
المبحث الثاني:الشعر يترجم مكونات سيرة ابن زيدون العاطفية.	١٦٠
أولاً:الشعر و مكون النشأة .	١٦٠
ثانياً:الشعر و مكون الطموح.	١٦٦

ثـالــثاً:الـــشعر و مـكون الـعلاقات الاجتماعية.	١٧٨
رابعاً:الـــشعر وحب ولاّدة.	١٨٧
الـباب الثـاني:المقومات الفنية السيرية لذات الشاعر ومجتمعه.	١٩٧
تـــمـــهـيـــــد.	١٩٨
الـــفصل الـــرابع:الـنزعة الـقصصية .	٢٠١
الـمبحث الأول:الـعناصر القصصية في السيرة السياسية للمعتمد.	٢٠٣
الـمبحث الثاني:مظاهر النزعة الدرامية في السيرة الفكرية للإلبيري.	٢١٧
الـمبحث الثالث:ملامح من السرد الغنائي في السيرة العاطفية لابن زيدون	٢٣٠
الـفصل الخـامـــس:الظواهر الأسلوبية المشتركة.	٢٤٣
الـــمبحث الأول:وسائل الأسلوب التصويري لتشكيل الملامح السيرذاتية.	٢٤٤
أولاً:الـتشكيل بالتشخيص.	٢٤٥
ثـــانيا:الـــتشكيل بالمفارقة التصويرية.	٢٥٤
ثـــالثـــاً:الـــتشكيل بالتصوير الحسي.	٢٦٣
الـــمبحث الثـــاني:الأســـلوب المباشر ودوره في تشكيل الملامح السيرذاتية.	٢٧٢
الـــفصل الـــسادس:اللـغة والبناء الفني لموضوعات السيرة.	٢٨٦
الـــمبحث الأول:اللغة الشعرية وتشكيل الملامح السيرذاتية.	٢٨٨
أولاً:الـــسياق الـــسير ذاتي للمعجم اللفظي.	٢٨٨
ثـانيـاً:مـكونـات اللغة الصوتية ودورها في التشكيل السيرذاتي.	٢٩٨
١ | الـــوزن و الـقـافـية .	٢٩٨
٢ | الـتـــكرار الـصوتي عـلى مـستوى الألفاظ و الـتراكيب.	٣١٥
٣ | الـــتراكيب الانـفـعالية.	٣٢٢

المبحث الثاني:البناء الفني وتشكيل الملامح السير ذاتية .	٣٢٥
أولاً:البناء السردي.	٣٢٧
ثانياً:البناء الترسلي.	٣٢٩
ثالثاً:البناء الموضوعي.	٣٣١
رابعاً:بناء التضاد و التباين.	٣٣٤
خامساً:البناء التوقيعي.	٣٣٥
الخاتمة .	٣٣٨
المصادر و المراجع .	٣٤٢

المقدمـــــــــــة

الحمدلله الذي علم بالقلم،علم الإنسان ما لم يعلم،وأصلي وأسلم على من أوتي جوامع الكلم نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،أما بعـد :-

فإذا كان كل عمل أدبي يتضمن بالضرورة عنصراً من سيرة مؤلفه،فإننا كثيراً ما نلحظ،ونرى ملامح من سير الشعراء الذاتية في شعرهم؛فالشعر هو فن الذات الأول عند العرب،حاز السبق على غيره من الفنون،فامتاز بمقولة:"الشعر ديوان العرب"على مر العصور،فقد أتاح للشاعر-منذ العصر الجاهلي-الحديث عن ذاته،ونقل مشاعره،وانفعالاته الذاتية،وتصوير أمجاده،وأمجاد قبيلته وتسجيل المآثر،والأنساب والأيام، ومايجـري على روايـة أيـامهم[1]، فكان الشعر جزءًا من سيرته،يؤدي الوظيفة التي يؤديها فن السيرة.

وبقي انصراف العرب له مستمراً على مرّ العصور،واحتفظ بمكانته وحضوره وجماهريته واكتفى به الشعراء الذين وجدوا فيه مجالاً رحباً للتعبير عن ذواتهم،وآلامها وآمالها وما يحيط بها من مؤثرات،فأقصى إلى حد كبير فن السيرة الذاتية،وقام مقامها،ولم تحظ بما حظي به الشعر حتى في العصور التي توافرت فيها مقوماتها عند كثيرا من الأدباء والشعراء.

ولم يكن الشعر الأندلسي بدعاً من ذلك،فما كاد العرب ينيخون رحالهم في الأندلس حتى غدا الشعر أرفع الفنون،وأكثرها حظوة لدى أهل الأندلس،ثم استمرت مكانته المرموقة متفردة لا يلحق بها أي فن،وأمسى الشعر الأندلسي من القرن الرابع إلى السادس الهجري دليلاً على حضارة بارزة عُدت أزهى فترات الشعر الأندلسي وأخصبها،فقد بلغ الشعر قمة نضوجه الفني على أيدي أشهر الشعراء الأندلسيين الذين أقاموا دولة الشعر والأدب،فبرزت فيها شخصية الشعرالأندلسي واستقلت بخصوصيتها ومميزاتها الأنـدلسية ،التي تبـرز أول مـا تـبرز في اقـترابها مـن حـيـاة الشاعر وواقعه و "سايرت القصائدالأندلسية-في هذه المدة-الواقع،والحياة مسايرة جعلت

---

[1] بروكلمان:ماصنف العرب في أحوال أنفسهم-د.ط،د.ت،د.م،ج١،ص٣.

القصيدةانعكاسية لكل ما حصل على تراب الأندلس"[1]،عندما أودعها الشعراء ملامح واضحة من سيرهم الذاتية ووفرت عطاء للحديث عن الذات،وما يحيط بها من صراعات،وتقلبات سريعة شهدتها الأندلس فوقف الشاعر أمامها بشعره راصداً ومحللاً ومفسراً.

وما قيل سابقاً لن يوضح المبتغى من طرح الموضوع؛بقدر ما يعين على معرفة أسباب،وبواعث اختيار الموضوع التي تتلخص في :

١ | التوق لدراسة الشعر الأندلسي في أزهى عصوره،ومحاولة إعادة قراءته قراءة جديدة تبين ملامح من خصوصية الإبداع الشعري الأندلسي الذي يـعد امتداداً للشعر العربي ،و ليس تابعاً،أو مقلداً،وكأنه ليس جزءا منه.

٢ | جدة الموضوع،فدراسة ملامح السيرة الذاتية في الشعر الأندلسي-حسب علم الباحثة- لم ينل حظاً من الدراسات العلمية الأكاديمية المتخصصة،وهذا أهم باعث إجرائي.

٣ | لوجود نماذج شعرية مشجعة على هذه الدراسة ،حفل بها الديوان الشعري الأندلسي-مـدة الدراسة-وزخرت بها الكثير من القصائد والمقطوعات.

٤ | لإمكانية الاستفادة من تداخل خصائص الفنون الأدبية خاصة ،التي تتفق مع الشعر بأنها فن الذات ،مثل :فن السيرة الذي يمكّن الدراسة من مضاعفة استبطان النصوص و الاستعانة ،بما يتاح من خصائصها الفنية و الموضوعية؛ لتلمس ملامح السيرة ومقوماتها في الشعر.

٥ | لانضمام الشعر الأندلسي في مواقف كثيرة إلى قائمة المصادر الأندلسية للشعراء،وتاريخهم الحضاري و الاجتماعي بأبعاده المتعددة،قد تقفز بالشعر ليكون المصدر الأول،والأقرب لسيرة قائله

ولابدمن الإشارة إلى أن هذا البحث يقوم على أساس اختيار نماذج لشعراء يمثلون أشهر

---

[1] ابن ثقفان،عبدالله:المقومات الفنية للقصيدة الأندلسية _خلال القرنين الرابع و الخامس الهجريين _ط١،الرياض:مكتبة الملك عبدالعزيز الوطنية،١٤٢٢هـ،ص٩٠.

الفئات من الشعراء الأندلسيين غير المتكسبين -فترة الدراسة-،وهم:الملوك،الوزراء الكتاب والعلماء الفقهاء الذين ربطوا خطابهم الشعري بتجاربهم،وقضايا حياتهم،وأشهر أحداث عصرهم ويمثل كل واحد منهم صوتاً متفرداً ،مكّنه من رسم خط شعري خاص به ،يرتبط بملامح كثيرة من سيرة ذاتية متفردة.

واعتمدت الدراسة على الدواوين الشعرية للشعراء-موضع الدراسة-؛مكونة مصدراً للنصوص و الشواهد الشعرية

سعياً من ذلك لتحقيق الأهداف الآتية :

الأول | لفت الانتباه لوجود ملامح من السيرة الذاتية للشاعر الأندلسي،وذلك ببيان أسباب اختيار الشعر الأندلسي-محل الدراسة-تحديداً بعد تسليط الضوء على مفهوم السيرة الذاتية وإبراز العلاقة بين الأدب والواقع،ومناقشة مقدار علاقة الشعر بفن السيرة الذاتية ،بوصفه تمهيداً للرسالة ، يؤيد إمكانية قيام الشعر بمهمة فن السيرة وأن الشعر الأندلسي ،كان يتغذى على إمكاناتها الموضوعية والفنية،ويمارسها الشاعرفي شعره بوعي ،أوبدون وعي.

الثاني | استقراء أهم ملامح السيرة الذاتية لموضوعية في شعر كل شاعر من الشعراء-محل الدراسة وتتبع مقدار انعكاسهافي شعرهم مرتبطة بأهم ملمح من سيرة الشاعر،وسمته الدراسة بأنه موضوع سيرته.

الثالث | الوقوف على المقومات الفنية لموضوعات السيرة الذاتية،وإبراز الجوانب التي تميزها عن المشترك العام من المقومات والخصائص الفنية للشعر.

وثمة تساؤلات ،تحاول الدراسة الإجابة عنها بقدر ما تحققه الدراسة من نتائج وإجابات لها،وهي:

* هل أسهم الشعر في الكشف عن ملامح من السيرة الذاتية للشعراء الأندلسيين ؟

* و ما مقدار إسهامه في انعكاس سيرة الشاعر،ووضوحها،وماهي الجوانب التي ظهرت بشكل واضح في هذا اللون من الشعر ؟

*ماهي الوسائل التي استعان بها الشاعر الأندلسي؛ليستوعب شعره ملامح من سيرته ؟

*و هل يعد الشعر مادة كافية لتتبع سيرة قائله ؟

أما منهج الدراسة:فهو منهج تحليل سيري وصفي،مع الاستفادة من المناهج النقدية الأخرى حسبما تقتضية حاجة الدراسة.

وأما الدراسات السابقة التي أفادت البحث،فأبرزها:

١ | دراسة بعنوان"ابن الرومي حياته من شعره"لعباس محمود العقاد،وهي دراسة تبين أن الشعر ترجمة وانعكاس لحياة الشاعر.

٢ | دراسة بعنوان"البحتري حياته من شعره،لأحمد الروضان،تبين أن شعره كان انعكاساً لذاته وواقع حياته.

٣ | دراسة يعنوان"فدوى طوقان وأثرها في دراسة أشعارها"،وتهدف الدراسة إلى إمكانية الاستفادة من سيرة الشاعرة،ومعطياتها؛لتطبق على أعمالها الشعرية من خلال خطين،خط يمثل التجربة الحقيقية (السيرة الذاتية) وخط ،يمثل التجربة الشعرية(الشعر).

٤ | دراسة بعنوان"في مسألة الذات و أحوالها في ديوان البحتري"،لأحمد حيزم،تبين أن الذات تظهر من خلال الأساليب اللغوية .

٥ | دراسة بعنوان"صورة الذات بين أبي فراس الحمداني و محمود سامي البارودي" لياسر السلمان وهي موازنة ،اتخذت من أعمال الشاعرين وسيلة للدخول للذات المبدعة على مبدأ بأن الفنان الذي لايُعرف بعمله ،لا يستحق أن يُعرف.

٦ | دراسة بعنوان"القصيدة السير ذاتية بُنية النص وتشكيل الخطاب" لخليل هياس،وهي دراسة اتخذت من قصيدة النثر لمجموعة من الشعراء المحدثين نماذج ،تبَين من خلالها قابلية الشعر؛ليكون حاملاً لمقاربات سيرذاتية لقائله

٧ | دراسة بعنوان"الترجمة الذاتية لأبي فراس الحمداني في ديوانه-قراءة جديدة-"ولم أتمكن من العثور عليها.

٨ | دراسة"ملامح السيرة الذاتية في الشعر القديم-المتنبي أنموذجاً"وهي رسالة ماجستير في جامعة الملك سعود ، تقف على ملامح من سيرة المتنبي الموضوعية من خلال أغراضه.الشعرية

وانطلاقاً مما تقدم فقد جاءت الدراسة في مقدمة وتمهيد وبابين من ستة فصول، وثبت بالمراجع و المصادر وخاتمة على النحو الآتي :

المقدمة:وفيها أشرت إلى أهمية الموضوع، أسباب اختياره، أهداف الدراسة ، المنهج الـذي سارت عليه والدراسات السابقة.

التمهيد: اشتمل على مناقشة أربـع مسائل ؛لتـكون فـاتحة للدخـول إلى أعـماق البـحث وجوهرالدراسة، هي:

١ | تعريف مفهوم السيرة.

٢ | فن السيرة بين الأدب و الواقع.

٣ | علاقة الشعر بفن السيرة.

٤ | لم نبحث عن ملامح السيرة الذاتية في الشعر الأندلسي ؟

الباب الأول | أهم الملامح السيرية لذات الشاعر و مجتمعه:

اضطلع بالجانب الموضوعي من الدراسة في ثلاثة فصول كل فصل بمبحثين،يختص كل فصل بتتبع ملامح السيرة الذاتية وموضوعها في شعركل شاعر من الشعراء الثلاثة-نماذج الدراسة وهي :

الفصل الأول: ملامح من السيرة السياسية في الشعر الأندلسي -المعتمد بن عباد نموذجاً-.

الفصل الثاني: ملامح من السيرة الفكريةفي الشعر الأندلسي-الإلبيري نموذجاً-.

الفصل الثالث: ملامح من السيرة العاطفية في الشعر الأندلسي-ابن زيدون نموذجاً- .

الباب الثاني | المقومات الفنية لأهم الملامح السيرية لذات الشاعر و مجتمعه :

اشتمل هذا الباب على تمهيد وثلاثة فصول كل فصل بمبحثين إلا الفصل الأول في ثلاثة

مباحث :

الفصل الأول: النزعة القصصية .

الفصل الثاني: الظواهر الأسلوبية الفنية المشتركة .

الفصل الثالث: اللغة و البناء الفني .

الخاتمة : فيها تلخيص لأهم النتائج التي أسفر عنها البحث و المرئيات، يليها ثبت بأهم المصادر و المراجع.

وقد راعت الدراسة تراجم الشعراء الأعيان من مصادرها،واعتمدت اعتماداً كلياً على دووين الشعراء موضع الدراسة،كما أن معجم لسان العرب لابن منظور كان الكشاف الذي أضاء معاني بعض المفردات .

وأما أبرز الصعوبات التي واجهت الباحثة :

فعندما قررت الباحثة تناول هذا الموضوع ترامت إلى الظن سهولته،وقرب تناوله؛لكثرة المقولات النقدية التي تردد بأن الشعر فن الذات،ولكن ما بدأت الشروع في تدوين أولى خطواته حتى برزت الصعوبات التي تمثلت في جدّة الموضوع،والجدة محفوفة بالمخاطر متزامنة مع قلة المراجع والدراسات المباشرة،أو القريبة من الموضوع، فلم يوجد-حسب علم الباحثة-دراسات مشابهة كافية ،يمكن أن تتخذ سنداً ، يعين على تذليل الصعوبات وإبعاد البحث عن المزالق المنهجية،أو الموضوعية التي تظهر عند تناول القضايا المختلفة.

تتمثل الصعوبة الأخرى الأهم في أن تناول السيرة الذاتية في الشعر، أمر مربك شائك عسير وأصعب بكثير من تناولها في الفنون النثرية الأخرى؛لطبيعة أعراف الشعر وبنائيته .

وختاماً:فإنني اسأل الله التوفيق و السداد في القول والعمل،والحمدلله الذي بنعمته تتم الصالحات ..

التمهيـــــــد:

أولاً | تعريف مفهوم "السيرة الذاتيــة":

يحمل مصطلح "السيرة الذاتية"مدلولاً خاصاً في مجاليه اللغوي، والاصطلاحي.

فالذات في اللُغة:"قيل ذات الشئ نفسه،وعينه،والذاتي لكل شئ مايخصه،ويميزه عن جميع ماعداه"[١].

ومن معانيها الواسعة عند علماء النفس:

-" هي فكرة الشخص عن نفسه،وتصوراته لوجوده الكلي،أو الطريقة التي يدرك بها الفرد نفسه أو ذاته".

-"الشخصية هي الذات المخصوصة"[٢].

-"أنها الذات الفاعلة للشاعــر"[٣].

وهناك تعريفات للذات انطلقت من وجهة نظر اجتماعية،فهي"الكل التصويري المتألف من مدركات خصائص الفرد المتفاعل مع الآخرين في الجوانب المتعددة،والقيم المرتبطة بهذه المدركات"[٤].

وعُرفت أيضاً بقولهم:"هي كل مايشار إليه في لغة الحياة بضمير المتكلم،وتنمو من خلاله عملية التفاعل الاجتماعي ،إذ يدرك الفرد من خلال رؤية الآخرين له،فالمجتمع يعد المرآة التي تنعكس على ذواتنا،وهو مايشار إليه بالذات المنعكسة"[٥].

ولعل من أوضح المفاهيم وأكثرها شمولية ،تعريف الدكتور محمد عاطف:"إذ يرى الذات أنها جانب الشخصية الذي يتكون من مفهوم الفرد عن نفسه،وتعد طريقة إدراك الشخص لنفسه

---

[١] الجرجاني،علي:التعريفات-ط٢،تحقيق:إبراهيم الأيباري،بيروت:دار الكتاب العربي،١٤١٣هـ،ص١٤٣.

[٢] عبد الصاحب،منتهى مطشر:أنماط الشخصية-ط١،عمان:دارر صفاء للنشروالتوزيع،١٢١١ م ،ص١٩.

[٣] أبو زيد،إبراهيم:سيكولوجية الذات والتوافق - د.ط،الإسكندرية:دار المعرفة الجامعية،١٩٨٧،ص٧٥.

[٤] ميشال،عاصي:الفن والأدب،بحث جمالي في الأنواع والمدارس الأدبية والفنية_ط٢،بيروت:منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشروالتوزيع،١٩٧٠م،ص٣٥.

[٥] سلمان،ياسر علي:صورة الذات بين أبي فراس الحمداني ومحمود سامي البارودي-دراسة موازنة-ط١،العراق :جامعة القادسية،د.ت ،ص٢١.

محصلة لتجاربه،وخبراته مع الآخرين،ولطريقة تصرفهم نحوه للانطباع الذي يدركه من نظراتهم إليه،وتتطورالذات عن طريق عمليةالتنشئة الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي[1]" .فالذات هي مايتميز به الفرد من خصائص وسمات تمييزه عن غيره،وهي جانب رئيسي من جوانب الشخصية التي تتطور من خلال تفاعلها مع مايحيط بها من عوامل وتفاصيل واسعة من الحياة يدرك بها قدراته،وأساليبه،ومناهجه.

كما أن مقدار إدراك الفرد لذاته يحدد مستويات الذات ووضوحها في شخصيته،فقد يبرز المستوى النفسي،أو الاجتماعي،أو السياسي،أو الفكري ويغلب على غيره من الجوانب.

وهذه التعريفات كلها تؤكد وجود علاقة جدلية بين الذات والواقع الاجتماعي الذي يحياه الإنسان،وترى أن المحور الأساسي في عمليات التفاعل عندما يتحول الفرد إلى فاعل اجتماعي له ارتباط بالآخرين،إذ من خلال الذات يكّون الإنسان صورة عن نفسه،وعن الآخرين بوصفها موضوعات أساسية للتفاعل.

أما **السيرة** في اللُغة:فهي من سار،أو السير،وهي السُّنة والطريقة،والهيئة،يقال:هذه سيرة فلان،أي طريقته وسنته[2].

وتعددت مفاهيم فن السيرة الذاتية وتعريفاتها عند الأدباء والنقاد،الذين اهتموا بهذا الفن فالدكتور شوقي ضيف، يرى أن:"السيرة هي التي يرصد كاتبها حياته رصداً واقعياً لا يغفل فيها الظروف والبيئة المحيطة به"[3].

أما الدكتور إحسان عباس فالسيرة الذاتية عنده:"نظرة عامة للتجارب النفسية ،والجسدية وبطلها شخص ذو تميز واضح في ناحية من النواحي"[4].

بينما يرى آخرون أنها :"نوع من الأدب الحميم الذي هو أشد لصوقاً بالإنسان من أي تجربة

---

[1] المصدر السابق،ص٢١.

[2] ابن منظور:لسان العرب–ط١،لبنان:دار صادر،مادة(سار).

[3] ضيف،شوقي:الترجمة الشخصية–د.ط،القاهرة:دار المعارف،١٩٨٧،ص٨٠.

[4] عباس،إحسان:غربة الراعي–سيرة ذاتية–ط١،عمان:دار الشروق،١٩٩٦،ص٢٦٦.

أخرى "[1].

ويعتبرها قاموس أكسفورد:"فن أدبي يدل على كتابة إنسان لتاريخه،أو قص حياته بنفسه" [2].

وعرفها المعاملي بقوله:"هي أن يكشف الأديب عن خبايا نفسه ، أوأطوارحياته، ومامر به من تجارب وخبرات، وما أحاط به من ظروف سياسية واقتصادية ومبادئ أخلاقية ،سادت في عصره"[3].

ويتضح من مفاهيم فن السيرة الذاتية وتعريفاتها،أنها شكل أدبي غير مستقر بصورة دقيقة ،أو محددة ،فهي متعددة الدلالات ومعانيها مفتوحة على كثير من الاحتمالات وفن ،يلتقي مع فنون الأدب ويتقاطع معها ضمن صفة الأدبية ،التي تمثل تواصلاً لا إراديا،لاسيما مايتركز منها حول الذات المبدعة مثل الشعر.

ويؤكد النقد الحديث عقب الكثير من الدراسات حول هذا الفن،بأن فن السيرة لايندرج تحت شكل أوقالب معين من فنون الأدب حتى إن أشهر النقاد ،الذين اهتموا بهذا الفن تراجع عن تعريفه للسيرةالذاتية عندما قصرها على النثر،وعمدإلى إعادة النظر فيه، ورأى أن ليس بالضرورة أن تكون صياغة السيرة صياغة نثرية ،كما يبدو من أمثلة الكثير من الشعراء الذين أدمجوا سيرهم في أشعارهم.

وبات يرى أن الاهتمام بالنصوص ونبضها السيري ،هو الأجدى من الاشتغال بوضع معايير جامدة ،تنافي طبيعة الفنون الأدبية [4]التي تتشابه وتتقاطع في خصائصها،فالحدود بين الفنون غير واضحة المعالم وغير نهائية ، قد تصل هذه الحدود بين الأجناس الأدبية لدرجة السقوط لذا أصبح الاستئناس بتعريف يوسع مفهوم السيرة الذاتية ، هو السائد والأفضل عند النقاد كتعريف فابيرو: "بأنها عمل أدبي،أو رواية،أو شعر،أو دراسة فلسفية يسعى من خلالها

---

[1] شلق،علي:النثر العربي-نماذج من تطوره لعصري النهضة والحديث-ط٢،بيروت:دار القلم،١٩٧٤،ص٣٢٤.

[2] المعاملي،شوقي محمد:السيرة الذاتية في التراث-د.ط،القاهرة:مكتبة النهضة المصرية،ص١٥.

[3] المصدر السابق،ص١٧.

[4] انظر:العيد،يمنى:السيرة الروائية والوظيفة المزدوجة،مجلة فصول،العدد١٩٩٧،٤م،ص١٣.

الأديب بقصد مضمر،أو صريح إلى حكاية حياته،أوعرض أفكاره،وتشخيص أحاسيسه"[1] .فهي في حقيقتها تجربة،ويبقى للأديب حرية اختيار القالب المناسب؛لإفراغ تجربته للمتلقي.

وكان لحداثة هذا الفن دوره في عدم استقرار مفاهيمه وأطره العامة،فلم يعرف بوصفه فناً أدبياً له خصائصه وشخصيته المستقلة عن الفنون ،التي كان يُضمن فيها إلا منذ القرن التاسع عشر في أوروبا.

ثم انتقل بمفاهيمه الحديثة وخصائصه الموضوعية،والفنية إلى الأدب العربي بفعل عوامل الاتصال المختلفة.

ولاينفي هذا عن الأدب العربي القديم وجود بعض الأعمال[2] التي تنتمي إلى فن السيرة كما صنفها النقاد المحدثون.

فقد وجدوا أعمالاً وإنتاجاً أدبياً توافق خصائصه خصائص، هذا الفن ومقوماته بمصطلحاته الحديثة؛ لكنها لم تكن معروفة،أو مستقلة بشكل واضح ؛ لأن ازدهار الفنون ونشوءها في عصر معين ناتج عن متطلبات كل عصر وقضاياه ،وبفعل قوة المحفـزات لبروزه على ساحة الأدب ولذلك ،فقد يؤدي حضور قوي لجنس من الأجناس الأدبيةإلى أن يغيب بقوته حضور غيره،أو تخبو أمامه بقية الفنون.

وقد كان الشعر هو الفن الذي اختاره الأديب العربي؛لتلبية رغباته،وتفعيل وجوده فهو أفضل الوسائل الإعلامية الأسرع انتشاراً والأيسر حفظاً، ووافـق جمهوره العريض، فلم يوازه أي فن آخر،حتى اشتهر بأن الشعر يعني الأدب عامة.

---

[1] المصدر السابق،ص١٤.

[2] انظر:شاكر،تماني عبدالفتاح:السيرة الذاتية في الأدب العربي،فدوى طوقان،وجبرا إبراهيم جبرا،وإحسان عباس-نموذجاً- ط١،بيروت:المؤسسة العامة للدراسات والنشر،٢٠٠٢م،ص٦٢-٦٥،وشرف عبدالعزيز:أدب السيرة الذاتية،ص١٦٤.

ثانياً\ فن السيرة بين الأدب والواقع:

الأدب بمختلف فنونه يصدر عن مجموعة من التجارب الذاتية،أو العامة تكونها مؤثرات البيئة الأدبية على اختلاف أبعادها،وتباين دلالاتها وعمق تأثيرها.

ومن الصعب تصور الأدب بمعزل عن هيئته الاجتماعية وجوانبها المختلفة،فالأدب يمتلك حيوية لازمته منذ نشأته وهي سمة بارزة فيه، تتمثل هذه الحيوية في ارتباطه بالواقع ،وينظرالنقادإلى أن كل تجربة إبداعية للأديب ،هي جزء أساسي من تجربة الحياة والأحداث ،التي مرت به بأبعادهاالفردية والاجتماعية والإنسانية، "فالواقع أيا كان ظرفه يقرر الأفكار الإبداعية الخلاقة التي هي اجتماعية ، إذ يسوغها ويحدد معالمها تفاعل المبدع مع واقعه" [1].فالعلاقة بين الأدب والواقع علاقة جدلية، منذ نادى أرسطو بنظرية المحاكاة وأصبحت ،هذه العلاقة من المسلمات النقدية، التي ذهبت إليها كثير من المدارس النقدية والأدبية من جوانب مختلفةوزوايا متعددة،حيث ترى:"بأن إيضاح العمل من خلال شخصية الكاتب وحياته من أقدم الدراسات وأقواها" [2]،فلغة الأدب عموماً، هي لغة الذات الواقعية الإنسانية التي لاتحد أعماقها وأبعاده وعواطفها حدود،والأدب دلالة على موقف الإنسان وانعكاس لذاته تجاه واقعه ووسيلة إعلامية للتعبير عن الأفكار والخبرات الإنسانية ،التي تثير الانفعال في نفوس الآخرين.

وقد بينت المفاهيم والتعريفات السابقة لفن السيرة، بأنها جزء من منظومة الإبداع الأدبي التي تربط فن الذات في أبعادها ومعانيها المختلفة بالأدب عن طريق الأديب ،الذي يتخذ من هذا الفن وسيلة للكشف عن خبايا نفسه وأساليبه تعامله،يعرض فيها لحياته، وما يعتريها من تجارب وخبرات وممارسات وماواجهه من متاعب وماصادفه من مواقف مثيرة، كذا توضيح الظروف الاجتماعية والسياسية والتاريخية والنفسية والفكرية ،التي لازمت مسيرة حياته.

فهو فن ينبع في الغالب من تجربة حقيقة،أو مايرمز إلى تجربة حقيقة، " فالحياة والملفوظ

---

[1] عيسوي،عبدالرحمن:سيكولوجية الإبداع_د.ط،د.م:دار النهضة العربية،د.ت،ص٤٥.

[2] ويلك،رينيه:نظرية الأدب–ط١،ترجمة:محيي الدين صبحي،د.م:المؤسسة العربية للدراسات والنشر،١٩٨٧م،ص٩٣.

الواقعي قيمة مهيمنة داخل السيرة الذاتية "[1] فهي سمة ،يتميز بها هذا الفن بصورة أوضح منها في الفنون الأخرى . هذا يعني أن السيرة، تشترك مع التاريخ في اتصالهما الوثيق بالإنسان وظروفه المختلفة ونحن لانستطيع-غالباً-أن نحدد طبيعة الأدب ذاته،أو أن نتحدث عن جوهر الأدب عامة بعيداً عن سياقه التاريخي؛لأنه إبداع الجماعة البشرية في زمن محدد.

فهو فن تتجاذبه سلطة الأدب وقوة التاريخ،فإذا كان المؤرخ يعتمد على الأدب من أجل استعادة الماضي ومحاولة فهم الإنسان في سياق ظروف عصره وبيئته المختلفة،فإن الأديب في فن السيرة ،يتخذ من حوادث التاريخ ووقائع عصره وظروفها مجالاً رحباً لإبداعه، لكن ليس بالضرورة أن تكون السيرة وثيقة تاريخية مقيدة بالحقائق،ومحض كتابة مرجعية تروم الصدق والحقيقة التاريخية حتى وإن كان الأديب ،لا يختلق الأحداث التي تشكل مثيراً لإبداعه، لكن تفاعله معها بحرارة وصدق، يكسب الحقائق دلالات جديدة،وتصبح مادة للتجربة الأدبية ومحل احتفاء من المتلقين فلا نشترط في هذا الفن الحقيقة بقدر مانشترط الصدق الفني ،الذي ينعكس على الأثر العاطفي والوجداني الذي لابد معه من إطلاق الحرية للأديب دون قيود تاريخية صارمة،خاصة أن معظم نقاد السيرة خلصوا إلى أن"الصدق المطلوب غير مؤكد في كتابة السيرة الذاتية ، ذلك لما تتعرض له السيرة الذاتية من إمكان الخطأ،والتصحيف المعتمد كالنسيان،أو التناسي، والحذف والإضافة والتعديل والتكييف وإكراهات الوعي القائم على زمن الكتابة،والاسترجاع اللاحق للأحداث"[2] والاستعانة بالخيال ،الذي لايخلو منه أي فن أدبي

وهذا لايتناقض مع الصدق التاريخي الواقعي للأحداث والقضايا؛لأن الأديب غالباً لايغير ملامح عصره ولايختلق الأحداث،فهو يتحرى الصدق ما أمكنه[3] ذلك من تجربته ،غير أنه ينظر نظرة شمولية تعكس روح العصر، ينتقي من الأحداث والتجارب ما يوافقه وأحياناً، قد يتوخى الحذر مما قد يوقعه في الحرج،أو مايخرجه عن المألوف،فنجده قد يتعمد الصمت عن بعض الأمور

---

[1] عبد الغني،محمود:فن الذات-دراسة في السيرة الذاتية لابن خلدون -ط١،عمان:دار أزمنة،٢٠٠٦م،ص٤.

[2] الصكر،حاتم:السيرة الذاتية النسوية-البوح والترميز،مجلة فصول،عدد٦٣، ٢٠٠٤م ،ص٢١١.

[3] انظر:المصدر السابق،ص٢٢٤.

التي يرى من الأفضل إسدال الستار عليها؛ لهذا فإن فن السيرة السيرة الذاتية يتأرجح بين أدبية الفن وموضوعية التاريخ، لكنه أكثر نبضاً من التاريخ بالحياة،والتجارب الفردية الذاتية التي تقتفي أثر الحياة في ذات الإنسان؛لإثارة الدهشة في نفوس المتلقين،وإثبات القدرات الإبداعية والمعالجة الفنية للقضايا والمثيرات والمرجعيات؛فكاتب السيرة ليس مؤرخاً ،لكنه بالضرورة أديب، بينماالمؤرخ ليس بالضرورة أديباً؛فكل منهما له ميدانه ومهمته؛فإن كان الجمهور المتلقي يواجه المؤرخ بحقيقة صدقت،أو كذبت تجاه الأحداث؛فإنه يواجه كاتب السيرة بقوله:أبدعت،أو فشلت؛لأن التاريخ مناطه الحقيقة والسيرة محورها الإبداع،"لذلك السيرة مزيج يشترك في تكويته عاملان متعارضان هما الحقيقة والخيال"[1]،والغاية من هذا الفن أدبية.

فلاتتوق لإثبات الحقائق والوقائع التاريخية وصيرورتها،أو الصدق والكذب،أو التزام الوضوح والتصريح، لكن بمقدار قدرة الأديب وإجادته وإبداعه في الصياغة،واستحضار المقاييس الفنية وترتيب الأحداث والأفكار التي انعكس أثرها عليه،بعد أن ينحي جانباً كبيراً من التفصيلات والدقائق المصاحبة،فيحقق المتعة في قالب إبداعي خاص،وبمدى تفاعل المتلقين مع تجربته و إدراك أثرها وغايتها.

فهذا الفن يغلب عليه بصفته خطاباً إبداعياً قبوله للتعددية،وتداخل الأجناس الشعرية و النثرية،ولايمنع هذا في الوقت نفسه أن تكون السيرة ذاتية،أو غيرية،أو شعرية ،أوتاريخية وواقعية وتخييلية والمتلقي، هو من يفرق بين(مادة)السيرة،وأسلوبها في الكتابة.

---

[1] شاكر،تهاني:السيرة الذاتية في الأدب العربي،ص٢٤.

ثالثاً\علاقة الشعر بفن السيرة

إذا كان البحث عن الذات ،ولَّد لدى الأديب-في العصر الحديث-فنوناً جديدة ،يراهاالأديب أنها أكثر فاعلية وقرباً،فإن الشعر كان هو الوسيلة والفن الأكثر فاعلية وقرباً إلى نفسه في التعبير عن تجاربه والمناسب للتجربة القديمة .

وظل الشعر هو فن الذات الأول عند العرب،بل أشدها لصوقاً بذات الشاعر؛لأنه وافق الذائقة العربية،فلم يعدل مكانته عندهم أي فن آخر ولايزال كذلك.

فهوالأعلى منزلة والأشرف مكانة عند عدد من النقادالقدامى الذين اهتموا بدلالة الشعر على سيرة الشاعر والبيئة التي نظم فيها،كابن قتيبه (ت٢٧٦هـ) الذي يقول عن مكانة الشعر ووظيفته:"كان لعلومها مستودعاً ولآدابها محافظاً ولأنسابها مقيداً ولأخبارها ديواناً، لايرثّ على الدهر،ولايبيد على مر الزمان"[١].وهذا يعني أنه حقق حضوراً منفرداً وفاعلاً على المستوى الذاتي والجمعي منذ العصرالجاهلي،حتى بلغ من تأثيره أن قال الحصري:"بنى الشعر بيوتاً شريفة وهدم لآخرين أبنية منيفة"[٢] فحضوره لم يأت من فراغ،بل كان يحمل عوامل القوة لوجوده وبقائه.

وظل العرب يقدمون الشعر حتى بعد أن ظهرت بوادر كتابة السيرة نثراً في العصر العباسي وأتيحت وسائل الكتابة والتدوين،فلم ترق كتابة السيرة نثراً إلى مستوى الشعر واحتفائه بالذات العربية وقدرته على تجسيد ملامح من سيرة الشاعر المبثوثة في ثنايا شعره بوعي منه ،أو بلاوعي.

وفي الغالب كان الشاعر على وعي بما يقول؛ لأسباب تتعلق بالشاعر نفسه ومحيطه ذكرها الدكتور عبدالعزيز شرف أحد أبرز نقاد السيرة، بقوله: "إن إدراك الشاعر العربي لمقوماته الشخصية في شعره، جعله يرى في كتابة سيرته الذاتية أمراً قام به بالفعل ،حيث يتيح له أداء وظيفة السيرة الذاتية من وراء حجب الأوضاع وأعباء العرف والاصطلاح، بل إن الشعر يظهرنا

---

[١] ابن قتيبه(ت٢٧٦هـ):تأويل مشكل القرآن-د.ط،تحقيق:سيد صفر،بيروت:المكتبة العلمية،١٩٨١،ص١٨.

[٢] الحصري،أبو إسحاق:زهر الآداب وثمر الألباب-د.ط،تحقيق:علي البجاوي،القاهرة:د.ن،١٩٥٣م،ج٢،ص٦٤.

على صورة له نعرفه بها من سيرته وأخباره،وتأسيساً على هذا الفهم نستطيع القول :إن الشعر العربي قد تضمن في أعطافه بذور السيرة الذاتية قبل أن تستقل فناً من الفنون"[1].

كان الشعر يؤدي الوظيفية التي تؤديها السيرة الذاتية،فهو الوسيلة المتاحة للتنفيس عن الذات والإشادة بها وبتفردها وتمييزها،وسجلاً لتدوين الأحداث والأخباروالوقائع ،فقد كان الشاعر يسعى لربط تجربته بالتجربة العامة،التي تمنحها القدرة على الدخول إلى الواقع الإنساني المرتبط بأبعاد نفسية وفكرية وسياسية وثقافية وتاريخية واجتماعية.

كانت ثقة الشاعر قوية في وصول شعره إلى جوانب وأبعاد ،لايستهان بها من جوانب ذاته كذلك في تفاعلها مع الآخرين؛لأن الشعر هو الفن الأقدر على الاستجابة لمتطلبات الـــذوق العام والخاص للمتلقي من جهة ودرجة تطابقه للواقع واستمداده من خيال الشاعر لـــتشكيل صورة فنية بارعة من جهة أخرى.

ومع أن فن السيرة مقصود لذاته،فإنه يلتقي مع الشعر في كثير من البواعث والمقومات والخصائص،التي أهلته للاقتراب من ذات الشاعر وسيرته.

فإذا كان الأديب يكتب سيرته مرة واحدة،فكذلك الشاعر ينظم قصيدته لمرة واحدة بأثر تجربة انفعل بها،أو الرغبة في مشاركة الآخرين له في تجربته،أو نقلها إليهم والتواصل معهم كذلك لتبرير المواقف،واستعادة الذكريات،وإطلاق العنان للذات"فالباعث يشترك في السيرة الذاتية مع الشعر حين يلتقيان في التعبيرعن إنسان له ذوق،وفكر،وفهم،وعادة،لايشبه الآخرين ولايشبهه الآخرون "[2] . ويتضمن من المقومات الفنية مايصله بالشعر ؛كوضوح العبارة وتنوع الأساليب كما أن حدود الشعر مفتوحة على السرد مثل النثر الذي يعد من أهم المقومات السيرية،يـــدل على ذلك قصائد كثيرة من أشهرها : قصيدة الأعشى في وفاء السموأل التي قال عنهاابن طباطبا:" يستغني عن استماع القصة منها لاشتمالها على الخبر كله بـــأوجز كلام وأبلغ حكاية

---

[1] شرف،عبدالعزيز:أدب السيرة الذاتية –ط١،القاهرة:الشركة المصرية العالمية للنشر،١٩٩٢م،ص٥٠.

[2] المصدر السابق ، ص ٢٥.

وأحسن تأليف وألطف إيماء"[1] .فالسرد هو أحد مقومات الشعر أيضا،ولكنه يتأطر بأطر الشعر الخاصة.

يشترك الشعر وفن السيرة في–خاصية الذاتية– يهمسان بالأنا والذات ،تحركهما المعاناة الذاتية التي هي أعلى خصائص الإبداعية،وإذا كان التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية المفترض وجودها في النص السير ذاتي، فيمكن وجودها–أيضاً–في النص الشعري،وهي أنا الشاعر التي ترتب الخطاب الشعري وتظهر فيه.

كما أن الشعر يستجيب دوماًلمحيطه،معبرا عن مجمل القيم في هذا المحيط،ويرتبط– أيضاً بالتاريخ والواقع ، فقد يجد الشاعر في حادثة،أوظاهرة تاريخية بعينها مايلهمه ويوقظ قريحته وقد ينفعل بقضايا عصره ووقائع بيئته بأبعادها المختلفة،فيعبر من خلالها عن ذاته.

وقد كان الشعر العربي القديم صدى لكثير من الأحداث التاريخية والاجتماعية التي عاصرها الشاعر، أو عايشها وأتى الشعر متضمناً لمواقف جزئية من الواقع بسياقته المتعددة وترك العرب قصائد تحمل وقائع تاريخية، عاطفية،وسياسية في شعركثير من الشعراءفي عصوره المختلفة ، قد تكون هذه القصائد هي المصدر الوحيد لها،لذلك يؤخذ بعين الاعتبار أنها تحمل ملامح، تعين على تصوير الواقع من زواية معينة.

يزداد الأمر وضوحاً في تلك القصائد العاكسة للواقع الاجتماعي ، متفاعلاً مع الحركة الأدبية التي سجلت كثيراً من جوانب الحياة،فالمعلقات في العصر الجاهلي ،حملت كثيراً من ملامح العصر وحياة الشاعر،ففي صدر الإسلام أصبح الشعر وسيلة؛لتسجيل سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسبيلاً لنشر الدعوة وقد روي عن ابن عباس أنه قال:"الشعر علم العرب،وديوانها فتعلموه"[2]. وصورت النقائض في العهد الأموي جوانب من الحياة الأموية واستطاع الشعر العباسي أن يخالط الواقع ويتفاعل مع الأحداث، يؤرخ لها،فاشتبكت القصائد بالأحداث،يقول

---

[1] الصكر،حاتم:مرايا نرسيس–ط١،ص٦٧.

[2] القرطبي،ابن عبدالبر:بهجة المجالس وأُنس المجالس وشحذالذهن والهاجس–د.ط،تحقيق:محمد مرسي الخولي،القاهرة:الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة ،١٩٦٢م،ج١،ص٢٧.

ماريوس كنار عن شعر البحتري وأبي تمام:"إنه شعر يوضع أمام المؤرخ كمادة موثقة يُطمئن إلى سلامتها ومصداقيتها"[١]

كما اعتمد المدونون عليه،فكان مصدراً من مصادر ترجمة العلماء والشعراء كما في كتاب الأغاني للأصفهاني وغيره وكان جزءً لايتجزأ من المادة التاريخية ؛للتدليل والاستشهاد على صحة الأحداث.

يقول الدكتور القيسي عن قيمة الشعر الوثائقية:"دلت الأحداث على أن الشعر كان وثيقة من الوثائق المعتمدة في التدليل على سلامة الأحداث،،لم تكن عادة الاستشهاد حالة طارئة انفردت بها كتب معينة،أو عُرف بها مؤلف،أواقتصرت على فن أدبي وحده،وإنما كانت على اختلاف موضوعاتها وفنونها تضم شعراً كثيراً،ويستشهد بأبيات عصور مختلفة"[٢] فإذا كان الواقع حاضراً في فن السيرة الذاتية،فإنه من أبرز التحديات التي واجهت الشاعر القديم الذي كان يطمح للتعبير عن أشكال ارتباطه به وتفاعله مع أشكاله المختلفة، التي لابد أن تنعكس على شعره.

ولأن للشعر بعداً واقعياً،فقد أُثيرت قضية الصدق فيه والتزم كثير من النقاد قديماً و حديثاً بأهمية الصدق من منطلق:"أصدق الشعر أعذبه،مقابل أكذب الشعر أعذبه" فمن النقاد من رأى أهمية صدق التجربة وواقعيتها وممارسة المعاناة الحقيقة أصل في التجربة الشعرية ؛لأنها تعزز الإندماج في الحدث وتؤصل المشاعر والعواطف للذات،مثل رثاء الأبناء "فقد قيل لأعرابي مابال مراثيكم أجود أشعاركم ؟ قال:لأننا نقولها،وأكبادنا تحترق"[٣].فهي نتيجة معاناة حقيقية للشاعر.

وحازم القرطاجني يقول:"لما كان المقصود بالشعر إنهاض النفوس إلى فعل شيء،أو طلبه أو اعتقاده،أو التخلي عن طلبه بما يخيل لها من حسن،أو قبح،أو جلالة،أو حسن وجب أن تكون

---

[١] التطاوي،عبدالله:تقاطعات الحركة الشعرية بين الموروث الفردي–مدخل إلى فن المعارضات–ط١،القاهرة:الدار المصرية اللبنانية،٢٠٠٧م،ص٧٩.

[٢] القيسي،نوري حمودي:الشعر والتاريخ–د.ط بغداد:جامعة بغداد،١٩٨٠م،ص١٧.

[٣] الجاحظ،أبو عثمان عمرو بن بحر:البيان والتبيين–ط٤،تحقيق:عبدالسلام هارون،بيروت:دار الفكر،ج٢،ص٣٢٠.

موضوعات الشعر للأشياء التي لها انتساب إلى مايفعله الإنسان ويطلبه ويعتقده"[١]..

ويقول المنفلوطي:"أشعر الشعراء عندي أوصفهم لحالات نفسه،وأقدرهم على تمثيل ذلك و تصويره للناس تصويراً صحيحاً،لذلك كان أغزل الغزل عندي غزل العاشقين،وأفضل الرثاء رثاء الثاكلين وأشرف المدح مدح الشاكرين،وأبرع الوصف وصف الرائين،والمشاهدين"[٢].بينما ربط طه حسين معيار الصدق في الشعر بأمرين أحدهما:مجارة روح العصر وقضاياه دون تكلف. والثاني: الحرية المطلقة التي تكفل للشاعر صدق التجربة دون قيود، لذلك يقول عن أبي نواس: "كان يؤثر الصدق وينكر الكذب في شعره"[٣].

ويقول عن الوليد بن يزيد الأموي:"كان شعر الوليد كما قلنا صادقاً يمثل نفسه تمثيلاً صحيحا [٤]، فهو يفضل تطابق الشاعر مع أحوال حياته ومكنوناتها في شعره،وأن يصدر هذا الشعر عن مرجعيات الشاعر الذاتية الحقيقة؛لأن ذلك يكفل القرب من ذاته ووضوحها في إبداعه.

بينما يرى نقاد آخرون أن هذا الالتزام بالحقائق قد يفقد التجربة زخمها العاطفي والفني والذاتية المبالغ فيها، قد تقلل من الملاحظة الدقيقة الخلاقة وقد تؤدي إلى تزييف الحقائق ومخالفة الواقع بحجة أن الواقع ،يقرأ في ظل الإبداع الشعري ولانقرأ الشعر في ظل الواقع ؛بدليل أننا نجد أن هناك تجارب ناجحة في أغراض شعرية مختلفة، لم يمارسها الشعراء وحملت عواطفهم ملامح فكرهم ووضحت قدراتهم العقلية على صوغ الأفكار وترتيبها؛لهذا وجدوا أن الصدق الفني كان معياراً آخر لنجاح التجربة الشعرية ،تقوم عليه كما يقوم عليه فن السيرة وغيره من فنون الأدب.

فالصدق المطلوب في الشعر لايعني مطابقة الواقع،وإنما الذي يقترن بالتجربة،ويرتبط بها

---

[١] القرطاجني،حازم:منهاج البلغاء،ص١٠٦.

[٢] المنفلوطي:النظرات-دراسة وتحليل جميل جبرا-د.ط،بيروت:دار نوفل،١٩٩٤م-المقدمة ص٤٩.

[٣] حسين،طه:حديث الأربعاء-د.ط،القاهرة:دار المعارف،د.ت،ج٢،ص١٤٣.

[٤] المصدر السابق،ج٢:ص١٤٤.

ارتباطاً وجدانياً و فكرياً يوحي بمقدار كافٍ من التفاعل معها ويبين عمق مشاعره وحقيقة شعوره تجاهها ،يقول قدامه بن جعفر:"إن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقاً،بل إنما يراد منه أخذ معنى من المعاني كائناً ماكان يجيده في وقته الحاضر،لا أن يطالب بأن لاينسخ ماقاله في وقت آخر"[1]. فالأمر مرهون بطريقة التناول وأسلوب المعالجة الفنيةحتى لو بتصور الشاعر لتجربته بقوة مخيلته ونحس معها بالصدق؛لأن الذهن والحس للشاعر هو مصدر التجربة ودليل على الذات النفسية والفكرية للشاعر.

يقول العقاد: الصدق في الشعر: هو صدق الأحاسيس وقدرة النفاذ إلى جوهر الأشياء بإحساس معين ،يمتلك الشاعر ويدفعه للخلق الفني،فما ينظمه الشاعر ويخلع عليه من إحساسه وخياله وأحلامه،هوشعر وموضوع للشعر لأنه حياة،وموضوع للحياة[2]،وبهذا يعرف الشاعر من شعره.

فممارسة التجربة فعلياً،أي واقعياً من قبل الشاعر ليست ضرورة،وإنما يكفي معايشتها أي ملاحظتها ومعرفة عناصرها،وتمكنها من فكر الشاعر،والانفعال الصادر عنها،ثم الاستعانة بعناصر الإبداع وأدواته المناسبة،فالتمثل الصادق للتجربة لاينفي ذات الشاعر ولايعتق الشعر من انعكاس محيطه ومؤثراته التي ينتمي إليها،بل إنه يتغلغل مع مكوناته إلى الواقع بتشكلاته المباشرة ويعيد صياغة هذا الواقع ومن ثم ،ينفتح على منافذ الواقع الفكرية والاجتماعية ، بذلك يقدم رؤية اجتماعية إزاء الحدث.

وقد أدرك ابن طباطبا(ت٣٢٢هـ) أثر البيئة ،التي تملي على الشاعر صوره في قوله عن العرب بأنهم: "أهل وبر و صحونهم البوادي،وسقوفهم السماء،فليست تغدوا أوصافهم ما رأوه فيه" ،والجرجاني يرى أن للبيئةالطبيعية،والاجتماعيةدورها الفاعل،والمؤثر في الشاعر ولغته

---

[1] ابن طباطبا،محمد بن أحمد العلوي :عيار الشعر–د.ط،تحقيق،طه الحاجري،ومحمد زغلول سلام،القاهرة:المكتبة التجارية الكبرى،١٩٥٦،ص١٠.

[2] العقاد،محمود:مجموعة أعلام الشعر–ط١،بيروت:د.ن،١٩٧٠م،ص٦٤.

وأسلوبه"[1]الذي ينعكس بوضوح في شعره.

هناك من يرى ارتباط الشاعر بها حتى إنها كل شئ في العملية الإبداعية[2]، لكن الشعر بسماته الفنية لا يبقى أسير الواقع،فهو يحول الحقائق الخاصة إلى حقائق عامة، يروي الكلي لوجودالخيال أهم عناصر التشكيل الفني في الشعر، الذي يعمق الحدث،ويخلق كيفيات للوقائع الشعرية،وكان لهذه الخصائص ،التي امتاز بها الشعر دون غيره من فنون الأدب دورها في مقولة أن الشعر لذاته،وأسهمت بشكل واضح في بقاء نصوص الشعر العربي القديم غُفلاً،كماحالت دون دراسة ملامح السيرة الذاتية فيها،بينما الكثير من المناهج النقدية والدراسات الأدبية ،تهتم بهذا الجانب،وتؤكد على أثره في نص الشعر، سواءً بوصفه تعبيراً عن الذات،كما في الرومانسية ونظرية التعبير،أوبوصفه انعكاساً للذات والواقع،كما في الواقعية ونظرية الانعكاس والمنهج التاريخي، التي انطلقت منها آراء معظم النقاد السابقين، الذين يهتمون بالنبض السيري للنصوص ،مثل سانت بيف الذي يدعوإلى"الاهتمام بالأديب صاحب النص،والتعرف على علاقته بأمته،وعصره وثقافته وتكوينه النفسي،و الاجتماعي فمهمةالناقد هي النفاذ إلى ذات الأديب أياً كان فنه،فنستشف ذاته من وراء رغباته بحيث يفهمه قراؤه،ويحكمون على فنه[3] برؤية واضحة، فالشاعر لايعيش في عزلة عن مجتمعه،بل هو عضو فيه ولابد لهذا المحيط بأبعاده المختلفة أن يؤدي دوره في شعره،وقد يكون الشاعر متعاطفاً معه،أو ثائراً ضده ولكن سيظل أثره منطبعاً على شعره،فلا وجود لمتن شعري ليس له علاقة بالواقع،حتى النصوص التي تبدو وكأنها لا تلوك إلا تورمات صاحبها الذاتية ماكان لها أن توجد لولا وجود واقع موضوعي ،هو الذي أتاح لها أن تطفو على السطح ،وإذا كان أي عمل أدبي فيه جزء من ذات الإنسان و حياته ومجتمعه على نحو أو آخر.

ولذلك فلا خلاف حول حقيقة أن الشعر-بوجه عام-يقدم ملامح من السيرة الذاتية القائلة

---

[1] قليقلة،عبده:القاضي الجرجاني الأ ديب والناقد-ط٢،بيروت:منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر،١٩٧٩م،ص١٣٩.

[2] إسماعيل،عز الدين:الأسس الجمالية في النقد العربي-ط٣،القاهرة:دار الفكر العربي،١٩٧٤م،ص٢٧٣.

[3] انظر: القاعود،حلمي محمد:النقد الأدبي الحديث-ط١،الرياض:دار النشر الدولي،٢٠٠٦م،ص٢٢.

بشكل،أو بآخر حيث لايستطيع التحرر منها وإن لم يقصد إليها ومن ثم، فهي أساس من وجهة النظر الواقعية، النفسية، التاريخية والاجتماعية،غير أن الاستعانة بآليات فن السيرة بخصائصه الفنية والموضوعيةالحديثة ،سيوجه الدراسة وفق منهج واضح ،يأخذ بعين الاعتبار طبيعة الموضوعات و أشكال المقومات الفنية ويربط حياة الشاعر بإبداعه والإبداع بالشاعر وبالمكونات والمؤثرات المنعكسة في الشعر بأشكال متفاوتة ومتعددة مع مراعاة طبيعة الشعر الغنائية والانتقائية و لغته ومبناها،التي قد لا نتوقع معها العثور على قصائد صريحة،أو كاملة بعبارات واضحة ومعان مكشوفة عن سيرة الشاعر؛ لذا فإن السير ذاتية في الشعرلهذه الدراسة وسمت بالملامح ووردت الملامح في لسان العرب، بمعنى :"أبصره بنظرخفيف.....وملامح الإنسان:مابدا من محاسن وجهه ومساويه،وقيل :هومايلمح منه"[1] .لذا فهي ذات خصوصية تتكئ على طبيعة الشعر و تأتي متشعبة، مغلفة بالأغراض والموضوعات الشعرية المتعددة في عمومية التعبير ومكوناته وذات خطوط عريضة، قد تتداخل أو تتكرر وتختزل،أو تكثف،أو يرمز إليها بالتلميح والإشارة البعيدة ، وتقتضي دقة في جمع شتات الملامح الموزعة في النصوص الشعرية للشاعر ،التي تأتي مبنية على الخاص والعام والذات والموضوع ولخصوصية اللغة الشعرية التي قد تحيل الحدث إلى رمز الخطاب الشعري ،فإن المنطق السيرذاتي ، سيتجاوز حدود الميثاق السير ذاتي[2] الذي يأتي صريحاً في فن السيرة ليعلن أن النص سيرة ذاتية ويعقد فيها بوضوح ليستدل عليه ضمنياًفي الشعر ،أو في ثنايا النص الشعري أو من خلال الضمير الذي يحيل إلى المتكلم أو الشاعر،لذلك فهذه النصوص في المقام الأول شعر،أي أن مادتها وأسلوبهاوروحها كلها ذات مقومات شعرية ،ولكن توجههاوتجربتها تحكي عن واقع في حياة شاعرها يصلح لأن يندرج في السيرة الذاتية للشاعر.

---

[1] ابن منظور:لسان العرب_ط٦،بيروت:دار صادر،٢٠٠٨م،مادة (لمح).

[2] الميثاق في السيرة الذاتية:يعني إحالة النص على حقائق خارجية تتشابه مع نموذجه الواقعي،انظر:لوجون،فيليب:السيرة الذاتية:الميثاق والتاريخ الأدبي،د.ط،ترجمة:عمر الحلي،الدار البيضاء،المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤م،ص٣٦.

رابعـــاً | لم نبحث عن ملامح السيرة الذاتية في الشعر الأندلسي تحديداً ؟ :

يعزى البحث عن ملامح السيرة الذاتية في الشعر الأندلسي إلى عدة عوامل خارجية أحاطت به،وعوامل خارجية،وداخلية في الشعر.

فالشعر الأندلسي عاش بين متناقضات وتوافقات عديدة،حيث شهدت الأندلس خلال الفترة التي تعالجها الدراسة أوج تألقها الحضاري والاقتصادي وازدهارها علمياً وأدبياً وتعد هذه الفترة المفاصل الأساسية من مسيرة الشعر الأندلسي.

فقد نال الشعر احتفاءً،ورعاية من قبل الخلفاء والأمراء ،الذين افتتنوا به ووفروا له وسائل الانتشار، فأقاموا المجالس الأدبية وأكثروا من النشاطات الشعرية وشجعوا الشعراء،فأغدقوا عليهم العطايا واستوزروا الشعراء حتى أحاط بكل شاعر كوكبة غير قليلة من الشعراء ، حتى قـال أحد الشعراء بعد رحيل المعتمد بن عباد:أصبحنا كالأيتام على موائد اللئام،"وطغى الشعر على ماعداه من أضرب الأدب"[١].

يقول الدكتور ثقفان:"إن القصيدة الأندلسية في هذين القرنين قد شاعت شيوعاً لم تعرفه من قبل إذ أصبحت تقال على كل لسان،وفي أي مكان،فلم تعد شبه أرستقراطية كما هي في القرن الثالث الهجري إنها أصبحت أندلسية تعبر عن الشخصية الأندلسية..."[٢] . فالشعر الأندلسي عاش على مساحة الواقع بأشكاله المختلفة.

وأصبح الشعر يُنظم على معظم الألسنة وفي كل الأماكن، وانعكس ذلك على غـزارتـــه و وضوح معانيه وتعدد موضوعاته ما يوحي بذاتية هذا الشعر في مجمله وقربه من صاحبه،بـــل يمكن القول إنه كان مكوناً من عناصر الواقع يحيا فيه مجالاً للقول مثلما لسائر مكونات الواقع مجالاً للفعل قائمة في الوجود الاجتماعي.

ومع هذا المشهد الأدبي والحضاري الفريد، يـــأتي على الجانب الآخر تـــسارع التـــقلبات

---

[١] بالنثيا،آنخل:تاريخ الفكر الأندلسي-د.ط،ترجمة:حسين مؤنس،القاهر:مكتبة النهضة المصرية،١٩٥٥م،ص٦٦.

[٢] ثقفان،عبدالله:االمقومات الفنية للقصيدة الأندلسية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين،ص٩.

السياسية والتوترات الأمنية وكثرة الفتن والقلاقل وسرعة ،تغير الأوضاع الاجتماعية وانقسام دولة الإسلام في الأندلس إلى دويلات وإمارات وأصبحت الحياة بين مد وجزر واختلاط الإيجابيات بالسلبيات والأمن بالخوف والاستقرار بالتشرد.

وظهر في ظل هذه البيئة أشهر واكبر شعراء الأندلس، الذين أثروا الأدب الأندلسي بإنتاجهم الخصب ،تأثروا بهذه الأوضاع جميعها وكانوا شهداء عليها إما طرفاً فيها،أو شاهد عيانٍ عليها ونظموا الشعر من خلالها،فتأثروا بها وتأثر شعرهم بها"فأصبح الشعر الأندلسي في هذه المدة جزءًا من ذات الأندلسي والإنسان ،لا يستطيع التملص من ذاته ، كما أنه لا يستطيع أن يتخلص من شاعريته وشعوره ،لذا نجده يقول الشعر طواعية ،تدفعه لذلك أسباب متعددة؛لأنه كذلك ،فقديقول الشعر مرتجلاً ، أو عن بديهة،ودون إعداد مسبق"[1] .وهذا يعني أن الشعر ينظم أثناء الحدث والشاعر ،يمتاح مادته من واقعه المحيط به دون تكلف،فلم يعرف أن شعراء الأندلس نقحوا قصائدهم، أو أعادوا تهذيبها،إنما تأتي على البديهة في معظمها وتطغى التجربة الحية الحاضرة على معظم الشعر الأندلسي.

وقد تميز مجموعة من الشعراء بأن مثَّل شعرهم الخصائص الموضوعية والفنية للشعر خلال مدة الدراسة،ومثلوا –غالباً فئات الشعراءالسائدة آنذاك،منهم:الإلبيري،وابن زيدون والمعتمد بن عباد وترى الدراسة استجابة هؤلاء النفر لآليات القراءة السير ذاتية بإجراءاتها الموضوعية والفنية و ذلك لأسباب من أبرزها: اجتماع هؤلاء الشعراء في خصائص وافتراقهم في أُخر،فقد اجتمع لهم أنهم لم يكونوا كلهم متكسبين بشعرهم ولا طالبي نوال،أو عطاء ولم يحتفل شعرهم بالمناسبات و كانت معظم قصائدهم مباشرة لموضوعاتها ،لاتحفل بالمقدمات كثيرا وتمحوروا حول ذواتهم واشتغلوا بها،فارتكزوا على ضمير المتكلم،أو مايشير إلى المتكلم،أو يحيل إليه واستحضروا تجاربهم الذاتية؛لتصوير حياتهم وتجاربهم،أو مراحل من حياتهم،لاسيما أنهم لعبوا أدواراً سياسة واجتماعية وفكرية متميزة وفريدة،فالإلبيري أبرز علماء وفقهاء الأندلس،مثّل تياراً فكرياً في عصره، سارت

[1] المصدر السابق،ص:٣

عليه الأندلس بعد ذلك وابن زيدون من أشهر الوزراء المرموقين، الذين عرفتهم الأندلس،بينما ابن عباد ملك لأقوى دولة ،عرفتها الأندلس في القرن الخامس الهجري .

وتتميزهذه الفئة بخبرات ثقافية وعلمية واسعة وتجارب متنوعة،كما مروا بأحداث عاصفة هزت وجودهم وعـرضتهم للقلق وعــدم الاستقرار ،غيرت مجرى حياتهم من الحرية إلى السجن ومن الملك إلى الأسر ومن الإقبال على الحياة إلى الانـــصراف عنها ،كذا من الإخفاق إلى الطموح ومن العز إلى الذل ومن الأمن إلى الخوف وهذه الخصوصية لحياتهم وأحداثها، ستكون ذات أثر على ثراء التجربة وعمقها وخصوصيتها؛لأن الإبداع ليس منقطع الصلة بالجانب العملي وطبائع الممارسة في حياة المبدع.

لكنهم على الرغم من ذلك ،افترقوا في طبيعة التجربة وطريقة تناولها ذلك عندما ربطوا التجربة الفردية بالتجربة العامة، التي تمنحها القدرة على الدخول في تفصيلات الواقع.

وانعكست آثارها بوضوح في شعرهم حتى أن أصحاب التراجم،والسير الذين تناولوا هؤلاء الشعراء، اعتمـــدوا على شعرهم بوصفه مصدرا مهما من مصادر سير حياتهم في جوانبها المختلفة، و هذه المنهجية التي اتبعها أصحاب التراجم والسير والمـــؤرخون الأندلسيون سمة واضحة و ملاحظة مما يعني اهتمامهم بالشعر،وثقتهم بقدرته على التواصل مع الآخرين وقربه من واقع صاحبه خاصةً ،أنها لم تخرج مفاصل سير هؤلاء الشعراء المهمة عما ورد في شعرهم،فما أغفله الشعر أغفله المترجمون ولم يشيروا إليه،بل إننا نجد في شعرهم ملامح من سيرهم ، لم تكشف عنها المصادر وذلك واضح في دووانيهم الشعرية، التي تعد من أشهر الدووين، التي بقيت شبه كاملة في معظمها وشاهده على هذه الفترة التي فُقد فيها الكثير من الدووين والمصادر الأخرى.

وقد لاحـــظ عدد من النقاد المحدثين أن الشعر الأندلسي، تميز بوضوح ارتباطه بسياقه المرجعي عندما قال أحدهم:"كان الشعر الأندلسي صادق التعبير عن واقع منشئه في معظم جوانبه إن لم يكن كلها،مسجلاً بعمق أحاسيسهم ومشاعرهم متحدثاً في شؤونهم وعلاقاتهم مصوراً بيئتهم بألوانها وظلالها،كمايقول المستشرق بيريس عن الشعرفي هذه الفترة، بأنه كان ديواناً

حافلاً لايمكن إهماله،أو طمسه ووثيقة تاريخية من أصدق الوثائق وأقربه للإنسان آنذاك" [1].

نجدكذلك الشعر الذي نظمه عدد من الشعراءفي رثاء دولة بني عباد ونكبة المعتمد يحمل ملامح واضحة من سيرة هذا الشاعروإشارات إلى أسباب سقوط هذه الدولة تؤكد ماورد في المصادر وتكشف عن أسباب خفية أخرى[2].

حتى عند أولئك الشعراء الذين عُرفوا بأنهم أكلوا الخبز بشعرهم،كابن دراج شاعر القرن الرابع الهجري،يقول عنه الدكتور طاهر مكي:"ابن دراج يفوق غيره إلى درجة أسعفت بعض الدارسين على كتابة بحث بعنوان إسبانيا المسيحية من خلال ديوان ابن دراج"[3].

فالشعر الأندلسي خلال مدة الدراسة تأثر بالأوضاع السائدة،وهذا يمنحه شهادة انـــفتاحه أمام تأويلات عدة؛لأنه ليس تعبيراً وجدانياً يتحرك في فراغ،وإنما هو مثقل بدلالات،و سياقـــات تجعله ممتداً خارج حيزه الذاتي،فلم يكن مجرد أداة جمالية،أو فن لذاته إنما كان يحقق وظيفة الإمتاع والمنفعة معاً،فمع ماتوافر لهولاء الشعراء من إمكانات كثيرة لكتابة سيرهم نثراً ،فـــإنهم اكـــتفوا بالشعر للتعبير عن ذواتهم والتأكيد عليها،ووجدوا فيه مجالاً؛لاحتواء ذواتهم،و تـــــأكيد هويتهم الأندلسية التي كانت تشعر بالقلق،وتموج بالاضطراب،وتنوء بأحداث جسام من الأخطار المحدقة بها إزاء وجودها،واستقرارها،وكيانها الإسلامي،وكان عند الأندلسيين ميزان نقدي يظهر في المثل الأندلسي الذي ذكره المقري،فقال:"ألذ الطعام ماحـــضر لوقته،وأشعر النـاس من أنـت في شعره"[4]،وورثوا عن سابقيهم أن لاشرف أبقى من شرف يبقى بالشعر.

فالشاعر لم ينظم قصيدته إلا لوجود سامع،ومتلقٍ يتفاعل معه ويشاركه تجربته وينقل إليه خبراته، فالشعر يترك أثراً في نفوس المتلقين ،لا يتركه غيره من الفنون فيخلد الذكر ويحفظ المآثر

---

[1] السعيد،محمد مجيد :الشعر في عهد المرابطين والموحدين–ط٢،بيروت:الدار العربية للموسوعات،١٩٨٥م،ص٣٧٠.

[2] انظر:يكن،محمد زهدي:المعتمد بن عبادوشعراء عصره –د.ط ،القاهرة:د.م،د.ت،ص ٦٣.

[3] الغزيوي،علي:أدب السياسة والحرب في الأندلس–د.ط،مكتبة المعارف، الرباط، ١٩٨٧م،ص٢٤٤.

[4] التلمساني،المقري:نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب–د.ط،تحقيق:إحسان عباس،بيروت:دار صادر،١٩٩٩م،ج١،ص٥٣٢.

خاصةً عند أولئك الشعراء الذين كانت لهم مكانة مميزة وأدوا أدواراً مؤثرةً في الحياة ومجالاتها المختلفة وقد عُرف أن من يتحدثون عن ذواتهم ويكتبون سيرهم ،هم ممن لعبوا أدوراً مميزة في الحياة[1] وكانت اعتبارتهم القوية لذواتهم ،تحدوهم للحديث عنها في إبداعهم الأدبي؛ليكون بمثابة تمثلٍ لهذا الإنسان وسيرته.

وبداهة،فحينما لايقصد الشاعر من شعره إلا التعبير عن ذاته ومايكتنهها من خواطر وأفكار عاشها وتعايش معها تعايشاً حقيقياً؛ لإحساس معين يتملكه،فإن ذلك يدفعه للخلق الفني كالعناية بتمجيد هذه الذات ،التي انتصرت،أو حققت نجاحاً،أو قاومت المحنة حتى استطاعت التغلب عليها، فهو يعمد إلى أن يضع تجربته في موضعها المناسب من وجهة نظره ومن نسيج حياته ومجتمعه؛لأن الشعر مهما يكن،فإنه يبقى مرتبطاً"ببيئته،أوثق ارتباط حيث يتأثر بصراعها السياسي ووضعها الاجتماعي وتياراتها الفكرية ونشاطهاالحضاري والاقتصادي ومذهبها العقدي والجمالي وكل مظاهر السلوك الصريح والضمني[2]" .إن الشعر في كل أمة خاضع لتطورات حياتها وتغيراتها وقد رجح نقادالسيرة:"بأن الذي يكتب عن نفسه صانعاً من ذاته موضوعاً لنصه يكون قد أتى عملاً سيرذاتياً،وعلينا أن نصدق المعني بالأمر نفسه بدلاً من أن نصدق نا قداً موجوداً،أو سيوجد"[3]

وبناءً على ماتقدم، فإن قراءة الشعر الأندلسي قراءةسير ذاتية ،سيكون من منظورين متلازمين هما:عدّ النصوص الشعرية ،تحمل ملامح سير ذاتية لأصحابها ونصوصاً ذاتية بطبيعتها الشعرية من ناحية أخرى؛استناداً إلى دور العناصر المكونة والمؤثرات للنصوص الشعرية في علاقاتها بالدائرة الإبداعية للشاعر،وشعره وهذا يعطي تنوعاً لمستويات الذات وقوة ظهورها ؛تبعاً لمقدار فاعلية المكونات والمؤثرات الخارجية وانعكاساتها على الذات الداخلية للشاعر ومن ثم على تجربته

---

[1] التميمي،أمل:السيرة الذاتية النسائية في الأدب المعاصر–ط١،الدار البيضاء:المركز الثقافي العربي،٢٠٠٥م،ص١٣٣.

[2] سويف،مصطفى:الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصةً–ط١،القاهرة:دار المعارف ١٩٨١م،ص٣٠٩

[3] طريطر،جليلة:مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي(بحث في المرجعيات)،ط٢،تونس:مركز النشر الجامعي ،٢٠٠م ص١٣٣.

الشعرية ،التي لاتتميز عن تجارب غيره إلا في كونها أقوى منها وأوضح في الوعي وأشد تركيزاً وهذا يفسح المجال؛ لإدراج التجربة الشعرية العامة للشاعر في شعره تحت موضوع من موضوعات فن السيرة المفتوحة على كثير من الاحتمالات.

ولهذا فلا مانع يحول دون مقاربة الشعر الأندلسي بوصفه سيرة ذاتية ، تهدف لتحقيق إعادةالنظر في هذا الموروث الشعري الأندلسي بما يشحنه بالقوة وينشط البؤر الدلالية الكامنة فيه،سعياً وراء كشف قيمته الفنية التي تعمق هوية الأندلسي ،تؤطره بخصوصيته وتقدم تفسيرا ورؤية جديدة لهذا الشعر، تعتقه من الحيف النقدي الذي حكم عليه بأنه شعر تقليدي محض للشعر المشرقي،و فقير من الناحيةالذهنية دون اعتبارلسياقاته الدلالية والتاريخية و الاجتماعية والمعرفية.

ولأن الدراسة لها جانب موضوعي وآخر فني ،فإن الوقوف على أهم ملامح موضوعات السيرة ومعرفة أوضح نماذجها في الشعر الأندلسي ،سيفرد لها الباب الأول،بينما سينهض الباب الثاني بدراسة المقومات الفنيةبعناصرها وسماتها من خلال نصوص الشعراء الثلاثة،والمقارنة بينها.

الباب الأول :
أهم الملامح السيرية لذات الشاعر و مجتمعه .

تمهيـــــد:

ترتكز الدراسة الموضوعية لأهم الملامح السير ذاتية للشاعر ومجتمعه،في هذا الباب على ثلاثة فصول مقسمة بحسب أهم ملمح سير ذاتي ، انعكس في شعر كل شـاعر على حدة،بوصفه أهم المكونات والمؤثرات الأساسية لمحاور سيرتـه حيث، يختص كل فصل بتتبع أثر انعكاس هذه المكونات،ودورها في تشكيل سيرته مع ربطه بالمكون الأساسي الذي قامت عليه ملامح من سيرة الشاعر الذاتية،ومن ثَم تتمايز الموضوعات السير ذاتية بين الشعراء الثلاثة،الذين يمثلون بشعرهم نماذج لأهم ملامح موضوعات السيرة الذاتية في الشعر الأندلسي–مدة الدراسة،ولهذا فلا بد لكل شاعر من مهاد تاريخي و معرفي لسيرته كما وردت في المصادر،وكتب التراجم والسير،ومقدمات الدواوين؛لأن المعرفة المسبقة لصاحب السيرة شرط ضروري لتحديد مكونات سيرته وتتبعها في شعره،ومن ثم معرفة وضوح مدى استيعاب الشعر للملامح السيرذاتية للشاعر ومجتمعه،ومقداروضوحهافي شعره.

الفصل الأول :

ملامح من السيرة السياسية في الشعر الأندلسي -المعتمد بن عباد-نموذجاً-.

المبحث الأول:المكونات والمؤثرات:

يمثل ا لمعتمد بن عباد نموذجاً فريداً في التاريخ السياسي الأندلسي،يقول المستشرق دوزي:"إن من الغريب أن نجد اسم أو ذكر المعتمد في جميع النصوص تقريباً التي تشير إلى أحداث تأريخية حدثت في فترة ملوك الطوائف"[1]إذاً فنحن بإزاء شخصية رجل مثَّل بل صنع سياسية عصره ووجَّه صراعاتها،وتقلباتها وما كان المعتمد ليكتسب هذا التفرد لسيرته السياسية لو لم يجتمع لها من المكونات،والمؤثرات التأسيسية ما أهلَّه لهذا التميز،وكان من أبرزها:

أولاً\ مكون التنشئة :يقوم هذا المكون على محورين هما:نسبه،وأثر شخصية والده .

أ\ نسبه : لم تقف المصادر التاريخية،وكتب التراجم على نشأة المعتمد إلا عند التعريف به وبنسبه فهو:أبو القاسم محمد بن المعتضد بالله عمرو عباد بن أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن عبّاد ولُقب بالظاهر وغلب عليه لقب المؤيد بالله[2]،ومدحه الشعراء بهذا اللقب كما في قول شاعره ابن عمّار[3] :

ألا إنَّ بَطْـشاً للمؤُيدِّ يُرتجـــى ولكن حُلماً للمؤيـدِ أرْجَـــحُ

ولـم يحمل اسم المعتمد إلا بعد أن صار ملكاً،وصار علماً في تاريخ الأندلس،وأحداثه السياسية،ولم تسعفنا المصادر التاريخية،والتراجم بشيء عن طفولته،وصباه المبكر،وتعلمه سوى أنه ولد في مدينة باجة[4]،غربي الأندلس عام(٤٣١هـ)لأم نجهلها،ولم يقدم التاريخ مادة كافية نستعين بها للتعريف بالمعتمد،إلا أنه لخمي النسب،يعودنسب أسرته إلى قبيلة لخم التي ينحدر منها ملوك

---

[1] خالص،صلاح:المعتمد بن عباد الإشبيلي–ملك إشبيلية–د.ط،مصر:مكتبة مصر،د..،ص٥٦.

[2] للوقوف على ترجمة وافية له،انظر: الشنتريني،ابن بسام:الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة–د.ط،تحقيق:إحسان عباس،بيروت دار الثقافة،١٩٧٥م،ق٢،ج١،ص٤١–٢٣.

–ابن خاقان،الفتح:قلائد العقيان و محاسن الأعيان–ط١،تحقيق:حسين خربوش،الأردن:مكتبة المنار،١٩٨٩م،ج٣،ص٥١.

–التلمساني–المقري:نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب،ج٤،ص٢١٣.

[3] خالص،صلاح:ديوان محمد بن عمار الأندلسي–د.ط،بغداد:مطبعة المهدي،ص٣٢١.

[4] باجة:مدينة تقع جنوب شرق لشبونة،من أقدم مدن الأندلس بنياناً،وأولها اختطاطاً،سقطت عام(٦٥٥هـ).

المناذرة ملوك الحيرة،يقول ابن بسام،في حديثه عن آل عباد:"هذه بقية منتهاها إلى لخم ومرتماها إلى مفخر ضخم،وجدهم المنذر بن ماء السماء،ومطلعهم من جو تلك السماء" [1]

وكان بنو عباد يحبون الإشارة إلى هذا النسب،وتأكيده،والمفاخرة به؛ليثبتوا لأهل الأندلس انحدارهم من سلالة ملوك،ويروق لهم سماع هذه النغمة كثيراً،من قبل الشعراء المادحين تأكيداً لحقيقته فتكرر ذلك عند أكثر شعرائهم،في مثل قول شاعر المعتمد ابن اللبانة[2] :

من بني المنذرين وهو انتساب زاد في فخره بنو عباد

فتية لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الأولاد

ويقول:

نفرٌ إلى ماء السماء نما همُ نسب على أوج النجوم مخيم

واشتهرت دولة بني عباد بقوّتهاومجدها،وقد ارتبطت شهرتها بمدينة إشبيلية[3]،وتعد من أقوى دول الطوائف[4]،التي قامت في الأندلس،وكانت"من أبهج الدول في الكرم والأدب وأشبه شيء بالدولة العباسية في بغداد"[5]،ودام حكمها سبعين سنة،وكان المعتمد آخر حكامها ،وبه اشتهرت،وعُرفت،وخُلد ذكرها.

ب| أثر شخصية والده: استأثر والد المعتمد باهتمام المترجمين و المؤرخين؛لما امتاز به من صفات،وخصال فريدة،فبعد أن توفي جد المعتمد القاضي أبوالقاسم محمد بن إسماعيل بن

---

[1] ابن خاقان،الفتح:مطمح الأنفس ومسرح التأنس–ط١،بورسعيد:مكتبة الثقافة الدينية،٢٠٠١م،ص٧٠.

[2] ابن الأبار:الحلة السيراء–ط١،تحقيق:حسين مؤنس،القاهرة:الشركة العربية للطباعة والنشر،١٩٦٣م،ج٢،ص٣٥.

[3] إشبيلية:هي قاعدةالجانب الغربي من الجزيرةيشقها نهر الوادي الكبير،ومن أجمل مدن الأندلس،وسميت بحمص،واشتهرت بمملكة آل عباد،انظر:ابن بسام:الذخيرة،ق٢،ج١،ص١١،الحموي،ياقوت:معجم البلدان، بيروت:دار إحياء التراث العربي ١٩٧٩م ج١،ص١٩٥.

[4] دول الطوائف:هي إمارات صغيرة يحكمها أمراء(ولاة)وكان عددها ثماني عشرة دولة،أشهرها مملكة آل عباد في إشبيلية،وآل جهور في قرطبة،وبنو زيري في غرناطةوتفرقت عليها الأندلس بعد انهيار دولة بني أمية،ونتيجة للفتن التي قامت في الأندلس.انظر:المقري:نفح الطيب،ج١،ص٤٣٨

[5] المقري:نفح الطيب،ج٤،ص٢٥٥

عباد عام (٤٣٣هـ)،مؤسس دولة بني عباد في إشبيلية عام(٤١٤هـ)؛خلفه ابنه المعتضد أبو عمرو عباد والد المعتمد،فأرسى دعائم دولته،وثبت أركانها،ووسّع حدودها بما خاضه من حروب،وحملات داخلية وخارجية [١]،و صار أشهر شخصية سياسية عرفها القرن الخامس الهجري.

ويجمع المؤرخون بأنه شخصية قامت على عُمد من الصلابة،والقوة،سواء في إدارة مملكته أو في تعاملاته،يقول ابن بسام:"المعتضد بالله عباد بن ذي الوزارتين أبي القاسم محمد بن عباد أفضى إليه الأمر بعد أبيه،وتسمى بفخر الدول،ثم بالمعتضد قطب رحى الفتنة،ومنتهى غاية المحنة،رجل لم يثبت له قائم،ولاحصيد،جبارأبرم الأمور،وهو متناقض وأسد افترس الطلي وهو رابض،متهور تتحاماه الدهاة،وجبار لا تأمنه الكماة"[٢].وتظهر أخبارالمعتضد الكثير من المواقف،والأحداث الفريدة،وقد ترجم له أحد معاصريه وهو ابن حيان،بقوله:"فلقد حمل عليه على مر الأيام،في باب فرط القسوة وتجاوز الحدود والأخذ بالمظنة،والإخفار في الذمة حكايات شنيعة،ومهما برئ من مغبتها،فلم يبرأ من فظاعة السطوة،وشدة القسوة،وسوء الاتهام على الطاعة،سجاياه من جبّلة لم يحاش فيها ذوي رحم واشجة"[٣]،"فلا يتورع عن قتل من أراد،ومن لم يرض عنه حتى إنه قتل ابنه إسماعيل،وعمه الهوزني عندما حضه في قصيدة على الجهاد[٤]،وإيقاف زحف النصارى على بلادالمسلمين في الأندلس،وسيرته تكشف أنه كان يعتمد على القوة،وسفك الدماء خاصة أنه"اشتهر بحديقة الرؤوس التي وضع فيها أُصصاً برؤوس أعدائه بعد قتلهم،وكان شبيهاً بأبي جعفر المنصور العباسي"[٥]في بطشه،وقد استطاع في عشرين عاماً أن يبسط سلطانه على معظم بلاد الأندلس بعد

---

[١] انظر: عنان،محمد عبدالله:دول الطوائف منذ قيامها حتى فتح المرابطين-ط٢،القاهرة:مكتبة الخانجي،١٩٦٩م،ص٤١.

[٢] ابن بسام:الذخيرة،ق٢،ج١،ص٢٤.

[٣] المصدر السابق،ق٢،ج١،ص٢٥.

[٤] انظر: المصدر السابق،ق٢،ج١،ص٨٣.

[٥] بلقين،عبدالله:مذكرات الامير عبدالله-المسماة كتاب التبيان-د.ط،تحقيق:ليفي بروفسنال،القاهرة:دار المعارف ١٩٥٥م،ص٧٥ .

حروب كثيرة مع أمراء الطوائف،وعمل جاهداً للقضاء على أجزاء كثيرة من الإمارات البربرية التي كانت تنافسه في المكانة.وبسبب الحروب مع هذه الإمارات،فرّ ابنه إسماعيل من مقاتلة أعدائه من البربر،وترك الجيش الذي ولاّه والده عليه فقبض عليه المعتضدوقتله[١]،ولم يعد يغشى مكانة إشبيلية وضخامتها في القوة والغنى والقصور الباذخة و الرباع العظيمة المغلة والمظاهر المملوكية الفخمة إلا مملكة قشتالة[٢]،وبعض الإمارات البربرية في جنوبي الأندلس التي كان يرى عدم أحقيتها بحكم الأندلس[٣]وكانت هذه المنافسةقد أذكت اهتمام المعتضد بالأدب والشعر العربي،فعلاوة على أنه كان شاعراً "ينفث الشعر في أمر أي يعن له"[٤] .فقد أضحت إشبيلية في عهده دولة الشعر والأدب بما بذله من كرم وعطاء وسخاء على الأدباء والعلماء،وبما أسبغه من عناية بالعربية وعلومها.

---

[١] انظر:ابن عذارى:البيان المقرب في أخبارأهل الأندلس والمغرب،تحقيق :س.كولان وليفي بروفنسال،بيروت :دار الثقافة،١٩٥٢،ج٢،ص٢٤٤.

[٢] مملكة قشتالة:هي إحدى ممالك القرون الوسطى النصرانية من شبة الجزيرة الأيبرية،برزت ككيان مستقل منذ عهد ملوك الطوائف،وهي إحدى أجزاء مملكة ليون،رسمت خطة استرداد الأندلس من المسلمين منذ قيامها.انظر:عنان،محمدعبدالله:دول الطوائف منذقيامها حتى فتح المرابطين،ص ٣٠١.

[٣] انظر:عنان،عبدالله:دول الطوائف،ص٥٠.

[٤] انظر:ابن بسام:الذخيرة،ق٢،ج١،ص٢٩.

ثانياً\المكون العسكري :

اضطلع المعتمد بالمهامات العسكرية والحربية،منذ سنٍ مبكرة،فقد عهد إليه والده بمهامات عدة،وهي:

١-ولاية شلب :

كانت ولايته لشلب[١] هي أول منصب سياسي تقلده المعتمد،وهو لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره بعد استيلاء والده عليها عام(٤٤٥هـ)،وبعث معه والده وزيره ابن عمّار[٢] لمعاونته في إدارتها،وفي شلب كانت معرفة المعتمد بابن عمّار،حيث توطدت العلاقة بينهما وفي هذا المعنى يقول ابن بسام: "وأول تعلقه بالمعتمدحين وجهه لحرب شلب أبوه المعتضد فنزع ابن عمّار إليه،وبلغ المنزلة لديه،أن غلب عليه،وبعد انتباذه شلب وفراغه من تلك الحرب،صحبه بحضرة إشبيلية،وحضر معه مجالس أنسه إلى أن أوجس خيفة في نفسه من أبيه المعتضد ففرمن البلد"[٣]،وكانت ولايته لشلب بمثابة القائد الإدراي للجيش هناك،حيث لم يرد له في هذه الفترة أي نشاط عسكري قام به في شلب،أو في غيرها.

٢-ولاية العهد:

دعا المعتضد ابنه المعتمد من مدينة شلب،وقلده منصب ولاية العهد عام(٤٥٠هـ) خلفاً لأخيه إسماعيل الذي قتله والده،وقد كان من المفترض أن هذا المنصب يتطلب من المعتمد القيام بواجبات رسمية وعسكرية لاسيما أن العصر كان يموج بالاضطرابات السياسية والثورات والفتن،والتنافس القائمة بين أمراء الطوائف،حيث كان من الصعب على أي دولة

---

[١] شلب:مدينة بغرب الأندلس،وليس بالأندلس بعد إشبيليةمثلها،يقال ليس من أهلها من لايقول شعراً،ولايعاني الأدب،انظر:الحموي،ياقوت:معجم البلدان، ج٣،ص٣٥٨.

[٢] هو أبو بكر محمد بن عمار المهري الشلبي،ولد في مدينة شنتبوس،قرب شلب من أسرة فقيرة عام(٤٢٢هـ)امتاز بالذكاء،وسرعة البديهة،وحب العلم،التحق بخدمة المعتضد،ومدحه حتى أصبح وزيراً،ثم التحق بالمعتمد حتى أصبح وزيره ونديمه الخاص،كان سياسياً محنكاً،ومفاوضاً ناجحاً،أدى دوراً مهماً في توجيه سياسة المعتمد،وحاول أن يستغلها لصالحه،ولكن دارت عليه الدوائر حتى قتله المعتمد عام(٤٧٧هـ).ابن خاقان:قلائدالعقيان،ص١٠٢.

[٣] ابن بسام:الذخيرة،ق٢،ج٢،ص٤١٣.

أن تعرف الاستقرار،أو الهدوءفي ظل هذه الأوضاع المضطربة،غير أنه لم يرد معلومات عن المعتمدتشير إلى قيامه بأي عمل عسكري،سوى حملة عسكرية واحدة مُنيت بالفشل شكلت تحولاً خطيراً في علاقة المعتمد بأبيه،وتتلخص قصة هذه الحملة أن أهل مالقة[١] استنجدوا بالمعتضد ليخلصهم من حكم البربر الذين لم يرغبوهم ،فاستجاب لهم ووجَّه لهم عام (٤٥٩هـ) جيشاً بقيادة المعتمد،واستطاع أن يدخل مالقة في بداية الأمر بيسر،وسهولة واستصغر شأن الحاميةمن البربر مع تحذيرأهل مالقة له،فانتهز هذه المناسبة واحتفل بنصره وترك لنفسه رغباتهافي اللهو فانقضت عليه الحامية،وهو غافل،فطرُد فلول جيشه خارج مالقة،وهُزم المعتمدهزيمة مريرة[٢]،وورد أن سبب الهزيمة لم يكن كذلك،فبعدأن طوق جيش المعتمد مالقة،وكادت تسقط في يديه،لولا أن اعتصمت حاميتها بقصبتها المنيعة،و دافعت دفاعاً شديداً عنها،حتى هُزم جيش المعتمد[٣] .كانت هذه الهزيمة ضربة مؤلمة للملك أمام البربر بفقد مدينة مفتوحة،وجيشٍ كان في أشد الحاجة إليه،ولم يجد المعتمد بُداً من الفرار بعيداً ،فاتجه إلى رنده[٤]،وقد أشار ابن بسام إلى أن المعتضد كاد يلحق المعتمد بأخيه إسماعيل عندما قال:"وقد أخفر ذممه،ونذر دمه ولولا أنه استجار-المعتمد-زعموا يومئذ برجل من العبّاد كان هناك لتبت يداه،ولحق إسماعيل أخاه"[٥].فعفا عنه ورغم ندرة الأخبار الواردة عن أعماله أثناء ولايته للعهد ،فإنه قد مكث ولياً للعهد بقرب والده في إشبيلية منذ عام (٤٥٠هـ)حتى(٤٦١هـ) ولاشك أن دخوله عالم الحرب والسياسة منذ صغره قد أكسبه

---

[١] مالقة:تقع جنوب الأندلس وكانت تابعة لإمارة بني حمود،وقد قامت بدور تاريخي كبير في البناء السياسي ،والاقتصادي وبلغت ذروة المجد الحضاري في عهد الطوائف،وأخضعت للمرابطين بعد الزلاقة،وكانت من آخر المدن سقوطاً بأيدي النصارى.انظر:عنان،محمد عبدالله:نهاية الأندلس،ص٢٠٢.انظر:معجم البلدان،ج٥،ص٤٣.

[٢] ابن بسام:الذخيرة،ق٢،ج١،ص٤٩.

[٣] المراكشي:البيان المغرب،ج٣،ص٢٧٤.

[٤] رنده:تقع غرب مدينة مالقة كانت من أمنع معاقل المسلمين،وأجملها،وكانت تابعة لمملكة في إشبيلية،سقطت في أيدي النصارى متأخرة عام(٨٩٠هـ) .انظر:الحموي ،معجم البلدان،ج٣،ص٧٣.

[٥] ابن بسام:الذخيرة،ق٢،ج١،ص٥٠

قدراً من الخبرات،والمهارات السياسية.يقول ابن بسام:"كان المعتضد يقرع إليه(أي المعتمد) ،كلما قرعت عصا عصا حتى صار أسوة لنجوم ليلها "[1].

ومما يلفت الانتباه أنه لم يذكر للمعتمد إخوة،بعد مقتل إسماعيل إلا واحداً رافقه في حملة مالقة،ولم يرد ذكره مرة أخرى،فكان المعتمد هو المرشح؛لكونه السياسي الوحيد والأصلح لقيادة دولة آل عباد بعد والده.

٣-المعتمد ملكاً:

توفي المعتضد عام(٤٦١هـ)،وتولى محمد بن عباد مُلك إشبيلية،واتخذ لنفسه لقباً جديداً اشتهر به هو (المعتمد على الله) ،وكان في ريعان شبابه ابن تسع وعشرين سنة"[2] وخالف سياسية والده في الصرامةوالقسوة،ويكاد وصف ابن الأبّار وصفاته تستوفي ماورد في المصادر الأخرى وتجْملها عندماقال:"كان المعتمدمن الملوك العقلاء،والشجعان الأقوياء و الأجواد الأسخياء المأمونين عفيف السيف والذيل،مخالفاً لأبيه في القهر،والسفك و الأخذ بأدنى سعاية،ردّ جماعة ممن نفى أبوه،وسكن ما نفر،وأحسن السيرة،ملك فأسجح [3]" [4]وبلغت دولة آل عباد أوج قوتها في بداية عهده،ونهاية عهد والده حتى غدت أقوى،وأكبر ممالك الطوائف.

وحاول المعتمد إقامة علاقات سلمية مع جيرانه من ملوك الطوائف،لكن أفسد ذلك أمران هما:

الأول:طمع المعتمد في بسط نفوذ بلاده على الأندلس حسب قانون السياسية القائمة وهي"أن كل أمير يتربص بجيرانه من الأمراء الدوائر،ويتحين الفرص للقضاء عليهم،وإزالة حكمهم...،ولايرى بأساً في ذلك من الالتجاء إلى الخديعة،والدسائس،ومعاقرة العدو الرابض

---

[1] المصدر السابق،ق٢،ج١،ص٤١.

[2] ابن الأبار:الحلة السيراء،ط١،تحقيق:حسين مؤنس،القاهرة:الشركة العربية للطباعة والنشر،١٩٦٣م،ج٢،ص٥٤.

[3] أسجح:سهل ولان .

[4] ابن الأبار:الحلة السيراء،ج٢،ص٥٤.

للإيقاع بالأمراء جميعهم"[١].

الثاني: منح الثقة لوزيره ابن عمّار،وإعطاؤه صلاحيات واسعة للتصرف في أمور دولته ومع حنكة هذا الوزير،وذكائه إلا أنه كما يقول الأمير عبدالله،وهو أحد معاصريه"كان ابن عمّار للمعتمد طاعة في معصية"[٢]،فقد أجمعت الكثير من الروايات أنه من شجع المعتمد على السياسة التوسعية،ومحاربة ملوك الطوائف،حتى ضعف كثير منها هادفاً بذلك تحقيق مصالحه الذاتية متى ما سنحت له الفرصة المناسبة دون اعتبار لخلق،أو مبدأ كما اقترح على المعتمد أن يستميل الفونسو ملك قشتالة،ويعقد معه معاهدة ضد بني ذي النون[٣]أمراء طليطلة الذين عقدوا معاهدة سلمية مع الفونسو[٤]من قبل،وهم من بقي يخشاه المعتمد من بين أمراء الطوائف،وبدلاً من أن يستغل المعتمد قوته وإمكاناته التي كانت في أوجها ومحاربة النصارى ومملكة قشتالة،والمحافظة على دولة الإسلام في الأندلس،عزم على موافقة وزيره ابن عمّار،وأبرم معه معاهدة تقضي بمساعدة الفونسو لابن عباد،واسترداد قرطبة التي انتزعها منه ابن ذي النون بعد أن قتل ابنه الراضي الذي كان والياً عليها عام(٤٦٢هـ)مقابل أن يدفع المعتمد الأتاوة السنوية للفونسو،ويترك له الحرية في محاربة طليطلة[٥]،واستطاع المعتمد بناءً على هذه الاتفاقية استرداد قرطبة عام (٤٦٧هـ) من ابن ذي النون،ودق المعتمد بهذه المعاهدة أول مسمار في نعش الأندلس الإسلامية عندما تسبب في سقوط طليطلة في يد الفونسو عام(٤٧٩هـ)[٦].

---

[١] مرعشلي،ندىم:المعتمدبن عباد–ملك جسدمأساة الأندلس –د.ط،بيروت:دارالكاتب العربي،١٩٦٣،ص ١١.

[٢] ابن بلقين:مذكرات الامير عبدالله،ص٧٢.

[٣]بنو ذي النون:هم أسرة بربرية الأصل،قامت في طليطلة على يد عبدالرحمن بن ذي النون،ثم ابنه الظاهر،ثم خلفه المأمون الذي حكم دولة آل ذي النون ثلاثاً وثلاثين سنة،وحارب المعتمد،وسقطت طليطلة في عهده على يدي الفونسو.المقري:نفح الطيب،ج١،ص٤٤٠

[٤]انظر:ابن بسام،الذخيرة،ق٢،ج١،ص٢٤٨.ابن لقين:مذكرات الأمير عبدالله،ص٧٤.

[٥] ابن بلقين:مذكرات الأمير عبدالله ،ص٧٤.

[٦] انظر:المقري:نفح الطيب ،ج٤،ص٣٥.

وكان لهذا التبدل في سياسة المعتمد أثره في تكالب الأخطار الخارجية،والداخلية على المعتمد التي تآزرت،وأخذ بعضها برقاب بعض حتى أوصلت المعتمد إلى نهاية لم يكن يتوقعها،فابن عمّار استغل أول فرصة ابتعد فيها عن المعتمد الذي بعثه على رأس جيش لإخماد ثورة قامت في مرسية[1]،فاستعان بالنصارى،وأعلن انشقاقه عن المعتمد،وحاول الاستيلاء على مرسية،ولكن قُبض عليه بحيلة،وسُلم للمعتمد فقتله[2]،وخسرت دولة المعتمد بموت ابن عمّار أكثر رجالها قوةً،ودهاءً،وأخذ الضعف يدب في القيادات العسكرية لجيشه،حتى وصل أبناءه،فابنه الراضي تخاذل،وتقاعس عن قيادة الجيش الذي بعثه إلى لورقة،فولى المعتمد ابنه المعتد ،فمني الجيش بالهزيمة[3].

وخلال هذه الأجواء المضطربة التي تتجه بعكس ما أراد لها المعتمد،استغل الفونسو العدو الرابض هذا التهرؤ الداخلي،والخارجي بعد أن أصبح هو الأقوى؛لينهي ما تبقى ، فعمل على استنزاف موارد إشبيلية التي ضعفت،وأخذ يضغط على المعتمد ليدفع الإتاوة المتأخرة مما اضطر المعتمد لجمع المال من العامة بعد التدهور الاقتصادي للدولة،ويظهر ذلك واضحاً عندما بعث كتاباً لأحد عماله قائلاً:"والحال مع العدو-قصمه الله-بيّنة لا تحتاج إلى جلاء ولا كشف،ومن لا يمكن مقاومته،ومخاشنته،فليس إلا مداراته وملاينته ،ودفع الاتفاق معه على جملة من المال ،تُقدّم إليه ونستكفي بهاالشر المرهوب منه"[4] وتبين هذه الرسالة مقدار الضعف الذي وصل إليه المعتمد،وخوفه من الفونسو بعد أن ضرب ملوك الطوائف ببعض،وظهر خطره على الجميع،ثم استشرى خطر مملكة قشتالة وأخذ الفونسو يزحف حرباً على أطراف مملكة المعتمد،ولم يجد المعتمد بدًّاًمن التحول إلى

---

[1] مرسية:تقع جنوب شرق الأندلس على نهر شقوره،وتطل على البحر المتوسط.انظر:الحموي :معجم البلدان،ج٥،ص٧٨.

[2] انظر:ابن عذارى:البيان المغرب،ج٣،ص٥٧.

[3] انظر:ابن خاقان:قلائد العقيان،ج١،ص١١٤.

[4] ابن بسام:الذخيرة،ق٢،ج١،ص٢٥٢.

المرابطين[1] في المغرب والاستعانة بأميرهم ابن تاشفين[2]، وقطع علاقته بالفونسو لدفع خطر النصارى لاسيما أن المعتمد يشكل أكبر قوة في الأندلس بين دول الطوائف،وبات المتحدث الرسمي باسم أهل الأندلس،وقد رحب ابن تاشفين برسول المعتمد،ولبّى نداءه،وفرح أهل الأندلس بهذا القرار ،واستبشروابقدوم المرابطين[3]؛لأنهم يرون فيه خلاصهم من العدوالذي أثقل كواهلهم وأقلق وجودهم وعكَّر أمنهم واستقرارهم.

ولم يكن للمعتمد خيار آخر غير الاستعانة بالمرابطين، فعندما عاتبه ابنه،و بعض وزرائه على هذا القرار،قال:"يا قوم أنا امرؤ على حالتين :حالةاليقين وحالة الشك ولابد لي من أحدهما؛فأما حالة الشك،فإني إن استندت إلى ابن تاشفين،فأنا أرضي الله،و إن استندت إلى فرنادو أسخطت الله،فلأي شئ أدع ما يرضي الله،وآتي ما يسخطه"[4] .ثم قال مقولته الشهيرة:" رعي الجمال عندي،خير من رعي الخنازير"[5]،وكأن المعتمد بهذه المقولة يتنبأ بمصيره فيما بعد!

ولم يكن المعتمد غافلاً عمَّا ينطوي عليه قدوم المرابطين من خطر،وفي محاولة منه لتفادي هذا الخطر،اشترط على ابن تاشفين أن يعود لبلاده حال انتهائه من رد خطر زحف قشتالة[6] واستتباب الأمن الإسلامي في الأندلس.

---

[1] المرابطون:هم اللمتونيون الملثمون،ويرجع أصلهم إلى قبيلة لمتونة البربرية الصنهاجية،وبدايتهم حركة اجتهادية لنشر الإسلام في المغرب وشمال إفريقية،وبدأت عام(٤٤٧هـ)،وكان رجالها يلزمون الرباط بعد كل حملة جهادية،فسموا المرابطين،وقويت شوكتهم في عهد ابن تاشفين.انظر:عنان ،محمدعبدالله:دولة ملوك الطوائف،ص ٣٠٩.

[2] ابن تاشفين:هو يوسف بن تاشفين ناصر الدين بن تالاكاكين الصنهاجي،ثاني ملوك المرابطين،واتخذ لقب أمير المسلمين،وكان أعظم ملك مسلم في وقته،أسس أول إمبراطورية في الغرب الإسلامي،عُرف بالتقشف،والزهد،والشجاعة واشتهر بعفوه،وتسامحه،وتقريب أهل العلم توفي عام(٥٠٠هـ).انظر:المراكشي،عبدالواحد:المعجب في تلخيص أخبارالمغرب_د.ط،تحقيق:محمدالعريان،القاهرة:المجلس الأعلى،١٩٦٣،ص ١٥٤.

[3] المقري:نفح الطيب،ج٤،ص٢٥٣.

[4] المصدر السابق،ج٤،ص٣٥٩.

[5] المصدر السابق،ج٤،ص٣٥٩.

[6] انظر: ابن بلقين،مذكرات الأمير عبد الله،ص١٠٣.

وعلى هذا الاتفاق تم قدم ابن تاشفين،واستقبله الملك المعتمد ممثلاً لأمراء الأندلس ،وخاضا معاً معركة الزلاقة[1] التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً عظيماً،وأبلى المعتمد فيها بلاءً حسناً،حتى قيل إن ذلك اليوم كان يوم المعتمد[2]،وامتدح شعراؤه بطولاته في هذه الغزوة بقصائد كثيرة[3] .

وكانت هذه المعركة هي آخر إجراء عسكري اتخذه المعتمد كملك دولة،وأهم شخصية سياسية في عصره،وشهدت له هذه المعركة،واستصراخه ابن تاشفين بأنها أهم دور سياسي قام به في الأندلس،والقرار الوحيد الصائب الذي رفأ به أخطاءه بحق دولة الإسلام في الأندلس واستدرك به أوضاعها ،وأوقف الزحف الصليبي الذي يعمل جاهداً؛لاسترداد الأندلس ،و ساعد بشكل واضح في بقاء دولةالإسلام،وإطالة عمرها حتى مع أخطائه وقراراته السياسية المتخبطة التي دقت أول مسمار في نعش الأندلس،وتسبب في سقوط طليطلة ودفع مقابل ذلك ثمنا غالياً هو زوال ملكه ،ومملكته لتحيا الأندلس الإسلامية بعدذلك قروناً أخرى.

---

[1] معركة الزلاقة:وقعت عام(٤٧٩هـ)بين الفونسو وابن تاشفين أمير المرابطين،ومساندة المعتمد على مقربة من بطليوس أسماه المسلمون (الزلاقة)،وانتصر المسلمون فيها انتصاراً عظيماً،وعرفت بيوم العروبة،للاستزادة،انظر:عنان،محمد عبدالله: دولة ملوك الطوائف ، ص٤٣.

[2] انظر: المقري:نفح الطيب،ج٤،ص ٣٦٦.

[3] انظر:عزام:عبدالوهاب:المعتمد بن عباد،الملك الشجاع المرزأ–د.ط،د.م،دار المعارف،د.ت،ص٤٣.

ثالثاً\المكون الأسري:

يتعلق هذا المكون بالحديث عن حياة المعتمد الأسرية،فقد أخذالحديث عن زوجته وأبنائه حيزاً من اهتمامات المؤرخين،والمترجمين لسيرة المعتمد،فورد أن زواج المعتمد كان أثناء ولايته للعهد،وقد نُسجت قصص حول زواجه باعتماد الرميكية،فابن بسام ،يقول: "تُلقب بأم الربيع وتُعرف بالسيدة الكبرى،وتُلقب بالرميكية،نسبة لمولاها رُميك بن حجاج ومنه ابتاعها المعتمد في أيام أبيه المعتضد،وكان مفرط الميل إليها،حتى تلقَّب بالمعتمد، لينتظم اسمه حروف اسمها "[1].

وورد أن المعتمد تزوجها بعد أن أجازت له بيتاً من الشعر،وأعجبه حسنها[2]،فأحبها المعتمد حباً شديداً،حتى أنه ورد أن المعتضد حاول أن يفصلها عن ابنه المعتمد عندما وصله خبر نفوذها الكبير عليه[3]،وأصبحت اعتماد سيدة إشبيلية الكبرى،وصارت تشاطر زوجها هوى الشعر ونظمه،وتشاركه في توجيه شؤون دولته وبلغ نفوذها أن المعتمد حقق لها الكثير من الرغبات التي تحولت إلى نزوات،يقول المقري:"من أخبار الرميكية–القصة المشهورة في قولها(ولايوم الطين)وذلك أنها رأت الناس يمشون في الطين،فاشتهت المشي في الطين فأمر المعتمد،فسحقت أشياء من الطيب،وذرّت في ساحة القصر حتى عمّته،ثم نُصبت الغرابيل وصُب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب،و عُجنت بالأيدي حتى عادت كالطين،وخاضتها مع جواريها وغاضبها في بعض الأيام ، فأقسمت أنها لم ترَ منه خيراً قط،فقال:"ولا يوم الطين"[4].

ويروى أنها اشتهت رؤية الجبال تغطيها الثلوج كما تغطيها في الشتاء،فأمر المعتمد بزراعة

---

[1] ابن الآبار:الحلة السيراء،ج٢،ص٦٢.

[2] انظر:المقري:نفح الطيب،ج٤،ص٢١١.

[3] المصدر السابق،ج٤،ص٢٧٣.

[4] المصدر السابق،ج٤،ص٢٧٣.

سفوح الجبال بأشجار اللوز لتفتح زهورها البيضاء كالثلج[1]؛ليرضي زوجته.

وقد شكلت هذه النزوات استنزافاً لموارد الدولة،لاسيما في الفترات الاقتصادية الصعبة ممّا أدى إلى ثورة الفقهاء،والعلماء على ابن عبّاد،و ورد في تحفة العروس:"بأن اعتماد وُصفت بالجمال،وطيب النادرة،ونظم الشعر،ورّطت المعتمد فيما ورّطته من الاستهتار والخلاعة والمجاهرة حتى كتب عليها أهل إشبيلية بذلك،وبتعطيل صلات الجمع،والجماعات ورفعوها لأمير المسلمين"[2]والمقصود بأمير المسلمين هو ابن تاشفين.

وهذا يعني أن اعتماد قد لعبت أدواراً خطيرة في حياة المعتمد السياسية والاجتماعية ،فقد كان لها دور مهم في تحريض المعتمد على قتل ابن عمّار،الذي كان ينافسها في المكانة لدى المعتمد،وفي حلمه بالشرف والسيادة،وكانت تنظر له اعتماد بعين السخط ،وكان ابن عمّار يخشى سخطها خاصة بعد أن نُمي خبر هجائه لها في عدد من القصائد كما في قوله مخاطباً المعتمد[3]:

تخـــيرتها من بنـــات الهـــجان رُميكية ماتـــساوي عقـــالاً

ومع ما اشتهرت به من منزلتها عند المعتمد،وحبه لها،فلم تشر المصادر إلى مكانة المعتمد لدى اعتماد،غير أنها رافقته في أيام سعده في إشبيلية ونحسه في منفاه[4]، وبقيت مكانتها الفريدة في نفسه،واستمر حبه لها حتى آخر أيام حياتها،غيرأنها لم تستطع العيش في منفاه فترة طويلة،فتوفيت قبل وفاته عام(٤٨٧هـ).

أما أبناؤه فأورد ابن الخطيب أن عددهم بلغ مئة وسبعين ابناً وابنه[5]،وليس في المصادر الأخرى ما يثبت ذلك،أو ينفيه غير أن أسماء عديدة لأبنائه وردت في أثناء الترجمة لسيرته

---

(1) انظر:المصدر السابق،ج٤،ص٢٧٤.

(2) خالص،صلاح:المعتمد بن عباد ملك إشبيلية،ص٦٢ نقلاً عن مخطوطة تحفة العروس ونزهة النفوس،مخطوط مكتبة القرويين.

(3) ابن الأبار:الحلة السيراء،ج٢،ص٦٢.

(4) انظر:ابن الخطيب:أعمال الأعلام،تحقيق:أ.ليفي بروفنسال،بيروت:دارالمكشوف،١٩٥٦م،ج ،٢ص٣٢٥.

(5) انظر:المصدر االسابق ،ج٢،ص٣٢٥.

ويبدو أنه كان سعيداً بهم كما يروي ابن اللبانة،الذي عاصره،وتناول سيرته وكان من المقربين له ذلك ،فقال:" وكان له من أبنائه عدة أقمار،نظمهم نظم السلك ،وزين بهم سماءذلك الملك ،فكانوا معاقل بلاده،وحمّاة طارفه وتلاده" [1]".وكان أشهرهم أبناء اعتماد الذين أجملهم ابن الابار،فقال:"أبو خالد هو ابنه(أي المعتمد) الملقب بالراضي وهو الذي قتله اللمتوني غدراً برنده وأبو النصر ،هو ابنه الملقب بالمأمون وقُتل _أيضاً بقرطبة في آخر دولتهم،وإخوتهم أبو الحسين عبدالله الملقب بالرشيد حُمل مع أبيه إلى العدوة،وأبو بكر عبدالله الملقب بالمعتد ،وأبوسليمان الربيع تاج الدولة ،وأبو هاشم المعلّى زين الدولة، كلهم لجاريته هذه الحظية عنده الغالية عليه اعتماد"[2] . وكانوا مثل أبيهم شعراء.

كما أن المعتمد أشركهم في قيادة الدولة،فولّى بعضهم قيادة جيوشه في معارك مختلفة وأوكل إلى بعضهم ولاية المدن وإمارتها،فقد تولى ابنه الظافر ولاية قرطبة،وقُتل وهو يدافع عنها وتذكر المصادرابنه فخرالدولة،و عبدالجبار الذي ثار على المرابطين بعد خروج والده من الأندلس قرب إشبيلية،وقُتل هناك[3]،واشتهرت ابنته بثينة بأنها إحدى شاعرات الأندلس وسُبيت أثناء فرارها عند اقتحام المرابطين إشبيلية،ولها قصيدة مشهورة[4]تحكي فيها قصة انهيار،وضياع دولة والدها.

ولم ينتهج المعتمد مع أبنائه أساليب العنف،والبطش بدليل أنه عندما تقاعس ابنه الراضي عن القيام بإحدى الحملات الحربية،وعاتبه المعتمد على ذلك،استرضاه الراضي"فقربه- أي المعتمد- وأدناه وصفح عما كان جناه،وقد عطفته عليه جوانح الحنو "[5]،وكان حريصاً عليهم حتى أنه كان من أسباب غضبه على ابن عمّار،ونقمته عليه،قسوة ابن عمار

---

[1] المصدرالسابق، ج٢،ص٣٢٥.

[2] ابن الآبار:الحلة السيراء، ج٢،ص٦٢.

[3]انظر: المقري:نفح الطيب، ج٤،ص٢١٨.

[4] انظر:المصدر السابق، ج٤،ص٢٨٤.

[5] ابن خاقان:قلائد العقيان، ج١،ص ١١٥_١١٦.

على أبنائه،وتجرؤه على رهن ابنه الرشيد عند أمير برشلونة،ولم يكن المعتمد على علم بذلك،كما ورد في مذكرات الأمير عبدالله:"كانت العداوة الواقعة بينه وبين المعتمد على يد الرشيد ابنه،فإنه بفسوقه كان يتكبر على أولاده،ويضيق عليهم ويسيء الصنيعةمع ما يجب عليه من إكرامه قرابة سلطانه[1]".وكماكان من أسباب تحالفه مع الفونسو الأخذ بثأر ابنه الظافر من ابن ذي النون الذي قتله في قرطبة ،فالشواهد التاريخية تثبت أن المعتمد كان متواصلاً مع أبنائه يأخذ مشورتهم كما ورد في حواره مع ابنه الراضي عندما عزم على طلب المساعدة من ابن تاشفين ، فالواضح أن المعتمد كان يرتبط بأسرته برباط المحبة والحنان والعطف.

[1] ابن بلقين،عبدالله:مذكرات الأمير عبدالله،ص٨١.

رابعاً\ المكون الاجتماعي:

تتمثل قيمة هذا المكون،ومعاييره الحضارية كإطار مرجعي لايُمكن إغفاله في حياة أي إنسان،فإما أن يكون عامل قوة،أو عامل ضعف وهدم خاصة لشخصية مثل المعتمد الذي ارتبط هذا المكون بخصوصيته،ومكانته السياسية،والاجتماعية في عصر اشتهر بالإقبال على متع الحياة وملذاتها من كافة الطبقات الاجتماعية،لاسيما تلك الطبقات التي تهيأت لها وسائل الملذات،مثل الطبقة الارستقراطية التي كان المعتمد نموذجاً لها ،فقد"أصبح حب اللهو والانغماس في الملذات جزءًا مهماً من مميزات الشخصية النموذجية في الوسط الارستقراطي[1] وقيماً أخلاقية عند الأمراءوالملوك آنذاك.

وكما توافرت للمعتمد الأموال الطائلة والثراء،وعُرفت مملكته بأنها من أغنى الدول الأندلسية ،وأكثرها رخاءً لاسيما في فترة الاستقرار النسبي في نهاية عهد المعتضد،وبداية عهد المعتمد،فأصبحت دولته كمايقول ابن اللبانة:"من أبهج الدول في الكرم والفضل والأدب... وسعة مكارم،وجمع فضائل"[2] ،واشتهرت دولة إشبيلية بالترف الحضاري وابتناء القصور الفارهة التي بلغ فيها البذخ أن زُخرفت بالتماثيل المرصعة بالذهب واللآلئ وحُليت بنفائس الدرر،ومن أشهر هذه القصور الزاهي،والمبارك،والزاهر[3] التي لم يغادرها التاريخ الذي تناول دولة إشبيلية دون أن يتحدث عمّا تميزت به من بدائع عجيبة.

وكان ميل المعتمد للحياة الاجتماعية قد غلب على ميوله الأخرى،وشملت حياة الترف من عاش في كنف هذه الأمير وفي بلاطه من العلماء،والأدباء والشعراء،فكان لايستوزر إلا شاعراً،وأغدق عليهم الأموال الطائلة،والعطايا الجزيلة لإثراء مجالس إشبيلية التي تدار منها كؤوس الخمر والغناءواللهو والطرب حتى قال عنها ابن زيد:"كان إذا مات عالم

---

[1] انظر:خالص،صلاح:المعتمد بن عباد الأشبيلي،ص٩١

[2] المقري:نفح الطيب،ج٤،ص٢٥٥.

[3] انظر:المصدرالسابق،ج٤،ص٢٧٥.

بإشبيلية،فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع وإذا مات مطرب بقرطبة وأُريد بيع تركته حُملت إلى إشبيلية"[١]،وبذلك أصبح الاستسلام للشهوات والملهيات من الأعراف السائدة آنذاك،وكان كلف المعتمد بها شديداً،وقد أجمع المؤرخون والمترجمون على ذلك،فابن الأبار،وهو من أقرب المترجمين له زمناً،يقول:"كان-المعتمد-مولعاً بالخمر منغمساً في اللذات عاطفاًعلى البطالة مخلداً إلى الراحة،فكان ذلك سبب عطبه وأصل هلاكه"[٢]، ويروي ابن خاقان أن المعتمد شرب يوماً حتى صرعه السكر أمام ابنه الرشيد ، فالمعتمدوطبقته لا يرون حرجاً في مثل هذه الآفات،أو خروجاً عن العقيدة حتى رُوي أنه أباح الخمر لجنده في ميادين القتال[٤]،وقد لا يكون هذا القول مقبولاً عقلاً ولكن المعتمد لم يكن بدعاً من أهل عصره الذين فتنوا بالملذات،وتوافرت لهم في كل مكان تقريباً،بل إن العوامل التي تهيأت للمعتمد منذ صغره أذكت إقباله عليها فكان والده من أشهر أهل الأندلس كلفاً بالخمر.

وإذا كان الرفيق رقعة من ثوب رفيقه فإن وزيره ابن عمّار الذي رافقه منذ صباه،عرف بأنه شاعر غارق في تهتكه،ومجونه مسرفاً في شرب الخمر،وقد عرّاه ابن بسام من كل فضل حين قال:"كان زير قيان، وغلمان وصريع راح،وريحان،أمله؛زعموا كان بين شرب كأس وشم آس،وجذله في نصب حباله لغزال أو غزاله"[٥]،وقد أبعده المعتضد عن ابنه المعتمد ونفاه خارج مملكته عندما ساءت سمعته في شلب؛لكثرة الإسراف في شرب الخمر،ولكن المعتمد عاد ليقربه بعد وفاة والده،وأحضره إلى إشبيلية،"وأصبح نديمه في مجالس أنسه في قصوره،مثل الزاهي الذي كان له به من الطرب و العيش المزري بحلاوة الضرب[٦] ما لم يكن لبني حمدان في حلب"[٧].

---

[١] كرد علي،محمد:غابر الأندلس وحاضرها_د.ط،مصر:د.ن،١٩٢٣م،ص١٠٨.

[٢] ابن الأبارا:لحلة السيراء:ج٢،ص٤٥.

[٤]انظر: أشباخ،يوسف :تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين،د.ط،تحقيق:محمد عنان،القاهرة،ج١،ص٥٤.

[٥] ابن بسام:الذخيرة،ق٢،ج٢،ص٣٧٣.

[٦] الضَّرَب:أي على هذا المثال.

[٧] ابن بسام:الذخيرة،ق٢،ج١،ص١٣.

واقترن إقبال المعتمد على الخمر بحبه للنساء،وتعلقه الشديد بهن،فقد عجت قصوره بالجواري،وكثر الرقيق والغلمان،حتى قيل أنه امتلك ثمانمائة من أمهات أولاد،وجواري متعة،وإماء تصرف"[١] .وكان حضور الجواري والقيان لمجالس الطرب،والأنس من مظاهر مجالس المعتمد،وكان له شغف بالغلمان[٢]وقد أدّى هذا الاشتغال بهذه الملهيات والملذات والانكباب عليها إلى الغفلة عن العدو وأدّى هذا الترف و اللهو إلى ضعف روح الجهاد الإسلامي،وتردي الوضع الاقتصادي والأمني فضاق الناس بحكومة المعتمد ذرعاً،يقول المقري في هذا المعنى:"وقد ظهر من ابن عباد في التهتك في الشرب والخمر مالا يخفى أمره فتمنى أكثر الناس الراحة من دولتهم"[٣] .وقد أوصل الاستغراق في الشرب بالمعتمد لنتائج خطيرة،يعترف بها المعتمد في حواره مع ابنه متأسفا قائلا:"فقد تلف مجبانا وتبددت أجنادنا وأبغضتنا الخاصة والعامة"[٤] . كان هذا الانغماس في الملذات وشكوى الناس منه مبرراً كافياً لابن تاشفين؛ليضم إليه الأندلس[٥]،وعلى رأسها دولة المعتمد.

وقد بلغ من كلف المعتمد بها أنه حتى عندما حاصره المرابطون في إشبيلية"وجهز ابن تاشفين القطائع لإشبيلية،وجدَّ في حصارها،والمعتمد منغمس في ملذاته،فلم يشعر ابن عباد إلا والعسكر معه في البلد،فأفاق من نومه،وصحا من سُكره"[٦] .وبهذه الرواية نستطيع القول بأن الانكباب على مظاهر اللهو عند المعتمد جاوزت كل حد ،وقد شهد بذلك أقرب شعرائه ابن اللبانه في رثائه لدولة المعتمد عندما قال عن آل عباد:

تمسكـت بعرى اللذات ذاتهم يا بئس ما جنت اللذات وا لذات

---

[١] ابن الآبار:الحلة السيراء،ج٢،ص٥٥.

[٢] ابن خاقان:قلائدالعقيان ،ج١،ص٦٣.

[٣]) المقري:نفح الطيب،ج٤،ص٢٤٧.

[٤] مؤلف مجهول:الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية،ط١،تحقيق:سهيل زكار،وعبد القادر زمامة،الدار البيضاء:دار الرشاء الحديثة،١٩٧٩،ص٤٤.

[٥] انظر:المقري:نفح الطيب،ج٤،ص٢٤٧.

[٦] انظر:المصدر السابق،ج٤،ص٢٤٧.

خامساً\ مأســـــاة الأســـــر:

تشكل قضية أسر المعتمد مرحلة جديدة لحياته في الأندلسوتذوب فيها جميع مكونات سيرته وتعد أبرزالمكونات،وأقوى المؤثرات في توهج سيرة المعتمد السياسية على مر العصور،ومنها كما يقول المؤرخون:"رُزق من الناس حُباً،ورحمة،فهم يبكونه إلى اليوم"[1]وقسمت هذه المأساة نفسها لمرحلتين متتابعتين هما:

١ | قُبيل الأسر: وتبدأ هذه المرحلةمنذ أن كان المعتمد يعمل جاهداً للحفاظ على مُلكه وسلطانه في الأندلس،ولذا فلم يكن من خلاف للاستعانةبمن يحفظ ملكه،و يتضح ذلك من حواره لابنه،عندما قال له:"وإن إخواننا،وجيراننا ملوك الأندلس ليس لنا فيهم نفع،و لاتُرجى منهم نُصرة،ولاجُنة[2]،ما نزل بنا المصاب،أونالنا عدو ثقيل،وهذا اللعين أذفنش قد أخذ طليطلة من ابن ذي النون...،وهاهو قد رفع رأسه إلينا،وإن نزل علينا بكلكه ما يقلع عناحتى يأخذ إشبيلية،ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذا الصحراوي،ملك العدوة نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين،إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا "[3].

فالمعتمد لايرى غير نفسه ودولته،وأنهما الأحق بالبقاء والسيادة،ويحتقر ماعداهما حتى أولئك الذين يرى فيهم نجاته مثل ابن تاشفين الذي يصفه بالصحراوي؛لأن المعتمد كما يقول ابن بسام عنه شديد الاعتداد والغرور بنفسه ونسبه،ومكانته حتى جاوز كل حدبقوله عن ابن تاشفين : "لو عوجت له إصبعي ما أقام بها ليلة واحدةهو،وأصحابه"[4]،ثم إن المعتمد بعد أن استعان بالمرابطين،وأوجس منهم الخطر خاصة عند بقاءكتائب للمرابطين

---

[1] ابن الأبار:الحلة السيراء،ج٢،ص٥٥.

[2] جُنه:خير و فائدة .

[3] الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية،ص٤٤-٤٥.

[4] المراكشي:المعجب في تلخيص أخبار المغرب،ص١٩٨.

في الأندلس ،حاول الاستعانة بالفونسو[١]، والعودة إلى الاتفاق معه لإخراج المرابطين،فبقاء مملكة إشبيلية العبادية هو الأهم،سواء أكان بقاؤها بنصرة الإسلام على يد ابن تاشفين،أم بدفع الأتاوة للفونسو وسرعان ما علم ابن تاشفين بأمر المعتمد عن طريق العيون التي زرعها بين وزراء ابن عباد،وهو ما أشار إليه ابن اللبانة بخيانة وزراء المعتمد،وميلهم للمرابطين[٢]،وقيل إن الوشايات من منافسيه أمراء الطوائف خاصةً ابن صمادح[٣]كانت عاملاً آخرلإفساد ما بينه وبين ابن تاشفين،فكانت فرصة موجبة له لإصدار قرار لجيوشه بسرعة ضم بلاد الأندلس لدولته وإنها حكم دولة آل عباد.

وباجتماع هذه الأسباب،وغيرها من ظروف العصر،وتخبط سياسية المعتمد،وصلت نهايته واقتحم المرابطون إشبيلية في شهر رجب عام(٤٨٤هـ)وحوصر المعتمد في قصره فخرج بسيفه يحاول الدفاع عمّا تبقى من ملكه،ولكن هيهات،فكما يقول شاعره ابن اللبانة في كتابه المفقود"نظم السلوك في مواعظ الملوك في أخبار الدولة العبادية"،وقد نقل منه المقري أجزاءً يصف فيها تلك اللحظات الحرجة من حياة المعتمد:"فعظم الخطب في الأمر الواقع،واتسع الخُرق على الراقع،ودُخل البلد من جهة واديه،وأصيب حاضره بعادية باديه بعد أن ظهر من دفاع المعتمدوبأسه وترامية على الموت بنفسه،ما لايزيد عليه،ولا انتهى خلق إليه،ولم يبق فيه سبد لأحد،ولا ليد،ورُجل بالمعتمد وآله بعد استئصاله وماله ،ولم يصحب معه بلغة زاد،و لا بغية مُراد"[٤]،قُتل في هذا الحصار ابنه مالك،وعندما اشتد مخنق المعتمد استسلم للمرابطين،مُعلناً بذلك نهاية حكمه الذي استمر ثلاثاً وعشرين سنة،وخفتت بذلك شمس دولة آل عباد بعد سبعين عاماً من التألق.

---

[١] انظر:حوالة،يوسف:بنو عباد في إشبيلية–ط١،جدة:دار العلم للطباعة والنشر١٩٨٨م،ص٢٠١،عنان،محمد عبدالله،دول الطوائف،ص٣٣٨.

[٢] انظر:المقري:نفح الطيب،ج٤،ص٢٤٧.

[٣] ابن صمادح:هو المعتصم بن محمد بن صمادح،أحد أشهر أمراء بني صمادح،وله مقولته الشهيرة:"نغص علينا كل شيء حتى الموت"قتله ابن تاشفين.انظر:ابن خاقان:المطمح ،ص ٤٠٣.

[٤] المقري:نفح الطيب:ج٤،ص٢٢١٥.

وبدأت مرحلة الأسر وأحداثها عندما قُيد المعتمد،"وأخرج من بلاده وغُرب مكبولاً مدال العز،مسلوب الُملك،وحملت معه زوجته،وبعض أفراد أسرته،وحُملوا في السفن إلى العدوة في مشهد لم تسجله المصادر ولا المؤرخون،وإنما سجل ملامح منه ابن اللُبانة في قصيدة،يقول منها[1]:

تَبكي السماء بمزن رائـــح غـاد على البهاليـل من أبناء عبـاد

والناس قد ملأوا العبرين واعـتبروا وصارخ من مفداة ومن فادي

حان الوداع فضجت كلُ صارخـة مـن لؤلؤ طافيات فـوق أزبـاد

ووصل المعتمد طنجة،ومكث فيها أياماً،وتوافد إليه بعض الشعراء،رغبة في عطاء المعتمد الذي اشتهر به في الأندلس،ولكن المعتمد لم يكن معه إلا عشرين مثقالاً من المال،وقدم بطلب من الأمير ابن تاشفين إلى مكناسة،يقول الأمير عبدالله:"لما ظفر المرابطون بابن عباد فيأ خدمه وعبيده وأمواله،حاشا أمهات الأولاد،وأمر أمير المسلمين بإرساله إليه وبقي فيها إلى أن سيق إلى أغمات"[2]أسيراً،وسجيناً سياسياً مع أسرته التي عانت في أغمات من الفقر والعوز والذل،وضُيق عليه وساءت معاملة ابن تاشفين له بعدأن ثارابنه عبدالجبار في الأندلس لاسترداد ملك آبائه،وسبب للمرابطين جزعا مفرطاً،ولم تذكر المصادر هل كان للعتمد يد في تلك الثورة،أم لا ؟،لكن شُدد على المعتمد بعدهاحتى يقول ابن الأثير :"فقد أبان أمير المسلمين بهذا العقل،عن صغر نفس،ولؤم قدر"[3] ،وبقي في سجنه حتى أُصيب بمرض شديد ألم به،فتوفي عام(٤٨٨هـ)،ويقول ابن بسام : "ومن النادر أنه نودي في جنازته بالصلاة على الغريب بعد عظيم سلطانه"[4] .

ومما يلفت الانتباه أن هذه المرحلة من حياته لم تتوهج إلا من خلال شعره الذي

---

[1] المصدر السابق:ج٤،ص٢١٥.

[2] انظر:ابن بلقين:مذكرات الأمير عبدالله،ص١٧١.

[3] ابن الأثير: الكامل في التاريخ –ط١،تحقيق:أبو الفداءعبدالله القاضي،د.م،دار الكتب العلمية،١٩٨٧م،ج١،ص١٣.

[4] ابن بسام:الذخيرة،ق٢،ج١، ص ٥٧.

امتطاه المؤرخون والمترجمون كمصدر وحيد لإضاءة سيرته في منفاه،فلم تزد-في الغالب_ على ماجاء في شعره،وشرح مضامينها فقط.

وهكذا يمكن الوقوف على ماتم عرضه من مكونات سيرة المعتمد،بأنها تقوم على محور أساسي،وهو المحور السياسي بوصفه مكوناً أساسياً ترتكز عليه سيرته،ومكوناتها بأبعادها المختلفة،وترتبط بتأثيراته ارتباطا مباشراً،وبخصوصية الملك،والقيم السياسية المعتبرة في مراحل حياته المختلفة بوصفها مرجعية أساسية وجهت حياة المعتمد في جميع جوانبها.

ولما كان المعتمد شاعراً يتنفس الشعر في كثير من المواقف التي يعبر عنها،كان من منطق الأشياء أن يسجل أحداث سيرته في الشعر،الذي يعد بمثابة التسجيل النثري لغيره من الأدباء ولذلك أضحت قصائده هي السجل الرسمي،والشخصي الذي يضم أحداث حياته،ومواقفه ومن ثم كانت قصائده حبلى بكثير من الأحداث،والمواقف المعبرة عن سيرته الذاتية بشهادة النقاد القدامى و المحدثين،فابن بسام في ذخيرته يقول: "وشعره يوضح ما شرح ويعبر عما ذكره،والعجب من المعتمد أنه أمرى سحابه في كلتا الحالتين،فصاب ودعا خاطره فأجاب[1]"،ويقول المستشرق دوزي:"من المؤكد أنه لم يتح لملك غيره ماأتيح له من رهافة الحس،وشاعرية النفس،لقد كانت أتفه الحوادث العارضة التي تمر به في حياته سرعان ماترتدي الثوب الشعري،ويمكن أن تصاغ ترجمة حياته من أشعاره[2]"

وسوف تعالج هذه المحاور،والمكونات وفق ماورد منها في سيرته المتقدمة في المباحث التطبيقية لها،وتتبع انعكاساتها،وأحداثها في شعره الذي يظهر بوضوح ثنائية حياته ملكاً وأسيراً؛لأن المعتمد جعل من ذاته،والحديث عنها في نطاقها السياسي البؤرة الأساسية التي يدور حولها شعره.

---

[1] المصدر السابق،ق٢،ج١،ص٤١.

[2] أدهم،علي:المعتمد بن عباد،د.ط ،القاهرة:مكتبة مصر،د.ت ،ص٣٣٩.

المبحث الثاني :الشعر يترجم مكونات سيرة المعتمد السياسية.

أولاً | الشعر ومكون التنشئة :

لم تتناول المصادر والتراجم المعتمد إلا منذ توليه المناصب السياسية حيث انصب اهتمامها على سيرته السياسية مغفلة ماقبل ذلك من حياته.

بينما نلحظ أننا حال ترتيب ديوان شعره وفق مكونات سيرته،والقرائن المرجعية لها المبثوثة في شعره،يمكننا تتبع ملامح مراحل حياته،وتطوراتها تبعاً لمتغيراتها السياسية،فنجده ناظماً للشعر من صغره،وبواكير صباه ،دالاً على ذلك انعكاس ملامح من مكونات تنشئته في شعره،فهذه المرحلة لاتتعين إلا من خلال شعره،فهو مصدرها الوحيد خاصة أثر شخصية والده،ورعايته له في طفولته،مهتماً بتعليمه وتوجيه خبراته،وقدراته،حريصا عليه حد تقييده في نطاقه السياسي،مستدلين على ذلك بالخطاب الشعري لهذه الفترة المبكرة من حياته .

فالمعتمد في ديوانه عشرون مقطوعة،وجهها لوالده كرسائل شعرية مكتوبة،تدل موضوعاتها على أنه مازال في طور التنشئة،وتحت رعاية والده،وكان يتناول الموضوعات الأهم في حياته في إطار مرجعيتها السياسيةخاصة،ولم يبدأ حياته الشعرية بما يبدأ به الشعراء _غالباً من شعر الغزل،فصغر سنه لم يشفع له بالذهاب إلى الصيد دون أن يستأذن والده،فكتب له،وقال[1]: (الكامل)

امنن على عبد رجاك بساعة يرتاح فيها باصطياد أرانب

حتى يصيد بسعدك الأبطال في يوم الوغى بأسنة وقواضب

ويتضح من شعره اعتماده في صغره على والده في توفير احتياجاته،ورغباته لتطوير مهاراته ورغبته في تعلم ركوب الخيل،فبعث لوالده برسالة مكتوبة،فقال[2]: (الهزج)

ألا ياغُرة السعد وقُرة ناظر المجد

---

[1] ديوان المعتمد بن عباد،ملك إشبيلية–د.ط،تحقيق:أحمد بدوي،حامد عبدالمجيد،القاهرة،المطبعة الأميرية،١٩٥١م،ص٣٢.

[2] المصدر السابق،ص٣٤.

ومـولاي الـذي مـازال يـسحبُ حلة الحـمد

لـعبـدك هـمة هـامـت بـركض الضّمر الـجـرد

ويــرغب ضارعاً منهــا إلـى عليك في الــورد

وإن تــقبضه من عـبد تمنّ بــه عـلى عبـــد

ومـما يظهر أن الـمعتمد مازال في فترة الإعداد،والتدريب على الفروسية التي حرص والده عليها من خلال كثرة الجياد التي أهداها له،كما في هذه المقطوعة التي كتبها لوالده شكراً له على جواد أهداه له،فقال[1]: (الطويل)

نوال جزيل ينهر الشكر والحمـدا وصنع جميل يوجب النصح والودا

لقد جـدت بالعلق الذي لـو أباعه بذلت ولم أغبن به العيشة الرغـدا

لــــعلي يـــومـا أن أوفـي حقــه فأنعله ممــن عصا أمــرك الخــدا

إن مستوى الإبداع الشعري للمعتمد لم يصل بعد إلى القصيدة،إذ لم يتجاوز المقطوعة للشاعر في هذه الفترة ويغلب عليه الرغبة في الإبلاغ والإجادة على الوظيفة الفنية للشعر،ففي قوله: "لعلي يوماً أن أوفي حقه"دليل على أنه مازال يتصور مستقبله،ولم يمارس هذه الفروسية بشكل واضح.

ويتوافق اهتمام والده،ورغبته في أن يصبح المعتمد فارساً شجاعاً مع استعداد المعتمد وتهيئته للفروسية،فعندما طلب من والده ان يبعث له جواداً،أرسل له والده بجواد مسرج ملجم كان قد استأثر به لنفسه،فقال المعتمد[2]: (المجتث)

خلـعت ثـوب الصّفي علـى العُبـيد الوفـي

يـــا مستـرقاً بنعـمـاه كـــل حُـر ســـوي

أتى على الورد سرج كالهدى فوق الهـدي

---

[1] المصدر السابق،ص٣٤.

[2] المصدر السابق،ص٤٥.

فسوف أورد رمحي عليه قلب الكمي

ونرى أن وعي والده بأهمية إشباع الرغبات،والحاجات التي تكون في المستوى الأدنى ومازالت الحاجة قائمة لها،يُسهل الوصول للحاجات،والرغبات،والأهداف العُليا التي يطمح أن يحققها ابنه،فأرسل له جوادا أصيلاً كان قد استأثر به لنفسه،وقدم له الهدايا النادرة الثمينة،التي توحي بالترف الباذخ،وبكرم والده الذي أُشتهر به رغم قسوته،كما في قول المعتمد جواباً على تحفة ثمينةأهداه إياها والده[1] : (الَّسريع)

يا ملكاً قد أصبحت كفه ساخرةً بالعارض الهاطل

قد أفحمتني منةٌ مثلُها يضيق القول على القائل

وإن أكن قصّرت عن وصفها فحسنُها عن وصفها شاغلي

إن من شان هذه الطريقة أن تدعم اعتبار المعتمد لذاته،وتزيد من اعتداده بها،وشعوره بتفردها،وزاد ذلك من طموح المعتمد للبحث عن اكتمال منظومة قيم الأمارة،والسيادة وهو في كنف والده حينما تكرر استئذانه منه للذهاب للصيد بمفهوم أكثر وعياً بالأهداف العليا من هذه الهواية،في قوله[2]: (الوافر)

أوجه البدر يشرق في الظلام وستر الله مد على الأنام

وليث الغاب إقداماً وبأساً ورب الفضل،والنعم الجسام

عبيدك مولع بالصيد قدماً وحب الصيد من شيم الكرام

فإذنك فيه واسلم للأعادي تدير عليهمُ كأس الحمام

ويمكن تفسير حرص المعتمد على كتابة شعره في رسائل لوالده مع إمكانية كتاباتها نثراً بأنه نتيجة لحساسية المعتضد القوية للعنصر العربي،وحرصه أن يُتقن ابنه الشعر كعلامة فارقة وعامل جذب لدولة آل عباد العربية؛بدليل عنايته بتطوير موهبة ابنه الشعرية،وتنميتها

---

[1] المصدر السابق،ص٤٢.

[2] المصدر السابق،ص٤٤.

آخذاً بعين الاعتبار ضرورة ربط الموهبة بإطارها السياسي الذي يجب أن يمارسه المعتمد، فبعث إليه والده بمّجن مطوق،وأمره أن يصفه،فقال المعتمد [1]: (المتقارب)

مجنٌّ حكى صانعوه السماء لتــقصر عنه طول الرمـــاح

وقـــد صوروا فيه شبه الثريا كـواكب تقضى له بالنجـــاح

وقـــد طوقوه بذوب النّضار كما جلّل الأفقَ ضوءُ الصباح

وعندما يشهد المؤرخون بأن المعتمد لم يبرع في شئ كما برع في الفروسية والصيد[2] والشعر، فإن ذلك من منطلق تقييده،وتدريبه عليها منذ صغره.

وفي ضوء معطيات شعر المعتمد في هذه الفترة،فإن من أهم ملامح سيرته هو تعلقه بوالده واعتماده الكلي عليه،وإعجابه بقدراته الفريدة كملك من أقوى ملوك عصره حتى غدا كالمرآة التي تنعكس عليه ذاته،ويرى فيها نفسه؛لتحقيق وجودها وتصورها لمستقبلها على نحو أوقع،وأفضل لما يمتلكه من مقومات يعبر عنها المعتمد،فيقول [3] : (المتقارب)

أيا مـلكا عمَـــني فضـله ولم أُلـف في بحر نعماه زجراً

عـــهدنا البحار لجزر ومـدّ وتـأبى بحـار أيـاديك جـزراً

دعـــونا الأماني لمّا رضيت فـجاءت تَـوالى علينا وتترى

فلـــم يبق لي أمـل أرتجيه سـوى أن أقوم بنـعماك شـكرا

بـــقيت ولا مُلْك إلا وقـد غـــدا مِلك كفك قهرا وقســرا

في المقابل لا نرى في شعر المعتمد ما يشي بقسوة والده،وبطشه الذي عُرف عنه،ولكن يبدو حرصه على المعتمد في تقييد تواصله مع الآخرين،فلم يخاطب المعتمد سوى والده،ولم يتجاوزه إلى أحد آخر كأحد إخوته أو أصدقاءه،وبقي شعره في فترة التنشئة في حدود والده،وهذا يؤيد أن المعتمد الابن الوحيد،أوالأقرب لوالده.

---

[1] المصدر السابق،ص٢٩.

[2] انظر:عنان،محمدعبدالله:دول الطوائف،ص٦٠.

[3] ديوان المعتمد،ص ٤٠.

لا نجد في المقابل أي جواب أو تواصل مع المعتمد من قبل والده على صعيد الشعر رغم قصور خطاب المعتمد عليه،عكس المعتمد الذي تبادل مع أبنائه رسائل شعرية تكشف عن عواطفه،ومشاعره تجاههم.

كما أن الطابع الرسمي الذي يغلب على شعر المعتمد،ومخاطبة والده(بمولاي،أو ملكاً،أو مليكاً)ووصف نفسه(بعبد،أو عبيد)،يوحي بأن ثمة حذراً في التعامل مع هذا الملك فهل كان هذا الاهتمام من قبل والده الملك ،ينبع من حرصه الشديد على ملكه،ورغبته في الحفاظ عل وجوده ومكانته الذاتية،فكان هذا الاهتمام بهذا الجانب في تربية المعتمد دون أن يعطي عواطفه تجاه ابنه أي اهتمام،وهل كان المعتمد يخشى بطش هذاالملك إن لم يجار رغباته؟

إن الغموض يكتنف هذاالجانب في علاقة المعتمد بأبيه في هذه الفترة،ومع ذلك فقد أفلحت جهود والده في إعداده فارساً،وقائداًمنعكساًذلك من رسالةشعرية كتبهاللمعتضد[1]: (المجتث)

مــولاي يــاذا الأيــادي كــوافكـات الغــوادي
أنــا عــبــيد مــعـد لـحسـم داء الأعــادي
واعتادت النــفــس منــي تــصيُّــد الآســاد
بــحـق لــخمٍ وطــيّ وكــنــدة ومــراد
ملكت من أرض حــمـص إلــى قــرى ســنداد[2]
إنــي عــليـها مـقيــم لــرائــح أو لغــاد
أكــرّ بـالضــرب فيهـا والــطعن عــند الجــلاد
حتــى أبـحتُ حــماهـا بــمرهــفاتٍ حــداد
إن لــم نــكن أُسْـد غيلٍ نــكن جــآذر واد

---

[1] المصدر السابق،ص٣٥

[2] سنداد:نهر بين الحيرة إلى الأبلة بالعراق.

عندما شعر المعتمد بأنه بلغ مستوى من الطموح،والقدرات التي شعر معها بالرضا خاطب والده معلناً عن تكيفه مع خبراته،و مهاراته التي اكتسبها منذ نشأته،وغلب عليها احتكار والده لمواهبه،وتقييدها في أُطر محددة،وأصبح المعتمد أهلاً لتحمل المسؤوليات السياسية التي اقتصرت أهدافه فيها على التفوق الذاتي لدولة آل عباد،تبعاً لسياسة العصر السائدة التي تقوم على الصراع المحموم بين الأندلسيين أنفسهم للحصول على عاليات المناصب وفق شريعة الغاب،وأن البقاء للأقوى فحسب.

واقتصر تحقيق الذات عنده على ما تفرضه ضرورة الحفاظ على وراثة النسب العريق من حدود والتزامات يجب التقيد بها،فالانتماء لأصول عربية هو السبيل لإثبات الهوية،وحفظها وتسبب ذلك في قصور أهداف المعتمد عن الاعتبارات الأهم في الحفاظ على الكيان الإسلامي للأندلس،والدفاع عن الدين الذي لم يشر إليه في أي من شعره،ويرى علماء النفس خطورة الإصرار على نظام،أو توجيه محدد للفرد خلال تنشئته؛لأنه يؤدي إلى تراجع القدرات الإبداعية للفرد[1]فيما بعد،ففترة التنشئة هي الأكثر حسماً في حياة أي إنسان وهي الفترة التي أصر والده فيها على تعزيز مواهب،وأهداف معينة لدى المعتمد،وأغفل الأهداف الكبرى،ومن ثم لم يلتفت إليها المعتمد فكانت ثغرة أخذت تتسع،وأثّرت على مستقبل المعتمد السياسي برمته،وسيفصح شعره عبر المكونات الأخرى بشكل أدق عنها خاصة أن شعر المعتمد كان حديثا عن ذاته،وقضاياها.

---

[1] انظر:سويف،مصطفى:دراسات نفسية في الإبداع والتلقي-ط١،القاهرة،الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٩م،ص٩٧.

ثانياً\ الشعر و المكون العسكري:

يمتاز ظهور هذا المكون في شعر المعتمد بالشمول،والانتقائية،والإيجاز لأهم أحداث تاريخه العسكري،وهي خصائص يشتبك من خلالها الشعر بوظائف فن السيرة[1]؛لحضور قرائن وإشارات تمثل قوة توجيهيه في تأويل النص،وقراءته قراءةً سيرية،فما ورد في شعره من أحداث ووقائع يوزاي-إلى حدكبير-ماذكره المؤرخون،مما أكسبها أهميتها في المصادر التي أولتها التركيز والاهتمام واكتفى بعضهابتتبع ماأورده المعتمدمن خلال شعره الذي تزامن مع بدايةمشاركته في الحياة السياسية،و منذ توليه إمارة شلب والإشراف على جيشها،واستدعاه الحنين إليها بعد أن صار ملكاً،فبعث إلى واليها ابن عمّار؛ليكون واسطة بين الذات وموضوعها،فقال[2]: (الطويل)

ألاحيّ أوطاني بشلْب أبا بكر ... وسلهُن هل عهُد الوصال كما أدري

وسلّم على قصر الشراجيب عن فتى ... له أبداً شوق إلى ذلك القصر

منازل آساد وبيض نواعم ... فناهيك من غِيلٍ وناهيك من خدر

وكم ليلة قد بت أنعم جنحها ... بمخصّبة الأرداف مجدبة الخصر

وبيض وسمر فاعلات بمهجتي ... فعال الصفاح البيض والأسلِ السمر

وليل بسد النهر لهواً قطعتُه ... بذات سوار مثل منعطف النهر

نضَت بردها عن غصن بان منعم ... نضير كما انشق الكمامُ عن الزهر

وباتت تسقيني المدام بلحظها ... فمن كأسها حيناً وحيناً من الثغر

وتطربني أوتارها وكأنني ... سمعت بأوتار الطلي نغم البتر

تكشف هذه القصيدة عن جانب متميز،وواضح من تاريخ المعتمد الشخصي لم يتناوله إلا من خلال حديثه عن شلب التي احتفظت بأسعد،وأهدأ فترات حياته التي لم تتكرر في أي قصيدة

---

[1] انظر:لوجون،فيليب: السيرة الذاتية،ص٤٠.

[2] ديوان المعتمد،ص١١.

أخرى؛لأنها لم تتكرر في حياته مرة ثانية،فعاطفة الحنين _غالباً _تنتج عن ضيق الحاضر وصراعاته واسترجاع الذكريات الجميلة ،يخفف هذا الضيق خاصة أنه في شلب ابتعد لأول من عن مراقبة والده،ولم يمارس فيها أي نشاط عسكري هناك،وتفسر القصيدة بوضوح أسباب إبعاد والده لابن عمار الذي توطدت علاقته به هناك حتى بلغت من اللهو حداً تجاوز حدود المعقول،كماوردفي المصادر.

وكما كشف غرض الحنين عن ملمح من ملامح سيرة المعتمد لمرحلة من مراحل حياته،فقد كان لمرارة هزيمته في حملة مالقة دوره في نجاح التجربة الشعرية،وعمقها،وتواصلها العميق مع الذات،وقضاياها الحية الواقعية،بل وتحول معها الإبداع في هذه التجربةإلى"وسيلة لحل مشكلة غير عادية تبحث عن حل ليس في متناول اليد "[1] .ولكن يبدو ان المشاركة الواسعة في سياسة الدولة من قبل الوزراء لها عواقب غير مرغوبة؛لما لهامن أثر في صعوبة اتخاذ القرا السياسي،وكما انتقى المعتمد هذه الحادثة لهذه الفترة من حياته ،فقد اعتمدت المصادر على شعره عنها كمصدر من مصادر سيرته في هذه القضية،بدليل أنها لم تتناول غيرها ،يقول ابن بسام أحد أقرب المترجمين للمعتمد زمناً:"وأتيت بخبر المعتمد فيهاحين أنبأ به شعر وجرى له على لسان الأدب ذكر[2]" .فقد بعث المعتمد بعدد من القصائد والمقطوعات الشعرية لاستعطاف والده بعد أن فرَّ إلى رندة هرباً من بطشه، وأخذت كل قصيدة،ومقطوعة مكانها بوضوح في سياق تدرج تداعيات موقف الفجوة،والقسوة دون تفاصيل أخرى حتى انتهت القضية ،فبداية نرى توسله بطلب العفو وإقالة العثرة،وعزمه على أن يتغير للأفضل في قصيدة استهلها بمخاطبة والده بلقب مليك،فقال[3]: (الطويل)

ألا يا مليكاً ظل في الخطْب مفزعاً ويا واحداً قد فاق ذا الخلق أجمعا

ترفّق بعبد ودُّه لك شيمةً إذا كان ود من سواه تصنعاً

لئن كنت عن جهل فديتك غافراً فكم عاثرٍ قالت علاك له:لعا

---

[1] عبدالعزيز،سعيد:المدخل إلى الإبداع–ط١،عمان:دار الثقافة،٢٠٠٩،ص٥٥.

[2] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٥٠.

[3] ديوان المعتمد،ص٤١.

أقلني تجد عبداً شكوراً وصارماً يــحزّ مــن الأعــداء ليثاً وأخدعا

علتني من السخط الأليم سحابةٌ فـأغْر بـها ريـح الرضا كـي تَقشَعا

وعندما لا تؤتي هذه القصيدة أُكلها،ولا يبدو بوارق أمل في العفو،يعود المعتمد للشعر لينظم أطول قصائده عن هذه الحادثة في أربعين بيتاً تمثل أبياتها عمق المأسآة،وقمةالأزمة المعتمدة على صدق التجربة التي أسلمته ،لاستبطان الذات في موقف حواري معها؛لتخفيف استبداد الخوف والقلق والترقب من نفس مصير أخيه قبله،فقال مستعطفاوالده[1]: (البسيط)

سكّن فؤداك لاتذهب بك الفكـرُ مـاذا يعيد عـليك البـثُّ والـحـذر

وازجر جفونَك لاترض البكاء لهـا واصبر فقد كنتَ عند الخطب تصطبر

وإن يكن قـدرٌ قد عاق عن وطـر فـلا مـردّ لـما يـأتـي به الـقـدر

وإن تـكن خيبةٌ في الدهر واحـدةٌ فـكم غزوت و من أشياعك الظـفـر

وما تلبث أبيات القصيدة أن تبين مقدار،وشدة التوتر الانفعالي الذي لازمه في غربته ،فأضعف قدراته،واضطربت أفكاره التي يحاول أن يستجمعهاأمام والده لتخرج به من هذه المحنة،فتمتزج الأبعاد الأسطورية لشخصية والده،والتي لم يخرجها المعتمدمن إطارها المرجعي بأبعاد السيرية،ومأساة الذات فتتداخل الشجاعة بالضعف،وتختلط ملامح الجسد بالمبررات،عندما يقول[2] : (البسيط)

فـوّض إلـى الله فيما أنت خائفـه وثـق بمعتـضد بـــالله يغتـــفـر

من مِثل قومك من مثل الهمام أبي عمرو أبـيك له مـجـدٌ و مفتخـر

ســميدع يــهب الآلاف مبتــدئـاً ويـــستقل عطايـاه و يعـــتذر

لــه يـــدٌ كـــل جـــبّار يـقبلها لولا نـداها لـــقلنـــا إنها الحجر

يا ضـيغما يقتل الـفرسان مفـترساً لا توهـــــنني فإنـي الناب والـظفر

وفارســاً تحذر الأبطـال صولتـــه صن عبدك القِنّ فهو الصارم الذكـر

---

[1] ديوان المعتمد،ص٣٦.

[2] المصدر السابق،ص٣٧.

هو الذي لم تشم يمناك صفحته إلا تـأتّى مـراد وانـقـضى وطـر

قد أخـلفتني صروف أنت تعلمها وغال مورد آمـالي بهـا كـدر

فالنـفس جازعـة والعين دامعـة والصـوت منخـفض والطرف منكسر

إن مما يؤيد صدق مبرراته هو أن موقفه أمام هذا الملك الجبار لا يحتمل الادعاء،أو الكذب،وإنما يحتاج لمبررات وأدلة قوية ،فذكّر المعتمد والده بها في المقطع السابق ،حينما أجملها في أمور لاتخفى على الملك وليس الخمر واللهو ،الذي لم ينكره المعتمد،ولكنه في غير هذا الموقف،ثم عادوكرر ولاءه له باستعراض غزواته،ونجاحاته فيما أُوكل إليه؛لئلا يظن به والده أنه أراد الخروج عليه ،كما فعل أخوه إسماعيل ولعل ذلك يفسر لجوء المعتمد لتكراره تلقيب نفسه(بعبد،وعبدك القن،وعبيد)في مواضع من شعره.

ويؤدي غنى التجربة الشعرية دوره في كفاءة النصوص الشعرية الأدائية للمعتمد بما تمتلكه من آليات لإثارة متلقٍ مقصود بعينه،يدرك تذوقه للشعروطربه،وتعصبه لناظميه ولوجود عناصر ممولة لسيرية هذه القصائد،مثل(المعتضد،ملكاً مليكاً،وأبي)التي يصرح بها المعتمد للمرة الأولى والوحيدة ؛ليستجيش بها عاطفة الأبوة، وبما أحاط قصائده من مشاعر وأحاسيس عميقة للمعتمد تكشف عن استحالة قدرة المعتمد الابتعاد عن والده،فملازمة الخوف له في قصائده التي تشير إلى القتال أو الصراع يغلب عليها ظاهرة التدوير التي تطغى على الأبيات التي يجري فيها عندما يقول[1]:الكامل

وغدوت تخـشى للعقا ب كـما تـرجّـى للثواب

بشـبا سناني فـي الطّعا ن وحد سيفي في الضّـراب

وشبا لساني في المـحا فل بـالتّـعثر لا يـشـاب

فأدى الشعر دوره الذي أناطه به المعتمد،وأسهم في عفو والده عنه إن لم يكن السبب الأول في العفو،فعاد المعتمد إلى إشبيلية متعطشاً للقاء والده،ونظم آخر قصائده،فقال[2] : (الطويل)

---

[1] المصدر السابق،ص٣١.

[2] المصدر السابق،ص٣٢.

أمعتـــــضداً بـــالله دعــوة آمــل رجـــاك على بـُعدٍ فأصبح ذا قرب

فـــأمّـــــم مأمــولا وأمّ ميـــمماً وحـــامت أمانيـــه على مورد عــذب

مــوارد ما حـــلّأن عنـــهن حائما ولا غـــادرته غير مستعذب الشـرب

وهــأنــا ظمــآن لمــنهل وردكــم وحسبي موقوف على وردكم حسبي

أفز بالذي أمّلتُ مذ كنت آمــلاً وتحتل من علياه في المنزل الرحب

فجئت أغذ السير حـــتى كأنني لإفراط إغذاذي على أظهر النجب

فألفيت أعلى الناس قدراً وسؤددا وعدلا فدته النفس صدقا بلا كـذب

وينكشف من هذا المجموع الشعري الذي انبثق من الحدث مباشرة أن عاطفة والد المعتمد مرتهنة بمصالحه الذاتية،وحبه لملكه الذي لا ينازعه فيه حتى أبناؤه؛ولذلك لم يتعامل مع المعتمد من مبدأ أنه مازال في طور الخطأ،والصواب،ويترك له مقداراً من الحرية،وإنما أراد أن يصنع منه قائداً لا يهُزم،فانعكس ذلك سلباً على أداء المعتمد،وقدراته العسكرية،وخوفه من الموت الذي لا يتضح أنه صارعه في معركة،أو تعرض لقتال أثناء الحرب حتى عندما تغنى ببطولاته القتالية ،مما يرجح أن المعتمد كان يتولى القيادة الإدارية،وأُصيب المعتمد من جراء ذلك بالإحباط من قسوة والده،فخاطبه قائلا[1]: (الوافر)

ومَــن في كفّــه بؤســـي ونعـــمى تصرّف في العـــدو وفي الحبيب

تســـخّطك المـــــمضّ أعلّ نفسي ومــالي غـير عـفوك مَــن طبـيب

وتحول الإحباط إلى جمود عاطفة المعتمد التي كانت تستثار لأي حدث إلا عند وفاة والده، فلم يرد له فيه رثاء مع وجود عدد من قصائد الرثاء لذاته،وأبنائه"وكأن قريحته قدجمدت،وصمت صادح الشعر في نفسه،ونرجح أن عدم الرثاء لم يكن لضيق عطنه في الرثاء،بل لإحساسه بالخلاص من

---

[1] المصدر السابق،ص٣٢.

جبروت والده وقسوته"[1] . الذي اشتغل به طوال فترة حياته.

وعندما تتزاحم الأحداث،وتفرض نفسها على الملك الشاعر،ويقتنص المعتمد الأحداث التاريخية التي شكلت فواصل تاريخية ليس على مستوى ملكه،وإنما على مستوى الوجود الإسلامي ليصنع منه تاريخه البطولي والقيادي حسب رؤيته الذاتية،عندما فتناول استيلاءه على قرطبةالتي فرضت نفسهاعليه،فقال[2]: (البسيط)

من للملوك بشأو الأصْيَد البـــطل هيهات جاءتكم مهديــة الـــدول

خطبتُ قرطبة الحسناء إذ منــعت من جاء يخطبها بالبيــض والأسل

وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها فأصبحت في سريِّ الحلي والحلل

عِـرْس الملوك لنا في قصرها عُرُس كل المــلوك به في مأتـــم الوجــل

فراقبوا عن قريب لا أبـــا لـــكم هـــجوم ليث بدرع البأس مشتمل

يعتمد في هذه الأبيات على الوظيفة الإخبارية الشعرية كالإيجاز،وبالتركيز على الفكرة الواحدة وهي في ذات الوقت وظيفة سير ذاتية[3]،اكتفى المعتمد بملامح نتيجة صراعه للاستيلاء على قرطبة الذي استمر سنوات عدة،فأشاد بانتصاره مباشرة،بكونه قائداً مغايراً لما هو سائد وسط ساحة الصراع المحموم المذموم بين الأندلسين،ثم يجعل من استيلائه على قرطبة التي صرح باسمها للتأكيد على حقيقة بطولته جانباً استثنائياً في إنجازات عصره لم يتحقق إلا على يديه،دون تطرق للتفاصيل التي قد تحمل بين ثناياها ما يدين موقفه.

ويركز المعتمد على استراتيجية خاصة أنه يضع في حسبانه أن هناك من سيستمع إلى حديث قائد،وملك مثله،فعندما تخاذل ابنه الراضي عن قيادة الجيش،قال[4]: (الكامل)

---

[1] الخانجي،عبدالرحمن:المعتمد بن عباد الإشبيلي،ملك ومملكتان:قراءة سياسية أدبية،الرياض،جامعة الملك سعود ١٩٩٨م،ص٧٥.

[2] ديوان المعتمد، ص ٦٥.

[3] انظر: شرف،عبدالعزيز:أدب السيرة الذاتية،ص١٥٠.

[4] ديوان المعتمد،ص٤٦.

المُلـك فـي طي الدفاتر فتـخلَّ عـن قود العسـاكر

طُـف بالسـرير مسـلِّـما وارجـع لتـوديع الـمنابر

أو لسـتَ تذكر وقت لورَ قـة وقـلبك ثـم طـائـر

لا يـستقـر مـكانه وأبـوك كالضـرغـام خـادر

هـلا اقتـديت بـفعله وأطعـته إذ ذاك آمـر

قد كـان أبـصر بالعـو اقـب والـموارد والمصـادر

يواجه فشل ابنه بطريقة مغايرة لطريقة والده في تعامله مع فشله سابقاً،ويستغل الموقف لصالحه ليرسم ذاته نموذجاًيُحتذى به في البطولات،وحسن القيادة،ويستحضر موقعة له في لورقة وينم استعراض الذات،وتضخيمهابقصد تغطية القصور من قبل المعتمدعن ضعف قياداته العسكرية لضعف قراراته ومواقفه تجاه الهزيمة التي اكتفى فيها بالسخرية من ابنه،وكذلك يكشف شعره عن موقفه مع ابن عمار الذي الذي اعتذر منه بقصيدة قال فيها[1]:**الطويل**

أخـافك للحـق لك في دمي وأرجوك للحـب الذي لك في قلبي

فقال مجيباً له [2]: الطويل

تقدم إلى ما اعتدت عندي من الرحب ورد تـلقك العتـبى حـجاباً من العتـب

متـى تـلقني تلـق الـذي قد بلوته صفوحاً عن الجاني رءوفاً على الصحب

سـأوليك مـني ما عهدت من الرضا وأعـرض عما كان–إن كان– من ذنـب

فـما أشـعر الـرحمن قلـبي قسـوة ولا صـار نسـيان الأذمـة من شـعبي

تكشف هذه القصيدة عن السمات الثابتة لشخصية المعتمد التي لم تغيرها المواقف،ولعل هذه المفاتيح لشخصيته هي التي استغلها ابن عمار لتحقيق مصالحه،ثم إن هذه القصيدة تؤيد أن المعتمد كاد أن يصفح عن هذا الوزير، لولا ما وصل إليه من خبر هجائه المقذع عن طريق زوجته

---

[1] ديوان المعتمد،ص٥١.

[2] المصدر السابق،ص٥٢.

اعتماد أهم منافسيه عند المعتمد التي أذكت جذوة الانتقام فاشتدت لهجته،وعرّض به في قصيدة أخرى إشارة إلى إلى الاستعلاء والقوة،والقدرة على التأديب أولاً،فقال المعتمد يسخر منه[1]: (الكامل)

الأكثرين مسوداً ومُلكا ومتوّجاً في سالف الأعصار

المكثرين من الكباء لنارهم لا يوقدون بغيره للسّاري

لمّا نماهم للعلا عمارُهم تركوا العداة قصيرة الأعمار

ونرى أن هذه الاضطرابات تزج بالمعتمد إلى لجة الضعف والتدهور،ويزداد التوتر،ويتبعه زيادة اختزال الأحداث وتكثيفها،فلم يتناول في شعره بعد ذلك إلا الترحيب بقدوم ابن تاشفين فيقول[2]: (الكامل)

غزو عليك مبارك في طيه الفتح القريب

لله سيفك إنه سخط على دين الصليب

لا بد من يوم يكون له أخٌ يوم القليب[3]

إن ما لم يستطع تحقيقه المعتمد على أرض الواقع حاول أن يحققه على مستوى الشعر،فحوّل العجز عن الدفاع عن ذاته إلى ترحيب عزف به على الوتر الديني الذي تأخرت رؤيته له،فلم ينسب لنفسه من قبل أي هدف إسلامي،أو وظيفة دينيه،وفيها إشارة خفية-أيضاً-لتذكير ابن تاشفين بأن مهمته هي الفتح،ومحاربة الصلبيين فقط،ويحول المعتمد اهتمام المتلقي في مدحه لابن تاشفين الذي ظفر بما لم يظفر به غيره عندما مدحه المعتمدالذي لم يمدح سواه ،مع تأكيده على العلامات والإشارات المرجعية(يوم العروبة العروبة،يوسف الجزيرة،أجواء المعركة)فقال[4]:المتقارب

ويوم العروبة ذدتَ العدا نصرتَ الهدى وأبيت الفرارا

ثبتّ هناك وإن القلوب بين الضلوع لتأبى القرارا

---

[1] المصدر السابق،ص٧٢.

[2] المصدر السابق،ص٥٣.

[3] القليب:يوم بدر.

[4] ديوان المعتمد،ص٩٧.

ولولاك يا يوسف الـمتقى رأيـنا الـجزيرة للـكفر دارا

وللـشهـداء ثنـاء علـيك بحـسن مـقامك ذاك النهارا

ومع أن المعتمد يحاول أن يضع تاريخ ذاته من خلال شعره غير أن فيوض عاطفة الشاعر تطغى على هدف الملك عندما نسي ان الشعر لا يموت،ويكفي"لاعتماد سيرة ذاتية القصيدة حصول اعتراف،أو إشارة،أوقول،أو تعبير[1]"،فشكا لابنه الصغير شدةالمعاناة من الجراح التي أثخنت جسده المترف في تلك المعركة،فقال[2]: (المتقارب)

أبا هاشم هشّمتني الشّفـــار فلله صـــــبري لذاك الأوار

ذكرتُ شخيـصك ما بينهـا فلـــم يدعنـــي حـبه للفرار

اختلف اعتبار المعتمد لذاته لاختلال الشعور الإيجابي تجاه الإنجاز،لاسيما أننا نرجح أنها المرة الأولى التي ينزل فيها إلى أرض المعركة،ويصارع الموت الحقيقي،حيث لم نجد له في معركة قرطبة،أو ماسبقها مثل هذا البوح الصاد ق الذي يؤيد هروب المعتمد من الحياة العسكرية،وعدم قبوله لها،فقد فر منها أثناء ولاية العهد،وفر منها وأوكلها لابن عمار أثناء الملك،وراودته نفسه بالفرار في الزلاقة ،فالهروب كان وسيلة للتخلص من هذا الجانب الذي ينغص عليه وجوده،وكان هذا عامل ضعف آخر أتضحت رموزه في أعطاف شعر المعتمد.

ومما يلفت الانتباه أن المعتمد التزم الصمت في شعره تجاه صراعه وعلاقته مع الفونسو ، التي امتدت سنيّ حكمه،مع أنه تناول ملامح من سياسته القيادية العسكرية،ولو بإلماحات وإشارات قليلة حتى على صعيد المستوى الداخلي لوزرائه الذين شكلوا جبهة قوية في إضعاف الدولة ،فاشتغل بهم المعتمد عن الجبهة الخارجية،كما في رده على ما وصله من وشاية عن وزير له من مجموع وزرائه،فرد قائلاً[3]: (الكامل)

كذبتم مناكم صرحوا أو جمجموا الـــدين أمتـــن والمروءة أكـــرم

---

[1] الصكر،حاتم:مرايا نرسيس ،ص١٤٩.

[2] ديوان المعتمد،ص٤٨.

[3] المصد السابق ،ص٦٧.

خـــنتم ورمتـــم أن أخون و إنما حـاولتـم أن يُســـتخف يلـملـم

أنا ذاكــم لا الـبغى يثـمر غرسه عــندي ولا مــبنى الصنيعة يهـدم

وربما يعود هذا الصمت ليبقي العلاقة في الظل،ولا يبين ضعفه؛ولئلا يعرضه حديثه عنها إلى إدانات،أو اتهامات تشوه ما صنع ،لاسيما أن الشعر كان سلاحه الذي لا يخذله في أي موقف وأتاح له أن يحقق بعض أهدافه التي عجز عن تحقيقها على أرض الواقع عندما خلق للوقائع والأحداث كيفيات لا تمثل حقيقتها الفعلية،ولكنها تتلاءم مع رغباته،وتتلون بمشاعره وطموحاته ،وألقت بأثرها على المتلقي الذي اكتفى ببريق الأحداث،ووهج عاطفة الشاعر،فاحتفى بأمر هذا الملك على مر العصورمتعاطفامعه.

ثالثاً\ الشعر والمكون الأسري:

تحرك هذا المكون في شعر المعتمد ضمن حركة حياة الشاعر،ورافقه في عزه،وذله،وملكه،وأسره وفقره،وغناه،وانسجم ظهور هذا المكون في شعره مع الذي حدثنا به المؤرخون عن أسرته متمثلة في زوجته وأبنائه.

ونرى أنه يجعل التصريح بأسماء أسرته ميثاقاً معقوداً بينه،وبين القارئ ففي شعره الذي فاض بحب اعتماد،وصرح باسمها، وكنيتها وجرّد نفسه من ألقابها؛ليحيل حياته الخاصة،فقال[1]: (الكامل)

بكرتْ تلـوم وفي الـفؤاد بـلابل سفها وهل يثني الحليـمَ الجـاهـلُ

يا هـذه كُـفّي فإنـي عـاشـق مـن لايـَردّ هـواي عنـها عـاذلُ

حـبُّ اعتمـاد فـي الجـوانح ساكنُ لا القـلب ضـاق به ولا هـو راحـلُ

يا ظـبيةً سـلـبتْ فـؤاد محـمد أو لـمْ يروعْـك الهـزبُر الـباسـلُ

ويريد المعتمد بهذا التصريح لاسمها،واسمه عدم ذوبان علاقته باعتماد،أو تلاشيها،ولئلا تبقى مجهولة ضمن المجموع الخارجي،فأكد على ذلك في كل مرة يتناول قصة حبه لها كما في قوله[2]:**الطويل**

فـما حـلّ خـلٌ مـن فؤاد خليلـه محـل اعتماد من فـؤاد مـحـمد

ولكنهـا الأقدار تـردي بلا ظُبا وتُصـمي بلا قتـل وتـرمي بلا يـد

إن حاجة المعتمد للحب المتبادل مع زوجته،وتعلقه بها،فرض عليه أن يتكلف بقصيدة يبدأ كل بيت فيها بحرف من حروف اسمها؛ليثبت لها شدة تعلقه بها،فقال[3]: (المتقارب)

أغائبـةَ الشخـص عـن نـاظري وحاضـرة فـي صـمـيم الـفـؤاد

عليـك سلام بقـدر الشجُـون ودمـع الشـؤون وقـدر السهـاد

تملكـت منـي صعـب المـرام وصـادفـت ودّي سهـل القيـاد

---

[1] ديوان المعتمد،ص٢٣.

[2] المصدر السابق،ص١٠.

[3] المصدر السابق،ص٨.

مـــرادى لقياك في كـــل حيـــن فيـــاليت أنـــي أُعطـــى مُـــرادي

أقيـــمي عـــلى العـهد مـا بيننـــا ولا تسحـــيلـي لطـــول البعـــاد

دســـست اسمك الحـــلو في طيه وألّفـــت فيـــه حـــروف اعتـــماد

كان لاعتماد حضورها الخاص،والعميق في حياة المعتمد الذي تحول إلى دلال أشغل المعتمد عن أمور دولته،فظل يبحث عن رضاها لعتبها الدائم في مثل قوله[1] : (الطويل)

تظـــنّ بنـــا أمُّ الربـيـع سـآمـــة ألا غـفر الرحـمن ذنباً تـواقعـــه

أ أهجر ظبياً في ضلوعي كناسه وبـدر تـــمام فـي جفوني مطالعه

ويبدد الشعر الظنون حول حقيقة قصة(يوم الطين)التي كانت أقرب إلى الخيال؛لما فيها من المبالغة عندما استرجع المعتمد ماضيه بعد رؤيته زوجته،وبناتها حينما قمن بزيارته في السجن في أغمات ،فقال يتذكرالماضي[2] : (البسيط)

فيما مضى كنـت بالأعياد مـسروراً فساءك العيـد فـي أغمـات مأسوراَ

ترى بنـاتك فـي الأطـمار جائعـة يغـزلن للنـــاس لا يملكن قطمـيراَ

بـــرزن نحـوك للتســـليم خـاشعة أبـصـارهن حـــسيرات مكـــاسيرا

يطأن فـي الطـين والأقدامُ حافية كـــأنها لم تـــطأ مســـكاً وكـافـورا

لا خـدَّ إلا ويشـكو الـجدب ظاهـرُه ولـــيس إلا مع الأنفـــاس ممطـورا

وتؤيد هذه الأبيات حقيقة نفوذها على المعتمد الذي حقق لها فوق ماكانت تتمنى،وإذا كانت الإشارة،أو الإلماحة كفيلة بإضاءة ملمح سيري،فإننا نضع أيدينا في ديوان الشاعر على ما يشير إلى المنافسة بين اعتماد وابن عمار،والتنازع على مكانتهما عند المعتمد،حيث يظهر قلق ابن عمار من إقامة المعتمد مع زوجته أم الربيع،وابتعاده عن مجالسه فبعث له في إقامته معها[3]: (الطويل)

---

[1] المصدر السابق،ص٢٠.

[2] المصدر السابق،ص١٠٠.

[3] ديوان المعتمد،ص١٨.

تجهّـم وجـه الأفق واعتلّت النـفس لأن لم تلح للعيــن أنت ولا الشمس

فإن كــان هـذا منكمـا عــن توافـق وضمـــكما أنـــس فيهنيكمـــا الأنـس

فرد عليه المعتمد بما يشير إلى علو مكانة اعتماد لديه،وقال[1]: (الطويل)

خــليلي قــولا هــل عليّ ملامـــةٌ إذا لم أغــب إلا لتحضرنـي الشمس

وأهـدى بأكواس المـــدام كواكـبا إذا أبصـرتها العين هشّت لـها النفس

سـلام سـلام أنتـما الأنــس كلـه وإن غبتـــما أمُّ الربيــع هــي الأنـس

وتأخذ علاقته بأبنائه منحىً معاكساً لعلاقته المتوترة الجافة مع والده،وتنقلب من خلال شعره إلى علاقة حب متبادل بعيداً عن التكلف،فكان في شعره أباً يتدفق عطفاً،وحناناً لأبنائه،ورفد قصائده بأسمائهم التي تسور الذات المشحونة بالعاطفة،وقوةالانتماءالأسري،في مثل قوله مرحّبابقدوم ابنه المأمون أبي الفتح[2]:**المتقارب**

وردت أبـــا الفتـــح يا ســـيدي وورود الكـــرى بعـد طول السهـــاد

ولمـا احتـللت بنـــا لـم تحـــــل مـــن القـلب والـعـين غـــيـــر الســـواد

ودونـــك مـــنـا طيـوراً غـــدت تطـــير إليـــك بريـــش الـــوداد

إن التقرب من أبنائه إلى درجة وصف ابنه بـ(سيدي)يدل على أنهم لم يكونوا يخشون بطشاً ولا وعيداً،وتجربته مع ابنه الراضي تضعه في موقف مقارنة لتجربته مع ابيه ،غير أننا لا نجد أثراً لإرهاب أو قسوة،بل كان عتاباً يأخذ طابع السخرية من عكوفه على الدرس،والعلم في ظل الظروف العسكرية الصعبة،عندماقال في قصيدة بعث بها لابنه[3] : (الكامل)

طـف بالسرير مـسلما وارجـــع لتوديع المنابـر

وازحف إلى جيش المعا رف تقهر الحبر المغامر

---

[1] المصدر السابق،ص١٩.

[2] المصدر السابق،ص٤٦.

[3] المصدر السابق،ص٤٦.

واطــعن بأطراف اليراع نصرت في ثغر المحابر

كان هذا الرفق بالراضي جديراً بأن يستوعبه الابن،فيعتذر معترفاً بالجميل في قصيدة بعث بها إلى أبيه،ومنها[1]:الكامل

مولاي قد أصبحتُ كــافر بجميع ما تحــوي الدفاتر

وعلــمتُ أن الــملك مــا بيــن الأسنــة والبــواتر

وجد المعتمد في علاقته بأسرته ما يعوضه عن حاجات نفسية لم تشبع منذ صغره،ووجد في قربهم أماناً،وعزة لملكه،فعندما دخل ابنه الرشيد عليه قام يمدحه[2]: الوافر

فــــذا سكنــي أبــوئــه فــؤادي وذا نــجــلي أُقــلّده الــمعــالي

شــغلت بذا الطلا خلدي ونفسي ولكــــــنّي بــذاك رخــــي بـــال

فــقــام يــقر عيــني فــي مــضاء ويسـلك مسـلكي فـي كل حـال

فــدمــــنا لــلــعلاء ودام فــينــا فــإنّـا للــسمــاح ولــلنّــــزال

كما عمل المعتمد على إشعار أبنائه بالثقة،أو إشراكهم في مجالسه الأدبية،فعندما استجاز الحاضرين بعد أن صنع قسيما من بيت شعري،فقال[3]: (الكامل)

سعد الســعود يتيه فــوق الزاهـــي

قال ابنه الرشيــــدبعد عجزالحاضرين[4]:

وكلاهمــا فــي حسنـــه متنــاهــي

ونرى أن تجارب المعتمد الشعريةالتي تقف على ملامح من سيرته الأسرية ،تنبثق من حياته السياسية وصراعاته وحروبه،فرثاؤه لأبنائه يظهر ملامح الفجيعة من التحول السياسي الذي بدأت ملامحه منذ

---

[1] المصدر السابق،ص٤٨.

[2] المصدر السابق،ص٢٤.

[3] المصدر السابق،ص٧٦.

[4] المصدر السابق،ص٧٦.

مقتل ابنيه المأمون،والراضي في صراعه الحربي برندة،وقرطبة في مثل قوله[1]: (الطويل)

بني صغير أو خليل موافق يمزق ذا قفرٌ ويغرق ذا بحرُ

ونجمان زين للزمان احتواهما بقرطبة النكداء أو رندة القبرُ

ويتلاحق قتل أبنائه الفتح،ويزيد سراج الدولة في نهاية حكمه للأندلس،ويبدوأنه لم يرثيهما إلا بعد أن وصل إلى منفاه،فقال[2]: (الطويل)

هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه يزيد فهل عند الكواكب من خُبْر

توليتما حين انتهت بكما العُلا إلى غاية كل إلى غاية يجري

أبا خالد أورثتني الحزن خالداً أبا النصر مذ ودعت ودعني نصري

وقبلكما قد أُودِع القلبُ حسرةً تُجدد طول الدهر ثكل أبي عمرو

ويمتد أثر هذا المكون بامتداد حياة المعتمد؛ليواكب شعره تحولاته السياسية،وعندما ينتقل إلى أغمات لم يحمّل زوجته أي مسؤولية لانهيار دولته،بل بقيت أثيرته التي شق عليه ما تلاقيه من هوان وذل،فنقل شكواها قائلاً [3]: (الرجز)

قالت:لقد هُنّا هُناَ مولاي أين جاهُنا

قلت لها:إلى هُنا صيَّرنا إلهُنا

وتجتمع اعتمادوبناتهاوأبناؤها الذين رثاهم المعتمد،وتصبح سيدة إشبيلية الكبرى أماً ثكلى في قول المعتمد[4]: (الطويل)

معي الأخواتُ الهالكاتُ عليكما وأمّكما الثكلى المضرَّمة الصدر

يفصح المعتمد-أيضاً-عن هوية التعامل الأسري والمشاركة،والتشاور في قضايا أبنائه كشكل حضاري امتاز به في تعامله مع أبنائه،كما في رسالته لابنته بثينة بعد أن بعثت له من الأندلس برسالة

---

[1] المصدر السابق،ص٦٩.

[2] المصدر السابق،ص١٠٥.

[3] المصدر السابق،ص١١٤.

[4] المصدر السابق،ص١٠٧.

تطلب رأيه في زواجها في قصيدة نظمتها،فردعليها،فقال[1]: (السريع)

بنيتـــي كـــوني به بـــرَّة فقد قضى الدهرُ بإسعافه

وكان هذا الود قد سمح للمعتمد بأن يبوح بآلامه لابنه الصغيرأبي هاشم،فيقول[2]: (المتقارب)

أبا هاشم هشمتني الشفـــار فلله صـــبري لـــذاك الأُوار

وقف شعر المعتمد على ملامح من حياته الأسرية كزوجته،وحبه لها،وأبنائه،وتعامله معهم والعلاقة الحية القائمة بينه وبين أسرته،ورابط المعتمد في خندق الانتماء الأسري طوال حياته وكانت أسرته هي الجانب الأثيري من حياته الذي لم يهمله رغم مشاغله السياسية ،وصراعاته في الأندلس،وتشتت شمله،واصطحب من تبقى منهم معه في منفاه في أغمات وعانوامعه في أسره ،كماأكدذلك في شعره.

---

[1] المصدر السابق،ص١٠٨.

[2] المصدر السابق،ص٤٨.

رابعاً\الشعر والمكون الاجتماعي:

إن قيمة الشعر المنعكس عن هذا المكون ليس في عمق التجربة والإبداع،وإنما دخوله في تفصيلات الواقع اليومي الممتزج بظلال الحدث العام الذي يرتبط بالأبعاد السيرية لحياة المعتمد لاسيما أن هذا المكون يُعد أحفل المكونات التي تفاعل معها شعر المعتمد،واستأثر بالجانب الأكبر من ديوانه الأندلسي.

واتفقت المصادر مع شعر المعتمد المنعكس عن هذا المكون على تناول الجانب اللاهي،وأشكاله المختلفة دوناً عن غيره من حياة المعتمد الاجتماعية، بل امتاز بأنه كان أكثر مكاشفة،وبوحاً بهذه الملامح في شعره،فقد صرح بأنه انزلق للخمر منذ صباه،وشبابه المبكر، عندما قال لوالده[1]: (البسيط)

ماتركـيَ الخمر من زهد ولا ورع فلم يفارق لعمـري سنِّـي الصغـرُ

وكان للتبكير في الإقبال عليها أثره في وقوع المعتمد في أسرها،والاستغراق في شربها حتى مازجت دماءه،وعبّر عن ذلك عندما مرّ بكرمةٍ علقت بردائه،فقال[2] : (الوافر)

مـررت بـكرمة جـذبت ردائـي فـقلت لها:عـزمت على أذائـي

فـقالـت:لـم مـررت ولـم تسـلّم وقـد رويت عظامـك من دمـائي

وقد انعكس هذا الشغف بها أيضاً على غزارة شعره الخمري،فقد جمع وزيره أبو عامر بن سالمة مانظمه المعتمد في الخمر من شعر،ونثر في كتاب أسماه(حديقة الارتياح في حقيقة الراح)[3] ولم يصلنا.

وكان للمعتمد فلسفته ورؤيته للخمر التي تعكس مزاجه الخاص،وتقوم على فكرة ربط الخمر بالبقاء والحياة التي يتشبث بها،كما أن الخمر حل سريع،وفوري للمشكلات التي تؤرقه إلى درجة تريح عقله بذهابه،فهو وسيلة لهروبه من الواقع السياسي الذي لايميل له،عندما يقول[4]: (الوافر)

عـلّل فـؤادك قـد أبل عليـل واغـنم حـياتك فـالبقاء قليـل

---

[1] المصدر السابق،ص ٣٩.

[2] المصدر السابق،ص٢.

[3]انظر: ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج٢،٨٩.

[4] ديوان المعتمد،ص٢٥.

لـو أن عـمرك ألـف عام كامل ماكـان حـقاً أن يقـال طويـل

أكذا يقود بك الأسى نحو الردى والـعود عـود والشـمول شمـول

لا يستبيك الـهم نفسك عنـوة والـكأس سيف في يديك صقيـل

بالعقل تزدحم الهموم على الحشا فالعـقل عنـدي أن تزول عقول

ونرى تكرار اقتران سعادة المعتمد،وبهجته بالخمر التي حرص على أن ترافقه ؛لتشعره بالأنس فتحقق له السعادة التي لـم يحققها منصبه له كملك،يصف يومياته التي يقضيها في أنحاء مملكته التي لا تخلو من أشكال اللهو،فيقول[1]: (الكامل)

ولـقد شربت الراح يسطع نورهـا والليـل قـد مد الظلام رداء

حـتى تبدى البدر في جوزائه مـلِكا تـناهى بهـجة وبـهـاء

لمـا أراد تـنزها فـي غـربـة جـعل المـظلة فـوقه الجوزاء

وحكيته في الأرض بين مواكب وكـواعب جمعت سنا وسناء

وإذا تـغنت هـذه في مـزهر لـم تأل علـى التريـك غناء

فالشاعر لايأتي بمواده من غير واقعه اليومي،ومظاهره الاجتماعية السائدة،وكانت مكانة المعتمد الاجتماعية المرموقة التي اكتسبها من مركزه السياسي دورها في ترويج الخمر كقيمة مقبولة ومتوفرة في الأوساط الاجتماعية المحفزة أصلاً لقبولها في دعوة موجهة لمجتمعه ؛ليشاركه في معاقراتها فيما يشبه المجالس العامة التي يتجاذب فيها الناس أطراف الحديث،عندما قال[2]: (السريع)

وهاهو المجلس المعـدّ لكـم فادخل إليه وليدخل القـوم

إلـى كـؤوس لـو شـاء شاربها يعـوم فيها لأمكـن العـوم

وتتسع دائرة اللهو لتقوم لها مجالس ،يوفر لها المعتمد وسائل الأنس والعبث من خمر وغناء وقيان لما توافر له من أموال طائلة،وإمكانيات لم تتوفر لغيره قي عصره،وأضحت ولها تقاليدها كتوجيه الدعوات

---

[1] المصدر السابق،ص٢٨.

[2] المصدر السابق،ص٦٢.

لحضورمجالسها وقد كتب المعتمد لوزيره أبي الطيب المصري يستدعيه لمجلس شراب،فقال[1] : (الخفيف)

أيها الصاحب الذي فارقت عيني ... ونفسي منه السنا و السناء

نحن في المجلس الذي يهب الراحة ... والمسمع الغنى والغناء

نتعاطى التي تُنسى من اللذة ... والرقة الهوى والهواء

فأته تلف راحة ومحيا ... قد أعدَّا لك الحيا والحياء

وتمكنت منه حتى غدت من الهدايا الثمينة التي يبعثها لأصدقائه،فقد بعث إلى شاعره الداني فقال هذه الأبيات ،ومعها قطيع مترع من الخمر[2]،وكأس البلار [3]: (الكامل)

جاءتك ليلاً في ثياب نهار ... من نورها وغلالة البلار

كالمشتري قد لف من مريخه ... إذ لفه في الماء جذوة نار

لطف الجمود لذا وذا فتألفا ... لم يلق ضد ضده بنفار

نلاحظ تكرار البحث عن الراحة،والهدوء،والسعادة التي تبعثها هذه المجالس ، فهيأت قصور المعتمد لها ومنهاقصرالزهراءالذي وصفه المعتمد ،فقال[4] : (الخفيف)

حسد القصر فيكم الزهراء ... ولعمري وعمركم ما أساء

قد طلعتم بها شموسا صباحاً ... فاطلعوا عندنا بدوراً مساءً

ولا يكتمل أنس المعتمد بدون النساء،فأتى شعره مصداقاً لتعلقه بهن،ويفرد المعتمد لهن في ديوانه حيزاً كبيراً،يمور بعدد من أسماء جواريه،ومحظياته،وبألقاب وصفات بعضهن،فله جارية اسمها وداد ،قال فيها [5] : (الخفيف)

اشرب الكأس في وداد ودادك ... وتأنس بذكرها في انفرادك

---

[1] ديوان المعتمد ،ص٤٩.

[2] قطيع:إناء الخمر عند الأندلسيين.

[3] ديوان المعتمد،ص١٨.

[4] المصدر السابق،ص٤٩.

[5] ديوان المعتمد،ص١٠.

قــمر غـاب عـن جـفونك مـرآ هـ وســكناه في ســواد فـؤادك

وله في أخرى اسمها جوهرة [1]: (الرجز)

جــوهــرُ قـــد عـذّبنــي منــك تـــمادى الغــضب

فــزفرتي فـــي صعَـــدٍ وعــبرتـــي فـــي صـــبب

مسكــنُك القــلب فــلا تـــرضى لـــــه بالـــوصـب

ولاينبض شعر المعتمد الغزلي في جواريه بالتدفق الشعري،مثلما ينبض بانسياقه وراء شهواته والبحث عن المتع من خلال علاقته بالمرأة،فجعل من ذاته عاشقاً لكل جواريه في سلسلة لا نهاية لها من الأسماء،منهن أم عبيدة،وقد قال فيها[2]: (الطويل)

سقى الله صوب القطر أم عبيدة كما قد سـقت قلـبي على حره برداً

هي الظبي جيداً والـغزالة مــقلة وروض الربا عرفـا وغصن النـقا قدّا

إن سيرية هذا الشعر تنطلق من أنه وليد اللحظة،وينظمه أثناء الحدث،ويعبر به المعتمد عن ذاته وعن يومياته في قصوره مع جواريه اللاتي يحرص على تميزهن بأسمائهن،ولذلك فهو لايبذل جهداً إبداعياً كبيراً في هذاالغزل،ويكتفي بالمقطوعة،فالأصالةفي هذا الشعر ليست في التجود الشعري وإنما في التعبير الصادق عن المواقف،والمشاهدات الحية،فعندما زارته جاريته سحر في مرضه،قال[3]: الطويل

سأسأل ربي أن يديم بي الشكوى فــقد قـربت مـن مضجعي الرشأ الأحــوى

إذا عــلة كــانت لـقربك عــلة تمنيت أن تبقـى بجـسمي وأن تقـوى

شــكوت وسـحر قد أغـبت زيارتي فجاءت بها النعمى التي سُميت بلوى

وبداهة فإن حضور المرأة في شعره مقترن بالمجون،واللهو والبحث عن اللذة التي كان يحرص عليها في مجالسه،فقد نظر إلى إحدى جواريه عندما كانت تحمل كأساً من الخمر،وراعها البرق،فألهمه

---

[1] المصدر السابق،ص٣.

[2] المصدر السابق،ص٧.

[3] المصدر السابق،ص٢.

قوله [1]: (السريع)

ريعت من البرق وفي كفها برق من القهوة لماع

ياليت شعري وهي شمس الضحا كيف من الأنوار ترتاع

كما أن شعره يؤيد أنه كان رقيق الحاشية،لطيف المعشر،وهذا سبب آخر لقربه من نسائه،وعطفه عليهن،وكانت هذه الرقة تخالف ما يجب أن يكون عليه ملك كالمعتمد لئلاتوهن قواه،وتخور عزائمه بدليل أنه شيع جمعاً من جواريه،ونسائه،غادرن قرطبة إلى إشبيلية فقال[2]: (الكامل)

دارى الغرام ورام أن يتكتما وأبى لسان دموعه فتكلما

رحلوا وأخفى وجده فأذاعه ماء الشجون مصرحاً ومجمجما

سايرتهم والليل غُفْلٌ ثوبه حتى تراءى للنواظر معلما

فوقفت ثَمّ محيراً و تسلبت مني يد الإصباح تلك الأنجما

وتمادى في لهوه وعبثه،واستغل حريته الاجتماعيةفي إقباله على قيم مرفوضةأخرى،وهي غزله بالغلمان الذي يؤكد على ذاتيته فيه عندما يحدد اسم غلامه سيف،فيقول[3] : (البسيط)

سُميت سيفاً وفي عينيك سيفان هذا لقتلى مسلول وهذان

أما كفت قتلة بالسيف واحدة حتى أتيح من الأجفان ثنتان

أسرته وثناني غنج مقلته أسيره فكلانا آسر عان

ياسيف أمسك بمعروف أسير هوى لا يبتغي منك تسريحا بإحسان

وأوغل المعتمد في هذا السلوك السلبي الذي صاحبه في يوم العروبة،ولم يراع هيبة الموقف،ولم يردعه خطورة الحدث،فقال [4]: (الكامل)

---

[1] المصر السابق،ص٢١.

[2] المصدر السابق،ص٢٦.

[3] المصدر السابق،ص٢٧.

[4] المصدر السابق،ص ٢٣.

أبصرت طوقك بين مشتجر[1]القنا فبـــدا لـــطرفي أنــه فـــلــك

أولـــيس وجــهك فـوقـــه قـمـرا يجـــلي بنـــوره نـور الـــحلـك

هذا الشذوذ في هذا الموقف يدل على أن المعتمد شابت تكوينه النفسي جوانب قصور معينة هي قصور الدين،وعدم وجود رادع أخلاقي،أو اجتماعي،فكان من أسباب ضياع ملكه وتقوضه.

ومن خلال ماتقدم فإن غزارة هذا الشعر الذي ينعكس عن هذا المكون يدل دلالة واضحة على ميل المعتمد القوي للحياة الاجتماعية،والاطمئنان بها،والتمتع بهادون قيد،أواكتراث لوجهات النظرفهو يرى أنه يخضع للروح الاجتماعية السائدة،فلن يذكر عنه ما يشذ عن مجتمعه.

كما أطل شعره بوضوح على علاقاته الاجتماعية،واستوعب شعره مقولة المترجمين بأنه:"اجتمع له من الوزراء،والشعراء ما لم يجتمع لأحد من قبله"[2] .وهيأله دوره الاجتماعي المرموق الاندماج في نظام من العلاقات الاجتماعية خارجية،وداخلية في إطار مكانته السياسية خاصة بعد أن أصبح ملكاً له جاذبية في المجتمع الأندلسي،وتمثلت علاقاته الخارجية بابن صمادح الذي ربطته به وشائج صداقة تغيرت فيما بعد،وتبادل معه عدداً من القصائد منها قول المعتمد في جواب لابن صمادح فيما كتبه له من شعر[3]: (البسيط)

أنفحة الروض رقت في صبا السحر من بعد ما بات والأنداء في سـمر

لا بـــل تـحيةُ محـض الـــودّ بلّـغها بّرٌ شريفُ المـعالي مـاجدُ النـــفر

أمـا لعمر أبـي يحـــيى لقد وصـــلت من بـــرّه صـلة أحـــلى من الظـفر

أما علاقاته الداخلية فيبدو من شعره الذي انتظم في رسائل إخوانية اقتصارها على وزرائه وأصدقائه الشعراء الذين غصت بهم دواوين دولته في موضوعات لاتخرج عن بحثه التسلية،أو تزجية الأوقات وكما تميزت مكانة ابن عمار السياسية عند المعتمد فكذلك تفوقت منزلته على غيره من الوزراء،فعندما

---

[1] مشتجر القنا:مختلطة.

[2] المراكشي:المعجب،ص٢٠٦.

[3] ديوان المعتمد،ص٥٦.

أدخل على المعتمد بعض فتيانه باكورة نرجس كتب إلى ابن عمار يستدعيه،فقال[1]: (البسيط)

قد زارنا النـرجس الذكيّ وحــان من يومنـــا العـشيّ

ونـحن فـي مجـلس أنيق وقد ظمـــئنا و ثَـــمّ ريُّ

ولـــي خـــليل غـدا سمي يـــاليتَه ســـاعد السمـــيُّ

ويتبين من رد ابن عمار إظهاره للولاء،والطاعة حتى جعل قبلته وجه المعتمد،فقال[2]:

هـــأنا بالبـــاب عبد قـــن قبـــلتُه وجـــهُك الـسّنـــيّ

ولم تكن كثرة هؤلاء الوزراء محمودة لمستقبل المعتمد؛لما أبدو من تزلف،ورياء،ولتقديم ما يرضي المعتمد من لهو يشغلونه به عن سياسية دولته،فقد بلغ من أحد وزرائه أن كتب يستدعي المعتمد لمجلس لهو،فقال[3]:**السريع**

أيـــدك الله إنـــه يـــوم تحجب فيه الصلاة والصوم

وتـعقر الراح غـير وانـية لاعـار فـي عـقرها ولا لوم

فاستجاب له المعتمد،وانساق كعادته لإغراءات هذه المجالس،فقال[4]: (السريع)

حُمت بخفـّاقة الجنـاح وقد أمكـن ورد فـلا يـطل حـوم

ويبدومن شعر المعتمد أنه امتلك جاذبيةفي المشاركة،وقدرة على الانتشار الاجتماعي بوفائه لأصدقائه وثنائه لهم ،فقد كتب للوزير أبي عمر،فقال[5] : (المتقارب)

فديت أباعمـــر من فـتى مـــتى يُخـتبر غـيبه يحـمـد

وداد صحيح وخلق مليح ونطـق فصـيح لدى المشهـد

فـهون عليـك مـن النائبا ت إذا كان نصري بالمرصـد

---

[1] المصدر السابق،ص٦٤.

[2] المصدر السابق،ص٦٤.

[3] المصدر السابق،ص٦١.

[4] المصدر السابق،ص٦٢.

[5] المصدر السابق ٥٣.

وصارت مجالسه الأدبية ملتقى لكثير من الشعراء والأدباء،ومرد ذلك لما قاله المراكشي عن المعتمد بأن:"كان مقتصراً من العلوم على الأدب،وما يتعلق به،وينضم إليه "،فشكّل له تعويضاً لجوانب النقص التي كان يعاني منها.

وازدهرت المساجلات،والمنافسات على نظم الشعر بديهة،وارتجالاً،فيما يعن له من مشاهد اللهو،والترف في مجالسه،فقد كان نظم الشعر،وكتابته في عهد المعتمد شكلاً من أشكال الرقي الاجتماعي فعندما وقفت بين يديه جارية مسبلة الذوائب قال مرتجلاً [1]: (الكامل)

علقــت جائلــة الوشــاح غــريرة تخــتال بيــن أسنــــة و بــواتر

وبعث إلى أحد وزرائه أن يجيز له هذا البيت،فقال[2] :الكامل

راقـــت محاسنهـا ورق أديـــمها فتــكاد تبــصر باطنــا من ظـــاهر.

ونلاحظ أنه بقدر ما قدم المعتمد من جهود في خدمة الشعر،وأهله في رحاب مملكته ،افلقد تضافر شعره،وجهده مع غيرهامن الأسباب في تقوية عوامل الانهيار لدولته،والإسراع بها عندما أهدر وقته في مجالسة شعرائه وأصدقائه في نظم الكثير من المعميات،والمطيرات،والألغاز التي تبوأت في ديوانه مساحة واضحة،وكأن الأحداث والصراعات لا تستعر من حوله يوماً بعد يوم.

لقد أعطى المعتمد جوانب اللهو ،والمجون،والتسلية اهتماماً،ووقتاً كبيراً لم يبذله في جوانب حياته الأخرى،ولا أثر في شعره المنعكس عن هذا المكون الاجتماعي ما يدل على نشاط ابتكاري،أو مشاركة اجتماعية،أو نقد لسلوك سلبي،أو ظاهرة اجتماعية،ولم يتغن بالفضائل الذاتية من كرم وسماحة،أو عدل أو دين،وإنما انصرف لذاته،ولذاتها،والمرجوح أن وزراءه كان لهم الدور الأكبر في إبقاء المعتمد في حدود قصوره،وما فيها من متع انغمس فيها حدّ الغرق فلم يرغيرها،ومارسوا عليه تعتيماً إعلامياً مقابل ثقة المعتمدبهم وإحسانه لهم.

ويقول النقاد:"حين تضع النصوص نفسها في المشهد كتمثيل مهم لهذا الإنسان،وفلسفته نسمي

---

[1] المراكشي:المعجب،ص٢٠١.

[2] ديوان المعتمد،ص١٤.

ذلك سيرة ذاتية" [1] . يتضح من شعر المعتمد الذي أمامنا سمات متضاربة لشخصية المعتمد ،فنراه ملكا ذا مزاج خاص يميل إلى اللهو،والمجون،وتستهويه النساء،ويعشق الغلمان،ويمتلك عطفاً وحنوا على من حوله من جوارٍ،ونساء وقدرة على الانتشار الاجتماعي الذي لا تتحد ذاته إلا به وكان وفياًلأصدقائه محسناً إلى إحسانهم،ويقبل عليهم باحترام،ومرد هذا التناقض إلى عدم قدرة المعتمد على اتخاذالقرارات المناسبة؛لضعف يعتري همته مع ما يحيط به من ظروف سلبت منه قدرته على اتخاذ القرارت المناسبة بحق نفسه،ومجتمعه ووجوده وكيانه الإسلامي.

[1] الصكر:حاتم،مرايا نرسيس،ص١٠٩.

المبحث الثالث:الشعر ومأساة الأسر:

شكلت مأساة الأسر،ومحنة السقوط منعرجاً جديداً في الإبداع الشعري للمعتمد،وبنى المعتمد على أنقاض مملكة بني عباد مملكة للشعر،وتجلت فيها ملامح من سيرته في أدق صورها وأصدقها،وشملت أبعاد من حياته كلها،ونقله عمق التجربة،ونضوجهاإلى مصاف الشعراء،ووهبه ذلك نوعاً من الارتباط القوي مع متلقيه على مر التاريخ عندما حرك لدى هذا المتلقي البعد المأسوي الذي وجد فيه القارئ جانباً من حياته استثارفيه المشاركة والتعاطف،وانطبق عليه قول هوجو:"عندماأحدثك عن نفسي أحدثك عن نفسك [1]"،فحقق بذلك أهم عنصر من العناصر السير ذاتية[2]لنفسه،فأبقى ذكره طاغياً على وجه التاريخ والأدب الأندلسي بالموهبة،والتجربة الشعرية الصادقة،لا بالسيادةوالملك الذي أخفق في الحفاظ عليه

ورصد المعتمد هذه الفترة الحرجة من حياته رصداً دقيقاً،واستطاع أن يقدم بها عملاً دراماياً كاملاً بدءًا من تداعيات سقوط إشبيلية،ومحطات رحلته،ثم تبلغ القضية ذروة الإحساس بالمأسآة شعراً عندما أصبح سجيناً سياسياً في أغمات حتى توفي.

كانت قد اجتمعت قبيل سقوط إشبيلية عوامل اجتماعية،وسياسية معقدة امتدت جذورها إلى فترة التنشئة،وكان أوضحها،وأقواها تكاتف المؤمرات السياسية،والداخلية،والخارجية التي أكدها شعر المعتمد أمام تشكيك المصادر،أو عدم تناولها لها بوضوح،أو عرض بعضها لها عرضاً سريعاً كوشاية ابن صمادح صديق المعتمد القديم الذي أولاه احترامه،وثقته عند ابن تاشفين،ويعود عرض المصادر السريع لها إلى أن المعتمد تناولها في بيتين من الشعر،فقال[3] : (الكامل)

يا من تمـــرس بي يريد مساءتي لا تــعرضن فقد نصحتُ لمندم

من غـــــرّه مني خلائق سهلة فالـــسم تحت ليان مس الأرقم

وتظهر في البيتين حساسية المعتمد لذاته،واعتداده بها كما يقول ابن بسام.

---

[1] العاملي:السيرة الذاتية في التراث،ص٢٧

[2] انظر:المعتصم،محمد:خطاب الذات في الادب العربي،د.ط،الرباط،مطبعة الأمنية،٢٠٠٧م،ص٥٥.

[3] ديوان المعتمد،ص٦١.

استغل المعتمد قدرات الشعر على الاختزال،فتكثيف المعاني للدلالة على موقفه من هذه الوشاية فاللجوء للتهديد لا ينجم إلا عن الضعف،أوشدة الخوف الذي يعطي إحساساً ضمنياً بالفشل والشعور الحتمي بالنهاية.

وفي لحظة يعز وصفها انفرد المعتمد بتسجيل آخر مشاهد من حياته السياسية المنهكة بالفشل والتحالفات الخائبة حتى مع وزرائه الذين أظهروا ميلهم،ومداهنتهم للمرابطين،وسهلوا دخولهم لإشبيلية كما بينته قصيدة المعتمد التي نظمها عندما دخل عليه المرابطون بإشبيليه،واقتحموا قصره فقال[1]: (الكامل)

لـما تماسـكت الدمـوع وتنـبه القلب الـصديـع
قالوا الخـضوع سياسـة فليبد منك لهم خـضوع
وألذّ من طعم الـخضـوع علـى فمـي السم النقيع
إن يسـلب القوم الـعدا ملـكـي وتسلمني الجموع
فـالقـلب بـين ضلوعه لـم تسـلم القلب الضلوع
لم أستلب شـرف الطباع أيـسلب الـشرف الرفـيع
قـد رمـت يوم نزالـهم ألا تـحـصـنني الـدروع
وبرزت ليس سوى القميص عـلى الحـشا شيءدفـوع
وبـذلت نفـسي كي تسيل إذا يـسيل بـها النـجيع
أجـلي تأخـر لـم يـكن بهـوايَ ذلّـي والخضوع

لا نقف على الإجراءات التي حصلت قبل اقتحام إشبيلية،غير أنه يبدو علم المعتمد بذلك من خلال ما ورد في هذه القصيدة من قرار المعتمد في مشاوراته السابقة لاقتحام المرابطين،ورفضه القاطع لسياسة الخضوع،والاستسلام التي نصحوه بها،فلم يقتنع أن يخضع لمن جلبهم لترسية ملكه،وأيد قناعته طمأنة منجمه بأن طالع النجوم ،والوقت يبشره بنصره،يتضح ذلك في توبيخ المعتمد وسخريته منه فيما

---

[1] المصدر السابق،ص٨٨.

بعد،عندما قال المعتمد يخاطب منجمه الخولاني[1]: (الكامل)

أرمــدتَ أم بنجومـك الرّمـد قـد عـاد ضدّا كـلُّ مـا تعـد

هل في حسابك ما تؤملـــه أم قـــد تصـرم عـــندك الأمد

قد كنت تهمس إذ تخاطبني وتخطّ كــرهاً إن عصـتك يـد

الــملْك لايبــقى عـلى أحد والــموتُ لا يــبقى لــه أحـد

واستغل المرابطون غفلته،وانغماسه في لهوه،وتسربله في قمصان الحرير،واقتحموا قصره،وهنا استسلم المعتمد،وأعلن الخضوع،والاستسلام مجبراً،وثل عرشه،وصمت صادح الشعر في نفسه،ولم يقف على اللحظات الحرجة،ولحظة الإقصاء،ولذلك أغفل التاريخ هذه اللحظات،ولم يستوعب المعتمد ماحدث إلا بعد أن أصبح في عرض البحر،وتراءت له جبال درن[2]فاصلة بين مطامن النعيم في الأندلس،وحافة الهاوية في الأسر وكأنها ترية قبره،فقال[3]:

هــــذي جــبال درن قــلبي بهـــا ذو درن

يا ليـــتني لـــم أرها وليـــتـــــها لـــــم ترني

كـــــأنها تـــخبرني بـــــــأنها تـــــقبرني

وبدت هذه المرحلة حقبة من الإبداع لها خصوصيتها،وطبيعتها النوعية"فنحن أمام ذات جديدة قامت على أنقاض ذات قديمة تعرضت رموزها إلى إعادة تعريف" [4]. وأدرك المعتمد أن شعره أصبح الصوت الوحيد الذي يصل إلى العالم،والتاريخ، فحرص على تسجيل مشـــاهد تـثير الشـفـقة على الملك المنكوب،فعندما حط رحله أول الأمر في مدينة طنجة،تقاطر عليه الشعراء يطلبون نواله وعطاء الملك الإشبيلي الذي اشتهر به،فقال المعتمد[5]:الكامل

---

[1] المصدر السابق،ص٨٧.

[2] جبال درن:هي سلسلة أطلس الممتدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

[3] ديوان المعتمد،ص١٥٠.

[4] شرف عبدالعزيز:أدب السيرة،ص١٤٨.

[5] ديوان المعتمد،ص٩١.

شعـــــــراء طنجة كلهُم والمغرب ذهبــوا من الإغراب أبعد مذهب

سألوا العــسير من الأســـير وإنــه بسؤالهم لأحـق مــنهم فاعـجب

لـــولا الحـــــياء وعـزّةٌ لــخمــية طي الحشا لحكاهم في المطلب

قد كان إن سئل الندى يجزل و إن نادى الـصريخ بـبابه اركب يركـب

نرى أن المعتمد حريص على أن يحيل الشعر إلى ذاته،فيوضح ذلك بالعلاقات والإشارات التي تخصه دونما غيره،كنسبه العريق الذي بقي يجلله بعدما خُلع من كل ملكه،فقدكان يعطي المال ويزود الشعراء بالشعر الذي ينظمه ليذيع به صيته،وهذا ماعتاده الشاعر الذي استجدى المعتمد الأسير شعراً في طنجه،فرد عليه المعتمد قائلاً[1]:**البسيط**

لو أستطيـع على التــزويـد بالذهـب فعــلت لكن عـــداني طارق النـــوب

يا سائـل الشـعر يجـتاب الفـلاة بـه تزويدك الشعر لا يغني عـــن الـــسغب

زاد مـــن الريـــح لا رِي ولا شـــبع غـدا لـه مـــؤثـراً ذو الـلـــب والأدب

أصبحت صفراً يدي ممـــا تجود بـــه ما أعجب الحادث المقدور في رجـــب

ذلٌ وفـــــقر أزالا عـــــزة وغـنـــــى نعـــمى اللـــيالي من البلوى على كثب

لقد نقض الأسر مكونات حياته السابقة كلها،فأخذ يتغنى بفضائله المغفلةسابقاً،فرثى كرمه،ونعى جوده،وعطاءه في كل مناسبة تعن له،فعندما رد على ابنه الرشيد برسالة شعرية،قال[2]: (الخفيف)

كنتُ حلفَ الندى ورب السماح وحـــبيب النـــفـوس و الأرواح

إذ يمـــيني لـــــلبذل يوم العطايا ولـــقبض الأرواح يوم الكـــفـاح

وأنـــا الـــيوم رهـن أســر وفـــقـر مستباح الحمى مهيض الجـناح

"إن مفهوم الذات بمثابة تقييم الشخص لنفسه ككل من حيث مظهره وخلفيته وأصوله،وكذلك

---

[1] المصدر السابق،ص٩٢.

[2] المصدر السابق،ص٩٤.

قدراته،ووسائله،واتجاهاته،وشعوره" [1] .فالمعتمد كان يرى أن من أهم مقومات وجوده،وشهرته،وقوته في الأندلس هي كثرة عطائه،والمبالغة في الجود،والكرم،ولم يتقين أن هذا الإسراف هز اقتصاد دولته،وأضعفها،ولم يعد للمعتمد سوى الشعر ينفس به عن رغباته،ويحفظ به ذاته كتعويض نفسي لما ساءت سمعته،وانتشر خبر هزيمته شرقاً،وغرباً،فحوّل ذلك إلى إيهاب يميزه،ويعرف به عندما أفجع أسره الأكباد،فقال يعزي نفسه[2]: (البسيط)

أنبـاءُ أسـرك قـد طـــبقن آفـــاقـا بل قد عممْن جهات الأرض إقلاقا

سرتْ من الغرب لا يطوى لها قـدم حـتى أتت شـرقها تنعـــاك إشـراقا

فأحـــرق الفـــجع أكـــباداً و أفئدةً وأغـرق الـــدمع آمـاقاً وأحـداقا

قد ضاق صدر المعالي إذ نعيتُ لها وقـيل إن عليـك الـقيدُ قـد ضاقا

ونقل الشاعر إلى أغمات،بقلب خافق،وألمٍ يضنيه ماحل به من فجيعة،مردداً [3]:(الكامل)

سلّـــت علي يدُ الخطوب سيوفها فجذذن من جلدي الحصيفُ الأمتنا

ضربتْ بـها أيدي الخطوب و إنما ضـربت رقـــاب الآملـين بها الـمنى

يا آملـــي العـادات مـن نفـحاتنا كفـّوا فـــإن الـــدهر كـــفّ أكفـّنا

ونظم الكثير من البكائيات الشعرية،تراوحت بين الذكريات،واليوميات التي التقت فيها ثنائية الملك والأسر،فكشف عن مساحة أرحب من سيرته ماضياً،وحاضراً من خلال تسجيله لملامح من يومياته في أغمات التي تجتر ماضيه بأسى وحزن،فالواضح من شعره أنه في بداية سجنه عومل بقدر من الاحترام،فقد قبل ابن تاشفين شفاعته في بعض سجناء فاس الذين كانوا معه،وذلك عندما قال في وداعهم باكياً يتمنى مرافقتهم[4] : (الطويل)

أما لانسكاب الدمع في الخد راحـة لقـــد آن أن يفـنى ويـــفنى به الخـد

---

[1] سليمان،سناد محمد:تحسن مفهوم الذات-تنمية الوعي بالذات-ط١،القاهر:عالم الكتب،٢٠٠٥م،ط١،ص١٩.

[2] ديوان المعتمد،ص١١٠.

[3] المصدر السابق،ص١١٥.

[4] المصدر السابق،ص٩٤.

هبــوا دعــوة يــا آل فاس لمبتـلى بمـا منه قد عافاكـم الصمـد الفـرد

تخـلصتم مـن سجن أغمات والتـوت علـي قيـود لـم يحـــن فكهـا بعـــد

فهنئتـم النعـــمى ودامـــت لكلـكـم سـعـادته إن كـان قـد خانـني سـعد

خرجتم جمـاعات وخلفـت واحـداً ولله فـي أمـــري و أمركم الحمـــد

ويظهر من شعره أن ابن تاشفين وفّر بعض الخدم في سجنه،وإن لم ينالوا رضا المعتمد،فقد حرص ابن تاشفين ألا يتقنوا العربية لئلا يتواصل معهم المعتمد،وكانوا لا يعاملونه كملك أسير،فعندما زاره شاعره ابن حمديس لم يبلغوه بذلك،فاعتذر المعتمد منه،وبين له السبب في قوله[1] :**الطويل**

حُجبتُ فلا والله ماذاك عن أمري فأصغ فدتك النفس سمعاً إلى عـذري

فما صار إخلال المكارم لي هوى ولا دار إحـــجال لمثلـك في صـدري

عـــدمت من الخـدام كل مهذب أشـــير إليـــه بالـــخفي مـــن الأمـر

ولم يبـــق إلا كـــل أدكن ألـكن فـــلا أذ ن فـــي الأذن يبـرأ مـــن عرٍّ

حـــمار إذا يـــمشي ونسر محـلق إذا طـــار بعـــداً للـــحمار وللـــنسر

لانرى أثراً لأحد سعى في خلاصه،أو الاهتمام به،أو انقاذه من أسره،ويعود هذا الجفاء لفداحة المأسآة التي تسبب فيها المعتمد،فتخلى عنه كل من حوله،ولم يتصل به إلا ثلاثة من شعرائه في فترات متباعده،ومنهم الشاعر الداني[2]الذي بقي المعتمد معه كريماً،فأعطاه مالاً يذوب له حياءً لقلته عندما زاره في سجنه؛ليحفظ بها المعتمد مابقي من مكانته،وقال[3]:**الوفر**

إليـــــــك النّزرُ من كـف الأسير فـــإن تقبل تكـن عين الشكـــور

تقـــبل مـا يـــذوب لـه حيـــاء وإن عذرتـــه حـــالات الـفقيـــر

ولاتعـــجب لخـطب غـض منـــه أليـس الخسف ملتـــزم البـــدور

---

[1] المصدر السابق،ص١٠١.

[2] هوأبوبكرمحمدبن عيسى اللخمي عرف بابن اللبانة من أعظم شعراء المعتمد وأقربهم إليه،وارتبط بصداقته للمعتمد بعدأسره.

[3] ديوان المعتمد،ص١٠٢.

ورَجّ بجبــره عقــبى نـــــــداه فكــم جــبرت يداه من كسيـــر

لم يعد للمعتمد في منفاه إلا الذكريات التي يعود إليها دائماً،فحاصرته حياة قصوره في الأندلس وسحر الرفاهية،وترف العيش الذي انقلب إلى فقر وغربة ووحدة لاتلتقي مع ماضيه إلا في الشعر فقال[1]:**الطويل**

غــريبٌ بأرض الــمغربين أسيــر سيبـــكى عليه منبر وسـريـر
وتندبه البـض الصـــوارم والـــقنا وينهـــلّ دمــع بينهن غـزيـر
سيبـكيه في زاهـيه والزاهر الندى وطـــلابه والــعرف ثم نكـير
مضــى زمــن والمـلك مستأنس بـه وأصبـــح عنه اليوم وهو نفــور
أذلّ بنــي مـاء الســماء زمــانهـم وذُل بنـــي مـــاء السماء كثير
فـمــا ماؤهـــا إلا بـكاءا عليـهـــم يفيض على الأكباد منه بـحور

إن استحضار رموز المجد،والعز الحضارية التي لا تقبل التحول هي الشاهد فعلاً على إنجازات المعتمد أثناء ملكه،فحرص على تسجيلها في شعره،كما أنها الجانب الذي يشعر المعتمد تجاهه بالانتماء والحب،ففيها عاش ملكاً بمفهومه الخاص الذي لم يفارق ملذاته،ولهوه حتى بعد أن بُعد عنها،فهي الباقية في ذكرياته،وإن لم يعد يصرح بما في هذه القصور من متع كما صرح بها أيام حريته عندما كان الملك مستأنس به،وفي المقابل لايجد المعتمد في خبراته السياسية ما يستحق أن يقال،ولم تشفع له صلاته بالأحداث الكبرى أن ينقل منها شيئا في شعره فلم يكن للوطن،أو المعارك،أو العلاقات السياسية أثر في شعره في أغمات سوى التغني بشجاعته،وبطولاته بشكل عام ولم يظهر أساه على الأندلس،ولا ضياعها،ولم يرد لها ذكر في شعره،فكانت قصوره ونسبه،ومايعانيه

وما يحب من ماضيه فقط محور الذكريات في شعره الأغماتي،في مثل قوله[2] :**البسيط**

بكــى المبارك في إثر ابن عباد بكـــى على إثر غزلان وآساد

---

[1] المصدر السابق،ص٩٨.

[2] المصدر السابق،ص٩٥.

بكت ثرياه لا غُمّت كواكبها بمثل نوء الثريا الرائح الغادي

بكى الوحيد بكى الزاهي وقبته والنـــهر والتاج كل ذله بـادي

مـــاء الســـماء على أبنائه درر يالجّة البحر دومي ذات إزبـاد

يقوم نجاح تجربة المعتمد على ابتعاده عما ينفر منه المتلقي،فأغفل الحقائق التاريخية،وهرب منها في شعره كما هرب منها في واقعه،وعندما أمعن الواقع في إحباط الذات أمعن هو في احتضانها بصدق وحول فشله في الواقع إلى نجاح منقطع النظيرفي شعره،وإلى فن منظم ،ومعادل موضوعي له اكتفى به التاريخ مصدراً لسيرته.

والمعتمد حريص على ما يثبت ذاته،وما يؤكد على مجده،فأضاف إلى منجزه الحضاري سني حكم دولة بني عباد،وهي سبعون سنة،فقال[1]:

حججاً عشرا وعشرا بعـــدها وثلاثيـــن وعـــشرين نسـق

أشـرقت عـشرون من أنفسها وثـــلاث نيـّرات تـــأتـــلق

لم تحتفظ الذاكرة إلا بحياة الأنس والمتعة،ولذلك لم يدين المعتمد ماضيه،بل كان رصيداً ينبعث منه الأمل،ولم يذكر والدولم يشر إلى أحد،واكتفى بإدانته للدهر في مواضع عدة من قصائده ومقطوعاته دون الخوض في التفاصيل،كقوله [2] :الرمل

قبّح الدهـُر فمـــاذا صـنعا كلـــما أعـطـى نفيســا نزعـا

قد هوى ظلما بمن عـاداته أن يناد ي كلَّ من يهوى لعَـــا

وقوله[3] :الرمل

حنق الدهـــر علينا فســـطا وكـذا الدهر على الحـــر حنق

وألمح في مرتين إلى يد الغدر والمؤمراة ضده،ولاندري ما أسباب هذا التكتم من المعتمد إلا أنه لايريد

---

[1] المصدر السابق،ص١٠٩.

[2] المصدر السابق،ص١٠٨.

[3] المصدر السابق،ص١٠٩.

أن يعود لماض جرّه إلى الأسر.

كانت المعاملة المقبولة له قد أمدته بفسحة من الأمل في العودة،وظهر ذلك في مقطوعات حكميه تبين أن العسر يتبعه اليسر،ومنها قوله[1] :البسيط

من يصحب الدهر لم يعدم تقلبه والشوك ينبت فيه الورد والآس

يمر حينا وتحلو لي حوادثه فقلما جرحتْ إلا انثنت تاسو

واستعان بإشراقات التاريخ المشابهة له،فوجد في أبي فراس الأمير الأسير خير مثال يعزيه،ويرى في قصته بارقة أمل في العودة عندما قال[2] :البسيط

اقنع بحظّك في دنياك ماكانا وعزّ نفسك إن فارقت أوطانا

في الله من كل مفقود مضى عوض فأشعر القلب سلوانا وإيمانا

أكلما سنحت ذكرى طربت لها مجّت دموعك في خديك طوفانا

أما سمعت بسلطان شبيهك قد بزّته سود خطوب الدهر سلطانا

وطّن على الكره وارقب إثره فرجا واستغنم الله تغنم منه غفرانا

ولعل ذلك من أسباب تشابه موضوعات شعره مع موضوعات شعر أبي فراس من جهات عدة[3]،وازداد هذا الأمل قوة عندما علم بثورة ابنه عبدالجبار،فنظم قصيدة تلمح إلى أنه يرغب في العودة؛ليعوض ما أهمله من قبل،ومنها [4]: (المتقارب)

كذا يهلك السيف في جفنه إلى هزّ كفّ طويل الحنين

ألا كرم ينعش السمهري ويشفيه من كل داء دفين

يؤمل من صدرها ضمة تبوئه صدرَ كفّ معين

إن هذه القصيدة سببت للمعتمد انتكاسة قوية،فساءت معاملته،فربما توقع ابن تاشفين تآمره مع

---

[1] المصدر السابق،ص١٠٧.

[2] المصدر السابق،ص١١٤.

[3] انظر:جرار،صلاح:قراءات في الشعر الأندلسي-ط١،عمان :دار المسيرة،٢٠٠٧م،ص١٣٩.

[4] ديوان المعتمد،ص١١٦.

ابنه،فغلظ عليه في معاملته،وتعمقت المأسآة بوضوح في عدد من قصائده،ونكّل به وبأسرته بأشكال عدة فوضعه في سجن انفرادي وأبعده عن أسرته كما في قوله[1] : (الطويل)

بـكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي سـوارح لاسـجـن يعـوق ولا كـبل

ولـم تـك والله الـمعيـذ حـسادة ولـكـن حنـيـناً أن شـكلي لها شكل

فـأسرح لا شملي صديع ولا الحشا وجـيـع ولا عـيـناي يـبكيهـمـا ثكـل

هـنيئا لـها أن لـم يفـرق جميعهـا ولا ذاق منـها البـعد مـن أهـلها أهـل

وزيادة في التنكيل فقد كان السجن موحشاً لا يسمع فيه إلا نعيق الغربان،وتنويع وسائل التعذيب حتى وصل الأمرلوضع العقارب معه في السجن،يقول[2]: (البسيط)

غربـان أغمـات لاتعدمن طيبـة من الليـالي وأفناناً من الشجـر

و يـا عـقاربها لا تعـدمـي أبـداً شجّاً و عقراً ولا نوعاً من الضرر

كمـا ملأتن قلبي مذ حللت بها مخـافة أسلمـت عيني إلى السهر

"وشكلت مرارة المأسآةحضوراً جسدياً لافتاً في شعره حتى غدت عناصر تكوينه الجسمانية سلوكاً إبداعياًفي أثره الفني[3]" .يدل على فجيعة التحول،والضعف الذي عقب الترف،والنعيم والحرية فلو مارس المعتمد الحرب والقتال،وصارع شدة الجروح في الحرب ما شكا ما أصاب جسده من القيد الذي أصبح ملهماً له،فقال[4] : (الطويل)

تعطّف في ساقـي تعطف أرقـم يساورهـا عضـا بأنيـاب ضيغـم

وقال[5] : (المتقارب)

تـبدّلـتُ من عز ظـلّ البنـود بذلّ الحـديـد و ثقـل القيـود

---

[1] المصدر السابق،ص١١٠.

[2] المصدر السابق،ص١٠٠

[3] النويهي،محمد:ثقافة الناقد الأدبي،د.ط،القاهرة:مطبعة القاهرة،١٩٦٩م،ص١٣٥.

[4] ديوان المعتمد،ص١١١.

[5] المصدر السابق،ص٩٤.

وبالغ المرابطون في إيذاء المعتمد عندما حولن بناته إلى خادمات عند أحد حراس المعتمد الذي كان يرتب صفوف طالبي النوال في مملكة المعتمد مما يدل على وجود مؤامرة كبيرة ضد المعتمد واستمالة المرابطين وجنوده،وحاشيته،ومكافآتهم بعد ذلك بخدمة بنات المعتمد لهم،ويظهر ذلك من قول المعتمد[1] : (الوافر)

أأرغب أن أعيش أرى بناتي عوارى قد أضر بها الحفاء

خوادم بنت من قد كان أعلى مراتبه إذا أبدو النداء

وطرد الناس بين يدي ممري وكفهم إذا غص الفناء

وركض عن يمين أو شمال لنظم الجيش إن رفع اللواء

يعنّيه أمام أو وراء إذا اختلّ الأمام أو الوراء

وحديث المعتمد عما أصاب أسرته في أغمات يفند ما أورده ابن بسام عن هذه الأسرة عندما قال "وعُمر بهم مركب(أي أسرة المعتمد)،فركبواالبحر ورزقوا السلامة فيه إلى أن وصلواإلى أمير المسلمين ، وناصرالدين أبي يعقوب بن تاشفين ،فبقوا هناك في كنفه،وذرى فضله تحت إحسان عميم ،وبذل نائل جسيم "[2].

ظل المعتمد يحمل إ رث الملوك في أثواب الأسير،فلم يستطعف ابن تاشفين كما استشفع والده ،وترفع كذلك عن الهجاء الرخيص،فقد انطبق عليه في شعره قول المقري عنه :كان عف الذيل،واللسان ،ولكنه خاطب في إشارة خفية لابن تاشفين،فقال[3]: (السريع)

قيدي أما تعلمني مسلما أبيتَ أن تشفق أو ترحما

دمي شراب لك واللحم قد أكلته لا تهشم الأعظما

يبصرني فيك أبو هاشم فينثني القلب وقد هشما

---

[1] المصدر السابق،ص٩٠.

[2] ابن بسام:الذخيرة،ق٢،ج١،ص٥٦.

[3] ديوان المعتمد،ص١١٢.

ارحـــم طفـــيلا طائـشا لبُّه لم يخش أن يأتيك مسترحمـا

وارحـــم أُخـــيّاتٍ له مثله جـــرعتَهنّ الســـمَّ والعـلقمـا

لانتوقع أن المعتمد اضطر إلى هذا الاستشفاع غير المباشر إلا بعد أن اشتدت وطأة اللوعة وارتفعت نغمة الألم للملك الأسير،وتكدست حوله أسباب الشقاء،وأغلق باب اليأس كل منافذ الأمل أمام الشاعر،و قطع كل شفاعات الرجاء في الخلاص،فأيقن بقرب النهاية،و وصل إلى مرحلة شبيهة بالاحتضار،فأطلق العنان لشعره في قصيدة رثا بها نفسه؛لتكون خاتمة حياته،فقال[1]: (البسيط)

قبر الغريب سقاك الرائح الـــغادي حـــقا ظفـــرت بأشـــلاء ابن عـباد

بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصـــلت بالخصب إن أجدبوا بالري للصادي

بالطّاعن الضّارب الرامي إذا اقتـتلوا بالـــموت أحـمر بالضرغامة العادي

بالدّهر في نـقَم بالبـــحر في نعـــم بالبدر في ظلم بالـصدر في النادي

نعَم هـــو الـــحقُ وافـــاني به قدر مـــن الســـماء فـــوافاني لميعاد

انطلقت قصيدته بلقب الغريب و كان أول من أطلقه على نفسه؛ولذلك نودي في صلاة الجنازة بهذا اللقب إمعاناً في إخفاء هويته،وعنه أخذه ابن بسام في ترجمته للمعتمد،وفي هذه القصيدة تربعت ملامح من سيرته بأبعادهاالإنسانية كلها،وكانت تجاربه السياسية هي الفاعلة في الذات المبدعة التي حملت شاعراً صادف أن يكون ملكاً،وليس ملكاً صادف أن يكون شاعراً.

---

[1] المصدر السابق،ص٩٦.

الفصل الثاني :
ملامح من الـــسيرة الفكريةفي الشعر الأندلسي - الإلبيري نموذجاً -.

المبحث الأول\المكونات والمؤثرات :

إن احتياج السيرة الفكرية لشروط خاصة؛ترتكز على كون صاحب السيرة من المعروفين والمؤثرين في المجال الثقافي،والمعرفي،والإبداعي،وذي وضع اعتباري مميز واضح[1]،كأن يكون مفكراً أو أديباً،أو عالماً، فإننا حين نضع الإلبيري تحت ضوء هذه الشروط نجد أن هناك قصوراً كبيراً يشوب سيرته في المصادر، والتراجم التي لم تحتفظ إلا بنتف من أخباره، مقابل مابلغه هذا الشاعر من شهرة ومكانة في الأندلس،يقول المستشرق غرسيه غومس:"كان الإلبيري واحداً من الطرز الاجتماعية التي باشرت تأثيراً بالغ الحسم على امتداد كل تاريخ الإسلام في الأندلس "[2] . لذا فلا بدّ من تتبع ملامح من السياق الذي جرت عليه سيرته في عصره ثقافياً وفكرياً واجتماعياًوسياسياً وغيرها من قرائن الحال المصاحبة لها ظلالاً ،نتفيأ بها أهم مكونات سيرته ونهتدي بها إلى أبرز المؤثرات في تكوين شخصيته الموسوعية،وسيرته الفكرية ، من أهمها:

أولاً\المكون الثقافي: يقوم هذا المكون على محورين هما:

١-دراسته وتعليمه :

الإلبيري[3]هو:أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي[4].

---

[1] الداهي،محمد:شعرية السيرة الذهنية(محاولة تأ صيل)-ط١،القاهرة:رؤية للنشر والتوزيع،٢٠٠٨م،ص١٨.

[2] غومس،إميليو غرسيه:مع شعراء الأندلس والمتنبي سيرودراسات-ط١،مصر:دار المعارف،١٩٧٨م،ص١١١.

[3]للوقوف على ترجمة الإلبيري،انظر:الضّبي :بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس-ط١،تحقيق:إبراهيم الإيباري بيروت:دار الكتاب اللبناني،ج١،ص٢٧٤.ابن الآبار:التكملة لكتاب الصلة-ط١،تحقيق:إبراهيم الأيباري١٩٨٩م بيروت:دار الكتاب اللبناني،ص١٧٧.ابن سعيد:المقرب في حلي المغرب،ج٢،ص١٣٢،مقدمة ديوان الإلبيري-ط٢تحقيق:محمد رضوان الداية،دمشق:دار قتيبة،١٩٨١م.

[4] تجيب:قبيلة من اليمن،وذكر ابن حزم أن ديار تجيب بالأندلس في سرقسطة،و لرورقة،وقليل منهم سكنوا إلبيرة،أو نزحوا إليها،انظر:ابن حزم:جمهرة أنساب العرب-ط٥،تحقيق:عبدالسلام هارون،سلسة ذخائر العرب،ص٤٣٠.

من أهل حصن العقاب[1]القريبة من إلبيرة[2]الواقعة جنوبي الأندلس، لذلك اشتهر بالإلبيري نسبة إليها، كعاد ةكثير من الأعلام لا نجد تسجيلاً لطفولته،أو أي إشارة في كتب التراجم والمصادر.

عُرف الإلبيــري واشتهر من خلال ثقافته،وعلمه الذي أمدّه بطاقات معرفية وعلمية،وإبداعية اصطبغت بها حياته في جوانبها المتعددة، فقد بدأ تعليمه في مسقط رأسه حصن العقاب التي ولد فيها عام (٣٥٧هـ) ،كما يبدأ أترابه من طلاب العلم في الأندلس،يــقــول ابن خــلدون عـــن منهجيةالتعليم عند أهل الأندلس للناشئة: "أما أهل الأندلس فمذهبهم في تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعــونه في التعليم إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك،وأسّـــــه ومنبع الدين والعلوم وجعلوه أصلاًفي التعليم ،فلا يقصرون ذلك عليه فقط،بل يخلطون في تعليم الولدان رواية الشعر في الغالب،والترسل،وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط،والكتابة" [3] .

درس الإلبيري القرآن،والحديث،والفقه،والأصول على أيدي الفقهاء، والعلمــاء حتى استــظهر القرآن حفظاً،وتفسيراً،"ويقص علينا مترجمون أن له شيوخاً كُثر،ولكنهم لا يذكرون من بينهم إلا اسماً واحداً من شيوخه هو ابن زمنين[4]أحد شيوخه"[5]،وقد لزمه الإلبيري منذ نشأته فقد كان مشهوراً بالعلم والصلاح،وقد لزمه الإلبيري منذ نشأته.

و أخذ الإلبيري مؤلفات ابن زمنين،ودرس مصنفاته في التفسير،والفقه،والحديث،والوعظ وكذلك

---

[1] حصن العقاب:اسم حصن قريب من غرناطة،ويقال له رابطة العقاب،وهو موضع يكون فيه العبادوالزهاد، جرت فيه موقعة حاسمة بين المسلمين في عهد الموحدين مع الأسبان،وبينه وبين غرناطة ثمانية أميال.انظر: المقري:نفح الطيب، ج١،ص٢٥.

[2] إلبيرة:هي مركز،وعاصمة جنوب الأندلس قبل غرناطة،كانت من أعظم قواعد الأندلس الجليلة،والأمصار النبيلة،ومن أعظم كور الأندلس،ويدل على ذلك آثارها الخالدة خربت أيام الفتنة البربرية،وخرج منها أهلها،انظر:الحميري:أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم:صفة جزيرة الأندلس.د.ط،تحقيق:ليفي بروفناسال،بيروت:دار الجبل،د.ت،ص٢٩.

[3] ابن خلدون:مقدمة ابن خلدون،الفصل ٣١،ص٥٣٧.

[4] هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عيسى بن زمنين الأندلسي الإلبيري،شيخ قرطبة،وهو من أشهر علماء القرن الرابع اشتهر بكثرة المؤلفات في علوم التفسير،والسنة،وكان قدوة في الزهد من أشهر كتبه"تفسير ابن زمنين"توفي عام(٣٩٩هـ).انظر:ابن الآبار:التكملة لكتاب الصلة،ج١،ص٣٦.

[5] غومس،إميلو غورسيه:مع شعراءالأندلس،والمتنبي- ص٩٤.

أخبار الصالحين،وروى شعره بنفسه،ودونه[١]،كما عاصر الإلبيري أبو الطليطل الأشبوي صديقا[٢]،و رفيقاً له في حلقات العلم والدراسة في إلبيرة.

كان الإلبيري ممن قوي عزمه على الرحلة لطلب العلم الذي شغف به منذ صغره،فانتقل من حصن العقاب الذي تلقى فيه مبادئ علومه إلى إلبيرة،واستوطنها،أخذ عن فقهائها،وتلقى مزيداً من العلوم فيها،وأصبح له فيها مجلس،يصفه ابن الآبار، فيقول:"كان من أهل العلم و العمل"[٣] .بعد ذلك انتقل إلى غرناطة لطلب العلم بعد أن خربت إلبيرة،وخرج منها معظم الفقهاء والعلماء إلى أنحاء الأندلس،وتوجه هو إلى غرناطة[٤]،وهي حينذاك لم تخل من أشراف أماثل،وعلماء أكابر وشعراء أفاضل"[٥] . والأرجح _أيضا أنه ارتحل إلى حواضر الأندلس العلمية الزاخرة بالنشاط العلمي ،مثل إشبلية وقرطبة ففيها ،كان شيخه ابن زمنين وطلاب العلم في عصره الذين كانوا يتنافسون في العلم والتأليف، يتدربون فيها على إجادة التدريس وممارسة الإقراء والرواية واستقر الأمر بالإلبيري للإقامة الدائمة بغرناطة واشتغل بالحديث،واشتهر بالفقه،والقراءات القرآنية[٦]،وأصبح في جملة الفقهاء الشبان وظهر بين أصحابه،وطلابه ونشر فيهم أوائل شعره وصار مؤهلاً للتدريس في مساجد غرناطة ومعاقلها العلمية،ثم اشتغل كاتباً

---

[١] المصدر السابق،ص٩٥.

[٢] هو علي بن إسماعيل الفهري القرشي الأشبوني،ويعرف بأبي الحسن الطليطل فقيه عالم،يقول عنه ابن بسام:"شبهه أهل زمانه بأبي العتاهية،انظر:ابن بسام:الذخيرة،ق٤،ج٣.

[٣] ابن الآبار التكملة كتاب الصلة،ج١،ص١٦٧.

[٤] غرناطة :هي أعظم مدن الأندلس الجنوبية،وأعظم قواعدها،انقلبت إليها الإمارة بعد إلبيرة،واشتهرت بجمالها،وكانت تسمى دمشق الأندلس،وكانت آخر معاقل دولة الإسلام في الأندلس،وأبرز مدينة حفظت ملامح من الحضارة الأندلسية،انظر:ابن الخطيب:الإحاطة،ج،ص٩١.

[٥] المقري:نفح الطيب،ج١،ص١٤٨.

[٦]انظر: ديوان أبي إسحاق الإلبيري،المقدمة ص٨.

مدة من الزمن لبعض قضاةغرناطة،وأخيراً اختصه قاضي غرناطة ابن توبة[١]،فعمل كاتباً له وتوثقت بين الإثنين عُرى الصداقة،والمحبة،فاصطحبه ابن توبةفي أسفاره وفي رحلته إلى مرسية مدينة الزهاد[٢] في ذلك الحين في الأندلس،وأخذ عن علمائها[٣]،ولم تذكر المصادر أن له علاقة بالأمراء،والوزراء سوى أنه التقى بوزير غرناطي اسمه أبي الرجاء[٤]عام(٤٢٩هـ) عندما زار الإلبيري في علته التي توفي فيها.

واشتهر الإلبيري بفقهه،وعلمه بأمور دينه وشريعته،وأصبح عالماً من أبرز فقهاء عصره،وكثر طلابه الذين توافدوا عليه،وأخذوا عنه،وذكرت المصادرأن من أشهرهم:ابن أخته[٥]،والقبلآل[٦] وابن عيسى[٧]،وقيل تشبه به معاصره الفقيه ابن العسال[٨]،وعلى طريقته جرى،كما عُرف الإلبيري بعلمه وفقهه،فقد عُرف بالشعر الذي قلما نجد عالماً،أو فقيهاً لا يجيده في الأندلس،فقد كانوا يدركون تأثيره في نفوس المتلقين ،فحبه يجري في دمائهم مجرى الدم[٩]،

ولا تُعين المصادر،وكتب التراجم على معرفة العام الذي توفي فيه ،كما لم تقف قبل ذلك على أسرته ونشأته بشكل واضح،ولكن ابن الآبار يرجح أن وفاته كانت في نهاية النصف الأول من القرن الخامس.

---

[١] هو أبو الحسن علي بن توبة من أشهر قضاة العدل بغرناطة،ومن العملماء الجلة الفقهاء طالت مدة ولايته للقضاء وإليه تنسب قنطرة القاضي بغرناطة،وهي منبر المسجد الجامع على نهرها الكبير،وماتزال أطلاله باقيه،انظر:ابن الزبير:صلة الصلة،ص٧٨.

[٢] انظر: المكي،الطاهر أحمد:الأدب الأندلسي من منظور إسباني،ص١٤٨.

[٣] ديوان أبي إسحاق الإلبيري،المقدمة ص٩.

[٤] هو الوزير أبو خالد بن هشام بن أبي الرجاء الإلبيري،وكان من عظماء إلبيرة،في عهد ابن باديس.انظر:ابن الخطيب:الإحاطة،ج٣،ص١٧٢.

[٥] هو أبو العباس أحمد بن هشام القيسي،ابن أخت الإلبيري،كان من أشهر تلاميذه وأكثرهم فقهاً،وعلماً.

[٦] هو أبو حفص عمر بن خلف بن محمد الهمذاني المعروف بابن قبلال كان فقيهاً زاهداً،فاضلاً،ولي الصلاة بجامع غرناطة بها عام(٥٠٢هـ)

[٧] هو أبو محمد عبدالواحد بن عيسى بن سليمان الهمذاني،فقيه،وحافظ جليل،وكان ورعاً،حاز رياسة الشورى بغرناطة،توفي عام(٥٠٤هـ).

[٨] هو محمد بن العسال الطليطلي كان أشهر فقهاء طليطلة مشهوراً بإجابة الدعوات،انتقل بعد سقوطها إلى غرناطة(ت٤٨٧هـ)، انظرم:مقدمة ديوان الإلبيري،ص١٠.

[٩]انظر: ابن ثقفان،عبدالله:المقومات الفنية للقصيدة الأندلسية،ص ٢٥.

ثانياً:مكانة الفقهاء في عصره :

شهدت الحياة الفكرية بجوانبها المختلفة في الأندلس منذ مطلع القرن الرابع الهجري شموخاً عالياً،ونضوجاً علمياً،وازدهاراً ثقافياً،وأدبياً نحسب أنه لم يتكرر كثيراً في تاريخ الأندلس.

وفي ظلال هذه الحركة الفكرية القوية التي امتدت على معظم المساحة الزمنية لفترة الدراسة،حظيت العلوم الدينية باهتمام الأمراء،والخلفاء الأندلسيين الذين شغفوا بالعلم[١]،وكانوا على قدر كبير من الوعي والمعرفة بضرورته،فاتسع الاهتمام؛ليستوعب فروع هذه العلوم جميعاً،وبلغ من الاهتمام بها أن يبدأ المتعلم،والدارس بالقرآن والحديث والفقه[٢] في جميع أنحاء الأندلس، ومراكز العلم،والتعلم على الرغم من الاتجاه المعاكس للحياة السياسية،والأوضاع الأمنية المضطربة[٣]في كثير من الأحايين ،وآتى هذا الاهتمام أُكله عندما أسهم بشكل واضح في استقلال الشخصية الفكرية الأندلسية ،وبروز مكانتها العلمية المتفردةفي خصائصها،وصفاتها مع غزارة الإنتاج العلمي،وانتشار المكتبات وكثرة العلماء،والفقهاء الذين أرسوا دعائم الفقه،والحديث والتفسير والقراءات،وصار لكل علم من هذه العلوم علماء متخصصون[٤]،وبات التفتوق والإجادة "لعلوم الدين هو الطريق للحياة الرسمية والوظائف العامة[٥]" .وقدبلغت الثقافة الدينية أوج ازدهارها مع حركة التجديد التي نبعت من الفقه المالكي،وتسمى بحركة أهل الحديث[٦]،ونشطت كذلك علوم الجدل الديني[٧]،وأُتهم بعض العلماء بالضلال،فأُحرقت بعض كتبهم،وتم إقصاء أفكارهم،تحت ضغط التعصب الديني للفقهاء

---

[١] انظر: محمد،سعيد محمد:الشعر في قرطبة في منتصف القرن الرابع الهجري إلى منتصف القرن الخامس الهجري-ط١،أبو ظبي:المجمع الثقافي،٢٠٠٣م،ص٣٧.

[٢] انظر:الحميدي:جذوة المقتبس،ص٥٣٣.ابن خلكان:وفيات الأعيان،ج١،ص٩٤.

[٣] انظر:خفاجي،محمد:قصة الأدب في الأندلسي،ص٧٣.

[٤] من هؤلاء العلماء:ابن سعدت(٣٠٦هـ)،وابن ثابت ت (٣٠٢هـ)وله كتاب الأوائل،وأبو القاسم بن إصبع ت (٣٤٠هـ) وله كتاب المجتبى،وابن عمارة الأنصاري،وبرع في الفقه ابن عبد الصمد الخزرجي وله كتاب(آفاق الشموس وأعلام النفوس)،وغيرهم كثير .

[٥] المكي،أحمد الطاهر:الأدب الأندلسي من منظور إسباني-ط١،القاهرة:مكتبة الآداب،١٩٩٠م،ص٣٣.

[٦] انظر:الظاهري،ابن حزم:الفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس-ط١،الدار البيضاء:المركز الثقافي العربي،١٩٨٦م،ص٢٥.

[٧] انظر :كتاب:" الجدل الديني بين المسلمين وأهل الأندلس"للدكتور خالد عبد الحليم السيوطي.

والخوف على دينهم من البدع والضلالات،فحاربوا كذلك علوم الفلك والكيمياء والفلسفة[1]للأسباب ذاتها.

تمتع الفقهاء في الأندلس بمكانة سامية في المجتمع الأندلسي،وأصبحت كلمة عالم تنصرف عادةً إلى الفقهاء؛ولسمو مكانة الفقيه،فقد كانت صفته تُطلق على النحوي،واللغوي،يقول المقري واصفاً مكانة الفقيه"وقراءة القرآن بالسبع،ورواية الحديث عندهم رفيعة،وللفقه رونق ووجاهة ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك حتى أنهم كانوا يسمون الأمير عندهم بالفقيه،ويقولون للكاتب والنحوي،واللغوي الفقيه؛لأنها عندهم أرفع السِّمات"[2]

ونما نفوذهم،ومكانتهم إلى السلطة السياسية،وتوثقت علاقة كثير من الفقهاء بالحكام والأمراء والوزراء،وأغدقوا عليهم العطايا،وقد استغل بعض الفقهاء،والقضاة منهم هذه المكانة،وكثرة الأموال فانحرفوا إلى الجور،والفساد،ومداهنة الحكام[3]،ومع ذلك فلا يمكن تعميم هذا الحكم،فقد حرص كل أمير أن يكون له مستشارون من الفقهاء،والقضاة لا يقطع أمراً في شأن الأمة ومصالحها سياسياً،واجتماعياً دون مشورتهم،وموافقتهم.

---

[1]انظر: خفاجي،محمد عبدالمنعم:قصة الادب الأندلسي-ط١،د.م:المطبعة الأميرية،١٩٥٥م،ص١٢٧.

[2] المقري:نفح الطيب،ج١،ص٢٢١.

[3] انظر: ابن بسام:الذخيرة،ج، ق٣،ص٥٨.

ثانياً:مكون الإصلاح السياسي:

أدرك الإلبيري من العهود السياسية الأندلسية ثلاثة؛تتابعت بعد انهيار الدولة الأموية التي كانت قد أرست دعائم دولة الإسلام في الأندلس حتى النصف الأول من القرن الرابع الهجري،ونعمت البلادفي عهدها بمرحلة استقرار سياسي؛وحدث نوع من التجانس لم تشهد الأندلس مثله من قبل بين الفئات الاجتماعيةالتي تنتمي إلى أعراق بشرية شتى ضمتها الأندلس كالعرب،والصقالية والبربر واليهود،والأسبان،"وحظيت كلهابكثير من التسامح الديني"[1] .خاصة في عهد الخليفة الناصر وابنه الحكم[2].

بعد هذا العهد دخلت الأندلس مرحلة جديدة على الصعيدين الداخلي والخارج،وقدّر للإلبيري أن يعاصر أحداثها التي تركت أثرها على فكره وتقلباتها حيث قامت دولة بني عامر[3]،على أنقاض دولة بني أمية،ومع ماامتازت به من استقرار نسبي تحقق في ظل الانتصارات العسكرية الإسلامية ضد العدو الخارجي إلا إ نه ظهر لها سلبيات كثيرة،منها:نفوذ عناصر غير عربية ضمن جنود هذه الدولة وركود الحياة الفكرية مقابل النشاط العسكري،وكثرة المعارضين لها[4]من الأندلسيين العرب الذين أجّجوا الثورات في أنحاء الأندلس.

واشتدت تبعاً لذلك حمأة الفتن والقلاقل،فاشتعلت الفتنة التي اشتهرت بالفتنة القرطبية[5]

---

[1] البلداوي،حميدةصالح:موازنات شعرية بين الأندلسيين والمشارقة،عمان:عمادالدين للنشروالتوزيع ٢٠٠٩م ص١٢٩.

[2] هو الخليفة عبدالرحمن الناصر ثالث خلفاء بني أمية،دام حكمه من عام (٣٠٠-٣٥٠هـ)كان عهده عهد استقرار أمني وسياسي،وابنه الحكم استمر حكمه من عام(٣٥٠-٣٦٦هـ)امتاز عهده بنشاط الحركة الفكرية.

[3] دولة بني عامر قامت في الأندلسي عام(٣٨٦هـ)على يد الحاجب المنصور بن أبي عامر،شهدت الأندلس في عهد بني عامر انتصارات عظيمة جعلت من الأندلس إمبراطورية لها شأن عظيم وعهدها من أقوى العهود السياسية في الأندلس،انظر:النباهي،أبي الحسن:تاريخ قضاة الأندلس-د.ط،بيروت:المكتب التجاري للطباعة والنشر،د.ت،ص٨١.

[4] انظر: محمد،محمد سعيد:الشعر في قرطبة،د.ط،أبوظبي :المركز المجمع الثقافي،٢٠٠٣م، ،ص٤٤-٤٢.

[5] كانت هذه الفتنة من أشد الفتن التي كانت سبباً قوياً في بداية زوال دولة المسلمين في الأندلس لما ترتب عليها من خراب ودمار وقتال،واستمرت من عام (٣٩٩-٤٢٢هـ)سماها ابن حيان في كتبه الفتنة الشنعاء المدلهمة،انظر:ابن بسام :الذخيرة،ق١،م١،ص٤٤.

وعمت آثارهاالأندلس،وخربت على إثرهامدن كثيرة منها مدينةإلبيرة[١] ، وعمت الفوضى السياسية وتبدلت قيم اجتماعية،وسياسية كثيرة في ظل تمـزق الجسد الإسلامي الأندلسي،وثـارت السخائـم العرقية،والإقليمية من جديد ؛لتؤثـر سلـباً على التجانس البشري،و تشتت وحـدة الأندلس بظـهور النزعةالعنصرية،ونشطت حركةالاستقلال؛لتصبح غرناطةمملكة لدولة بني زيري الصنهاجية[٢] بقيـادة زاوي بن زيري[٣]،ومن أغرب ما اتسم به عهدهذه الدولة هو نفوذ اليهود سياسياً بصورة لم يحدث لها مثيل من قبل في عهد الأمير باديس بن حبوس"[٤]حتى غدت غرناطة كأنها مدينة اليهود[٥]"، ولعـل ذلك يعود؛لأن بني زيري كانوا يشعرون بالعزلة بسبب عداء بقية أهل الأندلس لهم،وشعورهـم أن هؤلاء البربر دخلاء عليهم،ومن ثم عـوّل بنو زيري على هؤلاء اليهود،فكان منهـم الوزراء،وجباة الأموال،ويعلق غرسيه غومس على ذلك الوضع،فيقول: "شئ فريد لم يعرفه تاريخ الأندلس من قبل ولم يعرفه كل تاريخ العصورالوسطى على التأكيد،فكان ذلك ضربة قاصمة تجل عن الوصف للعزة العربية،ولكبرياء المسلمين الطيبين"[٦].

واشتهرت أسرة بني النغريلة اليهودية على يد اليهودي يوسف بن النغريلة[٧]الذي خلف والـــده إسماعيل،وبلغ منزلة سياسية عالية عندما أوكل إليه باديس أمور دولته إلى حد يكاد يبلغ السيادة حيث انفرد بتصريف إمارة غرناطة،ولـم تعد تفرق الرعية بين موكبه،وموكب الأمير،وقيل إنه حوّل الأمير

---

[١] ابن بلقين،عبدالله:مذكرات الأمير عبدالله،ص١٨-٢٢.

[٢] دولة بني زيري:دولة تعود أصولها إلى قبيلة صنهاجة البربرية بطن من بطون قبيلة البرانس في المغرب،قدموا للجهاد مع ابن أبي عامر أيام دولته،وعندما قويت شوكتهم أقطع لهم العامريون ولاية إلبيرة،مقر دولتهم الأول عام (٤٠٧هـ)

[٣] هو زاوي بن ماكن بن زيري مؤسس دولة بني زيري الذي نقل مركزها إلى غرناطة،وبعدما استقرت دولته سلم الخلافة لابن أخيه وعاد للمغرب،انظر:المراكشي:البيان المغرب،ج٣،ص١٢٩.

[٤] باديس بن حبوس بن ماكن بن زيري تولى إمارة غرناطة عام(٤٢٨هـ) وتلقب بالمظفر بالله أصبحت غرناطة في عهده من أقوى قواعد الأندلس،وكان شديداً صارماً بالغ القسوة عمَّر طويلاً وتوفي عام(٤٦٥هـ)،انظر:المراكشي:البيان المغرب-ج٣،ص٢٦٤.

[٥] البلداوي،حميدة صالح:موازنات شعرية،ص١٥٢.

[٦] غومس ،غرسيه:مع شعراء الأندلس و المتنبي،ص٩٠ .

[٧] هو يوسف بن إسماعيل النغريلة كان شاعراً،وأديباً بارعاً في الجدل،جماعة للكتب،ذا دهاء،ومكر طاغية جبارا،انظر:المقري:نفح الطيب،ج٤،ص٣٢٢.

إلى سجين لملذاته والخمر وأرهق المدنيةبالضرائب ومكّن اليهود من المناصب القيادية والإدارية، ليس هذا فهذا فحسب ،بل اجترأ على الإسلام والقرآن وأقسم أن ينظم جميع القرآن في أشعار وموشحات تغنى بها[1].

كان الإلبيري بحكم مكانته كفقيه من أبرز المناويئن لليهود،وتغلغهم في سياسة الرعية، أعلن رفضه،وعدم رضاه عن ابن النغريلة ،وتوليه منصب الوزارة،فنفاه ابن باديس تحت ضغط هذا الوزير إلى رابطة العقاب،فتركها واستقر في ضواحي مدينة إلبيرة[2]الخربة،كما انبرى له ابن حزم الظاهري ورد عليه في رسالة ألفها يدحض بها مزاعمه[3].

عندما استشرى شر هذا اليهودي،وزينت له أطماعه السياسية الاشتراك بمؤامرة للغدر بأمير غرناطة،والإطاحة بدولته،أثار ذلك حفيظة الإلبيري،وكثير من الفقهاء من غرناطة،وخارجها ونجحوا في تحريض أهل غرناطة ضد اليهودي،وإذا بالجموع الغاضبة تفتك به عندما دخلوا عليه القصر،ثم قتلوه،وصلبوه على باب غرناطة،وقتل من اليهود ما يزيد على أربعة آلاف،وشاع الخراب في أحياء اليهود بغرناطة،ينعت ابن بسام تلك الثورة،فيقول: "ملحمة من ملاحم بني إسرائيل باءوا بذّلها،وطال عهدهم بمثلها "[4]وتؤكد المصادر أن من أهم من نهض بهذه الثورة ،هو الفقيه الإلبيري الذي حمل على كاهله هموم أمته،وكانت له الكلمة المسموعةفي غرناطة،فاستغلها لاستنقاذ رقاب المسلمين،وحقوقهم من اليهود، كماسيتضح ذلك من شعره.

---

[1] انظر:ابن بسام:الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،ق ٢،ج١،ص٧٦١،وابن سعيد:المغرب،ج٢،ص١١٤.

[2] انظر:ابن سعيد،المغرب في حلي المغرب،ج٢،ص١٣٢،ومقدمة ديوان أبي إسحاق الإلبيري،ص١٧.

[3] للاستزادة ينظر:"الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى لابن حزم الأندلسي،تحقيق:إحسان عباس،القاهرة:مكتبة العروبة،١٩٦٠م.

[4] ابن بسام،الذخيرة،ق١،ج٢،ص٧٦٩،المراكشي:البيان المغرب،ج٣،ص٢٦٦.

ثالثاً\ ظاهرة تيار الزهد :

من المعهود في الأوضاع الطبيعية للمجتمعات أن تتوثق العُرى سلباً،أ، إيجابا بين الفكر السائد وأنماط السلوك المعروفة في المجتمع في غالب الأمر،غير أن ذلك لم يحدث في الأندلس-في فترة الدراسة-حيث نرى انفصالاً غريباً بين مكوناته الثقافية،والفكرية الدينية من ناحية،وبين الجوانب الاجتماعية،والسياسية،ونلحظ تردياً سلوكياً وأخلاقياً امتد؛ ليشمل معظم شرائح المجتمع ومستوياته المختلفة،فيظهرعلى السطح في تلك الفترة ظاهرتان متناقضتان هما:ظاهرةالمجون والتحرر الاجتماعي من القيم،الذي يمثله معظم الناس،وظاهرة الزهد والتعصب الديني[1] التي تعد حالة غريبة في العصر الذي ظهرت فيه؛لأن الزهد"علم عملي وفن لعبادة الله،ومنهج حياة"[2] . ودعوة للعزوف عن متاع الدنيا وملاذها وتأدية فرائض الله وإقناع الذات أن الفناء لاحق كل شئ وأن العمر مهما طال ،سينتهي وأن النعمة ،ستزول بينماكان العصر حافلاً بالحيوية وطلب اللذة،وكان الزهد والورع آخرما يعينه[3] ولذلك اقتصر الزهد على شرائح من المجتمع الأندلسي ونخبة من الفقهاء والعلماء مثل:
الإقليشي[4]،والطليطل،وابن العسال والإلبيري وغيرهم،ونتج هذا التيار عن دوافع كثيرة ،وأبرزها:كان كردة فعل للتيار السابق،ومايحمل بين طياتـــه من فساد،وظلم،وخطر يهدد المسلمين لم يدرك خطورته إلا القلة من الأندلسيين الذي اعتصموا بالكتاب،فأيقنوا بخطورة هذا الانحدار للقيم.

وقد اتخذ هذا التيار مكانة،وتبوأ منزلة رفيعة على الرغم من قلة المنتمين له لكن بإخلاصهم وتعمقهم في أمور دينهم،أصبح نداً للتيار الآخر،فبلغ من تأثيره أن يقول الدكتور الركابي:"لقد كان لوجود المسلمين في بقعة تتاخمها النصرانية،ويناصبهم أهلها العداء الأثر الكبير في إذكاء الشعور الديني في نفوسهم وقد ساعد الفقهاء في دعم هذا الشعور،وتقويته لما لهم من نفوذ ديني"[5] وإذكاء روح الجهاد ومحاولة

---

[1] انظر:الركابي،جودت:في الأدب الأندلسي-ط٦،القاهرة:دار المعارف،٢٠٠٨م،ص٤٧.

[2] بلاثيوس،آسين:ابن عربي-حياته ومذهبه-د.ط،ترجمة:عبدالرحمن بدوي،القاهرة:مكتبة الأنجلو المصرية،١٩٦٥م،ص١١١.

[3] غازي،السيد:مجلة كلية الآداب-الإسكندرية-العدد٢٠،عام١٩٦٦م،ص٨٤.

[4] هو:أبو العباس أحمد بن عيسى بن وكيل التجيبي،زاهد عالم له مصنفات ممتعة،وشعر،وفضائل.

[5] الركابي:جودت:في الأدب الأندلسي،ص٢٥.

إيقادها في النفوس الخاملة،وامتد العصف الديني في هذا العصر إلى الشعر الذي أصبح من المعلوم مكانته المهمة، فهو مكون من مكونات الواقع،والثقافة،والعلم،فأثرى الفقهاء ساحة الشعر الزهدي حتى يقول الدكتور عبدالعزيز عتيق:"ولا تعدو الحقيقة إذا قلنا أنهم فاقوا المشارقة في شعر الزهد من حيث غزارته وتولد معانيه،ورسم صورة قوية "[1]. و أصبح الشعر يكشف عن أقصى درجات المد الحضاري والثقافي.

وبرزت مكانة الإلبيري بوصفه من ألمع رواد هذا التيار في عصره،وأحد أشهر الفقهاء الذين مثلوا الزهد ، يتضح ذلك من مقولات عدد من ترجموا له، فالضبي يقول عنه :"فقيه زاهد فاضل عارف كثير الشعر في ذم الدنيا مجيد في ذلك"[2]،ويقول ابن الآبار عن نزعة الإلبيري إالزهد:"سلك مسلك أبي محمد بن العسال الطليطلي،وكانامعاً فرسي رهان في ذلك الزمان صلاحا،وعبادة"[3] ،وكان يميل للشعر،ونظمه لبيان نزعته،وتوجهاته الفكرية،ورغبته في إبلا غ العامة،وقد لاقت أشعاره قبولاً عند أهل الأندلس،يؤكد ذلك ابن سعيد عندما قال عنه:"وله ديوان ملآن من أشعاره الزهدية ولأهل الأندلس غرام بحفظها"[4]،وأما ابن الخطيب فيذكر الشاعر قائلاً:"وأما شعره فلا تجد حادي جنازة،و لا مذكر مأدبة،ولا واعظاً إلا وهو مكثر منه"[5]، وهذا يعني أن أشعاره اتسمت بالطابع الشعبي بين طوائف الأندلسيين،فتعلقوا بها،ويمكن القول أن هذا الزهد لم يكن بدافع الفقر، أو الفشل في الحياة فقد كان الإلبيري من المرموقين في عصره،وتبوأ مكانة الفقيه التي كانت جواز مرور لحياة النخبة في عصره،ولم يشك من سجن،أو اضطهاد في حياته،ومع ذلك"فإن الجانب الأكبر من ديوان شعره زهدي في جوهره ،وهي حالة مثيرة في القرن الذي عاش فيه؛لأن هذا الطراز من الشعر لم يكن مألوفاً على نحو واسع"[6] ،ولكن الأسباب،والدوافع القوية لانضمامه لهذا التيار،وتعصبه له لم تكشف عنه المصادر،ولذلك فإن شعره سيكون مصدراً للوقوف على الأسباب،والدوافع،فهو ماتبقى لنا من إرثه

---

[1] عتيق،عبدالعزيز:الأدب العربي في الأندلس–ط٢،بيروت:دار النهضة،٩٩٧٦م،ص٢٢.

[2] الضبي:بغيمة الملتمس،ص٢١٠.

[3] ابن لآبار:التكملة لكتاب الصلة،ص١٦٧.

[4] ابن سعيد:المغرب،ح٢،ص١٣٣.

[5] ابن الخطيب:الإحاطة في أخبار غرناطة،ج١،ص

[6] غومس،غرسيه:مع شعراء الأندلس المتنبي،ص١٠٧.

الثقافي.

ونستنتج مما تم عرضه من سيرة الإلبيري المتاحة في المصادر،وكتب السير،أن هذه السيرة تنفتح على مرجعيات سير ذاتية يجري تشكيلها بفعل مؤثرات ثقافية،ومكونات فكرية مفتوحة الآفاق لا نهائية وليس بالإمكان حصرها في مقولات ثابتةعن الشاعر؛لأنها ستضيق بنفسها،وتتعطل فاعليتهاالمعرفية فلا يصح والحالة هذه إلا أن نتحدث عن مسار متحول،وأُطر عامة لأهم المكونات المرجعية التي انتظمت في نسق فكري يمتاز بالعمومية،والشمول؛لشح الأخبار عن الشاعر الفقيه بالرغم أنه" كان يمثل حلقة الوصل المتوسطة في تاريخ الزهد الأندلسي"[١] .

ولذا فإن تلمس ملامح سيرته لايكون إلا من خلال ديوانه الشعري،خاصة أنه عندما يفرد شاعر ديوانه بموضوع محدد واحد كثيمة مركزية تدور حولها جميع العناصر،كما عند الإلبيري فإن ذلك مؤشر قوي على أن الاتجاه الفكري والفسلفي لثقافته أثر بدرجة كبيرة على إبداعه؛لأن الصلةبين الفكر والإبداع صلة بين المقدمة والنتيجة،فالفكر الحر ينتهي بإبداع متنوع بتنوع الحالات الفكرية،وانتماءتها.

وعندما يأتي من النقاد من يصنف ديوان الإلبيري في باب المذكرات،فيقول:"فكأنما الديوان مذكرات شخصية يتوجه فيها الشاعربالخطاب لنفسه أولاً،ويتحدث فيهاعنها،ثم تكون الملاحظات الأخرى التي تتناول أطراف الحياة،وجوانب المجتمع،وانعكاس أحداث عصره في نفسه،وشخصه أيضًا"[٢] ،فإنه مامن كتابة أكثر قرباً في شجرة الكتابات الذاتية إلى السيرة الذاتية من المذكرات ممن لعب دوراً بارزاً في مجرى الأحداث في عصره،أو أن له حظ في مراقبتها[٣]،ويضيف غومس"بأنه يندرأن يوجد شعراء أندلسيون مثله يمكن أن نوازن بينه وبينهم،ومن المفيد دراسة ديوان الإلبيري مثالاً لديوان زهدي من الشعر الأندلسي،وربما كان الوحيدالذي وصلناً كاملاً،يساعدنا على إظهار بعض الخصائص الفكريةللقرن الذي عاش فيه"[٤].

---

[١] محسن،عيسى خليل:أمراء الشعر الأندلسي-ط١،الأردن:دار جرير،٢٠٠٧م،ص١٤٥.

[٢] الداية،محمد رضوان:في الأدب الأندلسي-د.ط،بيروت:دار الفكر المعاصر،د.ت،ص٨٦.

[٣] انظر:جورج،ماي:السيرة الذاتية-ط١،تعريب:محمد القاضي،وعبدالله صولة،تونس:بيت الحكمة،١٩٩٢م،ص١٧٥.

[٤] غومس،غرسيه:مع شعراء الأندلس،والمتنبي،ص١٠٧.

ومن خلال هذه المعطيات جميعاً فإن المباحث التطبيقية ستحاول بيان مضمون سيرته الفكرية في شعره،وتقف على ما منحته من التيارات الفكرية والثقافية ،وما ضمنه من معلومات حول تجربته وآليات تشكل منجزه الفكري،وإمكانياته المعرفية ومظاهر زهده،لاسيما أننا ننظر إلى شعره كنص واحد ممتد إلى موضوعات ، وأفكار ترتبط بالنص الأصلي بوشائج قربى قوية مصدرها الذات التي تجمع بين ملكات الحساسية للتجربة الشعرية ، وبين الذهن والسليقة الشعرية،فيكتسب شعره الذي جعله ناقلاً لذاته على مستوى الفكر خصوصية لا تتجزأ عناصرها إلا على سبيل التنظيم والتقسيم،لاستجلاء ملامح من سيرة واحد من أهم فقهاء الأندلس ،وزهادها طمرت الكثير من أخباره ،ولم يبق دليلا عليها إلاشعره في فترة ذات خصوصية تاريخية واجتماعية وسياسية في الأندلس.

المبحث الثاني\الشعر يترجم مكونات سيرة الإلبيري الفكرية:

أولاً\الشعر والمكون الثقافي :

يفيض من هذا المكون في شعر الإلبيري الثراء الفكري المشتبك بالجذور،والأسس الثقافية للشاعر،فيظهر بوضوح تشربه لخصائص بيئته الثقافية الدينية، التي توشحت بها جل قصائده ومقطوعات ديوانه الشعرية؛ليطرح ملامح من سيرته الفكرية في بعديها المعرفي الخاص به،والتربوي الذي ساهم به لتحوير ثقافة المجتمع من خلال التجربة الشعرية التي تحيل بدورها إلى مكونات فكره،وأبرز مؤثراتها كما في قوله[1] : (الكامل)

فـــرض عـــلـينا بـرّنـا أمـاتِـنـا وعـــقوقـُهن مـــحـــرم إلاك[2]

أيـن الـــــجبابرةُ الآلـى ورياشهم قـــد باشـروا بعد الحرير ثراك[3]

ما إن يدوم الفقر فيـك ولا الغنى ســيان فـقـرك عنـدنا وغـناك

كانـت وجوهـهم كأقـمار الدجـا فغـدت مسـجاة بثـوب دجاك

وعنـت لقيوم الســماوات العـــلا رب الـجميـع وقـاهـر الأمـلاك[4]

وأخذت زادي منك من عمل التقى وشـــددت إيماني بنقض عـراك[5]

ويعـــيدنا رب أمـــات جـــميعنا ليـكون يـرضي غير من أرضـاك[6]

كان حفظه للقرآن ترجمة للبنيات الذهنية التي غذت فكره،ورسخت مفاهيم ثابته لتفكيره لاتمكنه من التخلي عنها موفرة بذلك رصيداً ضخماً من المعاني،والأفكار لم تفارقه في شعره،مما يدل على أنه قد

---

[1] ديوان الإلبيري،ص٤٢.

[2] يشير إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم:"حرم عليكم عقوق الأمهات ومنعاً،وهات..."

[3] الرياش:اللباس الفاخر،ويقول تعال:{يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباس يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير..} (الأعراف–الآيه ٧٠).

[4] يشير لقوله تعالى:{وعنت الوجوه للحيّ القيوم}،سورة طه ، الآ ية١١١.

[5] يشير لقوله تعالى:{وتزودوا فإن خير الزاد التقوى}،سورة البقرة،١٩٧.

[6] يشير إلى قوله تعالى: {منهاخلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى...}سورة طه،آية ٥٥.

اختار القرآن منهجاً لحياته بكافة أشكالها،عندما يلخص ذلك في قوله[١] : (الكامل)

حسبي كتابُ الله فهو تـنعمي وتأنسي في وحشتي ودفاتـري

وإذا أردتُ نزاهةً طـالعتُهـا فـأجـولُ مـنها في أنيـق أزهــر

وأرى بها نهج الهداية واضحاً ينجـو به من ليس عنه بجائري

لم يظهر وضوح نشأة الإلبيري إلا عن طريق ما تخلل هذا الشعر من ثقافة عالية وغزيرة وضحت تلك النشأة الغائبة عن مصادر سيرته،وتشي بأنه تلقى تعليمه على أيدي فقهاء وعلماء أقوياء في علوم الدين المختلفة،وأكسبوه القدرة،والمرونة على توظيف ثقافته الدينية في إبداعه الذي استطاع أن يجمع أطراف مصادر ها في قصيدة واحدة،أو مجموعة أبيات مثل: جمعه بين القرآن والحديث،والفقه التي تزاحمت في ذهنه،فاتخذمنها مخبر بحث في شعره،كقوله[٢]: (الكامل)

ولـو أنني أرضـى الدنـاءة خـــطة لـوددت أني كـنـت أحــمق أبــلـها[٣]

فلقد رأيت البله قد بلغوا المـــدى وتــجاوزوه وازدروابـــأولي الـــنـــهى[٤]

من ليس يسعى في الخلاص لنفسه كـــانـــــت سعـايته علـيها لا لـــهـا

إن الـــــذنوب بتـــوبة تمـحى كما[٥] يمحو سجود السهو غفلة من سهـا

إن الشعر عند الإلبيري ليس تعبيراً عن الذات فقط،وإنما مواقف معرفية للذات،وفناً ناقلاً،ووسيطاً لها،وكلماكان الوسيط قريباً من الذات كان الشاعر في إبداعه أكثرغنى بالمعرفة،وأكثر أثراً في الصنعة وإثراء للتجربة،وأقدر على ترتيب الأفكار للوصول إلى الهدف،والتأثير في المتلقي،كما في قوله عن المال ،وعمق معرفته بأهمية الكسب الحلال وتحريه وفلسفته لهذه القضية التي أشغلت الناس في عصره [٦] :

---

[١] ديوان الإلـبيـري،ص٩٢.

[٢] المصدر السابـق،ص٥٤.

[٣] الأبله:الذي غلب عليه سلامة الصدر،وحسن الظن بالناس.

[٤] ورد في الحديث الشريف:"أكثر أهل الجنة الخبّة البّله".أي البله عن أمر الدنيا لقلة اهتمامهم بها.

[٥] يشير لقوله تعالى:{ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا}.سورة الفرقان،آية ٧١.

[٦] ديوان الإلبيـري،ص٤٥.

(الكامل)

لاخير في كـــسب الحرام وقلما يرجى الخلاص لكاسب لحـلال

ما إن سمعت بعائل تـكوى غدا بالنـار جبـهته عـــلى الإقــلال

ما يـثْقلُ الــميــزان إلا بـــامرئ قـــد خف كاهله من الأثقـال

فـخذ الكفاف ولا تكن ذا فضله فالفــضل تُسألُ عنه أيَّ سـؤال

ودع المطارف والــمطي لأهـلها واقنع بأطـمــار ولبــس نـعال

فـــهم وأنـت وفـــقرُنا وغـناهُم لا يــستقر ولايــدوم بحـــال

إن روافده الفكرية،وتوجهه الديـني بمثابـة قرائن مرجتعية ضغطت على الشاعر في موضوعاته الشعرية الملمحة إلى سيرته التعليمية،والعلمية التي تدل على الناتج من اتجاه فكري سائد في عصره يمثل جزء امن الحضارة الأندلسية، فمثلاً في رثائه لمدينته إلبيرة التي خربت بآثار الفتن والصراعات قال[1]: (الطويل)

يضـــــيّع مفروض ويغفل واجب وإني على أهـــل الزمان لعـــاتب

أَتُنــدَبُ أطلالُ البـــــلاد ولايرى لإلبيرة منهم على الأرض نـــادب

وكـــم من نجيب أنـــجبته وعالم بأبـوابهم كانت تنـاخ الـــركائب

عجبت لمـا أدري بها من عجيبة فياليت شعري أين تلك العجائب

وما فعلـــت أعـــلامها وفئـــامها[2] وآرامـــها أم أين تلـــك المراتب

وأين بحار العـلم والحلم والندى وأين الأكفّ الهاميات السواكب

تؤيد هذه القصيدة القول بأن السبب الأول لخروج الإلبيري من مدينته إلبيرة كان بسبب تخريبها بدليل أن رثـــاءه لـم ينطو على ما تنــطوي عليه قصائد الرثـاء مـن الإشـارات التاريخية،أو المـــعالم الحضارية،فذلك لا يعنيه،وإنما يعيد سبب خرابها إلى تضييع الناس لأمورالدين والفروض،والواجبات

---

[1] المصدر السابــق،ص٨٥.

[2] الفئام:الجماعة من الناس .

ويتحسر على العلماء الذين هلكوا جراء تخريب إلبيرة،ويذكرفضلهم،وفضل العلم،والعلماء الأحياء فالعامل العقدي،والمسلمات الثقافية الدينية هي المسيطرة على القوى الفكرية التي جاشت بها عاطفة الشاعر.،ورغب في توصيلها لمتلق مقصود.

ولا يخفي شعر الإلبيري الثوابت الفكرية للفقهاء،وعلماء الشريعة في عصره التي تقوم على الأسس العلمية الصريحة، وترفض الجديد من العلوم،تقاومها خوفاً على الدين من البدع ،وتحفيزاً على توحيد الصف للتيار الذي ينتمي إليه،واتفق معه الإلبيري،فجعل من علم الكيمياء باطلاً دنيوياً عندما رأى محاولة العلماء تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة بمعالجات ذات تكاليف فخاطب العلماء، وقال [1] : (السريع)

يامن رأى لي عالماً عاملاً ... فألزم الخدمة للعامل

أم من رأى لي عالما ساكتاً ... وعقله في عالم جائل

لو شُغل المرء بتركيبة ... كان به في شغلٍ شاغل

وعاين الحكمة مجموعة ... ماثلة في هيكلٍ ماثل

ياأيها الغافل عن نفسه ... ويك أفِق من سنة الغافل

ويظهر شعر الإلبيري كذلك ؛أن نمو الذات كان عن طريق الخبرات والمفاهيم،والتفاعل بقوة مع البيئة التي انتمى إليها،وتدرب فيها على التدريس والإقراء، فأدى ذلك إلى اتساع مداركه المعرفية الدينية خاصة،والثقافية بشكل عام،حتى ارتبط سلوكه بفكره،وشعوره بالمسؤولية في ميدانه،فنحّى في شعره منحى تربوياً تعليمياً هدف إليه الإلبيري،فانصاعت لهذا الهدف أغراض وموضوعات شعره التي توحدت من أجله في مستويات متعددة من الوصايا،والمواعظ تجمع بين المتعة،والمنفعة أخرجها الإلبيري شعراً كوسيلة لها صداها القوي في نفوس الأندلسيين.

وكنصوص سيرية طوّف خلالها في مسائل نظرية،وتطبيقية،وجد فيها مناسبة للحديث عن ذاته

---

[1] ديوان الإلبيري،ص٦٦.

وفيضها الفكري،وإمكانياتها العقلية التي توضح أنه كان فعالاً في البنية الثقافية العُليا في عصره ،فابتدأ بالمستوى التعليمي وطلاب العلم كشريحة محددة ،يقصدها الشاعر في قصيدة وجهها لطالبه أبي بكر يثير فيها قضية العلم بحيثياتها المختلفة،فقال[1]: (الوافر)

أبـــا بكر دعوتك لـــو أجبتا إلـــى مافيه حـــظك إن عقلـتا

إلى عـــــلم تكون به إماما مطـاعا إن نهيـــت وإن أمـرتا

وتجلو ما بعينـك من عـشاها وتهـــديك السبيل إذا ضلـلـتا

وتحمل منه في ناديك تاجـــاً ويكسـوك الجمـال إذا اغتربـتا

هو العضْب المهندُ ليس ينبو تصيـــب به مقـاتل من ضربـتا

يـــزيد بكـــثرة الإنفاق منه ويـــنقص أن به كـــفّاً شـددتا

تكرس هذه الأبيات نزوع الإلبيري للعلم كمقوم أساسي للحياة،ومن هذا المنطلق فإن الفكر هو أسّ الجهدالذي جسد من خلال رغبته القوية في ظهور جيل ملتزم بتعاليم دينه يتخذه سلاحا ،يدافع به عن أمته من الأخطار التي تحدق بها من كل اتجاه، وتزداد هذه الرغبة وضوحاً عندما يضع ذاتـــه نموذجاً يحتذى بطريقة غير مباشرة ينأى بها عن الذاتية ؛لئلا يُنفّر من حوله من الهدف التربوي المراد ترسيخه في أذهان طلاب العلم،فيجعل التجربة الخاصة تجربة عامة،أو مشاهدة أو معلومة،ويستكمل وصاياه السابقة متخذاً من واقعه وما يشغل الطلاب في عصره مصادر لهذه الوصايا،فقول[2] :

فلو قد ذقت من حلواه طعماً لآثـــرت التـــعلم واجتهدتـا

ولم يشـغلك عنه هوى مطاع ولا دنـيـا بزخـرفها فـــتنـتا

ولا ألـــــهاك عنـه أنيق روض ولا خـــــدر بـربـــربه كـلفتا

فقُـــوتُ الروح أرواحُ المعاني وليس بأن طعمت وأن شربتا

فـــواظبه وخـــذ بالجـد فيه فـــإن أعـطاكه الله أخـذتا

---

[1] المصر السابق،ص٢٥.

[2]المصدر السابق،ص٢٦.

ويظل الفكر في لقائه بالإبداع في بوتقة الشعر من خلال هذه القصيدة التي بلغت مائة وأحد عشر بيتاً من الشعر ،فصّل من خلالها الطرائق التربوية التي تتناوب فيها المداخل النقديةالتجارب،والأفكار التي تنضح بها بيئة الفقهاء؛لترشيح النموذج المثقف في عصره بما يتناسب مع ميوله الفكري، التي تنطلق من وعيه بافتقاد واضح للقيم الرفيعة،و الميل للقيم الطارئة التي سادت بين طلاب العلم،ويدرك خطورة الموقف متوافقاً مع إحساسه بالمسؤولية،فيطرح جزءً من هذه التقاليد بفاعلية ذهنية،فيقول[1] :

وليس لجاهل في الناس معنى ولو ملك العراق له تأتى

سينطق عنك علمك في ندي ويُكتب عنك يوماً إن كتبتا

وما يغنيك تشييد المباني إذا بالجهل نفسك قد هدمتا

لئن رفع الغُنى لواء مال لأنت لواء علمك قد رفعتا

وإن ركب الجياد مسومات لأنت مناهج التقوى ركبتا

وتوضح القصيدة أيضاً أسباب إشارة الإلبيري لقضية العلم بالذات؛لأنه كان يرى الإمكانات المتاحة لطلب العلم،ويقابلها في عصره قوماً استسلموا للاسترخاء،والعجز،وحب المال،وعدم الرغبة في بذل الجهد،ولو على مستوى الفكر،وذلك ما يثير مخاوفه،ويقلقه على مستقبل أبناء أمته معبراً،فذّكر طلابه بقوله[2] :

ستجني من ثمار العجز جهلا وتصغر في العيون إذا كبرتا

وتذكر قولتي لك بعد حين وتغبطها إذا عنها شُغلتا

جعلت المال فوق العلم جهلا لعمرك في القضية ما عدلتا

وبينهما بنص الوحي بون ستعلمه إذ طه قرأتا

ويمتلك الإلبيري نشاطاً،وقدرات على الإرشاد،والإقناع كوسائل تهذيب لما هو سائد من القيم في عصره استوعبتها القصيدة بمرونة،ووضوح ليبشر من خلالها بقيم إيجابية عند التوجيه السليم للقيم

---

[1] المصدر السابق،ص٢٧-٢٨

[2] المصدر السابق،ص٢٧.

السلبية السائدة بين طلابه،فيقول[1]:

ولم أشـــرب حــميا أم دفر وأنـــت شـــربتها حـتى سكـرتا

ولــم أنشأ بعصـــر فيه نــفع وأنت نــشأت فيه ومـا انتفعــتا

وقـــد صاحبت أعلاما كـباراً ولم أرك اقتديت بمن صحـبتا

ولا تضحك مع السفهـاء لهواً فإنك سوف تبـكي إن ضحـكتا

وســـل من ربك التوفيق فيها وأخلص في السـؤال إذا سـألتا

وناد إذا ســجدت له اعترافا بما نـــاداه ذو النون بــن متى

إننا في هذه القصيدة كما يقول الدكتور محمد عويس:"أمام وثيقة تربوية خلقية تتضمن وصية بالنصائح التي يرى الزاهد الفقيه ضرورة الامتثال لها[2]".يغلب عليها السمة الإفهامية في تأسيس معنى الشاعر المنافح عن قيمه،فما كان الإلبيري إلا شخصاً مسؤولاً يجتهد في القيام بها تجاه طلابه ويتأكد ذلك في قوله[3]:

جــمعت لك النصائح فامتثلها حيــاتك فهي أفضل ما امتثلـتا

وطـــــولت العتاب وزدت فيه لأنـــك في الــبطالة قد أطلـتا

فــلا تأخذ بتقصيري وسهـوي وخـــذ بوصيتي لك إن رشدتا

إنها قصيدة تعكس وعي الذات المفكرة بذاتها،كأَنَا مفكرة وهي تقيم تمثلاتها،ورؤاها بتلقائية بواسطة الفهم،والإدراك للمسؤولية المناطة به،وتنمي الرغبة في التغيير،فيتحول الفكر إلى منهج أوسع وينتقل من الاحتفاء بفكره في حلق التعليم مع طلابه،إلى العامة مراعيا موافقة الخطاب لمقتضى الحال بما يتوافق مع خبراته،ومكتساباته الثقافية،والإبداعية كعاملين مهمين لإنجاز،وتحقيق المنهج؛لينطبق على شعره قول هيكل:"الأدب فن جميل غايته تبليغ الناس رسالة ما؛في الحياة والوجود من حق وجمال

---

[1] المصدر السابق،ص٣٠.

[2] عويس،محمد:من قضايا الإنسان في الشعر الأندلسي،ص٥٠.

[3] ديوان الإلبيري،ص٣٥.

بواسطة الكلام،والأديب هو الذي يؤدي هذه الرسالة" [1]التي لا يتحقق نجاحاتها إلا لمن كان ذا وعي فكري،وثقافي عالي المستوى.

ويبدو أن الشاعر كان من أصحاب الضمير المتقد الحي ذي الثقافة الموسوعية الدينية العالية،ولذا يعاني من الإحساس القوي بالمسؤولية تجاه دينه،والدور الذي عليه أن يؤديه من أجل ذاته وذوات أخرى بحاجة إليه،ويتضح ذلك عندما يقول من قصيدة طويلة بلغت ثلاثة وخمسين بيتاً يستحث الناس فيها على الطاعة[2]: (السريع)

يا أيـــها الـمغتـــر بالله ... فـــر مـــن الله إلـى الله

ولذ به واسـأله من فضـله ... فقد نجا مـــن لاذ بـــالله

وقم له بالـــليل في جنحه ... فـــحبذا مـــن قـــام لله

واتل من الوحي ولو آيـة ... تكسي بها نورا مـــن الله

وعفر الوجه له ســاجـدا ... فـــعـــز وجـــه ذل لله

فـما نعـيم كمناجـاته ... لـــقانـــت يخـــلص لله

أصبح الإلبيري متفهماً لكل ما يدور حوله من قيم،وفكر يتعلق بأصول العقيدة،فحداه ذلك للبحث عن وسائل للترغيب،والترهيب التي تجذب المتلقي، وتناسب المستويات الفكرية للعامة ويرسم بها منهجاً للعبادة،وكيفية العلاقة مع الخالق عز وجل،فيقول منتهجا أسلوب الوعظ والوصية الدينية من نفس القصيدة السابقة[3]:(الكامل)

وابعـــد عن الذنب ولا تأتـه ... فبـــعده قـــرب مـــن الله

لا جـــاهَ إلا جاهُ يوم القـضا ... إذ ليس حـكمٌ لسـوى الله

وصـــار من يسعد في جـنة ... عـــاليـة فـــي رحـمة الله

---

[1] هيكل محمد:ثورة الأدب – ط٢،د.م :دار المعارف ،١٩٧٨م ، ص٢٦.

[2] ديوان الإلبيري،ص٧٥-٧٦.

[3] المصدر السابـــق،ص٧٦.

يسكن في الفردوس في قبة مـــن لـؤلؤ فـي جيرة الله

ومن يكن يقضى عليه الشقا في جاحم في ســخط الله

يا عجـــبا من موقن بالجزا وهـــو قلـيل الخوف لله

إن تركيز الشاعر على الهوية الدينية،وتقريبها بمفهوم واضح يدل على العلاقة بين النصوص والمنهج ورؤية واضحة للوجود ككل لدى الشاعر.

وتبين الأغراض الشعرية في ديوانه ،وحصرها في حدودالوعظ والإرشاد والنصيحة،و طريقة العرض للأفكار،والموضوعات فقه الرجل وعلمه بدينه والقدرة على الإقناع،والتأثير لتوجيه السلوك الإنساني لـوجهته الصحيحة؛ ليرتقي بالفكر الإنساني تجـاه المنظومة القيمية التي يقاس الصواب والخطأ،وتحمل الطابع الديني الإسلامي للأخلاق ،ومثال ذلك قوله[1]:

أنت المخاطب أيـها الإنـسان فأصخْ إليّ يلح لـك البرهـان

أُودعـــتَ مالو قلتُه قلـت لي هـــــذا لعمرك كــله هذيـان

فانظر بعقلك من بنانك واعتبر إتـــقانَ صنعتِه فـثّم الشــان

لله أكـــياس جفوا أوطـانـهم فالأرض أجمعُها لهـم أوطان

وفي ظل هذا المناخ الثقافي الكثيف،الذي يغمرالإلبيري،فإنه من الطبيعي أن تظهر ملامح من سيرة الذات ، وإحداثها لعلاقات لها مع الفضاءات العلمية،والهامات الفقهية التي أثرت فكره،وأســهمت في تقويمه ، ويشعر الإلبيري تجاهها بالمسؤولية،والانتماء للنسب العلمي الذي ينتقل من الأستاذ إلى طلابه غير متناسٍ فضلهم ومكانتهم في ظل الصراعات بين الفقهاء،ومن يعارضهم من قبل المجتمع الذي يلح على التحرر من القيم الدينية،ورفع حدود الشريعة التي يدرك الفقهاء دورها في تربية السلوك الأخلاقي،ولذلك ردَّ الإلبيري ساخرا غاضبا على من هجاالقاضي ابن توبة عندما أقام عليه حد الجلد فقال[2] : (البسيط)

---

[1] المصدر السابـق،ص٦٨.

[2] المصدر السابق،ص١٢٥.

السـوط أبـلغ من قـالٍ ومن قيلٍ ... ومـــن نباح سفـيه بالأباطيـل

مر الـمذاق كـحر الـنـار أبرده ... يعـقل المـتعاطي أي تعـقيـل

يرقص الـمرء ترقـيصا بلا طرب ... لو كان أثقل أو أجـسى من الفـيل

عند الـسخيف به خـبرٌ وتجـربةٌ ... فـقد رمى تـحته ماعد بالـفول

وقد هـجاه بهجـو مـؤلم موجـع ... لايشـبه الـشعر في نـظم وتفصيل

فقـل له إن جـرى هجـوٌ بخاطره ... أذكر قـيامك محـلولَ السراويـل

واذكر طوافك في الأسواق مفتضحاً ... مجـرداً خاشـعاً في ذل معـزول

واذكر عـقوبة مـا زورته سفهـا ... في السادة القـادة الشم البهاليـل

عـصابةٌ عظّم الرحـمن حرمتـها ... وخصّـهـا منه إكـراماً بتبجـيل

هم لـباب الـورى حـقاً وغيرهـم ... عـند الحـقيقـة أبقال[1]الغرابيـل

كما طوّع الإلبيري أغراض شعره لتخدم فكره،وتستوعب بعداً أخلاقياً يدخل في باب الإخلاص والوفاء،والحفاظ على حقوق الإنسان عامة،وأهل الفضل،والعلماء بخاصة،فانطلق في دفاعه عن أحد شيوخه والغالب أنه أستاذه ابن زمنين،ودحض الشبهات عن هذا الشيخ،فقال[2]:

رفعتـم على قاضيكم فخـفضتم ... وحـاولـتم خـزياً لـه فـخزيتـم

وطال لعـمري ما سعدتم بسعده ... ولو أنـه يشقـى إذن لشقيتـم

ومـاكان إلا ستـركم لو عقلتـم ... ولكنـكم عن رشدكم قـد عميتم

فها هو ذا يقضي على الرغم منكم ... فموتوا بغيظ واصنعوا كيف شيتم

يُظهر شعر الإلبيري أنه كان من تلك الشخصيات النوعية التي تشتغل في أكثر من مجال وتنجح،وقد كشف شعره عن كم متميز مما ثقفه وحصله من العلوم الدينية وعلوم العصر الذي ينتمي له،مما زاد ثقته بنفسه،وتوهج ذاته التي انبثقت من شعره بصورة جلية،ولذا يمكن القول بأن الشاعر

---

[1] أبقال :مايخرج عن الحب من السواقط الأخرى.

[2] ديوان الإلبيري،ص١٢٢.

نجح في تقديم جانب من أبعادسيرته الفكرية عندماجمع بين عناصر التجربة،ونشاطه الفكري الذي يفيض بثقافته التي تبلورت في مناهج تربوية،وأخلاقية ساهم في التأريخ لها من خلال الشعر الذي تحرك الإلبيري عبره تحركاً فكرياً خارج المعتاد من معاني الشعر الأندلسي.

ثانيــاً\الشعر ومكون الإصلاح السياسي:

يمتاز هذا المكون في شعر الإلبيري بأنه بمثابة الأداة المؤثرة لإعادة تشكيل الوضع السياسي من خلال رؤية الشاعر وموقفه الرافض للعناصر البشرية التي تمتاز بحصانة سياسية، لم يخترقها إلا فكر الإلبيري عندما شرع في البحث عن قصيدة ،تستوعب تجربة واقعية كاملة لعصر كامل من الصراعات السياسية،وتنهي عهداً من الظلم،والجور القائم على أساس عُرفي،عندماصدح بقصيدته المشهورة ضد اليهود في غرناطة،فقال[1]: (المتقارب)

ألا قُلْ لصنهاجة أجمعــين بــدور الندّى و أسـد العريــن

لـــقد زلّ سـيدكم زلـة تـقــرّ بـهـا أعين الشامتـين

يؤكد المترجمون أن هذه القصيدة هي التي أشعلت فتيل الثورة في غرناطة على اليهود،والوزير ابن النغريلة،فابن سعيد يقول عنها:"أشعل هذا الشعر،ثورة أمل غرناطة على اليهودي ابن النغريلة فقتلوه وقد عظم قدر أبي إسحاق[2]"، ويؤيد ابن الخطيب هذا الرأي عندما أورد القصيدة وذكر أن أهل غرناطة ثارواعلى إثرها،وقتلوا اليهودي على باب غرناطة[3]،ويعرض النقادالمحدثون لهذه القصيدة يقول غومس:"والحق أن القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة،ولانعرف إلا في القليل النادر أن أبياتاً من الشعر لعبت دوراً مباشراً في التاريخ السياسي لأمـتة من الأمـم فكهربت العزائم ودفعت في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق، وشحذت السيوف للقتل كالدور الذي لعبته هذه القصيدة[4]".

فالإلبيري بذلك يعد من أوائل الشعراء الأندلسيين الذين مارسوا التغيير وعانوا من أجله صعوبات كثيرة،ودفع ثمناً للرغبة في تصحيح الأوضاع بأن أُخرج إلى حصن العقاب،ويؤيد ذلك قوله من قصيدة أخرى يذكر فيها نفيه إلى العقاب[5]: (الوافر)

---

[1] ديــوان الإلبيــر ي،ص١٠٨.

[2] ابن سعيد:المغرب في حلي المغرب،

[3]انظر: ابن الخطيب:أعمال الأعلام،

[4] غومس غورسيه:مع شعراء الأندلس والمتنبي،ص١٠٥.

[5] ديــوان الإلبيري،ص٨٣.

ألا حـــيِّ العُقاب وقــاطنيه وقـــل أهـــلا بـــــه وبزائريه

حللت به فــنفنس ما بنفسي وآنسني فما استوحشت فيه

وكـــــم ذيب نجاوره ولكن رأيت الذئب أسلم من فقيه

ولم أجزع لفقد أخ لأنـــي رأيت المرء يؤتى من أخيه

فـآثرت البعاد على التداني لأنـــي لم أجد من أصطفيه

وتوضح هذه الأبيات مشهداً من مشاهد النفي التي لم تذكرها المصادر،وهو حدوث مؤامرة ضده من قبل بعض الفقهاء المداهنين لابن النغريلة الذين قووا حجته ضد الإلبيري عند ابن باديس،وتظهر ملامحها من خلال شكواه ،وشعوره بالخذلان من إخوانه وأصدقائه.

فالإلبيري بذل جهداً ووقتاً حتى استطاع بناء دعوة إصلاحية في إطار هيكل فلسفي تتصف بالدقة والعمق والشمول ،واهتمام بالإنسان المسلم وحقوقه،مما أضفى على شخصيته بعداً عالميا من خلال الشعر الذي مثلته قصيدة الثورة التي بدأها بداية تحريضية استفزازية لصنهاجة أجمعين في غرناطة فقال عن ابن باديس[1]: (**المتقارب**)

تخيـّـــر كاتبـــه كـــافراً ولـو شـــاء كان من المسلمين

فـــعزّ اليـــهود به وانتخوا وتـــاهوا وكـانوا من الأرذلين

ونـالوا مناهم وجازوا المدى فـــــحان الهلاك وما يشعرون

فكـــم مسلم فاضل قانت لأرذل قـــرد مـــن المشركين

ومـاكان ذلـــك من سعيهم ولكـــنّ مـــنا يقـــوم المعين

وقد انتهت المناسبة وبقيت القصيدة شاهدة؛لتعطي للبحث في وجودها التاريخي معنىً،وإشارة إلى ملمح لطور متقدم من أطوار حياة الإلبيري الفكرية التي بلغ فيها مهارة فائقة،وعبقرية فريدة في قدرته على الجمع بين الفكر، والإبداع في قالب شعري يعرض منه لأهم قضية سياسية تصدى لها،ونجح فيها نجاحاًباهراً،فحقق الأهداف المرجوة منها"فكان الشاعر الوحيد ذو الأهمية في غرناطة بني زيري،ولم

---

[1] المصدر السابـق،ص١٠٨.

يكن بالطبيعة شاعراً يتغنى بالحب،والخمرة،أو الترف ولا شاعر بلاط مداحا،وإنما كان صدى صادقا لواقع مدينته،كان شاعر المعارضة،والزهد، والسياسة ومناهضة نفوذ اليهود"[1].

ونرى أن الوعي الفكري للإلبيـري كقيمة معرفية توثيقية يأتي في هذه الأبيات الآتية من القصيدة نفسها في التذكير بالطريقة المثلى للتعامل مع اليهود،وهي طريقة موروثة و منهجية أُعتمدت منذ عهد الرسول *صلى الله عليه وسلم* تقوم على التقليل من شأنهم والحذرمنهم و اتبعت في كل عصر،في قوله[2]:

فهلا اقتـدى منهم بالأُلـــى من القادة الخـيرة المتقيـن

وأنزلهـــــم حيث يستاهلون وردَّهم أسفـــل ســـافلين

وعندما تشتد عاطفة الغضب للشاعر التي أثارتها مكانة اليهود التي تبوؤها في عهد باديس يلتفت إليه قائلاً[3] :

أبـــــاديس أنـــت امرؤ حاذق تـــصيب بـــظنك نفس اليقين

فكيف اختفت عـــنك أعيانهم وفي الأرض تضرب منها القرون

وكيـــف تحـــب فـــراخ الـــزنا وهـــم بغّـــضوك إلى الـــعالمين

وكيـــف يتـــم لـــك المرتـــقى إذا كـــنت تبنـــي وهم يـهدمون

وكـــيف استنـــمت إلى فاســـق وقارنـــته وهـــو بيـــس القريـــن

إن القدرة على مواجهة الحكام ومخاطبتهم بماهم عليه من تقصير وعيوب،وأخطاء لايقدم عليه إلا من امتلك شجاعة وسلاحاً، يدافع به ويظهر به الحقائق،والإلبيري لم يكن فارساً أو مقاتلاً،وإنما امتلك علماً واسعاً وهبه الثقة بالذات، فسلط عن طريقه الضوء على مواطن الانحراف في مسار العمل السياسي للأمير الذي لم يخالف شعر الإلبيري ماورد عنه في المصادر من غفلة أدت إلى استقلال ابن النغريلة الفاسق بالإمارة،ومساواة نفسه بالأميرالغرناطي ابن باديس.

---

[1] غومس،غورسيه:مع شعراء الأندلس والمتنبي،ص٩٢.

[2] ديوان الإلبيري،ص١٠٩.

[3] المصدر السابق،ص ١٠٩.

وبذكاء المفكرين وينحسر الشاعر في المقطع الآتي عن ابن باديس عندما أدرك أنه حقق بشعره قدراً كافياً من الغضب ليتحول مباشرة إلى اليهود،فيقول[1] :

وقـــد أنــزل الله في وحــيه يــحذر مـن صـحبة الفاسـقين

فلا تتـــخذ منــهم خــادما وذرهـــم إلــى لـــعنة اللاعنين

فقد ضجت الأرض من فسقهم وكـــادت تميد بـــنا أجـــمعين

تـــأمل بعيـــــنيك أقطارهـا تجـــدهم كـــلاباً بها خاسئين

وكـــــيف انفردت بتقريبـــهم وهـــم في البلاد من المبـعدين

عـــلى أنك المـــلك المرتضى ســليل الــملوك من الماجـــدين

وأن لـــك الـــسبق بين الورى كـــما أنت من جـــلّة السابقيـــن

وهذه الأبيات توضح أن تمرده على الوضع السياسي مرده الرفض الفكري للقيم المفروضة قسراً على المجتمع المسلم من قبل اليهود الذي يبين في نهاية الأبيات براءة ابن باديس،ورضا الناس عنه.

وينعكس انشغال الإلبيري الداخلي،وتفكيره بدرجة كبيرة بالصورة المثالية التي يجب أن يكون عليها،فيتقتمص نموذج المصلح السياسي للأوضاع التي يأتي شاهداً عليها في غرناطة،فتفيض القصيدة بالصدق والصراحة والرغبة في تحرير أجزاء أخرى من المسكوت عنه، ومواجهة السياق السياسي الذي بات اقتحام قداسته ضرورياً، وممكناً بدعم قوي من الأدلة والحقائق.

وكأنّا بالإلبيري يشغل بفكره،وارتضاء منزلته التي تجد القبول والاستحسان،فيتخذ من الشعر وسيلة يوظفها بشكل يخالف به الآخرين من خلال ذاته،فيقول[2] :

وإني احـــــتللت بغرنـاطة فكنت أراهـــــم بهـا عابثين

وقد قســـــموها وأعمـالها فمـــــنهم بـــكل مكان لعين

وهم يقبـــــضون جبـايتهـــا وهم يخصمون وهو يقضمون

---

[1] المصدر السابق،ص١١٠.

[2] المصدر السابق،ص١١٠.

وهم يلبسون رفيع الكسا وأنتم لأوضعها لابسون

وهم أمناكم على سركم وكيف يكون خؤون أمين

ويأكل غيرهم درهما فيقصى ويدنون إذ يأكلون

وقد ناهضوكم إلى ربكم فما تمنعتون ولا تنكرون

نرى أن هذا النص يؤدي وظائف عدة منها :مايتعلق بالشاعر،ومنها ما يتعلق بالقضية وأطرافها من يهود ومسلمين والحق والباطل، فتعود القصيدة بصفة مستمرة إلى الواقع من زوايا عديتدة ، وتعريه بطرق مختلفة، فتلغي الغرض الشعري المتعدد في القصيدة ، وتصبح القضية بجميع مفارقاتها هي الموضوع الرئيسي الذي يشد المتلقي،فيلتحم صوت الشاعر مع الرأي العام لجماهير غرناطة ؛كإشارة للتأييد الذي يهيئ تنفيذ الثورة السياسية القائمة عندما يتكلم بضمير الجماعة فيقول[1] :

فصارت حوائجنا عنده ونحن على بابه قائمون

ويضحك منا ومن ديننا فإنا إلى ربنا راجعون

ولو قلت في ماله إنه كمالك كنت من الصادقين

يقترب الشاعر من المستوى الفكري الراهن لأهل غرناطةالبرابرة الذين لا يتقنون العربية بشكل قوي،فيقرب المعاني بإيضاحها بحيث تشدالمتلقي،ويحمله في رحلةذهنية تقوم على الومضات الواقعية التي تلجم التوجه الغنائي،وتسمه بنبرة واقعية ،تجعله يكشف عن التناقضات بين الحق والباطل في مرحلة تاريخية تختزلها القصيدة ، وترسم توجهات الإلبيري الكبرى التي تهدف للحرية التي تقتضي حرية القول،والفعل،والشعور بالعدل،والإحساس بانتصار الأمة،ولذا يصل إلى حل نهائي يعلنه بصراحة أمام ابن باديس،بعدما دعم وقوفه بالإحساس الجمعي الذي يجعل المواجهة أكثر قوة وتأثيراً،فيقول[2] :

فبادر إلى ذبحه قربة وضحّ به فهو كبش سمين

ولاترفع الضغط عمن رهطه فقد كنزوا كل علق ثمين

---

[1] المصدر السابق،ص١١١

[2] المصدر السابتق،ص١١٢

وفرّق عداهم وخذ مالهـم فأنت أحـق بما يجمعـون

ولا تحسبن قتلهم غـدرة بل الغـدر في تركهم يعبثون

وقد نكثوا عهدنا عندهم فـكيف تـلام على الناكثين

على أن هذه القصيدة كانت السبب في إشعال الثورة،و أسمهمت بدور كبير في التحرر من الظلم بدليل أنه يحث ابن باديس على الاستعجال في ذبح اليهودي علاوةعلى ماتحمله من براهين وحقائق،وأدلة توجب على ابن النغريلةحد التعزير،واستطاع الشاعر تحويل فداحةالقضية وإشكالاتها المعقدة بواقعها الإنساني إلى شكل يتكافأ مع الشكل الوجودي ،كما أن الإحساس القوي بالانتماء للجماعة ، يمكن أن يلقي الضوء على المتغيرات السياسية عندما انفرد الإلبيري بقدرته على الانسجام والتناغم مع الوضع القائم بما يناسبه من أسلحته الفكرية التي يلتزم فيها بالتوجه الديني،والفقهي حيث يقابل القصيدةالسابقة قصيدته عن الفتن التي يبدو أنه نظمها في شبابه، وكان يعني بها فتنة قرطبة التي أفرزت فتناً أخرى بين المسلمين، فقد كان في مرحلة فكرية وعمرية تسبق المرحلة التي نظم فيهاقصيدته في غرناطة،فاكتفى ببسط آرائه الفقهية أمام الجميع في حال الفتن ،وقال[1] : (السريع)

إن أولـي العلم بما في الـفتن تهيـبوها من قديـم الزمـن

فاسـتعصمواالله وكـان التـقى أوفى لهم فيها من أوفى الُجنن[2]

واجـتمعوا في حسـن توفيقه وافـترقوا في كل سعي حسـن

فـعالم مـستمجد عـامل يـسلك بالـناس سواء السنن

يـنثر من فيـه لهم جوهراً مـن علـمه ليـس له من ثمن

يقـسمه طـلابهم بيـنهم قـسمة تعديـل بقدر الفطن

وبـهمة[3]مخـترط سـيفه يغـمده في هام أهـل الوثن

---

[1]المصدر السابق،ص١١٣،١١٤.

[2] الجنن،وهو مايقي و يحمي .

[3] البُهمة:الشجاع الذي لا يُهتدى من أين يؤتى .

يـــلبس من إيـــمانه لأمـةً فـضفاضةً يَغْنى بها عن مِجن

وحـــابس فـــي بيته نفسه معـــتزل متـــمسك بالـسنن

قـــــد جعل البيت كقبر له وبـــرده فـــيه لـــه كالكـفن

وهـــارب شـــحاً على دينه إلى البـــراري ورؤوس الـقنن

يأنـــس بالـــوحدة في بيدها أكـــثر من تأنـــيسه بالسكن

وتائـــب من ذنـــبه مشفق يبـــكي بكاء الواكفات الهُـتُن

وصـــامت فـــي قلبه مِقْول[1] بالـــذكر لله طـــويل لـسن

ولا نرى في هذه القصيدة مثل التعصب والرفض، والتمرد الذي اتضح في قصيدته ضد اليهود لاختلاف الأوضاع ففي غرناطة كان هناك وضعاً وسلوكاً،أو موقفاً أو فئة تهدد الوجود الإسلامي يتوجب عليه رفضه،وينتج عن ذلك أن هذا الإنسان الرافض لديه موقف محدد من الوجود،وهو موقف يتصل برؤية خاصة ينطلق منها،بينما نراه يحاول أن يلملم،أو يخمد نار الفتنة بأسلوب العالم المفكر الزاهد الذي يرا أن سبب اشتعالها هو التكالب على الدنيا.

وفي كلا الموقفين أمدنا الإلبيري بملامح،ومرايا من سيرته من خلال اشتراكه في قضايا عصره ارتبطت من خلال شعره بهاجس التغيير والتجاوز،واستشراف المستقبل،فهو يحاول أن يحول الشعر إلى فتح وخلق واقع جديد،وصارت تجربته تتجاوز التعبير عن الذات إلى اتخاذ موقف من الحياة والأوضاع السائدة،أي أن الشعر أصبح موقفاً،ورؤية وصار حلماً وفكراً ،ومن ثم كشفاً عن ملامح من سيرته الذاتية.

---

[1] المقول:اللسان.

الثالث\الشعر وظاهـرة تيار الزهـــد :

يميل الإلبيري في شعره المنعكس عن هذا المكون إلى منعطف متميز،ومسار خاص ينأى به عن منطق الغيرية الذي تكرر لدى شعراء الاحتراف،والتكسب،لاسيما بعد ما ذكرت المصادر أن زهده كان فكراً وسلوكاً،وممارسة بعكس غيره من الفقهاءء في عصره الذين لم يطبقوا مبادئ زهدهم كما تحدثوا عنه في أشعارهم[1].

كما أجمع معظم النقاد القدامى،والمحدثين على أن ديوانه يندرج تحت موضوع واحد هو موضوع الزهد،ففضاء الأغراض الشعرية لا يخرج عن الوصايا،والمواعظ والحكم،والنصائح،مما يدل على أن فـضاء الـذات والتجربة،وصياغـــة الـقيـــم و الاعـتبارات لـدى الإلبيري هي مـنعطفات ومراكـــز داخلية،تمثل عناصر، ومرجعيات سيرية يعبر بها الشاعر عن طبيعته السير ذاتية في التعامل مع القضايا المختلفة لاسيما إذا أخذنا بعـين الاعتـــبار مقولة:"كـل عمل فـني فـهو سيـرة ذاتيـــة على نحـــو أو آخر،صحيح أن أغلب المبدعين في كل الحالات لم يكتبوا عن تجاربهم الذاتية على نحومباشر،ولكن في كل الحالات يكتبون بها[2]"بدليل أنه لم يتناول الغزل بأشكالته المختلفة، و لم يتحدث عن المرأة ،كما لم تشغله الطبيـعة الأنـدلسية بسحرها،ولم يتـناول المدح، أو الهجاء إلا في حـدود ضيقـــة لا تتـجاوز الـقصيدة،أ و المقطوعة،ومعظم شعره يصب في باب المواعظ،أو النصح، أو الإرشـــاد والـقيم الأخلاقية الرفيعة،كما في قوله مادحاً شيخه[3] : (الخفيف)

يشهـــد العالمون في كـل فـــن أنه كالشهـــاب فـي العلمـاء

وقـــــضاةُ الزمـــان أرض لـديه وهو من فوقهم كأ فق السماء

وثـــنائيَ وقْـــفٌ عليـــه وشكري ودعـائي لـــه بطـول البقَـاء

ولم يهتم بحياته الخاصة خارج إطارها الثقافي،ونشاطها الفكري إلا عندما توفيت زوجته ،فرثاها

---

(1) انظر:بيرس،هنري":الشعر الأندلسي في عصر الطوائف،ط١،ترجمة الطاهر ألمكي،القاهرة:دارالمعارف،١٤٠٨هـ،ص٣٧٧.

(2) أصلان،إبراهيم:جريدة الرياض،عدد١٠٢٤٤،١٤٠٦هـ،ص٣٣.

(3) ديوان الإلبـــيري،ص٩٩.

بقصيدة منها[1] :

ولـــو أنني أنــصفته في ودّه لقضيت يوم قضى ولم أستــأخر

أجد الحلاوة في الفؤاد بكونه فيـــه وأرعـــاه بعين ضمائـري

لسـألت مغفرة لـه وتـــجاوزاً عــنه من الرب الجــواد الغـافر

أخـْلِق بمثلي أن يُرى متطلّباً حـوراء ذات غــدائـر وأســـاور

مقـــــصورة في قبة من لؤلؤ ذخرت ثواباً للـــمصاب الصابر

فكأنه برثائه كمن يسعى لتطهير انفعالاته المؤلمة،وتلطيفها،وتعديلها،وتنفيثها مما يعطي إشارة إلى أنه رجل من رجال الفكر المتسامي الذي ورثه من العلم.

وتؤكد المعطيات السابقة وصول الإلبيري إلى مرحلة متقدمة من النضوج الفكر ، والإيماني الذي ارتقى به إلى مرتبة الزهد حتى صار منهجاً أساسياً لحياته على مستوياتها المختلفة،وأصبح الإلبيري من أعلام الزهد في عصره،يقول الدكتورإحسان عباس:"وعندي أن الإلبيري قد وصل بشعره الزهدي في الأدب العربي-لا في الأندلس فحسب-إلى قمته بما أضفى عليه من حرارة الوجد،والانفعال والإقرار بالضعف الإنساني أمام مغريات الحياة،ومكافحة الشهوات العارمة "[2].

وهذه الخصائص أدت إلى وضوح دوافع زهده من خلال ملامحه السير الذاتية،والموضوعية المتشظية بين قصائد،ومقطوعات الديوان،وفي أغراضه المختلفة،وتشي بوعي مبكر،ورؤية مستندة إلى وعي ناضج بالدور الذي يجب أن يقوم به،كما في قوله[3] :

هذبتني نوائب الدهـــر حـــتى صرت كالوصل بعد طول الجفاء

فسفـــيني تجري بأطـيب ريح لا بـــريـــــح ضعيفـــة نكـــبا

ويقول من أخرى [4]:**فصمتّ إلا عن تُقى ولربما قـذفتْ بحار قريحـتي بجـواهر**

---

[1] المصدر السابق،ص٩١.

[2] عباس،إحسان:تاريخ الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين،ص١٠١.

[3] ديوان الإلبيري،ص٩٨.

[4] المصدر السابق،ص٩٣.

إن هذا الارتقاء الإيماني، والتقوى التي وصلت إلى مرتبة الزهد لم تظهر فجأة،وإنما هي مراحل وخبرات وتجارب متنوعة،مرَّ بها ومارسها طوال حياته،يجمل ملامح منها في إحدى قصائده التي يبين فيها ملامح من فصاحته،وسعيه لطلب العلم والرزق مبتعداً عن المال الحرام الذي يبدو كثرة معروضه على الشاعر،واحتراسه منه،وشدة حفاظه على قيم الدين الإسلامي وتقاليده،فيقول [1] :

ولو أنني أدعو الكلام أجابني كإجابة المأسور دعوة آسر

ولو أنني أرضى القذى في مشربي لكرعت كرعة ظامئٍ بهواجر
وعبرت بحر الرزق ألتمس الغنى حرصاً عليه وكنت أمهر ماهر
لكنني عوضت منه عناية بقناعة وتجمل في الظاهر
فمن الغنى ما قد يضر بأهله والفقر عند الله ليس بضائري
ولقد أصبت من المطاعم حاجتي ومن الملابس فوق ماهو ساتري
وأنا لعمرك مكرم في جيرتي ومعظم ومبجل بعشائري
ولقد رأيت من الزمان عجائبا جربتها بمواردي ومصادري

وكما أوتي الإلبيري عقلاً عبقرياً نقاداً،وبصيرة كاشفة أفضت به إلى التدبر،والتأمل لقضايا الحياة المتنوعة أمسك بها،وأشار إليها في شعره،فوقع على الحكمة التي لم يخترعها،بل اقتبسها بالممارسة لها من واقع حياته،فعرضها عرض المستنبط للنتائج في مواضع كثيرة من الديوان،منها قوله[2]: (الكامل)

لو كنت في ديني من الأبطال ما كنت بالواني ولا البطال
ولبست منه لأْمةً فضفاضةً مسرودةً من صالح الأعمال
لكنني عطلت أقواس التقى من نبلها فرمت بغير نبال
لاشيء أخسرُ صفقة من عالم لعبت به الدنيا مع الجهال

---

[1] المصدر السابق،ص٩٤،٩٣

[2] المصدر السابق،ص٤٥،٤٤.

فـــــغدا يفرق دينه أيدي سبا ويـــــزيله حرصاً لجمع المال

و كذلك يضئ ارتياد الإلبيري للحقائق،أو مايسميه رولان بارت:"أثر الواقع"[1]ملامح من سيرة الفقيه وهو بلوغه الستين من عمره،وتجاوزها أيضاً،وكانت من أهم المحطات التي استوقفت الإلبيري وحفزت زهده،وشدت من عضد التقوى إلى حدّ بعيد،فكررها في شعره كثيراً،كما في قوله متحدثاً عن ذاته و شعوره الذي خالجه عند وصوله هذه المرحلة من عمره [2]:

أفـي الستيـــن أهجـــع من مقيـــلي وحـــــادي الــموت يوقظ للـــرواح

وقـــد نـــشر الزمـــان لواء شيبي ليـــطويني ويـــسلبنـي وشـــاحـــي

وقـــد ســـل الحمـام علـــي نصـلا سيقتـــلني وإن شـــاكت ســـــلاحي

ويحمـــلني إلـى الأجـداث صحـبي إلـى ضيـــق هنـــــاك أو انفـــساح

فأُجْـزَى الخيـر إن قـــدمت خيـــراً وشـــراً إن جُزيـت عـلى اجـتراحـي

وهـــأنا ذا عـــلى علمـــي بهـــذا بطـــئ الشـــأو فـي سنـن الصلاح

وتحوي معاناته لهذه المرحلة جانبا كبيراً من الصدق،والأصالة المستوحاة من فكر إيماني استدعى مشهداً من مشاهد الأندلسيين،وهي كثرة تصابي الشيوخ الذي انعكس من خلال تجربته الشعرية؛ليتخذ منها سبيلاً للوعظ،ويحقق لنفسه منهجاً سلوكياً تعبدياً منافياً لما هو سائد عندما يقول من قصيدة أخرى في نفس الموضوع [3]: (الكامل)

من جـــــاوز الستين لم يـــجمل به شُغْـــلٌ بِجُمْـــلٍ والربـاب و غـــادر

---

[1] الداهي،محمد:شعرية السيرة الذهنية،ص٨٥ .

[2] ديوان الإلبيري،ص٤٩.

[3] المصدر السابق،ص٩١.

بـــل شـــــغله في زاده لمعـــاده فـــالزاد آكـــد شُـغل كل مســافر

والشيخ لـيس قـــصاره إلا التـقى لا أن يهيـــم صبـــابـة بجـــآذر

نفرت طباع الغيـــد عنه كراهـــــة ومـن العنـــاء علاقـة بمُنـــافِـــر

من المفترض أن تتضح ردود فعله تجاه التيار السائد المتحرر من القـيم،والأخلاق السـائدة في عصره بهجوم،أو مواجهة صريحة كونه أهم دوافع زهده غير أن مـانراه في شعره مناوشته لبعض القضايا عبر همومه الذاتية في محاولة منه لتعديل الكفة المرجوحة على الأخرى الراجحة،والغالبة من خلال الحكمة التي حين تسود في شعره فهي إشارة إلى واقعة،أو ظاهرة اجتماعية يُراد لها التقويم بالموعظة أو الترويض،والحث على مزاولتها، دون أن يهاجم الأوضاع السائدة بهجاءٍ،أو ثورة إلا عندما شعر بما يزعزع الوجود الإسلامي كما في قصيدته عن يهود غرناطة،جمع بعضها في إحدى قصائده،وأجملها فقال[1] :

عجـباً كـم رأيـــت مالاً مصـونـاً وفـؤاداً نهبـــاً بـــأيـــدي نســـــاء

وإذا حـــازم علـى المـال أبـقـــى فـــقـــــواه أحـــق بالإبقـــــاء

أي خـــــير لوالـــد فـي بـنـيه وهـــو عنهـــم يفـر يوم الجـــزاء

والتقـيّ المـــوفق الـــبَر منهـــــم عـــــدم كـــالسمـــاع بالعنـــقاء

وإذا مـا الأديـب شُبـــه فيهـــم جـــر أذيـالـه مـــن الخـــيلاء

وازدرى بالشيـوخ واعتـــــرض الدأ مـــاء جهـــلاً بنفـــثه الرقـــاء[2]

---

[1] المصدر السابق،ص٩٧ ، ٩٨.

[2] الرّقاء:رقاه رقياً فهو رقاء:نفث في عوذته.

ومن الغـــبن هجــر دار خلـــــود وبقـــــاء ووصـــــل ودار الفنـــــاء

واشـــــتغـــال بفرتـــــني وبلبنـــــى وبدعـــــد عن خطـــــبة الحـــــوراء

تخلص هذه الدوافع التي تميل إلى الصدق الواقعي،وارتباطها بالمنهج الذاتي للشاعر،و تبين تفاعله مع الحياة الاجتماعية بمشاربها المختلفة من خلال هذه الذات بأن زهده لم يكن عارضاً،أو مجرد توجه،أو تمثيل،أو سبيل للتوسع في الأغراض ، بل نجد العلاقة بين الزهد،والعلم الرشيد متينة،والتفاعل بينها قوي؛"لأن العلم يورث الحال ،ويتمر الأعمال[1]"،بدليل أننا نعثر في شعره بوجه عام على قدر عال من الاهتما بقضايا الحق،والحقيقة للوجود الإنساني،وله موقفه من الموت والحياة ، يعكس بها الصورة النموذجية للمسلم تجاه الحكمة من خلقه التي يكررها في شعره بأشكال متنوعة ،كما في قوله[2]: (الخفيف)

نحـــــــن في منـزل الفنـاء ولكن هـــــو باب إلى البقـــاء وسلـــم

ورحـــى المـوت تستديـر عليـــنا أبـــــداً تطحـــن الجميـــع وتهـشم

فعـــــسى من له أعـــــفر وجهي سيـرى فـــاقتي إليـــــــه فيرحـــم

فشفيـــــعي إليه حـــــسن ظنـــوني ورجـــائي لـــــه وأنـــــي مســـــلم

ولـــه الحمـــد أن هـــــداني لهـــذا عدد القطـــر مالحمـــام ترنـــــم

وبترتيب عناصر موضوع الزهد الذي قصر عليه ديوانه وفق اعتبارات الأغراض والموضوعات ومرجعياتها السيرية نرى أن الزهد وصل بالإلبيري إلى مرتبة الورع في الحلال فضلاً عن الحرام،لأن الإلبيري لا يأخذ ما يمليه عليه قانون السواد الأعظم من الناس في عصره المقبل على الدنيا بل

---

[1] الغزالي:أبو حامد،إحياء علوم الدين،ج٢،ص٣٥١.

[2] ديوان الإلبيري،ص٥٧،٥٨.

يتخذ من إراداته الفردية التي تدرك تبعات التهالك على الدنيا قانونا يحميه،ويشرع به لنفسه حقيقة لا حقيقة سواها،كما في قوله لمن عذله على رداءة مسكنه[1]: (البسيط)

قـــالوا ألا تســـتجد بيتـــــــــا تعجـــب من حســـنه البـــــــيوتْ

فقـــلت ماذلكـــــم صـــــــوابٌ حفش كثيـــرٌ لـمـــــن يمـــــوتْ

تؤيد هذه القصيدة أن زهد الإلبيري،وورعه، لم يكن لفقر،أو فشل،أو إحباط وإنما كان عن قناعة إيمانية،وصار الورع منهجاً فقهياً يدل على صلاحه،وتقواه،وصدق توجهه،والابتعاد،والفرار عما قد يفسدهذه القناعة،"ففساد العلماء باستيلاء حب المال،والجاه عليهم[2]"،وقد تنبه الإلبيري لهذه الحقيقة التي يقرها الغزالي،فطبقها على واقع حياته.

يتضح أن قوة تيار الزهد،واشتهاره في الأندلس مع قلة المنتمين إليه، يعود للإمكانيات التي يصرح بامتلاكها الإلبيري كالوعي العميق بالذات ،والهوية الدينية التي تتنامى وتزداد من خلال الشعر الـذي يكثف مجموعة الأغراض، والموضوعات التي تظل ناشطة في شعره، وتتسع مساحاتها، فـيزيـد أوراها لاستشارة الفكر، والوجدان في توضيح فجاج المنهج، وسبلة الفقهية للواقع الذي يحيا بين جنباته فتعقد الذات المقارانات مع الآخرين في نواحي التضاد،والاختلاف للأهداف في بعدها المستقبلي الدائم الذي يرنو إليه الإلبيري،ويؤكد له سلامة منهجه في الحياة،كما في قوله[3]: (الخفيف)

كـــل امرئ فيـــما يـــدين يدان سبحـــان من لم يخـــل منه مكان

ياعـــــامر الدنـــيا ليسكنها وما هـــي بالتـــي يبـــقى بـــها سكان

تفنى وتبـــقى الأرض بعدك مثلما يبـــقى المـــناخ وتـــرحـل الركبان

---

[1] المصدر السابق،ص٧٠.

[2] الغزالي،أبو حامد:إحياء علوم الدين،ج٢،ص٣٥١.

[3] ديوان الإلبيري،ص١٤٠.

أ أســـر في الدنـــيا بـكل زيـــادة وزيـــادتي فـــــيها هـــي النقصان

وكما نرى أن شعره يحمل الطابع الديني الملتزم بالرضا، والحث على الاستكثار من الحسنات قبل فوات الآوان،فهو ينظر للدنيا على أنها دار عبور وفناء ، ولذلك لايحمل شعره الطـابع الفلسفي الذي يـرى السـعادة ،فـيما بقي مـن الفـضائل، أو أن الـدنيـا دارشـرور ،كـما نجـده عـند المـعري الشـاعرالعباسـي[١]، فيأتي حجم ماترغب به الذات بالحصول عليه متساويا مـع حـجم التحضـير له؛لهذا لايرى الموت شبحاً يسبب له اليأس،والنقمة لأنه كان من الألباء[٢]،كما في قوله[٣] :

إن الألبـَّاء و هـــم قلـّـــــة فـــروا إلـــى الله من الـنـــــــار

وطلقوا الدنـيا بتـــــــاتاً ولم يلـــووا علـــيها حـــذر النـــار

ويقول[٤] :

لا غـارت الدنيـــا ولا أنجـدت فالعـــاقل الحر بـــها ممتحـــن

تمـــيل للأحـــمق من أهـلها وهـــي عـلى عاقلهـم تضـطغن

حلقت ملامح من سيرة الإلبيري الفكرية في أجواء شعره بأشكالها المختلفة،وتصاعدت معه بتصاعد عمره،وخبراته الزهدية،و حينما بلغ إلحاح العزلة مستوى عال من النضج،ترددت أصداؤها في شعره،فقال[٥] : (الكامل)

حـــسبي كتاب الله فهـو تنعمي وتأنســـي في وحشتي بدفاتري

---

[١] انظر :عبدالستار،محمد:شعر الزهد في العصر العباسي من قيام دولة بني بويه إلى سقوط بغداد_ط١،القاهرة :مؤسسة المختارللنشر والتوزيع،٢٠٠٤م،ص ٣٨١ .

[٢] الألباء:جمع لبيب وهو الفطن الذكي.

[٣] ديوان الإلبيري،ص١٠٣.

[٤] المصدر السابق،ص١١٦.

[٥] المصدر السابق.،ص٩٢.

قــد آن لي أن أستفيـق وأرعوي لو أنني مـــــمن تصح بصـائري

فصـــــمت إلا عـــن تقى ولربما قذفت بحار قريحتي بـجواهري

ويتضح اعتزاله في قوله[1] : (الكامل)

وهجرت دنيا لم تز ل غدّ ارة بـــمؤمليها الممحضين لها الوفـا

إن الـــجواد إذا تـطلب غـاية بلــغ المـدى منها وبـذّ المُقِرفـا[2]

شـــتّان بيـــن مـشمر لمـعاده أبــداً وآخـــر لا يـزال مـسوفـا

وإذا كانت العزلة لا تتفق مع روح الإسلام،ولاتجمل العزلة بالمسلم؛ لأن الإسلام تتداخل وتتكامل فيه كل جوانب الحياة،فإن عزلة الإلبيري الفقيه الزاهد ،لم تكن تخلياً عن مسؤوليته تجاه دينه ومجتمعه،والإنصاف يقتضي ألا ندين عزلته دون أن نفهم كيفية هذه العزلة،وبواعثها من خلال شعره الذي يعد المصدر الوحيد ،حيث يدل على أن عزلته لم تكن تخلياً عن واجبه ومسؤوليته الاجتماعية بدليل ما أثمرته هذه العزلة من التجارب المتنوعة التي رأى أنها تصلح دروساً نموذجية وعبراً لشرائح مجتمعه المختلفة من خلال شعره مرة بالحديث عن ذاته ، وأخرى عبر نشاطها الفكري بعد ما رأى أن تجاربه تصلح أن تكون عبرة للآخرين،وتوجيههم،ويقول الدكتور إحسان عباس:"لست أقول أن التجارب الروحية لا تكون إلا روحية ، ولكن التجارب الروحية، من أشد التجارب حثاً على كتابة السيرة الذاتية[3]" ،ويقصد بها ذات الطابع الديني ،كما عند الإلبـــيري ،فالتجارب العلمية والخبرات الفكرية وعمق فهمها كانت تحثه على التعبير عنهامن خلال توظيفها لخدمة القضايا الاجتماعية والقيمية ،كما في قوله يخاطب عموم الناس[4] : (الوافر)

---

[1] المصدر السابق، ص٥٢.

[2] المقرف :الفرس المقرف دون الأصيل .

[3] عباس،إحسان:فن السيرة،ص١٠٣.

[4] ديوان الإلبيري،ص٣٢.

و من لك بالأمـــان وأنت عبـد أمرت فما ائتمـرت و لا أطـعتا

ثَقُلَتْ من الذنوب ولست تخشى لجـهلك أن تـخـف إذا وُزنـتا

وتشفق للمـصرِّ على المعـــاصي وترحـــمه ونفســـــك مـــارحمتا

رجعت القهقرى وخبطت عـشوا لعمرك لو وصـلـت لما رجعـتا

ولو وافيت ربـك دون ذنـــب وناقــشك الـحساب إذا هلكتا

ولم يظلـمك فـي عمـل و لكن عـسير أن تـقـــوم بمـا حملتا

ثم إن الإلبيري كان ممن ذاق حلاوة الإيمان،والذكر عند استمراره على الطاعة،فأراد التفرغ لها والتخلص من الفتن،والمعاصي ولا سبيل لذلك إلا بالابتعاد،واعتزال الناس،وأقبلت الحكمة في شعره لتخدم رغبة العقل،والفكر،فيقول[1]: (السريع)

وصـامت فـــي قلبــه مـقول بالذكـــــر لله طـــويـــل لسن

تراه كالأبـــــله فـي ظـــاهر وهو من أذكى الناس فيما يظن

قـــد نـــور الله له قـلبـــه بالـــذكـر لله طويـــــل لسن

فإن يبين بالفكر عن صـــحبه فجـسمـــه بينـــهم لـــم يبن

وإن لـغوا وهو جليس لهـــم لم يلــج اللـــغو لـه في أذن

في ملـــكوت الله سبـــحانه تجـــول ألبـابُ لُباب الفطن

سمَوا بفضـل الله نحـــو التي مـن حـلّ في جيرتها قد أمن

---

[1] المصدر السابق،ص١١٦،١١٥.

ولذلك فوظيفة الشعر عنده تنطوي في جوهرها على مهمة يراها الشاعر مصيرية في تجربته وتكون عنده بصيغة ما موازية لوعيه السير ذاتي الممعن في تعبيره عن فكر الشاعر،وفهمه للشعر والحياة معاً،ومثال ذلك قوله[1] : (الوافر)

ولازم قرع بـــاب الرب دأباً فإن لزومه سبـــب الدخول

فـــما من مخـــلص لله إلا على أعمـــــاله أثرُ القبول

وتكشف العناصر السير ذاتية للاعتزال في شعره عن ملامح من شخصيته المذعورة من عقاب الله لاسيما بعد يقينه،وإيمانه من اتساع الهوة بين الواقع والأماني ،واتجاه الفكر لما بعد الموت من حياة فصار الموت كأنه عصاً بيدالشاعر يطرق بها على رؤوس الغافلين،فنظم على إثر ذلك اليقين قصيدته عن وصف الجنة والنار،وطريق كل منهما وتعامل مع معاينتها وتبيانها بشكل أساسي مع الجانب المعرفي والعلمي،فقال[2] (السريع)

ويـــل لأهل النار في النار ماذا يـــقاسون مـــن النار

تنـقدُّ من غيظ فتغلى بهم كمرجـــل يغلي عـــلى النار

فيـــــستغيثون لكي يعتـبوا ألا لعـــا مـن عـــثرة النار

وكلـــــهم معـــترف ونـادم لو تقبـــل التوبة فـــي النار

ثم يأخذ شعره ملامح خطبة الوعظ،والإرشاد من نفس القصيدة عندما يمعن في التفكير عن الجنة والنار بخلفية معرفية لمعانيها الواردة في القرآن والسنة ، فيقول[3] :

---

[1] المصدر السابق،ص١٠٦.

[2] المصدر السابق،ص١٠١.

[3] المصدر السابق،ص١٠٢.

طوبى لـــمن فاز لـــدار التقى ولـــم يـكن حـــصب النار

يا أيها الـــناس خذوا حذركم وحـــــصنوا الـجـــنة للنار

وأكـــثروا مـــن ذكر مولاكم فذكـره ينجـــي مـــن النار

ومن ملامح اعتزاله بكاء ذنوبه،ويعود ذلك لحساسيته الشديدة تجاه الخطأ،وتجاه المواقف التي تذكره بأن الحياة دار فناء خاصة عندما فقد المخلصين من الأصدقاء، والإخوان الأوفياء الذين زهدوه في الدنيا،وترك فقدهم أثراً عميقاً في نفسه،فآثر الاعتزال وألمح إلى ذلك في مواضع عدة من الديوان

كما في قوله [1] : (الطويل)

تمـــــر لداتي واحداً بعد واحـد وأعـــلم بعدهـم أني غير خالد

و أحـمل موتاهم وأشهد دفنـهم كأني بعيـــد منهـم غير شاهد

فها أنا في علـــــم بهم وجالتي كمستـــيقظ يرنو بمـقلة راقد

ولم يعر الإلبيري الدنيا كثير اهتمام أو مبالاة،ولذلك لم يتشاءم من مصيره بل كان يرجو رحمة الله،وعفوه في مثل قوله[2] :

والحـــمدلله فـــفي كفّه منـــح لمن شاء وفيها المنن

وهو الذي أرجو فإن لم يكن عند رجـــائي فيه طولاً فمـن

إن اعتراف الإلبيري بتقصيره،وبكاء ذنوبه،والخوف من عقاب الله لم يكن إشارة إلى ضعف الذات،وقدراتها الإيمانية بقدر ماهو إشارة إلى قوتها؛لأن البكاء،والحزن فعلان إنسانيان ينمان عن حب الحياة دون تفريط بشروط الوجود الإنساني،والحكمة منه،و كثرة ورودهـــما في شعره يدل

---

[1] المصدر السابق،ص١١٨.

[2] المصدر السابق،ص١١٧.

على شعوره بتقصيره وعدم قدرته على التوفيق بين شروط وجوده ؛لأن"الشعر ضرب من الاعتراف الـــذي يريد الشـاعر عن طريقـه أن ينفـس به عن رغباته" [١].و لذلك نجد أن من قـارن بيـن الإلبيري ،وأبـي العلاء رأي بأن الإلبيري كـان"مـقدماً عليه بقوة الإيمان ، أما الثاني : فكان ملقياً للأخبار،ومترجياً،مترفقاً في الطلب حذراً من عواقبه"[٢]

وظل الإلبيري وفـــياً لمبادئه متوازناً في فكره،مشدوداً إلى محاولة تحديد منهجه،وتوجهه من خلال شعره.

ولما كان الشعر في عصر الشاعر كما يقول بيريس:"هو التعبير الأساسي عن فكر الشعب"[٣] فقد تبـــلورت من خلاله ملامح واضحة من سيرة الإلبيري التي ضنت بـها المصادر وكتب السـير والتراجم ،وكان ميله للزهد بحج ذاته قرينة سير ذاتية،ضيقت المسافة بين الشاعر وشعره،فمثّل شعره مشهداً لحياة واحدة هي حياته ،التي جمعت بين الشاعر والعالم والفقيه والمناضل ، وأضاءت ملامح من سيرته التي انفردت بخصائص أهمها الحضور المكثف، والمميز للذات من خلال تفرد الموضـوع ونوعـــيته ، وترصّد شعره بوضوح مسار حياته ، وأطوارها الفكرية التي عبرت عن رحـــلة التكوين الفكري السائد والمميز في عصره ، فأهمية ما حوله تنبع من منظوره الذاتي ، ورؤيته تكتسب أهميتها الخاصة في تحديد مسيرة التطور الفكري له ، أما العناية بالجوانب العاطفية والوجدانية ، فلم يلتفت إليها وهو ما يؤكد أن البـواعث الكامنة وراء معظم شـعره هي الرغبة في تقـديم ملامح سيـر ذاتية اعتبارية لا شخصية ، مما أدى إلى الإعتناء بوصف رحلة البحث عن الحقيقة وتقديمها للأخرين في بنية ثقافية يزداد فيها الصراع بين الخيارات الفكرية والاجتماعية السائدة .

---

[١] إسماعيل،عز الدين:الأدب وفنونة ،ص٧٩.

[٢] البلداوي،حميدة صالح:موازانات شعرية بين الاندلسيين والمشارقة،ط١،عمان:دار عماد الدين للنشر و التوزيع،٢٠٠٩م،ص١٥٨.

[٣] بيريس،هنري:الشعر الأندلسي،ص٣٧٧.

الفصل الثالث :

ملامح من السيرة العاطفية في الشعر الأندلسي-ابن زيدون نموذجاً-.

المبحث الأول\المكونات والمؤثرات :

إن تغلب العاطفة،واتساع نطاق الإحساس والشعور،هي الأرجح في ميزان سيرة ابن زيدون المرتبطة بحبه لولادة، فقد هيمنت قصة مكابدة ذلك الحب على سيرته على مر العصور،مع أن هذه القصة لا تمثل إلا جانباً من حياته في مرحلة من مراحلها،وحياة ابن زيدون أوسع من أن تقتصر على هذا الحب،فقد كان وحيد عصره بجمعه بين فني الشعر والنثر، وثاني اثنين من كبار السياسين في عصره،وثالث ثلاثة من عملاقة الفكر،والتاريخ في قرطبة،ورابع شاعر في الأدب العربي اقترن اسمه بامرأة[1]،وهذا يعني أن علاقة ابن زيدون الناجحة بذاته،ووعيه بها على كافة المستويات أثّر في علاقته بالآخرين وبما حوله، ولذلك يأتي إخضاع شعر ابن زيدون لموضوع السيرة العاطفية ؛لكونها أكثر موضوعات فن السيرة تمحوراً حول الذات المبدعة،ونموذجها الأدبي، فهي تُعنى بمعرفة العواطف،وكيفية تحفيزها لتحقيق الهدف،كما تهتم بتقدير عواطف الآخرين،وفن إقامة العلاقات،والتعامل معهم[2]،ومن ثم دورها في إثراء التجربة الشعرية لتكون معياراً لتتبع ملامح من سيرة الشاعر،لا سيما أن شأن البعد العاطفي في شعر ابن زيدون كان الشهاب الذي أضاء له الامتداد والبقاء،يستحضره المتلقي لشعره على مر العصور، وهذا مايؤكده الدكتور شوقي ضيف في دراسته عن الشاعر، فيقول :"من خير النماذج التي تكشف لنا المنزعين،فهو لا يخرج شعره عن القواعد الموروثة- وفي الوقت نفسه ينبض شعره بحياة عصره،وما كان فيها من حضارة،وترف باذخ،وإغراق في الحس، والخمر واللذة،فاتصاله بالماضي لم يحل بينه ،وبين تصوير الحاضر الذي يعيش فيه ،أما نفسه وحبّه فقد أودعهما شعره،ومثّلهما في صورة تخفق بالحياة إذ لم يصدر فيها عن تجربة كاذبة،بل صدر عن تجربة صادقة،ضغطت على شعوره،وقلبه"[3].

---

[1] شيخة،جمعة:عصر ابن زيدون-ط١،الكويت:د.ن،٢٠٠٤م،ص٥.

[2] انظر: عدس،محمد عبدالرحيم:دور العاطفة في حياة الإنسان_ط١،د.م : دار الفكر للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧م ص٧١.

[3] ضيف،شوقي:ابن زيدون-ط٣،مصر:دار المعارف،د.ت،ص٤٠

وهذا يعني تعدد مذكيات العاطفة،وتنوع مستوياتها،مما يستدعي الوقوف على أهم المكونات لسيرته، ودور المؤثرات المتنوعة المحيطة به المتمثلة في :

أولاً | مكون النشأة :يقوم هذا المكون على محورين أساسين هما :

أ | مدينة قرطبة :

ولد الشاعر أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن أحمد المخزومي[1]عام(٣٩٤هـ)،لأسرة عربية ذات جاه وعلم وثراء؛فوالده عبدالله بن أحمد أحد كبراء فقهاء وعلماء قرطبة وقضاتها المعدودين[2]. كان مسقط رأس ابن زيدون في الرصافة،وهي الناحية الشمالية من قرطبة أعظم أنحائها أنشأها عبدالرحمن بن معاوية،واتخذ فيها قصراً عظيماً،و نقل لها غرائب الزروع،والأشجار[3].

وقد أمضى ابن زيدون في مدينة قرطبة ثلثي عمره حتى عام(٤٤١هـ)،وكان شديد التعلق بها وأفصح عن ذلك في مواضع من نثره،فقال:"ونظرت في مفارقة الأوطان،والبين عن الأحبة،فتبين لي أن إيحاش نفسي بإيناس أهلي،وقطعها في صلة وطني غبن في الرأي،وخور في العزم...ولم أستغرب أن أسام هذا الخسف في مسقط رأسي،ومعق تمائمي" [4].ويعود هذا التعلق بقرطبة لما بلغت من رقي حضاري واجتماعي وعلمي بلغ ذروته في عهد الشاعر.

وقد أطال المؤرخون في وصفهم لمدينة قرطبة في هذا العهد،فاستغرقت من المقري في كتابه نفح الطيب ستين صفحة،تناول فيهامعالمها الحضارية بأشكالها المختلفة،ومماعرفت به ؛أنها كانت طيبة الهواء والماء...أحدقت بها البساتين والحصون والمياه والحدائق والعيون من كل جانب،وكان نهرها الساكن في جريانه إحدى عجائب الدنيا ، وأقيم بها الجامع الذي ليس في بلادالأندلس أكبر

---

[1] للوقوف على ترجمة وافية لابن زيدون،انظر:ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٢٠٩،ابن خاقان:قلائد العقيان،ص٧٠ الحميدي:جذوة المقتبس في ولاة الأندلس،ط١، تحقيق:محمد بن تاويت الطنجي،القاهرة: مكتبة نشر للثقافة الاسلامية،١٩٦٦م،ص١٢١،ابن الآبار:الحلة السيراء،ص٤٥،المراكشي:المعجب،ص٧٤،ابن دحيه:المطرب من أشعار أهل المغرب،ص١٦٦.

[2] انظر: ابن بسام :الذخيرة،ق١،ج١،ص٣٣٨.

[3] انظر:المقري ،نفح الطيب،ج١،ص٥٤٧.

[4] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج٢،ص ٧٥٨.

منه،ولاأعجب من عمارته[1]،يقول غوته:"لا سبيل إلى وصف التأثر الذي يشعر به المرء عند دخوله هذا المسجد القديم،فيتراءى لك كأنك تسير في غابة مسقوفة لا في بناء مصنوع..."[2].واشتهرت قرطبة-أيضاً-بالمتنزهات يهرعون الناس إليها للتمتع بها واللهو في أنحائها،ومطارحة ومطارحة الأدب، والشعر بين مروجها، ومن أشهرها منتزه السُّد،والزاهرة،والعقاب والقصر، ومدينة الزهراء تلك التي استغرق بناؤها عشرات السنين[3]في عهد الخليفة الأموي الناصر الذي جعله من عجائب حضارة المسلمين في الأندلس،وبقيت حتى عهد ابن زيدون.

وقد وصلت شهرتها إلى أوروبا،فوصفوها بأنها:"جوهرة العالم الساطعة،مدينة جديدة رائعة فخورة بقوتها وشهيرة بمباهجها، وكثرة نواويرها، وورودها، مزهوة بما تملك من خير وفير"[4].

وأصبحت قرطبة ملتقى أجناس الشرق،والغرب في عصر ابن زيدون، وموضع امتزاج بعضها ببعض،تنعم بالثراء الوفير،وكثُرت فيها أسواق النخاسة،وقابل ذلك أيضاً أن الحياة العلمية،والثقافية أخذت الشكل المنظم ،وقامت المدارس،والجامعات،وغصت بالكتب،وأُنشئت المكتبات،وعجت بالعلماء،والأدباء في جميع التخصصات[5]،ولاشك أن هذه المعطيات قد تركت آثارها على نشأة ابن زيدون وعلى موهبته الأدبية وفنه الذي اقترن به.

ب | ثقافته الفكرية :

لم تهتم المصادر بنشأة ابن زيدون،ودراسته، وعلى يد من تثقف وبمن اهتدى- وفي الغالب أن هذه المرحلة من حياة الأعلام ، والأدباء مسكوت عنها في كتب التراجم الأندلسية .

لكن انتماء ابن زيدون إلى بيت علم وفقه وثراء ونشأته في حاضرة العلم قرطبة ،يؤكد اختلافه إلى علمائها وشيوخها،ودراسته في صحون جوامعها ،ومدارسها،وجامعاتها،فنهل منها

---

[1] المقري:نفح الطيب،ج١،ص٥٥٤.

[2] علي ،محمد كرد:غابر الأندلس،ص ١٠٤.

[3] المقري،نفح الطيب:ج١،ص٤٥٥-٦٩٤.

[4] بيرس،هنري:الشعر الأندلسي ،ص ١١١.

[5] انظر:محمد،محمد سعيد:الشعر في قرطبة —من منتصف القرن الرابع الهجري إلى منتصف القرن الخامس _ط١،أبوظبي :المجمع الثقافي،٢٠٠٣م، ص٤٠.

المعارف،والثقافات شأنه شأن المتعلمين في عصره،وبناءً على ذلك استنتج الدكتور الشكعة بأن:"ابن زيدون حفظ القرآن ودرس أسرار اللغة،وتوفر على العلوم الدينية،وقرأ أدب الأقدمين،وثقّف نفسه ثقافة عقلية فلسفية وهضم أخبار العرب،وأيامهم،وأمثالهم[1]". ولم يبلغ الشباب إلا قدامتلأ وطابه علماً،وتفتقت مواهبه شعراً كنموذج لشباب الطبقة المترفة في قرطبة يشهد بذلك معاصره ابن حيان،فيقول:"فتى الآداب وعمدةالظرف شاعر البديع والوصف والرصف أبي الوليد أحمد بن زيدون ذي الأبوة النبيهة بقرطبةوالوسامة،والدراسة وحلاوةالمنظوم والسلاطةوقوة العارضة،والافتتان بالمعرفة"[2].ومصداق ذلك ما بقي من آثار ثقافته كديوان شعره،ومؤلفاته المتمثلة في رسائله النثرية،من أهمها:الرسالة الجدية،و الرسالة الهزلية والمظفرية[3]،وغيرها حيث تحمل هذه الرسائل ما يدل على ثقافة واسعة دينية،وتاريخية،ولغوية،وأدبية عميقة تدل على سعة حفظ وذكاء ونباهة،يصفه ابن نباته الذي درس نثره،فقال::"اشتغل بالأدب،ومحض عن نكته،ونقب عن دقائقه إلى أن برع،وبلغ من صناعتي النظم،والنثر المبلغ الطائل"[4]،وقدأهله هذا النبوغ في المعارف،والفنون تقلده المناصب القيادية والعلمية التي برع فيها جميعاً،وتفرد بها دون غيره من أهل الأندلس،وعندما رثاه ابن حيان أبان عن هذا التميز،فقال:"فقدتولى من أبي الوليد كهل لن يخلف الدهر جمالاً،وبياناً،وبراعة ولساناً وظرفاً وحلولاً من مراتب البلاغة نظماً،ونثراً بمرقبة لم يخلف لها بعده عاطياً بقرانه بين الكلامين وبراعته بين الفنين،إلاأنه يكون عندأولي التحقيق في النظم أمدّطلَقاوأحث عنَقا"[5] وسنرى أثر ثقافته،وعلمه التي امتدت على أغراض،وموضاعت شعره،ولم تقتصر على مكون دون آخر.

---

[1] الشكعة،مصطفى:المغرب و الأندلس–د.ط،بيروت:د.ن،١٩٨٧م،ص٣٨٧.

[2] ابن بسام :الذخيرة ،ق١،ج١ ،ص٣٣٧.

[3] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٣٦٤،ديوان ابن زيدون،ج٢،ص

[4] ابن نباته:سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون–ط١،د.م :دار الفكرالعربي،١٩٩٨ م، ص٤ .

[5] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٣٥٥.

ثانياً | مكون الطموح السياسي:

اشترك ابن زيدون بنصيب وافر في الحياة السياسية منذ سن مبكرة،وهو لم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره،فقد كان أحد المشاركين في الإطاحة بالحكم الأموي في قرطبة، والتخلص منه نهائياً عام(٤٢٢هـ)بعد أن تسبب هذا العهد في حدوث الفتن،وخراب أجزاءمن مدينة قرطبة وكان له دور كبيرفي قيام دولة آل جهورعلى أنقاض الدول السابقة،يقول معاصره ابن خاقان:"زعيم الفئة القرطبية ونشأة الدولة الجهورية"[١].وأعانه على تلك المشاركات نسبه،ومكانة أسرتـــه،وسعة علمه وطموحه السياسي.

وقد حباه الأمير الجديد أبو الحزم بن جهور[٢]بالود،والاحترام،فأصبح ابن زيدون وكيلاً موثوقاً به للحاكم الجديد،ومتمماً له في ميدان السياسية،وأصبح من أعضاء الشورى في قرطبة ،ثم"قـدمـــه للنظرعلى أهل الذمة لبعض الأمور المعترضة،وقصره بعد على مكانه من الخاصة،والسفارة بيـــنه وبين الرؤساء ،فأحسن التصرف في ذلك،وغلب على قلوب الملوك"[٣]،وهذا يعني امتلاكه لثـــقافة علمية ودينية أهلته للنظر في أمور أهل الذمة كما امتلك حنكة وثقافة،وحسن مظهر،فتولى سفارة دولته.

وأخذ ابن زيدون يحقق طموحاته السياسية في عهد أبي الحزم،كما عبر هو عن ذلك في إحدى رسائله لهذا الأمير،عندما قال:"وجدت آجراً،وحصاً فبنيت"[٤].وحفظ ابن زيدون لأبي الحزم كل الاحترام والتقدير،ولكن سرعان ما استعرت نار حسد المنافسين،والوشاة المفسدين الذين دبروا له المكائد ،وأعيانها وكان يعرف أهل قرطبة:"بأنهم يضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام

---

[١] ابن خاقان:قلائد العقيان،ص٧٠.

[٢] هو أبو الحزم عبد الملك بن جهور،تولى إمارة قرطبة،وكان رجلاً صالحاً جمّ التواضع توفي عام (٤٣٥هـ) ، انظر: المراكشي :البيان المغرب، ج١،ص٥٦

[٣]ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٢٧١.

[٤] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٢٩٤.

على الملوك والتشنيع على الولاة بقلّة رضاهم"[١]، فنسبوا له تهمة المؤامـــرة ضد أبي الحزم بن جهور، فأذن الأمير للقاضي ابن المكوي أن يــزج به سجن إثــر تهمة ملفقة هي اغتصاب عقار لأحد مواليه[٢]،وورد في بعض المصادر أن سبب هذه التهمة خوف ابن جهور من أن يكون ابن زيدون من أتباع الأمويين،خاصة أن ابن زيدون عُرف بغروره،وإعجابه بقدراتـه التي هونت عنده كل مطلب[٣]،فكان"ممن لا يُرجى خيره،ولا يؤمن شره"[٤] . وفي السجن بعث ابن زيدون برسائل لابن جهور فذكره بإخلاصه له،ودوره في إقامة الدولة،قائلاً:"والله ما غششتك بعد النصيحة،ولا انحرفت عنك بعد الطاعة...وهل لبس الصبح إلا برد طرزتـــه بـفضائلك،وتقلدت الجوزاء إلا عقداً فصلته بمآثرك، واستملى الربيع إلا ثناء ملأته بمحاسنك وبث المسك إلا حـديثاً أذعته في محامدك"[٥]،ثم أخذ يتساءل عن أسباب هذا الجفاء،فقال:" ...ففيم بعث الجفاء بأذمتي وعاث العقوق في موآتي وتمكن الضياع من وسائلي،لم ضاقت مذاهبي،وأكدت مطالبي،وعلام رضيت من المركب بالتعليق بل من الغنيمة بالإياب ؟"[٦]ولما لم تجد هذه الرسالة صداها لدى ابن جهور،ولم يفلح ابن زيدون في الحصول على العفوهرب من سجنه إلى خارج قرطبة،وتوجه إلى إشبيلية،ولم يطل به المقام فعاد إلى قرطبة متخفيا إلى ناحية الزهراء،ومنها راسل صديقـــه أبـــا الوليدمحمد بن جهور بن الحاكم[٧]ولي عهد والده أبي الحزم،ونجح في الحصول على عفو الأمير وبقي في قرطبة حتى توفي أبو الحزم بعد عودته بعام،وظلت هذه الفترة غامضة في المصادر لم تشر إلى وضعه خلالها.

---

[١] المقري:نفح الطيب،ج١،ص٧٦.

[٢] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٣٤٦.

[٣] ابن دحيه:المطرب،ص٢٢٨.

[٤] المراكشي: البيان االمغرب،ج١،ص٢٣٤.

[٥] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٢٩٢.

[٦] المصدر السابق،ق١،ج١،ص٢٩٧.

[٧] المصدر السابق،ق١،ج٢،ص١١٨.

تولى أبو الوليد بن جهور إمارة قرطبة،وهو صديق لابن زيدون،فأصبح أحد المقربين ،وقيل منحه جاهاً،ورفعة وأكبر من منزلته،فازداد طموح ابن زيدون ورغبته في تحقيق مناصب سياسية فأوكل إليه منصب السفارة لدول الأندلس[١]،ولم يزد عليه منصباً آخر يرفعه إليه.

ويظهر أن ابن زيدون لم يرض بهذا المنصب،واتفق أن بعثه أبوالوليد إلى أمراء مالقة[٢]من البربر فأطال عندهم المقام تعبيراً عن عدم رضاه بهذا المنصب،وربما طمعاً في منصب أفضل عند بني حمود خاصة أنهم احتفوا به،فعتب عليه أبو الوليد،ولم يرتح لتصرف هذا السفير الذي لم يتقيد بأوامره وعندما عاد إلى قرطبة عزله من منصبه[٣].

وورد أيضاً أن سبب عزله من منصبه شكوك ابن جهور في اشتراك ابن زيدون مع أصدقائه من بني ذكوان[٤]ضد أبي الوليد بن جهور،وهناوجد ابن زيدون أن السلامة في ترك قرطبة،والرحيل عنها نهائياً،لاسيما أن من مبادئه قوله:"ولعمرك ما جهلت أن صريح الرأي أن أتحول إذا بلغتني الشمس ونبا بي المنزل،وأصفح عن المطامع التي تقطع أعناق الرجال"[٥].بعدما جفاه صديقه الذي فوض أمور دولته لأحد وزرائه بعد أن كبرت سنه،وهو منصب كان يتطلع إليه ابن زيدون طوال حياته[٦].

وجاس ابن زيدون في بلادالأندلس،وانتقل من إمارة إلى إمارة،ومن بلد إ لى بلد لعله يحقق طموحه في الحصول على منصب يرضي علو همته ومهاراته وقدراته السياسية،فهو لا يرغب في أن يكون شاعر بلاط فقط،ولم ترض غروره هذه الإمارات الصغيرة ،و لذلك يشير ابن خاقان بقوله: "ولم تزل الأيام تدنيه وتبعده وتسوءه وتسعده وتقذف به إلى كل نازح،وتطرق أمله بعين اللاعب المازح"[٧] .وعلى إثر ذلك قرر أن يتوجه إلى بلاط المعتضد في إشبيلية كأقوى بلاط في

---

[١] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٢٩١،المراكشي:البيان المغرب،ج٣،ص٢٣٤.

[٢] أمراء مالقة،هم:بنو حمود تولوا إمارة مالقة،والجزيرة بعد سقوط دولة بني أمية،انظر ابن بسام:الذخيرة،ق٣،ج١

[٣] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٢٩٢.

[٤] بنو ذكوان هم :من أشهر الأسر التي استوطنت قرطبة،ومن أشهر أفرادها أبوالعباس بن ذكوان أكبر قضاة قرطبة

[٥] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٢٩٦.

[٦] المراكشي:البيان المغرب،ج٣،ص٣٢٣.

[٧] ابن خاقان:القلائد،ص٧٤.

عصره،وقد وافق ذلك رغبة المعتضد في انضمام ابن زيدون لوزراء دولته من قبل هذه المرة ،أي في زيارته الأولى بعد هروبه من قرطبة،وفي هذا يقول صاحب الوافي بالوفيات:"فاجتذبه المعتضد بن عباد،فهاجر عن وطنه،ونزل في كنفه،وصار من خواصه في مجالسه وخلواته،وسفر له في مهم رسائله لفضل ما أوتيه من اللسّن،والعارضة"[١] .وصار مسؤولاً عن ديوان الرسائل،وهو منصب عظيم لا يتولاه إلا وزير خطير[٢]،ثم اتخذه مستشاراً، وعندما ظهرت قدراته رفعه المعتضد إلى مرتبة الوزراتين ،فأصبح"ذو الوزارتين"[٣]،وهو لقب يختص به الملك أفراداً معدودين يشركهم في تدبير الأمور الملك الخاصة[٤]،فضلاً عن المشورة بل يقول ابن دحيه:"ألقى إليه المعتضد مقاليد وزارته وأفاض الخلع السوابغ عليه"[٥] .وقد تعجب الناس من ابن زيدون كيف انفرد بسلامته من بطش المعتضد ،فقال:"كنت كمن يمسك بأذني الأسد،يتقي سطوته تركه،أو مسكه"[٦] ولعل هذه الطريقة –أيضاً– خلصت ابن زيدون من حساد في إشبيلية ،فدافع عن نفسه بأن أخذ يزين للمعتضد أن يفتك بأعدائه من الوزراء،والعمال الذين يكيدون له[٧]،ومكث ابن زيدون بقية حياته في إشبيلية التي حققت له طموحاته،وتقلد فيها المناصب،والمكانة التي سعى لها منذشبابه،حتى بعد وفاة المعتضد،فقد حفظ المعتمد مكانته الرفيعة عند والده ،وأقره على مناصبه السياسية[٨]،التي ظهرت آثارها في شعر ابن زيدون بوضوح.

وقد حاول ابن زيدون أن يحقق آخر طموحاته بالعودة إلى قرطبة،فأشار على المعتمد بغزوها "لانقاذ أهله وقرابته الذي كان يؤلمه ما يصيبهم على يد آل جهور"[٩].ولكنه توفي قبل أن يتحقق له

---

[١] القضاعي ،ابن الآبار :أعتاب الكتاب،ص٧٣.

[٢] ابن بسام،الذخير:ق١،ج١،ص٢٩٠.

[٣] المراكشي،المعجب ، ص١٠٥.

[٤] نفح الطيب،ج١١،ص١٢٣.

[٥] ابن دحيه:المطرب،ص١٢٨.

[٦] الصفدي،صلاح الدين خليل، الوافي بالوفيات،ج٢،ص٦١٩.

[٧] ابن خاقان:القلائد،ص٧٨.

[٨] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٣٣٢.

[٩] المراكشي:المعجب،ص١٠٦.

ذلك،"فتنعاه أهل قرطبة،وحزنوا عليه،وسيئوا لفقده إذ كان منهم،ومتعصباً لهم"[١]حتى وهو بعيد عنهم.

ثالثاً | مكون العلاقات الاجتماعيـــة :

لا تأتي أهمية هذا المكون في سيرة ابن زيدون من وضوحه في المصادر التي تناولت سيرته،إنما تعود لمكانته،ووضوحه في ديوانه الشعري الذي يقدم لناجوانب هامة،ومتنوعةمن حياته الاجتماعية بأشكالها،ومظاهرها المختلفة ، فلم يتتعد ماورد عنه في المصادر من كونه إشـــارات سريـعة،أو وقفات مختصرة ؛ فمثلاً : لم تـتطرق المـصادر لأسرتــه إلاعـند حديثـــه عـن والـدتـه في إحــدى رسائله،عندماقال: "لقد هجرت التي هي ظئري،والدار التي كانت مهدي،وغبت عن أم أنا واحدها تمتد أنفاسها أشواقاً إلي،وتغص أجفانها حزناً علي،والله يرى بكائها،ويسمع لي على من ظلمني نداءها"[٢]. ولم يرد ذكر أحد شيوخه،إلا ابن أفلح النحوي[٣]،الذي كـان له الأب الشفيق،والأخ الشقيق[٤]، وراسله ابن زيدون من سجنه برسائل تـدل على مكانتـه واعتداده بـه أستاذاً يـفـخر به،ولم يتعرض أي مصدرآخر لأساتذته،وشيوخه الذين نعتقد بكثرتهم في قرطبة.

لـم تتضح علاقته بصديقه،وأهم لداته ابن حيان[٥]إلا من خلال حديث ابن حيان عنه في كتابه الذي خص ابن زيدون منه بفقرات تدل على إعجاب،وتقدير متبادل بينهما،وتدل على أن ابن حيان أخذ بعض الاخبار التاريخية من ابن زيدون،واستفاد من ثقافته[٦]،وأشار ابن خاقان إلى علاقة ابن زيدون لأبي الوليد بن جهور،ومقرباً منه، يقول ابن خاقان :"وكان له مع أبي الوليد بن

---

[١] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٣٥٤.

[٢] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٤١٧.

[٣] هو أبو بكر مسلم بن أفلح النحوي الأديب،كان متقدماً في علم العربية،واللغة ورواية الشعر توفي(٤٣٣هـ).ابن بشكوال:الصلة،ص٦٢٦

[٤] ابن بسام،الذخيرة،ق١،ج١،ص٤١٧.

[٥] هو أبو مروان حيان بن خلف بن حيان أعظم مؤرخ انجبته الأندلس،توفي عام(٤٦٩هـ)،ابن سعيد:المغرب ،ج١ ص١١٧.

[٦] ابن بسام،الذخيرة:ق١،ج١،ص٤٦١.

جهور تألّف أحرما بكعبته،وطافا سقياه من تصافيهما نصافا"[1]،وورد أن لهذا الأمير مآثر على ابن زيدون ،فقد شفع له عند أبي الحزم"وانتشله من نكبته وصيره في صنائعه"[2]ولم ينس ابن زيدون هذا الفضل من أبي الوليد بن جهور.

وقد ورد أن ابن زيدون "كان حسن التدبير،تام الفضل متحبباً للناس"[3]،وامتـــاز ابن زيدون بخصائص أهّلته للانتشار الاجتماعي،فقد عقد ابن بسام فصولاً تحدث فيها عن ظـــرف أبي الوليد،ورقة حديثه،وسرعة بديهته،وطبيعته المرحة[4]،ومع ذلك لـم تخلو علاقـــاته من عداوات ومنافسات ، لم يظهر ذكرها في المصادر إلا من خلال أثرها في رسائله وأدت إلى تحولات خطيرة في حياته الاجتماعية،فاغترب،وارتحل عن قرطبة مرات عديدة،وطاف بإمارات الأندلس،ومـمالكها في مالقة،وبلنسية،ومرسية،ودانية،واستطاع أن يقيم علاقات مع الأمراء،والوزراء،والأدباء، لم تـذكـر إلا من خلال قصائده التي اضطلعت بذكر مناسبتها،وقد ترك ابن زيدون رسالته النثـرية للمظفر بـــن الأفطس[5]دالة على أن العلاقة بينهما قامت على الاحترام والود المتبادل،واشتهرت صداقته للوزير ابن عبدالعزيز[6]من أهل بلنسية.

وعندماحط رحاله–أخيراً–في إشبيليةعند آل عباد،اشتهر بأنه"وزير آل عباد وشاعر تلك الطبقة المتقدم فيهم"[7]،وأصبح كاتم أسرار المعتضد،والمقرب من أهل بيته،وارتبط بالمعتمد برباط الصداقة المتينة التي يحفها الإكرام،والتقدير،وكان المعتمد يستمع لشفاعاته في قومه من أهل قرطبة حيث كان وشيجة خير بينه،وبينهم[8]،وألقت هذه العلاقة بظلالها على حياة ابن زيدون،وعلاقاته الاجتماعية

---

[1] ابن خاقان:قلائد العقيان،ج١،ص٢٠٩.

[2] ابن الأبار: أعتاب الكتاب،ص٧٢.

[3] ديوان ابن زيدون و ورسائله، ج ١،ص٦٠.

[4] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٢٨٩.

[5] هو أبو عبدالله بن عبدالعزيز بن أبي عامركان أديباً،ووزيراً كريماً معطاءً من أمراء بلنسية، انظر:ابن خاقان:القلائد ص١٨٣.

[6] انظر:ابن الخطيب:أعمال الأعلام، ج ١،ص١٨٣.

[7] ابن بسام،الذخيرة:ق١،ج١،ص٤٠٣.

[8] ابن بسام،الذخيرة،ق١،ج،ص٣٥٦.

في إشبيلية في مراحلها المختلفة،حيث قضى فيها عشرين عاماً بعد أن قضى في قرطبة ما يقارب أربعون عاماً،وبالرغم من عدم تفصيل المصادرفي بيان علاقات ابن زيدون الاجتماعية ،فإننا نستدل على أن حياته الاجتماعيةحفلت بعلاقات اجتماعية متنوعة،ومتعددة قدمهامن خلال شعره كما سنرى.

رابعاً | حـــبّ ولاّدة :

يعد هذا المكون المفتاح الأساسي في سيرة ابن زيدون لا تكتمل دون تناوله ،فقد شكلت سبباً رئيساً في تغيرات حياته وتقلباتها السياسية،والاجتماعية،وكان هذا الحب أقوى عامل في اشتهـــار سيرة ابن زيدون على مر التاريخ، يقول بروفنسال:"أوحى إليه اتصاله بولادة أشعاراً رائعة الجمال متميزة في أكثر الأحيان ... وشعره إلى ذلك ذو نزعة إنسانية يكاد يشبه شعر الغربيين "[1].

كانت الأميرة ولادة بنت المستكفي بالله بن عبدالرحمن الأموي[2]،من أشهر نساء الأندلس حيث تمتعت بمكانته متميزة في عصرها،ونالت نصيباًوافراً من الحرية الاجتماعية،والمشاركة في الحياة الثقافية والفكرية ،لما توافر لها من المقومات، والعوامل الكثيرة ، "فأصبح مجلسها بقرطبة منتـدى لأحرار الأمصار،وفناؤها ملعباً لجياد النظم،والنثر،يعشوا إليه أهل الأدب إلى ضوء غرفتها ويتهالك أفراد الشعراء،والكتاب إلى حلاوة عشرتها،وإلى سهولة حجابها،و كثرة منتابها، تخلط ذلك بـعلـو نصاب،وكرم أنساب"[3] .وامتلكت ولاّدة مواهب جمة خلقية،وخلقية بذكرها المقري،فيقول:"كانت ولادة أديبة شاعرة،جزلة القول،حسنة الشعر،وتساجل الشعراء،وعُرفت بخفة الروح،والحسن الفائق وكان لها صنعة في الغناء"[4]يقابلها في ذلك ابن زيدون الذي كان"من أفصح الشعراء،وأحسنهم

---

[1] ديوان ا بن زيدون ورسائله،ج١،ص١٠٩.

[2] انظر: ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١، ص٤٢٩،ابن خاقان:القلائد،ص٤،ابن الخطيب:أعمال الأعلام،ص٧.

[3] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٤٢٩.

[4] المقري،نفح الطيب،ج٢،ص٢٠٧.

حديثاً،وأعذبهم إنشاداً،وسيم المحيا،قوي العارضة"[1].وكان منتدى ولادة الذي جمع الشعراء والأدباء،والوزراء،يسمح لها بلقاء ابن زيدون،وقد ترك لنا ابن زيدون وصفاً مسهباً لأول لقاءبينه وبين ولادة في إحدى ضواحي قرطبة في ليلة من لياليها الجميلة،فقال:"كنت في أيام الشباب وغمرة التصابي،هائماًبغادة تدعى ولاّدة،أرى الحياةمتعلقة بقربها،فلما قدر اللقاء،وساعدالقضاء كَتبت لي:

تـــرقب إذا جن الـــظلام زيـــارتي فإنـــي رأيت اللـــيل أكـتم للسر

فلما طوى النهار كافوره ونشر الليل عبيره ،ملناإلى روض مدبج وظل سجسج.....وباح كل منا بحبه وشكا أليم ما بقلبه،وبتنا بليلة نجني أقحوان الثغور،ونقطف رمان الصدور"[2].واشتهرت علاقة ابـن زيدون بولادة ليس في قرطبة فحسب،إنما في الأندلس كافة،وبقي هذا الود،والألفة مدة من الزمن لم تطل،فقدظهر في محيط هذا الحب منافسون،ومفسدون،من أشهرهم:الوزير أبو عبدالله القلاس [3]،وابن عبدوس[4]،أما الأول :فقد توارى عن المنافسة،ولم تذكر المصادر له كيفية ،بينما ظل ابن عبدوس كما يقول الدارسون على رقبة الشاعر ،حتى أفسد هذه العلاقة بين ابن زيدون و ولاّدة،ولحق ابـن زيدون بمشاكل سياسية،واجتماعية نفته فيما بعد خارج قرطبة بعدما قامت بها خصومات وعدوات كثيرة كان من مظاهرها رسالة ابن زيدون الهزليةالتي بعث بها لابن عبدوس على لسان ولاّدة هجاه فيها هجاءً مقذعاً[5]،ولقبه بالفارفيما بعد،ثم اتسع نطاق الخلافات ليصل لولاّدة،وابن زيدون لا سيما بعدما سمع ابن زيدون الغناء لجارية ولاّدة عتبة دون استئذان منها[6]،فأظهرت ولاّدة ميلها لابن

---

[1] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٢٩٠.

[2] ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٣٧٧.

[3] لم يوجد له ترجمة في المصادر التي بين يدينا.

[4] هو أبو عامر أحمد بن جهور بن عبدوس،كان أديباً،وكاتباً من أهل قرطبة:تكملة االصلة،ص٢٥٧.

[5] ابن بسام:الذخير،ق١،ج١،ص٤٣٠.

[6] المصدر السابق،ق١،ج١،ص٤٣٠.

عبدوس"وأوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهراتها بلذاتها"[1].كما أورد ذلك صاحب النفح،ثم أخذت سماء حبهما تتلبد بغيوم القطيعة ،وبوادر الهجران،وكانت ولاّدة سبباً في دخول ابن زيدون السجن،كما قال ابن خاقان:" لم يزل يروم دنو ولاّدة،فيعتذر ويباح دمه دونها ويهدر؛لسوء أثره في ملك قرطبة ووالييها"[2].

ومن هنابدأ يتوارى ابن زيدون عن ساحة ولاّدة بعد مد وجزر،وصلة وقطعية بالأسباب السابقة وبغيرها مما لم يرد في المصادر بوضوح،ولم تقف المصادر على الأسباب،أو النهاية لهذا الحب إلا أن رحيل ابن زيدون النهائي عن قرطبة كان إيذاناً بنهاية هذا الحب،ولم يعد لها ذكر في بقية حياته.

وهكذا نرى من استعراض مكونات سيرة ابن زيدون،وأهم المؤثرات فيها التي وردت في المصادر وكتب التراجم مقدار ما يعتريها من النقص،والقصور،وهذا يعني أن شهرته،وقوة أثر سيرته لا يعود لتوسع المصادر في استيفاء أبعادها،وجوانبها المختلفة بشكل تام،أو شبه تام،وإنما يعود لقوة شعره المفعم بعواطف الحب التي اتسعت لتشمل جوانب حياته المختلفة،كعشق قرطبة وحب المناصب والطموح لها،وحب العلاقة الاجتماعية النابع من تجربته الصادقة،فابن زيدون من الشعراء الذين شهد له دارسو شعره ونقاده قديماً و حديثاً ارتباط شعره ارتباطاً وثيقاً بحياته[3]،ومواكبة تغيراتها، فالدكتور الجراري يقول:"ومن هنا كان الموضوع عند ابن زيدون هو ذاته،وإن انطلق من مجالات،ومناسبات مختلفة،فجاءت القصائد تعبيراً عن هذه الذات تحفزاً من معاناة سياسية،أو عاطفية،أو اجتماعية"[4] وتبدو فرادة ابن زيدون حين يماهي نصه الشعري وحياته إلى درجةا قتراب شعره من النثر،وذلك مالاحظة النقاد قديماً عن رسائله الشعرية التي يرسلها من إشبيلية حيث"تأتي من إشبيلية كتب عنه بالنظم الخطير أشبه فيها بالمنثور" [5] .وينعته المستشرق جب بقوله :"يعتبر –على الأرجح – من أعظم

---

[1] المقري:نفح الطيب،ج١،ص٥٦.

[2] ابن خاقان:قلائد العقيان،ص٨١.

[3] انظر:عويس محمد:قضايا الشعر الأندلسي،ص١٢،فاطمة طحطح:الغربةوالحنين في القرن الأندلسي،ص٨٠

[4] الجراري،عباس:فنية التعبير في شعر ابن زيدون،د.ط،الرباط،د.ن،١٩٧٥م،ص٢٦.

[5] ابن بسام :الذخيرة:ق١،ج١،ص ٣٥٠.

شعراء الأندلس بأغاني حبه المبكر، وبرسائله الشعرية في أخريات حياته"[1]؛ لذا فسيرته تعتمد على محور العاطفة كمحور أساسي،ومعيار لتجلي ملامح من سيرة شعره بمواصفات خاصة تنقّل بواسطتها بين مراحل وقضاياحياته بحرية.

ويوضح ما انزوى من جوانبها الكثيرة في المصادر،وهذا يسم مكونات سيرته بسمة الترابط العضوي المتمازج المتجانس عند تناولها بمجرد ترتيب قصائددديوانه وموضوعاته الشعرية حسب مكونات سيرته العاطفية التي وصفها علي عبدالعظيم:"بأنها ترتكز على جميع الغرائز البشرية للكائن الإنساني،وبهذا كانت عاطفته عميقة جبارة ، امتدت جذورها في أعماق نفسه ، وتفرعت أغصانها فآتت أطيب الثمرات"[2]فابن زيدون عشق بالشعر،ونال طموحاته السياسية بالشعر،وحقق وجوده الاجتماعي والتاريخي والحضاري بالشعر،وحملته عاطفة الحب بمعانيها،وفروعها إلى ذرى المجد،وسنرى في المباحث الآتية أنه علّق ملامح كثيرة من سيرته على صفحات شعره .

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله :تحقيق:علي عبد العظيم–د.ط،الفجالة:مكتبة مصر،١٩٥٧م،ص١٠٩.

[2] المصدر السابق ،ص٩٧.

المبحث الثاني | الشعر يترجم مكونات سيرة ابن زيدون:

أولاً | الشعـــر ومكون التنشئة :

احتفى ابن زيدون بهذا المكون في شعره احتفاءً يمتاز بالكثافة،و صدق العاطفة ،فأبـان شعـره بوضوح عن الأثر القوي ،الذي تركته قرطبة بتميزها الحضاري على تعلق الشاعر القوي بها ،وكـشـف شعره ،الذي أفرده لهذا المكون في عدد من قصائده عن ذلك من جوانب عدة،أهمها:افتخاره بانتمائه إلى قرطبة،التي صرح باسمها في مواضع عدة من شعره ،فـوضع يد المتلقي على أول ملمح سير ذاتي له،يتمثل في أنها مكان مولده،ونشأته،وصباه،وشبابه ومن أسرة ذات نسب عريق في قوله من إحدى مخمساته[1]: (الطويل) **سقى جنبات القصر صوب الغمائم و غنى على الأغصان ورق الحمائم**

بقـــرطـبة الـــــــغراء دار الأكـــــارم

بـلاد بهـا عق الشـــباب تمـائمي وأنـجبني قـــوم هـــناك كـــرام

أفرد ابن زيدون لقرطبة عدداً من القصائد،والمخمسات الحنينية،اجتر فيها ذكرياته فيها، وتوقف فيها عند مرحلة شبابه الذي استسلم كثيراً لإغراءات قرطبة،وفتنتها في مثل قوله[2] : (الطويل)

ويوم لدى البُـنتيّ في شاطئ النهر

تدار عليـــنا الـــراح في فتية زهر

وليـــس لنا فرش سوى يانع الزهر

يذوب بها عذب اللمى أهيف الخصر بفيـه من الثـغر الشـنيب نظـام

ويـــوم بجوفيّ الرصـافة مبهج

مررنا بروض الأقـــحوان المدبج

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله،ج١،ص١٢٩.

[2] المصدر السابـق،ج ١،ص ١٣١.

وقابــلنا فيـــه نســيم البنفسج

ولاح لنـــا ورد بـــخد مضـــرّج تـــراه أمـــام الـــنور وهو إمـام

يظهر جلياً استمتاع ابن زيدون بحياته في قرطبة التي غلبت عليها حياة البهجة المفعمة بروعة التنوع وأشكال المتع ،واللهو والأنس ومجالاته المفتوحة مرتبطة بمجالس قـرطبة ،وطبيعتها الآخـاذة ومتنزهاتها الطبيعية التي التفت بوشاح حضاري مـنقطع النظير اختصت به كـل نـاحية مـن نواحيها،ويظهر أن هذا الوهج الحضاري الواسع أبهر ابن زيدون،فانعكس على تجربته الشعرية،ووهبها صدقاً فنياً لامس أطراف حقيقة قرطبةفي مخمسة أخرى يقول فيها [1]: (الطويل)

أ أنسى زمـــاناً بالـــعقاب مغـفلاً

وعيشـــاً بأكناف الرصـــافـة دغفلاً[2]

ومغـــنًى إزاء الجعـــفرية أقـــبلا

لنعـم مراد الأنـس روضـاً وجدولاً ونـــعـــم محـــل الصـــبوة المتـبوأ

وأحـــسن بأيـــام خلون صـــوالح

بمصنعة الدولاب أو قصر ناصح

تهز الـــصبا أثناء تلك الأباطح

صفيحة سلسال الموارد سائح ترى الشمس تجلو نصلها حين يصدأ

أدت قوة جذب قرطبة إلى تفاعل ابن زيدون مع بيئتها بأشكالها المختلفة،وأخذت تعزز مدركاته الحسية بتجربته الشعرية امتزاجاً لم يفارقه في جـــل شعره،وقد لاحظ ذلك النقاد،ومنهم الدكتور ناصر الدين الأسد،الذي قال عنه :"إن إحساس ابن زيدون بالطبيعة كان جزءاً من إحساسه العام بالجمال فهو لا ينظر إلى الطبيعة بعين عقله،ولا بعين خياله؛ليتصيد الأوصاف،وإنما هو شاعر فنان يستجيب

---

[1] المصدر السابق،ج١،ص١٣٤،١٣٣.

[2] دغفلاً:واسع مخصب.

لدواعي نفسه،ولأحاسيسه الداخلية،ومشاعره الخاصة الذاتية،ومن هنا جاء شعوره بالطبيعةمبثوثاً في ثنايا شعره الذي يعبر عن ذوب عاطفته"[1].

ولذلك لا يملّ من تكرار حديث عن معاهدها وجهاتها عندماتجري أمامه سحابة الذكريات فيقول[2] : (الطويل)

وقد ضـمنا من عين شهدة مشهد

بدأنا وعـــدنا فيه و العود أحـمد

يزف عـــروس اللهو أحور أغـيد

له مبـسم عذب و خد مورد وكـف بـحناء المدام تـقنـّأ

وياحبــذا الــزهراء بهــجة منظر

ورقــة أنــفاس و صـــحة جوهر

وناهيك من مبدا جمال و محضر

وجنة عدن تطَّبـيك [3]و كوثر بمرأىً يـزيد العمر طيباً وينسأ

لم يقتصر ابن زيدون في شعره عن قرطبة على المخمسات،و إنما عاد لها في عدد من قصائده؛ليرسم لنا ملمحاً مهماً من سيرته وعن أرغد حياة عاشها شا عرفي صباه وشبابه،فتكررت أمانيه في شعره للعودة إليها كثيراً ،ومنه قوله في قصيدته المشهورة[4] : (الطويل)

ألا هل إلى الزهراء أوبـة نـــــازح تقصى تنائـــــها مدامـــــــعُه نزحـا

مقاصير ملك أشرقت جنــبــاتـــها فخلنا العـــشاء الجون أثناءها صبحا

يمثل قرطيها لـي الوهـم جـــهرة فقبتـــــها فالكوكب الرحب فالسطحا

---

[1] الأسد،ناصر الدين:مجلة الكتاب(عدد خاص بالذكرى الألفية لميلاد ابن زيدون)الرباط،١٩٧٥م،بحث بعنوان(ليس في شعر ابن زيدون)ق٥٩.

[2] ديوان ابن زيدون ورسائله،ج١،ص١٣٥،١٣٤.

[3] تطبيك:تدعوك .

[4] ديوان ابن زيدون ورسائله ،ج١،ص١٦٠.

محل ارتباح يذكر الخـــلد طيـــبه إذا عـزّ أن يصدى الفتى فيه أو يضحى

لم تظهر المصادر بوضوح انفعالات ابن زيدون في اللهو وشرب الخمر ومعاقرتها،ولكن شعره لم يخف أنه لم يخالف قيم عصره، وقيم الطبقة التي ينتمي إليها،وكان الخمر تقليداً اجتماعياً شائعاً لا تخلو منه مجالسهم،فهو رفيق اللهو والغناء،فاختزن بشعره عند حديثه عنها في مثل قوله[1]:

مـــــــحل ارتياح يـــذكر الخلد طيبه إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحى

هناك الجمـــامُ الزّرقُ تُنـــدى حفافَها ظلالٌ عهدتُ الدهر فـــيها فتى سمحا

تعوضـــــــت من شدو القيان خلالها صدى فلوات قد أطار الـــكرى ضبحا

و من حملي الكأس المفدى مُديرها تقحّم أهـــوالٍ حـــــملتُ لها الرمحا

و لكن الملاحظ أنه لم يبح لنفسه التغزل بالغلمان-كما هو شائع عند الكثيرين من شعراء الأندلس-وبالرغم من تمتعه بالحرية ودون قيود،وتناوله لأشكال من المتع في عصره، مما يدل على أنه امتلك قيماً أخلاقية تأصلت لديه من نشأته وتربيته في بيت علم ودين،كذلك لا نرى في شعره صراعه مع القيم ، بل كانت ذاته متطابقة مع القيم السائدة في هذا الطور من حياته،ولا يظهر اضطراب عواطفه،أو تشاؤمه او قلقه بل كان مبتهجاً وحبوراً بحياته فيها .

والمرجح من شعر ابن زيدون أنه تعلق بجمال قرطبة وطنه تعلقاً شديداً وعشقها عشقاً ، لم يعادله عشق آخر،ودلالة ذلك في أمرين **أولهما**:أن ابن زيدون لم يلتفت في شعره عن قرطبة للثورات ،أو الفتن التي أصابتها،ويغلب الظن أن ذلك عائد لما منحته له قرطبة من حياة مترفة،امتازت بالرضا و الثراء ودعة العيش،فحققت له ما يمكن أن يسمى بعاطفة الرضا،و السرور،والفرح التي تزيد نشاط المخ؛لمنع كل شعور سلبي خاصة أنه يحاول أن يمد بينه،وبين المتلقي جسوراً للتواصل ليشاركه تجربته فلا يرغب أن يشوه وصفه،أو يفسده بأي وصف لا ينتمي لعاطفته،ومشاعره الإيجابية المقبلة على الحياة؛لذلك غلب على شعره في هذا الجانب "سيولة المنظر الطبيعي حينما تستعيده الذاكرة "[2]

---

[1] ديوان ابن زيدون، ج١،ص١٦١.

[2] فضل،صلاح:ملامح أسلوبية في شعرية الحداثة،مهرجان المربد العاشر الشعري،١٩٨٩م،ص١٦.

يتضح ذلك في واحدة من أشهر قصائد،وهي [1]:

إني ذكرتــك بالزهـــراء مــشتاقاً و الأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا

و للـــــنسيم اعتلال فــي أصائله كأنـــه رقّ لـــي فاعـــتل إشفاقاً

والروض عن مائه الفــضي مبتسم كـــــما شقــقت عن اللبات أطوقا

ويتمثل **الأمر الثاني** في :أن غررقصائد ابن زيدون التي اقترنت بها شهرته ،نظمها في حبه لقرطبة مع أن كثيراً من الدارسين لشعره يقحمونها في الغزل وفي حبه لولاّدة،ولم تكن ولاّدة إلا جزءاً من قرطبة بدليل استطراده في الحديث عنها،وعن جمال طبيعتها التي اصطبغت بها تجربته الشعرية،و أصبحت كما يقول تين: "هي التي تجلب الفن،أو تذهب به"،وغدا تكراره لنواحيها بمثابة الوثائق التسجيلية التي تفتح أفقاً تاريخياً لأجواء قرطبة الحضارية والطبيعية،في عصر الشاعر،مثل قوله [2]: (طويل)

على الثـغب الشهدي مني تحيةٌ زكت وعــلى وادي العــقيق سلام

ولازال نــور في الرصافة ضاحكٌ بأرجائـــــها يبكــي علــيه غـمام

معاهد لـــهو لم نزل في ظلالها تـدار علـــــينا للــمجون مــدام

وكما كان ابن زيدون وفياً لماضيه المتمثل في قرطبة،تقول الدكتورة فاطمة طحطح:"ونلمس في حنينياته من الحياة والحرارة،و الصدق ما لا نلمسه في كثير من قصائد معاصريه،ولا غرابة في ذلك فشعره يكاد يواكب تقلبات حياته ويترجم عنها" [3]،فكذلك نقل بحنينه عدم رضاه عن حاضر، لم يختاره،ولم يرض بغير قرطبة بديلاً،ولم يتغن بغيرها من مدن الأندلس حتى إشبيلية التي مكث فيها عشرين عاماً .وكانت قرطبة هي المدينة التي أطلق عليها (البلاد،الوطن)،فقال عنها في أرجوزته وهو

---

[1] ديوان ابن زيدون، ج١،ص ١٣٩.

[2] المصدر السابق، ج١،ص١٥٢.

[3] طحطح،فاطمة:الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي،ص٨٠.

لاجئ في بطليوس بشمال غرب قرطبة [1] : (رجز)

إذا أتيـــــت الوطـــــن الـــحبيبا

والجـــــانب المستوضح الـــعجيبا

و الحـــــاضر المنفسح الـــــرحيبا

فحـــــي منه ما رأى الـــــــجنوبا

ولم تنل إشبيلية من شعره شيئاً يذكر ،ومصداق ذلك قوله في إحدى رسائله :"و الكريم لا يجفو أرضاً بها قوابلة،و لا ينس بلداً فيها مراضعه"[2]. بذل ابن زيدون الجهد في العودة إليها في أواخر حياته لولا أن داهمته منيته في إشبيلية.

لقد منحت قرطبة ابن زيدون مكاسب مادية ومعنوية متنوعة المشارب ،أخذ بها نفسه الطموح واكتسبها منذ نشأته وأمدته بوعي ثقافي وحضاري ،فأصبح شعره بمثابة التقنية الحضارية و الجمالية لعصرة،ظهرت بوضوح في شعره معنىً و مبنى.

ولم يعد شعره مجرد أداة جمالية،إنما تضمن ملامح من سيرته وحضارته وحضارة عصره،وانفتح بهذا الوعي على عواطفه وأحاسيسه في شعره فعمق التجربة حتى أصبح شعره شبيهاً بحيات،وموازياً لكثير من جوانبها .

---

[1] ديوان ابن زيدون، ج١،ص١٥٤.

[2] المصدر السابق، ج٢،ص٧٠٨.

ثانياً | الشعر ومكون الطموح:

لايمكن تخطي شعر ابن زيدون لأي مصدر آخر عند تناول طموحه السياسي،فبالرغم من عدم إشارة المصادر،والتراجم إلى هذا الجانب،واكتفائها بالحديث المقتضب عن مناصبه السياسية فقد كانت عاطفة الطموح،والشغف بالمناصب هي الصوت الذي ارتفع ضجيجه في شعره،ولم ينـافس عاطفته عنها أي عاطفة أخرى؛ لأنهـا امـتدت معه من المنـــبع إلى المصب،ومن شـبابـــه إلى كهـولتـه في شعره ، فقدساق ملامح من تفاصيلها ومراحلها وملابساتها، وأبان عما أحاط بها إيجابيات وسلبيات،وتنقل وثبات وحيوية،وجمود في نسق سير ذاتي متتابع، وينطبق على ابن زيدون في هذا الجانب من سيرته قول جونسون:"حياة الرجل حين يكتبها بقلمه هي أحسن ما يكتب عنه " [1]، خاصة عندما قرر أن يتحدث عن مراحل هذا الطموح بوسيلته الذاتية،فامتطى له مدائحه وكانت كتاباً لطموحه منذ أول قصيدة مدح بها أبا الحزم بن الجهور، ويشير فيها إلى صواب رأيه عندما خاطر باختياره،وساهم فيه بفاعلية في قيام دولته؛ليحقق آماله السياسية التي تمكنت منه قبلُ معايشته البلاط الجهوري،فقال[2] : (السريع)

لَأُصْفيَنّ المـــصطفى جهوراً عهداً لروض الحسن عنه افتضاح

جزاء مارفّه شـَـــــرْبَ المنى وأذّن الـــسعيُ بوشك النـــجاح

يسرتُ آمـــــــــالي بتأميـله فـــما عداني منه فـــوزُ القداح

من مثلُه لا مـــــثل يُلْفى لـه إن فـسدت حال فـعز الصلاح

يا مرشـدي جـــهلاً إلى غيره أغنى عن المصباح ضوءُ الصباح

---

[1] حسن،محمد العبد الغني:التراجم و السير ،ص ٢٣.

[2] ديوان ابن زيدون ورسائله،ج١،ص١٤٧،١٤٨.

مما يزيد وضوح ملامح هذا المكون،وترتيب مراحله،وخطواته هو وضوح القرائن المرجعية في قصائده وعلى ذلك يبدو أن ابن زيدون كان أمله كبيراً في الحصول على منصب سياسي عند أبي الحزم ،وعلى الأرجح أنه وُعد بذلك ،فأقبل على أمانيه متحمساً،متفائلاًوواثقاً بالأمير في قوله من القصيدة السابقة[١] :

إيهِ أبا الحـــزم اهـــــتبل غِرَّةً ألسنةُ الشـكِر علـيها فصـــاح

لاطَـــــارَ لي حـــظٌّ إلى غاية إن لم أكن منك مريـش الـجناح

عتباك بعد الـــــــــعتب أمنيّةٌ مالي على الدهر سواها اقـــتراح

فاشحذ بحسن الرأي عزمي يَرُع منّي العدا أَلْيَسُ[٢] شاكي السـلاح

مما يلفت الانتباه أن ابن زيدون لم يكن لينتمي إلى التلقليد السائد الذي يكون فيه الشاعر داعية لغيره،مداحاً بعيداً عن الفعل،وإنما كا ن ينتمي إلى تقليد آخر بحيث يجعل من ذاته داعية لنفسه في مدائحه التي حولها بذكائه إلى موضوع ذاتي للحديث عن رغباته وآماله،واعتباره العالي لقدراته، فذكر أبا الحزم بأمانيه،وحقه في السلطة بقصيدة قاسم ممدوحه أبا الحزم بالحديث عن ذاته،فقال[٣] :

فديـــــــتك إني قـــائل فمـــعرض بأوطار نفس مـــنك لم تقضـــها بعد

مُنى كالشـجا[٤]دون اللهاة تعرضـت فلم يكن للمـــصدور من نفـثها بُدّ

أمثلي غُفْلٌ خـــــاملُ الذكـر ضـــائع ضياع الحسام العضب أصدأه الغمد

---

[١] ديوان ابن زيدون ورسائله،ج٢،ص٢٤٩.

[٢] أليس:الشجاع الذي لا يبالي هولاً،أو الأسد .

[٣] ديوان ابن زيدون ورسائله،ج٢،٣٦٥،٣٦٤.

[٤] الشجا:الغصة .

ثم أراد تأكيد ذلك الحق،فصرح بأنه لايسعى للمال أو التكسب مثل أؤلئك المتزلفين في نفس القصيدة،وقال [1]:

لعمـــــرك ما للمال أسعـى فإنـما يرى المال أسنى حظه الطـبع الوغد

ولكن لـــحال إن لبـست جمالـها كسوتك ثوب النصح أعلامه الحمد

وتؤكد القصيدة بأنها موجهة لأبي حزم في هذا الغرض،فصرح باسمه قائلاً [2] :

أليـس أبو الحزم الذي غِـبّ سعـيه تبـصّر غـــــــاونيا فبان له الرشد

ونرى أن شعره يعكس وشائج القربى القويةبالسلطة السياسية في قرطبة وشراكته، وظنه بقوة هذه الوشائج التي تقوم –في الغالب على ضرورة أن يتبوأ منصباً سياسياً لم يحدده إلى الآن في شعره،ثم اتسع تناوله للذات في مدائحه لأبي الحزم حتى طغت ذاته،والحديث عن طموحها،وتفوقها على أبيات المدح عندما شعر بالتحدي،وخيبة الأمل في إدراك مقوماته السياسية التي تقابل بالجفاء،والإهمال المقصود على الرغم من جهوده التي يكررها،وكأنه يلمح بفضله على هذا الأمير،ودولته،فاستحوذ حديثه عن ذاته على معظم أبيات القصيدة؛لتكون مـعرضاً لهذه الإمكانات، والقدرات، والتذكير بها،وعدم رضاه عن وضعه،عندما قال[3]: (وافر)

مقامي فـي جـــواركم الذليل وحـدّي في رجائكم الكليل

لمختلـــفان من حـــاليّ مهما أجـــال الفكرُ بينهما مجيـل

نصيبٌ من ولايتـــكم كـــثير وحـــظ من عنايتـــكم قليل

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله، ج٢،ص٣٦٦.

[2] المصدر السابق ،ج٢،ص٣٥٨.

[3] المصدر السابق،ج١،ص٣٣٢.

أتحيا أنفس الآمال منـــكم ولـي أثـــناءها أمـــل قتيل

وأعجب حادث نظري لديكم إلى غلل النـجاح ـي غليل[١]

وقدحـــي في ودادكم معلّى وبــاعي في اعتمادكُم طويل

بدأ ابن زيدون يواجه تحديات سياسية،وضغوط قوية لتثبيط عزائمه،ونزع فتيل طموحه بعد أن أصبحت السلطة نهبى لكل طامح وطامع،والغالب أن خوف أبي الحزم بن جهور من مــهارات ابن زيدون،وعبقريته السياسية النافذة،وما وافقها من هوى خصومه،ومنافسيه تآزرت ضده،ونتج عنها سجنه،وعندئذ أحس ابن زيدون بإرهاصات عاطفية خارج إرداته ،تدفعه لقول الشعر متدفقاً بالأحرف والكلمات ،التي رسمت ملامح من حياته السياسية الفاعلة التي بدأت في فترة مبكرة من حياته؛لتعطي مؤشراً على امتلاكه قدرات فريدة لمواجهة أزمات الحياة وإحباطاتها،يتضح ذلك من قوله في رسالته من سجنه لأبي الحزم[٢]: (بسيط)

لم تطـوِ برُد شبابي كبْـــرةٌ و أرى برق المشيب اعتلى في عارض الشَّعر

قبل الثلاثيـن إذ عهد الصبا كثب وللشـــــبيبة غـــصنٌ غـــير مُهـتصَر

يتضح استمرار سجنه مايقارب العامين،وهي فترة لا تستحق أن تكون عقوبة لاغتصاب عقار،كما أن سوء المعاملة التي لقيها في السجن لا تليق بمكانته،فما كان منه إلا أن فرَّ من هذا الظلم الذي ذكر أسبابه ، برّره هو بما يناسب مكانته في إحدى قصائده،فقال[٣]: (طويل)

مئين من الأيام خـــــمسٌ قطعتها أســيراً وإن لم يبدُ شـدٌّ ولا قمْط[٤]

أتت بي كما مِيص الإناء من الأذى وأذهـــب بالثوب من درن مسْط[٥]

---

[١] غلل:الماء الجاري بين الأشجار ،وغليل :ظمآن.

[٢] ديوان ابن زيدون ورسائله،ج١،ص٢٥٣.

[٣] ديوان ابن زيدون ورسائله ، ج١،ص٢٨٩.

[٤] القمط:ربط يد الأسير و رجليه.

[٥] ميص الإناء:غسل.

إلى أن قال [1] :

وقد وسموني بالتي لـــــست أهلها ولـــــم يُمـن أمثالي بأمثالها قط

فـــررت فإن قالوا الـــفرار إرابـــةٌ فقد فـرّ موسى حين هـــمّ به القبـطُ

وإني لـــــراج أن تـــعود كبـدئها لي الشيمةُ الزهراءُ والخلقُ الـسبط

أصبحت فيوض طموحه تلازمه أينما حلّ ضراء،أو سراء،وأصبحت الظروف التي تحيط به لا تشغله كثيراً،فهو مازال متعلقاً بهذا الأمل حتى عندما اشتدت معاناته،وصم أبو الحزم أذنيه عن استعطافه،وشفاعاته التي أدّت به إلى الهروب ،لاسيما بعد أن اكتشف رضا أبي الحزم عما حل به من مأسآه،فبعث من سجنه برسالة اختلطت فيها مشاعر الألم بالعتاب لمن ظن به خيرا،وربما ليكون عتابه تبريرا لهروبه من السجن ،فقال : ا[2]لطويل

أبا الـــحزم إني في عتابك مائل على جـانب تأوي إليه العلى سهل

أفي العدل أن وافتك تترا رسائلي فلم تتّرك وضـعا لها في يدي عدل

تـمتع ابن زيدون بقدر عال من الرؤية الإيجابية التي تعني السمات النفسية التي تتحكم بقوة العصب،وتضبط المشاعر وتنمّي خلق الصبر ،فيصبح المرء أكثر وعيا بذاته،وحيويتها،ونشاطها؛ولذا استمر جدل الطموح وصراعه بين الواقع والأمل، لا تخبو ناره في عهد أبي الحزم الذي وثق اسمه في كل قصيدة وجهها له ،فتحولت تجربة السجن رغم قسوتها إلى تحد مملوء بالثقة وخبرة يقينية بطبيعة التحول والتغير للأمور،والأشياء وصار الشعر هو الفضاء الأرحب لحسم مواقف الشاعر اتجاه ذاته،ومناخه الواقعي، فساق ذلك في أبيات من الحكمة يعبر عن مواقفه تجاه ما يمر به،فقال[3] : (البسيط)

---

[1] المصدر السابق،ج١،ص٢٩٢.

[2] المصدر السابق،ج١،ص٢٦٦.

[3] المصدر السابق،ج١،ص٢٥٥،٢٥٤.

يا للـــــرازيا لـــــقد شافهت مـــنهلها غمراً فمـــا أشـرب المكـروه بالغُـــمَر[1]

حوادثُ استعرضـــتني ما نـــــــذرت بها غـــرارة ثم نـــــالتني عـــــلى غـــــرر

لايُهنئ الشـــامت الـمرتاح خـــــاطُره أنـــّـي معنّى الأماني ضـــــائع الخطر

هل الرياح بنجم الأرض عاصـــــــــفةٌ أم الكـسوف لغير الشـــمس والقمر

إن طال في السجن إيداعي فلا عجب قد يـــــودع الجفنَ حدُّ الصارم الذكر

وإن يثبـط أبا الـــــحزم الـــــرضى قدر عن كـشْـف ضري فلا عتْبٌ على القدر

وقد استطاع ابن زيدون الاستمرار في صراعه المستمر مع المنافسين من الأعداء،فمستوى طموحه ما زال عاليا وقويا،ووجد في أبي الوليد بن حزم الذي تولى الإمارة بعدوالده أبي الحزم ؛ وكانت تربطه به وشائج صداقة أملا في الاقتصاص من الخصوم، وتحقيق أمانيه ،فاستضافه في قصائده ممدوحا،ثم تحول له فيهامن الإلماح إلى التصريح بطموحاته،وأهدافه فقال[2]: (كامل)

للـــــجهوريّ أبي الوليـد خـــلائق كـالرّوض أضحكه الغمام البـاكي

قلـّـــدني الرأي الجمـــيل فـإنه حـــــسبي لـــــيومي زينةٍ وعـراك

وإذا تـــحدثت الحـــوادث بالرّنا شـــــزْراً إليَّ فـــــــقل لهـا إياك

هو في ضمان العزم يعبس وجهه للخطب والخلق النّدي الضّحاك

لـم يسع ابن زيدون إلا لهذا المنصب،وهو ما يطلق عليه عندالأندلسيين"ذو الوزارتين"،كأعلى منصب في الدولة ،تاق إليه كثيرا وكان يراه حقا له نظير مساهمته في توطيد أركان هذه الدولة ،التي يبدو أنه لـم يكن قليلاً ،كما أشارت المصادر لذلك،ولا يظهر من شعره أن عاطفة طموحه كانت على حساب محاولته تقويض دولة آل جهور، والدخول في مؤامرات ضدهم،وهو سبب رجحته المصادر؛ بدليل كثرة مافزع لبني جهور –في قصائده– من خصومه ومنافسيه في مواضع كبيرة ،وشكا إليهم ما يلاقيه من مضايقات تحاول إخراجه من قرطبة نهائيا ولعلها كانت من أكبر المحبطات

---

[1] الغمرْ:الماء الكثير،الغُمر:القدح الصغير.

[2] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج٢،ص٣٥٠.

لطموحاته عند أمراء هذه الدولة كما في قوله[1]: (طويل)

فديتـــك كـــم ألقى الفواقر من عـدا ... قراهـــم لنـــيران الفـــساد ثـــقـــاب

عفا عنـــهم قـــدري الرفيع فأهـجروا ... وبايـــــنهم خـــلقي الجميل فـــعابـوا

وقد تُسمع الليـــثَ الجحـاشُ نهقيها ... وتُعلـــــي إلى البـدر النـباحَ كـــلابُ

إذا راق حـــسنُ الروض أو فاح طيبُه ... فما ضـــرّه لو طـنّ فيـــه ذبـــــاب

فلا برحـــت تـــلك الـــضغائن إنها ... أفاع لـــها بين الـــــضلوع لِصـــاب[2]

يقـــولون شرّق أو فـــغرّب صريحة ... إلى حيـــــث آمالُ النفـــوس نـهـــاب

وإن الـــــذي أملـــت كُـــدّر صفوه ... فأضحى الرضى بالسخط منه يشـــاب

كذلك لم تظهر نزعة الطموح والرغبة في المناصب للإمارات الأندلسية التي زارها ،ورحل إليها سفيرا لدولته،فلا يظهرمن شعره لابن الأفطس،وابن عبدالعزيز وغيرها شيئا من ذلك،و مع مـا قوبل به من احتفاء وإغراءات؛لاستقطابه للهيئات السياسية لتلك الدول ،بل بقي وفياً لدولته ،وعندما عاد وجد أن التهم قد وجدت سبيلها إلى أبي الوليد بن جهور وعزله من منصبه ،وخابت أمآل ابن زيدون في تحقيق ما كان يأمله على يد هذا الأمير، فسجل ملامح من ذلك الموقف في قصيدة قال منها[3]: (الطويل)

بنيتَ فلا تهدم ورشـــتَ فلا تبـري[4] ... وأمرضتَ حـسادي وحشاك أن تُبري

أرى نبـوة لم أدر ســـرّ اعتراضهـا ... وقد كـان يحلو عـارض الهم أن أدري

جفـاء هـو اللـيل ادلهم ظلامـــه ... فـلاكـــوكب لـلعـذر في أفـقه يسـري

هب العـزل أضحى للـولايـة غـايـة ... كـــما غايةُ الموفي من الظل أن يكـري[5]

---

[1] ديوان ابن زيدون، ج٢،ص٣٨٢،٣٨١.

[2] لصاب:التصاق.

[3]) ديوان ابن زيدون، ج١،ص٢٩٥،٢٩٤.

[4] راش:أطعم وكسا – براه:هزله،وأنحله.

[5] يكري:ينقض.

ففـــيم أرى رد الـسـلام إشـــارة تـــسوغ بي إزراء مـــن شاء أن يزري

أناس هـم أخـشى للـــذعة مقولي إذا لـم يكن مما فـعلت لـهم مُـضْر[1]

فإن عـاقت الأقـدار فـالنفس حـرة وإن تـــكن الـعتبى فـأحـــر بـهـا أحـر

كانت القصيدة السابقة محاولة جادة للتماسك أمام السقوط والانهزام ،فنبضت بالصدق المصحوب بالحزن والاستسلام في تلك الفترة من حياته التي اختلطت فيها الأمورعلى نحو ماسجلته القصيدة ،لكن لحنكة ابن زيدون وإدراكه لعواقب الأمور دوره في التقليل من حقيقة المؤامرة، فأشار مؤكداً لابن جهورعلى ولائه ممزوجابالافتخارالذاتي،فقال[2]: (طويل)

فثق بهزبر الشعر واصفح عن الورى فـــــــإنهـم إلا الأقـتـل ذباب

ولا تـعدل المثنيـــــن بي فأنا الذي إذا حضر العـقم الـــشواردُ غابوا

ينـــــــــوب عن المّداح مني واحد جـميع الخصال ليس عنه مناب

ولم يظهر ابن زيدون لأمرائه ضعفاً،أو إشعاراً بالخضوع لهم،ولكنه اتبع منهجاً خاصاً اتبعه في حياته السياسية،وشرحه أمام أمرائه ومن حوله ،يشير به إلى أنه لا يقترب من الخيانة وبنى لنفسه طريقا ،ينبع من منهجه ومكانته وأخلاقه ومبادئه اتبعه في حياته السياسية ،ثم ردده في مدائحه بأشكال شتى ،ومنه قوله[3]: (رمل)

أنا غـــرس في ثراء العليا لو أبـــطأت سقياك عنـه لذبـل

لي ذكـــــر بالـــذي أسديته نابَه ودّ حـــسود لـو خـمل

فلميت بالداء من حـال فتى أدّ بتـه ســـير الـناس الأول

فوعى الحكمة عن قائـــلهم إلزم الصـحة يلزمـك العمل

ولذلك فحتى عندما قست عليه سياسة قرطبة وأخفت معالم نجابته ومواهبة ، وأشعرته بنوع من

---

[1] مُضْري:مُغري ماخوذمن أضراه الصيد إذاأغراه به.

[2] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج٢،ص٣٨٥.

[3] المصدر السابق،ج٢،ص٣٤٢.

الفشل والإحباط لم يحمله ذلك كله لهجاء آل جهور أو النيل منهم بشكل مباشر أوواضح في شعره،وإنما تذكر فضلهم وإحسانهم عليه في قرطبة ، فقال مخاطباً أبا الحزم بن جهور في قصيدته التي بعث بها من سجنه [1]: (الطويل)

وماكنت بالمهدي إلى السؤود الخنا ولا بالمسيء القول في الحسن الفعل

ومالي لا أثني بآلاء منعم إذا الروض أثنى بالنسيم على الطلّ

ولم يعيد إخفاقه لأحد،فقد كانت خبرته،وثقافته المرجعية مصدراً يمتاح منه الأسباب والمناهج و النتائج كما هي عادة الأيام لكل متميز،فقال[2]: (بسيط)

أهلُ النباهةِ أمثالي لدهرهم بقصرهم دون غايات المنى ولع

لولا بنو جهور ما أشرقت هممي غيد السوالف في أجيادها تلع[3]

وهذه المبادئ تنقض مقولة ا بن بسام :" بأن ابن زيدون لا يؤمن شره ولا يرجى خيره في الهجاء" ،بل كان ابن زيدون –من شعره–متصالحا مع ذاته مقبلاً عليها، يمتلك مهاراته الخاصة لتهدئة خاطره،وخلق جو مريح يبعث على الطمأنينة في ظل ثقة ويقين بامتلاكه طاقات طموح متدفقة تتحدى ضيق رحاب قرطبة السياسية،فقرر الرحيل والبحث عن البديل السياسي الأفضل واكتفى بقوله[4] : (الكامل)

من مبلغ عني البلاد إذا نبت أن لست للنفس الألوف بباخع

أما الهوان فصنت عنه صفحة أغشى بها حد الزمان الشارع

فليغرم الحظ المولّى أنه ولّى فلم أتبعه خطوة تابع

ومن المراحل المهمة التي سجل عنها ملامح متنوعة من سيرته في شعره تتعلق بعلاقاته،وذكرياته

---

[1] المصدر السابق،ج١،ص ٢٧٠.

[2] المصدر السابق،ج١،ص٢٩٧.

[3] تلع:طول العنق.

[4] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج٢،ص٤٠١.

رابطاً فيها ذاته الحية التي لا يهمها إلا أن تحيا حياة فتية لا تصبر على الذل ومجارات الهوان،و لا ترضى إلا بالنقي من الأعمال،ولا تطمح إلا للرفيع من الغايات ،كان عندمااختارته اشبيلية أقوى دول عصره،وتحقق له ما كان يشوم من مجد،وطموح اهتز له طربا بعد تحقيقه عند آل عباد،فقال مفتخرا بذاته ونجاحه[1] : (الكامل)

إن اغترب فمواقع الـكرم الذي في الغرب شـمـتُ بروقَـه أرتاد

أو أنـأ عن صيد الـملوك بجانبي فهم العـبيد مـليكُـهم عباد

المجـد عذرٌ في الفراق لمن نأى ليرى المصانع فـيه كـيف تـشاد

يا هـل أتى مـن ظنّ بي فظنونه شتـى ترجّـحُ بـينهـا الأضداد

وإذا كان الشعر"شظايا من اعتراف عظيم"[2]،فشعره يحمل ملامح كثيرة من اعترافاته،وأن كفة الطموح لابن زيدون رجحت في اشبيلية بعد أن بدأت في قرطبة،وعزت عليه هناك،وعاش في رحاب هذا الطموح عشرين عاماً كما يعيش الأمراء والملوك،وتحققت مناصبه التي كان يرجوها وطاب له العيش فيها،ولم يعد للماضي إلا ما يؤكده الحاضر من نجاح عند المعتضد ويرسم ملامح من سيرته تؤكدوتظهرماورد في المصادر عن هذه الفترة من حياته،فقال[3]: (الوافر)

فديتـك كم لعيني من سمو لـديك وكم لنفـسي من طماح

ألا هـل جاء من فارقتث أني بـساحات المـنى رفل المراح

وإنـي في ظـلالك في زمـان ندى الآصـال رقـراق الـضواحي[4]

تـحييني بريـحان التّـحفي وتـصبحني معـتقة السـماح

فها أنا قد ثملت من الأيـادي إذا اتصل اغتباقي في اصطباحي

---

[1] المصدر السابق،ج٢،ص٤٥٣.

[2] روتفن،بربر:قضايا النقد الأدبي،ترجمة:عبدالجبار المطلبي-د.ط،بغداد:دار الشؤون الثقافية العامة،١٩٨٩م،ص١٧٥.

[3] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج٢،ص ٤٣٥.

[4] الضواحي:جمع ضاحية وهي السماء و النجوم .

فإن أعجز فإن النـصح ثقْف [1] وإن أشـــكر فإن الشكر صاح

لما أكسبت قـدري من سناد ومـــا لقّـيت سعيي من نـجاح

لقد أنقذتَ في الآمال حكمي وأجـــريت الزمان على اقـتراحـي

كذلك من الملامح السير الذاتية في شعره الذي نظمه في إشبيلية محاولة إعادة بناء شخصيته وتكيفها مع واقعها الجديد،فاستطاع التفاهم مع السلطة الحاكمة،التي يمثلها ملك جبار مثل المعتضد وتبوأ منه منزلة لم يصل إليهاغيره من وزراء عصره،ولذلك استطاع كما يقول هو أن يمسك بأذني الأسد ، واستمر ينطلق من ذاته في مدائحه، فتقلد المناصب التي كان يرجوها، سمت بها مرتبته،وانحسر عنه الكثير من المنافسين الذين لم يشغلوه في شعره كما في قرطبة،فقال[2]: (الكامل)

فلأسحبن ذيل المنى في ساحة إلا أُوفّ بـها الـــمنى فأزاد

وليستفيدنّ الســـناء مـع الغنى عبد يـفيدُ النصـحَ حين يفاد

وبعد وفاة المعتضد احتفظ ابن زيدون مكانته في إشبيلية،وأكد هو على ذلك،وفي شعره احترم المعتمد صلة ابن زيدون بوالده،فأشاد الشاعر بذلك ،وذكره في إحدى قصائده وخصص به خليفة المعتضدعندما قال[3]: (الكامل)

وأنّ متـــاتي[4] لم يـــضعه محمد خليفتك العدل الرضـي وابـنك البـر

هو الظافر الأعلى الـــمؤيد بالذي لـــه في الـذي ولاّه من صُنعه سرّ

رأى في اختصاصي ما رأيت وزادني مـــزيّة زلفـــى من نتائجها الفـخر

لقد تبين من شعره اكتمال مراحل ماكان ينشده وهو منصب الوزارة،والاختصاص بمكانة مميزة عند الخلفاء،والتقرب منهم في عهد المعتمد؛ليصل إلى غاية من غاياته وهو تحقيق مصداق افتخاره بذاته،و مما يجدر ذكره أن طموح ابن زيدون لم يكن يتجاوز السائد في عصره لأبناء الطبقة التي

---

[1] ثقف:حاذق،خفيف.

[2] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج٢،ص٤٦٦.

[3] المصدر السابق،ج٢،ص٥٦٩.

[4] المتات:مايمت به من قرابة،أو صداقة،أو إحسان.

ينتمي إليها،وتسابقهم للمناصب في جسد الدولة المقسم إلى دويلات صغيرة،ولم يشر في طموحه إلى وعي بالظروف التاريخية الخطيرة التي تمر بها الأندلس،ولانرى محاولة للتغيير،أو مساهمة منه في معركة أو حرب،وإنما كان محاولة لتحقيق تواصل إيجابي بينه،وبين الواقع رغبة في الأمان،والرفاهية،وهو إن اجتمع مع المتنبي في هذه العاطفة إلا أن المتنبي تطلع إلى طموحات كثيرة سياسية،وأدبية؛بسبب تعاليه واعتداده بجوانب شتى من ذاته،فاعتد بشجاعته،وبطولاته،وتفوقه على من حوله،واحتقاره لهم،كما في قوله[1] :

أي مـــــحل أرتقي أي عـــــظيم أتـقي

وكل ما قـــــد خلق الله و مـــالم يخلق

محتقر في هـــــمتي كـــشعرة في مفرقي

كما كان ابن زيدون واقعياً في طموحاته السياسية،وأكثر استحقاقاً لها،كأحد رجالتها الأساسين من المتنبي الذي كان شاعراً متكسباً لم يقرب من الحياة السياسية إلا كشاعر مدّاح ولكن كان أكثر وعياً بحال أمته من ابن زيدون؛ولذلك ساد الإحباط في شعره،وزادت وتيرة التفاؤل في شعر ابن زيدون الذي كان يحسن التفاهم مع السلطة،كما أن الصراع مستمر مع الواقع لكليهما وأظهره كل شاعر حسب مايمليه هذا الوقاع،و كان زاداً لتجاربها الشعرية،فأفرزت الخبرات والآمال والآلآم،شعراً حكمياً كثيراً منبعه طموح الشاعرين.

وفي الختام يمكن القول إن الذات تعلو عند ابن زيدون عند طموحاته،ولعله وجدها في طموحه أكثر من أي موضوع آخر،فكان البوح الصادق أهم عنصر من العناصر التي كفلت بروز أهم ملامح سيرته الذاتيةالتي رافقت مراحل حياته كلها،ولم يعادلها عاطفة أخرى،وسخرلها الشعر كي يحملها ،يتحدث عنها،ويحققها فلم تظهر بجلاء ووضوح فيما سواه.

---

[1] خفاجي،عبدالمنعم:الفكر النقدي في القرن الرابع الهجري،ص١٢٢.

ثالثاً | الشعر و مكون العلاقات الاجتماعيـــة :

حظيت علاقات ابن زيدون الاجتماعية بمساحة واسعة في شعره في مراحلها،وأحوالها المختلفة وهذا من شأنه أن يعوض النقص في هذا الجانب من سيرته الذي لم يحظ بالاهتمام الكافي عند من تناولوا سيرته من المؤرخين والمترجمين،فكان الكثير قصائده تجلّ لحضوره الاجتماعي الذي حوله إلى فن يترجم هذا المكون، ويفسر جانباً من آراء الدراسين الذين لاحظوا ارتباط شعر ابن زيدون بحياته "كضرب من ضر وب الإحسا س بالذات، والتعبير عنها فيما يشبه المذكرات والاعترافات والوصايا"[1]،ويمثل من خلاله التاريخ الخاص المستمدمن حياة ابن زيدون العامرة بالتنوع من خلال مشوراه الطويل الذي قطعه بين سني حياته كنوع من العلاقة بين الوظيفة الأدبية للذات،وبين التاريخ الاجتماعي الذي لعب دوراً في ثراء عواطفه وتوجيهها، ونشرها في شعره عبر مختلف الأغراض والموضوعات الشعرية ،وعندما ينشر الشاعر عواطفه شعراً، فكأنما يكتب سيرته المرتبطة بشبكة من العلاقات الاجتماعية [2] التي تبدأ في شعر ابن زيدون حسب أولوياتها وترتيبها للعاطفة الأساسيةفي حياة أي إنسان وهي أسرته،فموضع الحب الأساسي والانتماء والجاذبية للشاعر تمثلها والدته،وكان ابن زيدون وحيدها،وقد أبكاها وأفجعها سجنه في قرطبة،فشكا ابن زيدون وجدها عليه في قصيدة يستعطف بها ابن جهور[3] : (الطويل)

أمقتولة الأجفان مالك والهاً ... ألم تركِ الأيام نجماً هوى قبلي

أقلي بكاءً لست أول حرّة ... طوت بالأسى كشحاً على مضض الثكل

وفي أم موسى عِبرْة إذ رمت به ... إلى اليم في التابوت فاعتبري واسلي

ويبدو أثرهافي تشبعه بعواطف الحب،والثقةبالذات،وعلى إثرها كان ابن زيدون يشعر بدرجة عالية من الالتزام نحو أفراد أسرته لا سيما جده لأمه[4]،الذي كفله بعد وفاة والده،وهو صغير،وعلى الأرجح

---

[1] معتصم،محمد:خطاب الذات،ص١١٦.

[2] عدس،محمد:دور العاطفة في حياة الإنسان،ص١٥٦.

[3] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج١،ص٢٦٤.

[4] هو أبر بكر محمد بن محمد بن إبراهيم،كان من العلماء المرموقين،توفي(٤٣٢هـ).انظر:ديوان ابن زيدون،ص٢٣.

أن هذاالجد الذي دعم وجدانه بعواطف اللطف والحنان كان من شيوخه ،وكان ابن زيدون يبعث له بمقطوعات من الشعر مصحوبة بهدايا،ومنها أن ارسل له عنبا عذارى ،وكتب له[1]: (الوافر)

أتاك محـــــييأً عنـــي اعتـــباراً عـــــذرای دونه ريـــق العذراي

تخال الشـــــهد منـــه مستمداً ونفح المـــــسك منـــه مستعاراً

بعثت به ولو أهديت نفـــــسي إليك لـكان من بـــــرّي اقتصارا

فأنعم بالقبـــول فربّ نُعـمى أعـــــدْتَ بـــها دجى ليلي نهارا

لم تذكر المصادر من شيوخه إلا ابن أفلح النحوي، ولم يذكر ابن زيدون في رسالته النثرية إلا هو ربما لما كان يتمتع به من قدر رفيع ومكانة سياسية مؤثرة في قرطبة،كذلك لقدره الرفيع عند الشاعر الذي توضحه قصيدته التي بعث بها إليه من سجنه،فقال يطلب منه أن يتشفع له [2] : (الطويل)

عليك أبا بـــــكر بـــكرت بهمة لها الخطر العالي وإن نـــالها حطُّ

أبي بعدما هِيل التـرابُ على أبي ورهطيَ فذاً حيث لم يبق لي رهـط

لك النعمةُ الخضراءُ تندى ظلالها علي ولا جحدٌ لدي ولا غـــــمطُ

ولولاك لم تـــــثقب زناد قريحتي فينتهب الظلماءَ من نارها ســقطُ[3]

فمـــــالك لا تختصني بشفاعة يلوح على دهري لميسمها علط[4]

ولا يظهر من شيوخه في شعره غير هذين العالمين،ولكن شعره استوعب كثيراً من العلاقات الاجتماعيةالأخرى التي تضيء جونب من سيرته،فهو فردفي منظومة اجتماعية متكاملة وإنجازاته،لا تتتم إلا بمشاركة ذوات أخرى، فحضرت الصداقة في شعره حضوراً قوياً، وتشكلت حسب صفات الأصدقاء وطبائعهم وتنوعت تبعاً لذلك مكانتهم عند الشاعر، فصداقته لأبي حفص بن برد كانت من أقوى الصداقات وأكثرها حميمية،ولم يردذكره بوضوح في المصادر،وقد فزع إليه ابن زيدون من سجنه

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله، ج١ ،ص٢١٩.

[2] ديوان ابن زيدون، ج١ ،ص٢٨٨.

[3] سقط: شرر.

[4] علْط: كي في العنق.

يبوح له بآلامه،ويطلب رأيه في أمر أجمل تفاصيله في قصيدته المشهوره التي بعث بهاإليه،و قال منها[1]: (مجزوء الرمل)

ما علـــى ظنـــي بـــاس يجـــرح الـــــدهـــر ويـــاســـو[2]

يا أبا حـــفـــص وماسـا واك فـــــي فـــهمٍ إيـــــــاس[3]

من ســـــنا رأيك لي فـــي غـــســـق الخـــطب اقـتبـاس

ووادي لـــــك نـــص لـــم يـخـــالـــفـــــه القيـــاس

أنـــــا حـيران و لـــلأمـــر وضـــــو ح و الـــتـبـــــــاس

ما تـــرى فـــي مـــعشـــر حـالـــواعن العـهد و خـاســـوا[4]

و رأونـــــي ســـامـــريـــًا يـتـــــقى مـــنـــــه المـــســاس

أذؤب هـامـــــت بلـحمي فـانـــتـــهـــاش وانـــتهـــاس[5]

كـــلهم يسأل عن حـــــا لـــي وللـذئب اعـــتـــســـاس

كما يبدو من رثائه لأبي بن بكرذكوان[6]،وهو أحد شباب قرطبة آنذاك بأنه كان من أقـرب أصدقائه منذخاصة أنه رثاه بقصيدة ،عدّها النقادمن أفضل مراثيه لما تحمله من صدق تلهف وحسرة وألم على فقده،وصحبته،ومنها[7] : (كامل)

ما أمتـــع الآمـــال لـولا أنهـا تعتاق دون بلـوغها الآجـــال

إن ينكدر بالأمـــس نجم ثاقب فاليوم أقـلع عـــارض هطـــال

---

[1] المصدر السابق،ج١،ص٢٧٣.

[2] ياسو:يداوي.

[3]إيا س هو:إياس بن معاوية الأموي اشتهر بالذكاء.

[4] خاسوا:غدروا ونكثوا .

[5] انتهاش:القضم بالأضراب،انتهاس:القضم بأطراف الأسنان.

[6] هو أبو بكر بن أحمد أبو العباس بن أبي حاتم بن ذكوان،ولي الوزارة،وهو في العشرين من عمره،ثم تولى قضاء قرطبة.انظر:ابن بسام:الذخيرة،ق١،ج١،ص٣٥٨.

[7] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج١،ص٥٣٦.

ولّـى أبوبـكر فَراع لـه الورى هـولٌ تقاصَـرُ دونـه الأهـوال

هيهـات لا عهد كعهدك عائد إذ أنت فـي وجـه الزمان جمال

ودعت عـــن عمـــر عمـرت بمكارم أعـمار رهـــف طوال

إيها بني ذكوان إن غلب الأسى فلكـم إلى الصبر الجميل مآل

إن القرائن السيرية في الأبيات تؤكد أن المقصود هو أبو بكر بن ذكوان،وليس والده أبوالعباس بن ذكوان الذي نرجح أنه كان شيخاً أيضاً لابن زيدون لصداقته بابنه أبي بكر منذ صغره.

لم يورد لصديقه أبي حيان ذكرا في شعره،أما ما يصفه الدراسون القدامى،والمحدثون بصداقته المتينة لأبي الوليد بن جهورلايتحقق في شعره بوضوح، فقصائده الموجهة له تتسم بالطابع النفعي،أو الرسمي،ولا يظهر من قصائده رفعه للكلفة بينهما لصلة وثيقة بينهما إلا فيما يبدو من موضع واحد في إحدى قصائده ،يتبرأ فيها مما نسب إليه من تهمة تآمره مـــــع بني ذكـــوان للثورة ضـــد آل جهور،وتلمح إلى علاقة قديمة بينهما،ربما في مراكز التعليم في قرطبة،ولكن يبـــدوأنه مع بداية قيام الدولة، انحسرت هذه العلاقة بعد تولي أبي الوليد منصب ولاية العهد الـــذي كان يطمح إليه ابن زيدون،ومن تلك القصيدة قوله معاتباً[1]: (بسيط)

قل للـــــــوزير الذي تأمـــيله وَزَرِي إن ضاق مضــطرب أو هال مطّلع

أصـــخ لهـــــمس عتـــاب تحته مَـقةٌ تُكلّف النفـُس فيه فوق ما تـسَع

ماللمـــــتات الذي أحـــصفت عقدته قد خامـر القلب من تضييعه جزع

لي فـــي المـــوالاة أتبـــــاع يســـرهم أنّى لهـم في الذي نُجزَى به تـبع

لم أوت في الحال من سعيي لديك ونًى بل بالـجدود تطير الحالُ أو تـقع

وتدل رسائله الإخوانية، ومطارحاته الشعرية التي بلغت ١١% من شعره دخوله في نشاط اتصالي في إطار علاقات اجتماعية متنوعة تدل على حرية واسعة أتاحت له المشاركة بفعالية في تحديد

---

[1] المصدر السابق،ج١،ص٣٠١،٣٠٠.

الكيفية التي يعيش من خلالها في المجتمع سواء في نشاطه اليومي،أوعمله،أوعلاقاته بالآخرين ،يفتـرض معها تمتعه بروح معنوية عالية تبعد عنه الكآبة والعزلة والحزن ،لاسيما عند مشاركاته في مجالـس الأنس والمتع، التي غصت بها الأنـدلس آنذاك ، وتعددت معالمها في شعره ، منها:ذكرياتـه مـع صديقه،وقوله[1] : (خفيف)

يا أباالقاسم الذي كان ردئـي وظهـيري على الزمان وذخـري

يا أحق الورى بمـمـحوض إخـلاصي وأولاهـم بغـاية شكـري

أين أيـامنا وأيـن ليـال كـريـاض لبسـن أفـواف زهـر

حين نغدو إلى جداول رزق يـتـغلـغن في حـدائق خضر

اشتهر ابن زيدون عندمن ترجموا له بأنه"حسن التدبير،تام الفضل متحبباً للناس"،ويتحقق ذلك بوضوح في تعامله مع أصدقائه،فقد اعتذرلأبي عامر بن مسلمه صديقه الذي كتب له قصيدة يعاتبه لانقطاعه عنه ،فجاوبه ابن زيدون ،فقال [2]: (الوافر)

هواي و إن تناءت عنك داري كمثل هـواي في حـال الجوار

كما أن قدرة الشاعر على التعبير عن مشاعره يعد مفتاحاً لكفاءته الاجتماعية،ومعرفة مشاعر الغير والتصرف بما يشكل هذه المشاعر ،يعد استعداداً عاطفياً مهما للفردلمواجهة أعباء الحياة. وتعكس علاقاته الاجتماعية من شعره حضوره الاجتماعي الطاغي على مسرح الإمارات الأندلسية حيث يتبوأ مكانة متميزة،وفريدةعندملوك الأندلس، قوامها الاحترام والتقدير، فاستغنى بشعره لتدوين مذكراته لبعض رحلاته ،ومانتج عنها من علاقات مع الأ مراء والوزراء في الإمارات الأندلسية ،فوردله قصيدة يتشفع فيها في صديق له عند أمير بطليوس أبي بكر بن الأفطس في رسالة شعرية لهـذا الأمير،قال منها[3]: (المتقارب)

كـأن أبا بـكر الأسـلمي أجـرى عليـها فرند الكرم

---

[1] المصدرالسابق، ج١،ص٢٣٢.

[2] المصدر السابق، ج١،ص٢٠٥.

[3] المصدر السابق، ج٢،ص٤١٠.

مليـــك إذا سابقته الـــملوك حـوى الخصل أو ساهمته سهم

هو الحاجب المعتلى للعـلا شـمـاريـخ كـل مـنيـف أشـــم

ومنها قوله يؤكد سعيه للشفاعة عند هذا الأمير[1]:

و مستشـــفع بي بشّـــرتُه على ثـــقـة بالنـــجاح الأتم

وقدمـــا أقلتَ المسيءَ العثار وأحـــسنت بالصـفح عما اجترم

وعندي لشـكرك نظم العقود تـــــناسَق فيـها اللآلي الـتّؤَم

"إن ظاهرة الإبداع لاتُصور (عند ابن زيدون)،وكأنها تدور في حلقة باطنية منطوية على ذاتها ،بل تنبثق عن ذات عاملة ،شاعرة لتتوجه إلى الآخرين بما تفيضه هذه الذات من فيض فكري شعوري ، يعمم عليهم ،ويجعلهم شركاء ،ومن هنا فإن صـفة الاجتماعية لازمة حتما للأدب ،كما أنها تلازم الانسان انطلاقا من طبيعته " [2].فعندما وجد ابن زيدون من هذا الأمير تقديراً وكرماً ،قاده ذلك إلى تطبيق قـــواعد أخلاقية،فشكره عليها في قصيدة طويلة،منها[3]: (المتقارب)

حمـــدنا المظفـــر لمـــا رأى لمـــنصورنا ســـيرة فامتثل

إن القدرة على التعامل مع مشاعر الغير يعد فناً رفيع المستوى يمارسه الشاعر في إقامة جسور العلاقات الاجتماعية،وهذا يتطلب مهارات خاصة لدى الشاعر تشمل كيفية إدارة الذات والتعاطف أو تفهم مشاعر الآخر،وهذا ما امتاز به ،فا ستطاع أن يتقرب من المعتضد،ويتبوأ منه مكاناً خاصاً ،لم يبلغه أحد سواه في عصره،وعلى ذلك امتازت عضويته في هذه الجماعة عن غيرها، وكان ذوقه الرفيع واحترامه لآل عباد ،يفرض عليه شكرهم في كل مناسبة تسمح له بذلك في مثل قوله[4]: (مجزء الكامل **يا آل عبـــاد مثـــا ل ليس يـــعـدوه الـــسدد**

---

[1] المصدر السابق،ج٢،ص ٤١٦.

[2] اسكاربيت،روبير:سوسيولوجيا الأدب –ط٢،تحقيق:آمال عرموني،بيروت:منشورات عويدات ،١٩٨٣م،ص ٦.

[3] ديوان ابن زيدون ورسائله،ج٢،ص٤٢٠.

[4] المصدر السابق ،ج٢،ص٦٠٤.

من لي بشكرٍ نعـــمـــةٍ الـحُرّ عـنـــها مـــعـتبد

سُـــوّغْتُ منهـــا الـــعـــزة الـقعســـاء في العيش الرغـد

ومع أن قصائده تثبت مقدار توثق عرى الصداقة بالمعتمد،فقد بقي ابن زيدون يتوخى الاحترام والتقدير في تعامله مع هذا الملك حتى عندما يشوقه إلى مجلسه،فيقول[1]: (كامل)

يـا أيها الملك الذي لولاه لم تجد العقول الناشدات كمالاً

كمااستطاع ابن زيدون ان يقيم علاقات صداقة قوية مع أمير بلنسية ابن عبدالعزيز الذي أحرجه بكرمه، ففاض شعر ابن زيدون بشكره وامتنانه؛ ليجمع بذلك بين الشعور الأخلاقي،والشعور العاطفي فبعث له بقصيدة يقول فيها[2]: (مجزوء الكامل)

إيه أبـــا عبد الإله و عـــــاد مغلـــوب الـــعـــزيـم

حـــسبي الثـــناء لحسن بـرقك ما بدى برْقٌ فِشـــيم[3]

ولم يكن ابن زيدون هجّاءً في شعره كما يصفه الحميدي،فشعره يناقض هذه المقولة حيث لم يصدر عنه إلا قصيدتين في تحذير ابن عبدوس،والثانية في عتاب أبي عبدالله القلاس ،فقال[4]:(مجزوء الوافر)

أصخ لمقالتـي و أســمع وخـذ فـيما تـرى أودع

وأقـصر بـعـــدها أوزد وطـــر فـي إثـــرها أوقع

ولعل هذا التميز،وعبقريته في بناء العلاقات الاجتماعية،ونجاحه فيها ولعل هذا التميز يفسر أسباب خروجه من قرطبة التي بقدر حبه لها بقدر ما تعاون أمرؤاها مع المنافسين،والحاسدين فضيقوا عليه ،وحاولوا إلجام مهاراته ومواهبه بجفائهم،فتركهم معاتباً

---

[1] المصدر السابق،ج٢،ص٥٢٠.

[2] المصدر السابق،ج١،ص٢٠١.

[3] شام:تشوف ببصره.

[4] ديوان ابن زيدون ورسائله ،ج ٢،ص ٥٧٨

فقال[1] : (الطويل)

بني جهـور أحرقتم بجفائكـــم ضـميري فمـا بال المدائح تعبق

تعدونني كالمــندل الرطب إنما تطـيب لكم أنفـاسه حين يحرق

ويتأثر شعر ابن زيدون بملابسات الحياة العامة،وتكون مضامينه-عادة-صدى لهـذه الملابسات أو توضيحاً لها،وقد كشفت علاقاته الاجتماعية عن ثراء بئيته الأنــدلسية بألـوان من العادات والتقاليد السائدةالتي مارس الشاعر ضروباً منها،فأضاء ملامح لبعض أحواله،ونشاطاته الاجتماعية كمشاركاته في الرياضات الفكرية ،التي امتـاز بها في بـلاط المعتمدكالمطيرات والمعميات،وأظهرت[2] ثقافته وعلو مكانته ،وانبثت ملامح من حتياة عصره في شعره سلبا وإيجابا،فلانكاد نقع على قصيدة لانستشف عبرها واقع العصر في كل حالة من أحواله.

كما امتلك ابن زيدون ذوقاًرفيعاً،أملته عليه الحضارةالأندلسية القائمة برقيها،وتفنن أهلها في أمور حياتهم وتعاملاتهم ومشاركتهم الاجتماعية ،يتضح ذلك من خلال شعرله يمتاز بالمباشـرة والسهـولـة ، فعندمـا أصيب بمـرض،وبتعث لـه صـديـقـته أبو بكر ابن القصيرة[3]بقصيدة يهنئه فيها بإبلاه بعد تناوله الدواء ، رد عليه ابن زيدون[4]: (منسرح)

يا سـيدي المـــــستبد من مقتي بخـــــطه فاتت الحساب سعه

وافـــاني العقـــد زين ناظـمه والوشـيُ لاراعَ حـادث صنَعـه

اهتم كذلك بالشكل الاجتماعي لحضور مجالسه،وكان مقبلاً على المتع السائدة في مجتمعه، فتفاعل معها ،ووجه الدعوات الشعرية -التي كانت شكلاحضاريا يعطي دلالة

---

[1]المصدر السابق،ج٢،ص٥٩٠

[2] المصدر السابق،ج٢،ص٦٦٨

[3] هو:أبو بكر بن القصيرة-هكذا ورد اسمه،قدمه ابن زيدون للمعتضد،فأصبح وزيراً وشاعر بلاط عنده.انظر:ابن خاقان:القلائد،ص١٠٤

[4] ديوان ابن زيدون ورسائله،ج١،ص٢١٠.

على مكانة الشعر في عصره –إلى من يحضر مجالس أنسه،ومن ذلك دعوته لصديقه أبي عامر بن مسلمه لقضاء ليلة ممتعة،فقال[1] :

طابـــت لنا ليلتنا الخالية فـــلتنسينا هـــذه التالية

أبا المعالي نحن في راحة فانقـــل إلينا القدم العالية

يحمل شعره ملامح من حبه للألفة،وكره العزلة،أو الوحدة وهي سمة امتاز بها الأندلسيون،كما ذكر ذلك المقري[2] ،لكنهم بالغوا في طلبها، فكانت وبالا عليهم . إذاكانت السيرة تمتاز بأنهاذات بعد انتقائي،فإن ابن زيدون توسع في انتقاء جوانب من سيرته الاجتماعية ،فتنوعت مستوياتها ومصادرها .

حمل شعر ابن زيدون الذي ينهض بهذا المكون ملامح من سيرتـه في جانب من جوانبها الأثيرة لديه التي يشعربالانتماء القوي لها ، تمخض عنه الإحساس القوي بالذات الجماعية،وقد برز في شعره سند ورافدا لسيرته في المصادر،حيث سمح له شعره بالحديث عن ذاته،وترجم أبعادها الاجتماعية ،فأبان شعره عن نضوج مهاراته العاطفية التي حققت له توافقاًواستقرارًانسبياً،وقدرةعلى مواجهة الظروف الاجتماعية،وكشف عن ثمة مركب متنوع بين المثقفين،والسياسين،والأعلام في عصره،وجهزتنا قصائده بتفصيلات ممارساته الاجتماعية،كالتقاليد،والعادات والأعراف السائدة في عصره،وعن تميزه وتفرده؛قياساعلى عصره وساعد على ذلك صدق التجربة المعاشه التي ارتقى بها إلى الشعر،فتحكمت سيرة حياة الشاعر بسيرة القصيدةالتي تشبه حياته إلى حد بعيد.

---

[1] المصدر السابق، ج١،ص٢٢٨.

[2] انظر: المقري:نفح الطيب، ج٢،ص٢٦٨.

رابعـاً | الشعر و حــبّ ولاّدة :

من المدهش أن شعر ابن زيدون المرجوح أنه نظمه في حب ولاّده لا يتجاوز عدداً من القصائد والمقطوعات من مجموع شعره الغزلي الذي بلغ ثلث ديوانه،إذا ما اعتمدنا على القرائن المرجعية كالتصريح باسم ولاّدة،وما يشير إليها بوضوح،أو اقتران حديثه عنها بأعدائه،ومنافسيه في قرطبة،أو بذكر مناسبة القصيدة الواردة في الديوان،أو في أحد المصادر؛لأن شعره هو المسرح التطبيقي الذي تتجلى منه فصول ومراحل هذه القصة،لاسيما في ظل التعميم،والإيجاز ،والتناقض والنقصان الذي مُني به هذا الجانب من سيرته لدى المترجمين،والدارسين قديماً،وحديثاً ،الذين اعتمدوا اعتماداً كبيراً على شعره،فأقحموا غزله،وحنينه لقرطبة في هذا المكون دونما مسوغ لذلك الحشو مع أن الكثير من غزله في مقطوعات عامة تشير إلى أن الشاعر مثل معظم الشعراء الذين يبدأون حياتهم الشعرية بالغزل في مثل قوله[1]:(السريع)

أيتهـــا النفس إليـــه اذهبي فـــما لقلبي عنه من مذهب

مفـــضّضُ الثـــغر له نقطة من عنـــبر في خده المُذْهب

أنســـاني التـــوبة من حبه طلوعه شمساً من المغرب

ويظهر في هذا الشعر أثرمرحلةالشباب،وقوة الفرح،والحب المشرقة المقبلة على الحياة،فابن زيدون شاعر امتلك مقومات الشعْر،والوسامة،وتوافرت له البيئة الخصبة للإلتقاء بالنساء والجواري،والأرجح أن ولاّدة لم تكن حبه الأول ، وقد ألمح إلى اسم محبوبة له اسمها(أسماء) ، وورّى بحروف اسمها عندما قال[2](خفيف):

إن للأرض والـــسماء وللـما ء علـــينا أذمـــة لا تـــذم

---

[1] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج١،ص١٢٦.

[2] المـصـــدر الـسابـــق،ج١،ص١٢٦.

هي بعض اسم من أُحب ولاءً وبتكرير بعضهـــا يـــستتم

وبترتيب قصائد ابن زيدون ومقطوعات شعره ،سيظهر ملامح هذه القصة وحقيقتها؛فيبدوأن ابن زيدون لـم يتعرف على ولاّدة إلا بعد أن قارب الثلاثين من عمره، أي بعد أن أصبح ذا منصب سياسي ،والأرجح أنه لـم يكن بمقدوره التقرب من الأميرة الأموية إلا بمؤهلات تخوله لهذا التقرب منها،وقد أشار إلى ذلك في نونيته، فقال[1] : (بسيط)

ربـيبُ مـلكٍ كأن الله أنـشـأه مســـكاً وقدّر إنـــشاء الورى طينا

مـاضرّأن لـم نكن أكفاءه شرفاً وفي المـــودة كـــاف من تكافـينا

لسنا نـسميك إجـلالاً و تكرمة وقدرك المـعتلى عـــن ذاك يغنينا

وكانت هذه القصيدة في بدايات حبه لولاّدة التي بدأت أولى مراحلها، حين لاقها خلسة في إحدى حدائق قرطبة بدعوةمنها،ممايدل على أن هذا الأمر مرفوض في العرف الاجتماعي الذي ادعى البعض تحرر المجتمع القرطبي منه وذلك في كتابهاإليه،فقالت[2] :

ترقّـب إذا جـنّ الظـلام زيـارتي فإنـي رأيـت اللـيل أكـتم للـسر

وبي منك مالوكان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطـع وبالـنجم لم يسر

وعلى هذا يبدو أن ولاّدة هي التي أعجبت بابن زيدون،وبحسب ترتيب الثعالبي لمراتب الحب،فإن الهوى كان بداية الحب،وهو ما يسمى بالحب الاستلطافي الذي يقوم على استلطاف الآخر ،والإعجاب به لمافيه من خصال الود واللطف[3]،ويظهرذلك في أول قصائد ابن زيدون التي

---

[1] المصدر السابـق،ج١،ص١٤٥-١٤٦.

[2] المصتدر الـسابـــق،ج٢،ص٧٧٨.

[3] انظر:الطَّباع،عبدالله أنيس:الحب و الغزل بين الجاهلية و الإسلام،د.ط،القاهرة:مكتبة النهضة،١٩٧٥م،ص٢٥.

نظمها بعد نهاية لقائه بها كما أشار إلى ذلك في قوله من إحدى رسائله: "وبتنا بليلة نجني أقحوان الثغور،ونقطف رمان الصدور ولما نشر الصبح لواءه،وطوى الليل ظلماء،ودعتها،وأنشدتها[1]: (رمل)

ودّع الـــصبر محـــب ودعك ذائـــع من ســـره ما استودعك

يقــرع السن عــلى أن لم يــكن زاد فـــي تلك الــخطا إذ شيعك

يا أخــا البـــدر سـناءً وسـنـــا حفـــظ الله زمـــاناً أطــلعك

إن يـــطل بـــعـدك ليلي فـلـكم بـــت أشكو قـــصر الليل معك

وتدخل علاقة اين زيدون بولاّدة منذ بدايتها في طور الحب الحسي،والجسدي،وهذا إشارة أوليه إلى أن حبه لم يكن حباً عذرياً،أو عشقاً حقيقاً،وإنما عشقاً للجمال الحسي الذي امتازت به ولاّدة ،فقد كانت بيضاء شقراء،كما يصفها ابن زيدون وهذا يخالف ما ورد عنها في المصادر من أنـــها لأمة حبشية،وذلك في قوله يصف جمالها الحسي[2]: (البسيط)

أو صـاغه وِرقـــا محـضا و توجّه من نـاصع التبر إبداعاً وتحسينا

إذا تـــأوّد آدتـْه[3]رفـــاهيـــة تؤم العـقود وأدمـته البُـرى لينا[4]

كانت له الـشمس ظئرا[5]في أكلّته بل ماتجـلى لـهـــا إلا أحايـــينا

يؤكد النقاد أن هذه القصيدة فعل من أفعال حبه لولاّده مع العلم أنه نظمها،وهو خارج قرطبة منفياً، فتداعت الذكريات القديمة،وأبرز من خلالها بداية علاقته بولاّدة التي نعم فيها بالحب الرائق

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله، ج٢،ص٧٧٩.

[2] المـصـــدر الـــسا بـــق ،ج١،ص١٤٥-١٤٤.

[3] آداته:أثقلته.

[4] البري:الخلاخيل.

[5] ظئراً:الحاضنة.

الذي لازم قلبه فترة من الزمن،ومن هذا الباب ضجت القصيدة بعواطف الحب لكل مشاهد حياته السابقة،فرد دذلك في نفس القصيدة،وقال[1]: (بسيط)

ليسق عهدكم عهد السرورفما كـــنتم لأرواحنا إلا رياحـينا

لا تحسبوا نأيكم عنا يُغيّرنا إن طالما غيّر النأي المحبينا

والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا ولا اتخذنا بديلاً منك يسلينا

تعد هذه القصيدة –في الغالب –تمثيلا لواقع حال ابن زيدون يومها من النواحي العاطفيةوالاجتماعية والأدبية ،فكانت العاطفة مؤقتة بفعل عوامل عدة كالحنين،والشوق مع ما تحصل من خيبة أمل جراء انحسار الحلم،وضمور الأمل في تحقيق منصب سياسي في قرطبة التي ارتفعت على جناح طبيعتها وذكراها الفاتنة التجربة الشعرية إلى أقصى مستويات التوتر النفسي،وتحول معها الحرمان العاطفي إلى إشباع عاطفي آخر؛ كتعويض للمألوف المفقود الذي غشي جوانب حياته المختلفة وليس فقط حب ولاّدة بدليل اضمحلال هذه العاطفة عند عودته إلى قرطبة،وإفساده لهذه العلاقة بإشهارها، والمباهاة بتقربه من الأميرة الأموية في الأوساط القرطبية إمعاناً في التعريف بالذات،فقال[2]:بسيط

يا من غدوتُ به في الناس مشتهراً قـــلبي عليك يُقاسي الهم و الفكرا

إن غبت لم ألق إنساناً يؤنسني و إن حضرت فكل الناس قد حضروا

---

[1] ديوان ابن زيدون و رسائله، ج١،ص١٤٥.

[2] المصدرالسابق، ج١،ص١٧٢.

واستناداً على ماورد عن ولاّدة من تحررها من القيود الاجتماعيةالذي تمثل في دعوتها ابن زيدون،فإنه من المثيرللتساؤل: لم غضبت من هذا الإشهار؟ الذي اضطر معه ابن زيدون لتبرير موقفه عندما، قال[1]: (بسيط)

لما اتصلتِ اتصال الخِلب[2]بالكبد ثم امتزجتِ امتزاج الروح بالـجسد

ساء الـوشاة مكاني منك واتّقدت في صـدر كـل عدوجـمرة الـحسد

فليسخط الناس لا أُهد الرضى لهم ولا يضع لك عهدٌ آخر الأبـــد

لو استطعت إذا مـــا كنت غائبة غضضت طرفي فلم انظر إلى أحد

ونقول:ربما اكتشفت ولاّدة حقيقة عواطف ابن زيدون تجاهها بأنه لم يكن صادقاً في حبه يتأكد ذلك من قوله:"ساء الوشاة مكاني منك واتقدت"،فهو يبحث عن المكانة المميزة في كل ناحية من نواحي حياته حتى في علاقاته العاطفية،ثم إن ميله إلى جاريتها التي كان يسمع غناءها دون علم ولاّدة وغضبها وخروجها عن السيطرة الذاتية ناتج عن عدم الثقة ، أولعدم شعورها بالتكافؤ ؛ولخيانة ابن زيدون ،وربماتجاوز ابن زيدون الخطوط الحمراء في علاقته بالجارية التي أشار إليها،وإلى الحادثة،بقوله[3]) :الطويل

وماضربتْ عُتبى لذنـــب أتـت به ولكـــنما ولاّدةٌ تـشتهي ضـربي

فقـــامت تجر الذيـــل عاثـرة به وتمسح طل الدمع بالعنَم[4]الرطب

---

[1] المصدر الســابـــق،ج١،ص١٦٨.

[2] الخلب:حجاب رقيق للكبد.

[3]) ديوان ابن زيدون ورسائله،ج٢،ص٧٨٠

[4] العنم:شجر لين الأغصان يشبه أصابع الحسان.

إن ميل ابن زيدون إلى التلقائية،وذكر ملامح التغيير بوضوح يدلنا من خلال الأبيات على روح السخرية من ولاّدة،وعدم مبالاته بردة فعلها في علاقته الشخصية بأخرى ،فعندما ازدادت حدة التوتر بين ابن زيدون،واتسعت رقعةالخلافات بينهماضرب ابن زيدون ولاّدة،واعتذرمبرراً،وقال[1] :(بسيط)

إن تكن نالتك بالضرب يـدي وأصـــابتك بمـــا لـــم أرد

فلـــــقد كنت لعمري فـادياً لـــــك بالمال وبعض الولد

فثـــــــقي مني بعــهد ثابت وضـــمير خـــالص المعتقد

ثم لـــفت إشهار ابن زيدون لهذا الحب انتباه الخصوم، والمنافـسيـن الـذين غـصت بـهـم قرطبة،وشعر متأخرابفداحة ماسببه له هذا الحب من مشاكل على الصعيد السياسي الذي كان همه وهدفه الأول،ونعته(بالفتنة)،في قوله[2] : (بسيط)

لم ينجني منك ما استشعرت من حذر هيهات كيد الهوى يسـتهلك الحذرا

ماكـــان حبك إلا فـــــــتنة قُدرت هل يستطيع الفـتى أن يـدفع القدرا

وبدأ صراع ابن زيدون يأخذ أبعاداً لم تذكربوضوح في المصادر،ولم تذكر في شعره إلا بمايدل على إفساد علاقته بولاّدة،فبدأت بوادر الهجر،والقطيعة التي لم يفصلها عن البداية وقت طويل ،تلوح في الأفق وأخذت ثورة الغضب لابن زيدون التي تشكلت بفعل المواقف المدهشة لمنافسيه مثل :ابن قلاس الذي تقرب لولاّدة، تتكشف عن ملامح أخرى من سيرته عند التعبير عنأحاسيسه،وعواطفه بوصفهاوسيلة مؤثرة للدفاع عن ذاته،فقال(مهددا ومحذرا[3] : (مجزء الوافر)

---

[1] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج١،ص١٧٥.

[2] المصـدر الـسـابـــق،ج ١،ص١٧٢.

(٣)المصدر السابق،ج٢،ص٥٢٠.

أعد نـظرا فإن البــغ ي مـما لم يزل يصرع

ولاتطع الـتي تـــغو يك فهي لبغيهم أطوع

لم يشعر ابن زيدون بأنه خلال هذه الأبيات سيطلعنا على نظرته للمرأة،وموقفه منها بوصفه نموذجا للنخبة من أهل عصره اجتماعيا وأدبيا، فـهــو موقف لا يـعكس أي شكل من أشكــال الحب والاحترام،فلم ينظر لــولاّدة إلا كجارية مـن الجوراي خاصة بــعد انحسار ما يجلــلها من الملك،والإمارة الذي سبق وأن أشعرت به من حولهافي بداية حياتها ،كما يقلل من قيمة ما قيل عن مكــانة المرأة،وما نــالــته من نـصيب في المكانة السياسية والاجـتماعية والأدبــية في قــرطبــة آنذاك من خلال هذا الهجاء المقذع لها،وطريقة التعامل القيمي معها.

كما أن ولاّدة كانت وسيلة للاقتصاص من غريمة ابن عبدوس في أمور سياسية،وأدبية اتخذت شكل الثأر،ولم تكن هي السبب الأول في هجائه خاصة أن ابن زيدون عاتبه على سخريته من شعره ،وعلى تضييع الصداقة وإذاعة الأسرار،ولم يهجو ابن عبدوس هجاءً بيّنــاً أوكثــيرا وإنماكانت قصيدة واحدة في الديوان وخاطبه بأبي عامر،وإنما خاطبه بأبي عامر خطابا أظهرمعه الحزم والجدمع عودة للذات والافتخار بها ليذكر ابن عبدوس بعلوّه عليه،فقال[1] : (المتقارب)

أثرَت هزبر الـــــشرى إذْ ربــض ونبــّـهتَه إذا هـــــدا فاغتمــض

ومازلت تبــــــــسط مسترســلاً إلـــــيه البـــــغي لـــما انتفـض

حذار حـــذار فإن الـــــكريـــم إذا ســـــيم خسفاً أبى فامتعــض

أبا عامر أيــــــــن ذاك الوفـــاء إذا الــدهر وسنان و العيش غــض

و أيــــــن الذي كنت تعتــد من مصـــادقتي الـــواجب المفـترض

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله، ج٢ ،ص٥٨٢.

أبن لي ألــم أضــطلع ناهـــــضاً بأعـــــباء بــرّك فيــمــن نهــض

عــمدت لــشعري ولم تتّئب[1] تـــعارض جــوهـــره بالعــرض

إن الحب الناجح يقود للسعادة ويبتعث الاستقرار،ولكن حب ابن زيــدون قاده للكراهية وانزلق مدفوعا لعواطف حب التملك الأعمى للتعريض القبيح بولادة،وربما هــذه طبيعية مثل هذه العلاقة،فالعلماء يقولون:"كلما ازداد حبنا لعشيقة اقتربنا من كرهها"[2]. وقد انعكس مستوى حضارة المجتمع الأندلسي الموغل في الحس على ابن زيدون،فأفقده القيم السليمة والركائز الصحيحة لعلاقة الرجل بالمرأة التي وقع فيها ابن زيدون ، يظهر ذلك من قوله[3]:متقارب)

وغـــرّك مـن عــهــد ولاّدة ســـــرابٌ تراءى وبــرق ومـــــض

تـــظـــــن الــوفاء بها الظنون فيــها تقــول عـلى من فــرض

هي الـمـاء يـــأبى على قـابض ويمـــــنع زبــدتــه من مــخـضّ

ونبئتها بعــدي اســتحـــمــدت بســـــرّي إليــك معنى غـمـض

تتجلى من هذه الأبيات ،ومما سيأتي من شواهد أخرى حقيقة علاقة ابن زيدون بولادة ،فلو كانت أثيره لديه لكانت أثيرة في شعره ،ولو كانت ذات قيمة في نفسه ؛لاستقلت عليه في شعره وإنما هي علاقة ،تقوم على لواهج الجسد وليس لواعج الروح ،يعلن ذلك بتهكم وسخرية بالغتين في قوله[4]: (متقارب)

وأشعره أنّي انـتـخبت الـبديـل وأعلـمه أني استجدت العوض

فلا مـــــشـربي لــقــلاه أمـر ولا مضـــجعي لنـــــواه أقـض

---

[1] تتئب:تأب:خزي واستحيا.

[2] سيجموند،فرويد:معالم التحليل النفسي،د.ط،تعريب: محمد الخانجي،القاهرة:مطبعة السعادة،١٩٥٣م،ص٤٥.

[3] ديوان ابن زيدون ورسائله ،ج٢،ص٥٨٧.

[4] المـصــدر الســابــق،ج٢،ص٥٨٩.

وأن يـــد البيـــن مشكورة لعارأمـاط ووصـمَ رحَـض[1]

وحســبي أنّي أطَبْتُ الجنــى لإبّانِـه وأ بـــحتُ النفض[2]

ويهــنيـك أنـــك ياسيدي غدوتَ مُـقــارِن ذاك الرّبض[3]

إن هذه القصائد تقوض كثيراً مما ذهب إليه النقاد من كلف ابن زيدون،وهيامه بولاّدة خاصة في هـــذه المرحلة حيث أصبح الوصل والفصل مبنياً على ما يتحقق له من هذا الحب من متع حسية فقدهاعند نشوب الخلاف بينها ،فتحولت العلاقة إلى كره،وبغض،وتبادل القذف،والشتائم بينهما فعيرته ولاّدة بالمسدس في قولها[4]:

ولُقّبت المـسدُس وهـو وصف تفـــارقك الحـياة ولا يفارق

لكن ابن زيدون يمتلك مهارات قادرة علىتهدئة خاطره ، وخلق جو مريح يحقق له

الأمن والطمأنينة كضرورة من ضروريات الحياة لـعواطفه التي تشكلت داخل ذاتـه بحرية كبيرة ، لم تجد لها كوابح،أو موانع من إطلاقها بعدما تحولت عنه ولاّدة لابن عبدوس وعيرته به،وهو ماكان يخشاه،فقال[5] : (بسيط)

أكرم بولاّدة ذخـــراً لمـدّخر لو فـــرّقت بين بيطار[6] وعطار

قالوا أبا عامـــر أضحى يلم بها قلت الفراشة قد تدنو من النـــار

عيرتمونـــا بأن قد صار يخلفنا فيـمن نحب ومافي ذاك من عـار

---

[1] رحض العار:غسله ومحاه.

[2] النفض:ما تساقط من ورق،وثمر.

[3] الربض:مأوى الماشية .

[4] ديوان ابن زيدون ورسائله،ج١،ص٣٤.

[5] المـصـدرالـــســابــق ،ج١،ص١٩٦.

[6] البيطا ر:طبيب الدوا ب.

أكلُ شـــهيٌ أصبنا من أطايبـه بعضاً و بعضاً صفحنا عـنه للفـار

إن العـلامة الـفارقة لهذا الحب الذي أحيط بهالة إعلامية أكبر مما هو عليه هو أسلوب ابن زيدون الخاص في التعرف على عواطفه الذاتية المتدفقة ورصد مشاعره وانـفعـالاته،وامتيازه بدرجة عالية من البوح والوضوح وذكر التفاصيل؛ سواءً بالانسياق وراءها ،أم بالـتخلي عنها،ثم إن هـــذا الحب لم يتعد كونه زوبعة من الأحاسيس،والمشاعر الرقيقة التي امتازت بالتلقائية والحرية،والوضوح في شعره لإلقاء أضواء سير ذاتية على واقع،وحياة خاصة ذابت فيها كل مكونات سيرة الشاعر،ما لبث أن نسيها ابن زيدون عند مغادرته قرطبة،واستجاد العوض في إشبيلية بالمناصب السياسية،فلم يعد لولاّدة،و لاحبها ذكراً في شعره.

اختلف موضوع سيرة ابن زيدون نوعاً ما عما هو معروف من موضوعات السيرة الذاتية لكنه شاعر انقاد لأشكال عواطفه التي تموجت بتموج حياته،فارتقت إلى مستوى المكون الإبداعي الذي جال به في منعطفات حياته ومراحلها،فتحكمت سيرته بسيرة القصيدة،ولم يعـد شعره يستطيع القيام بذاته دون الرجوع إلى واقعه و ذكر ياته ،تدرجا عبر الأحداث والتواصل معه ؛ليتضمن شعره ملامح واسعة من سيرته ،فاصبح شعره شبيها بحياته، ويحكي "قصة إنسان متميز بكل ما ينبض به قلب هذا الإنسان من أحاسيس و عواطف" [1]. ويتحقق من خلال ديوان ابن زيدون المقولة النقديـة المشهورة أعذب الشعر أصدقه .

[1] شرف،عبدالعزيز:أدب السيرة الذاتية،ص٥٠.

الباب الثـــاني :

المقومات الفنية لأهم الملامح السير ذاتية للشاعر ومجتمعه.

الباب الثاني | المقومات الفنية لأهم الملامح السيريةلذات للشاعر ومجتمعه

تمهيـــــد :

ينهض هذا الباب بالشق الآخر من الدراسة،وهو الوقوف على الأطر الفنية لموضوعات السيرة الشعرية التي تناولتها الدراسة في الباب الأول ،وتشكلت من خلالها ملامح من سير الشعراء مع الأخذ بعين الاعتبار بأن شعر كل موضوع من الموضوعات السير ذاتية الشعرية في هذا الباب، يمثل في مجمله وحدة مترابطة ومتكاملة ،بوصفه نصاً واحداً مستجمعاً بأغراضه،وموضوعاته، و قصائده، ومقطوعاته سيرة الشاعر من خلال مكوناتها الموضوعية.ولما عُدّت هذه النصوص تسجيلا لسيرذاتية،فمن الطبيعي أن تكون لها خصائص، ومقومات فنية ذات عناصر وسمات تميزها عن المشترك الـــعام للنصوص الشعرية الأخرى ،مع محاولة بيان المؤتلف والمختلف بين الشعراءالثلاثة تبعا لسيرة كل واحد منهم ،واصطناعه مـــذهب فني يناسب ،أو يلبي حاجته في التعبيرعن سيرته.

ولهذا سيتم تحري أهم المقومات الفنية المنفتحة حدودها بين الشعر والنثر،وتشكل عمليات إغناء متبادلة بينهما دون طمس هوية،وشخصية كل فن،وتـدعم قـدرة الشعر على احتضان ملامح من سيرة الشاعر،كالنزعةالقصصية التي اشتهرت بأحادية انتمائها لفنون النثر بما فيها فن السيرة نفسه،وكذلـك استجـلاء الظواهر الأسلوبية المشتركة بين الفنين في الفصل الثاني بـوصفه بـرهـاناً على ضعف الحدود الفنيـة بينهما،ومـن ثـم

أداء الشـــعـــر خلال-فترة الدراسة-لوظيفة فن السيرة،ثم الوقـوف في الفصـل الثـالث على مايتفرد به هذا اللون من الشعر من خصائص فنية تمثلها اللغة الشـعريـة،والبـــناء الفني،ودورهمافي تشكيل موضوع سيرة الشاعر بالطريقة الخاصة بالشعر،وكيفية تفاعلها مع الشاعر في احتواء ملامح من سيرته،أو تجلي أُخر تكون المقومات،و الخصائص الفنية فيها أقدر على إثباتها، أو استكشافها،أو نفيها،أو تصحيحها .

الـــفصل الرابـــــع:

النزعـــــة القصصيـــــــــة .

الفصل الرابع | النزعـــة القصصـــية:

لم تكن صلة الشعر بالفن القصصي حدثاً عارضاً،و لا حالة شاذة تقع دون مستوى الظاهرة "فقد دخلت القصة نسيج القصيدة منذ نشأ الشعر عند العرب حتى غدا الطرفان منصهـرين انصهار اللُّحْمة والسُّدى،كما يشهد بذلك شعر امرئ القيس في الجاهلية"[1]،وهـذا مـا أكـده الدكتور مصطفى ناصف بقوله:"الشعر في كل أزمانه أداء درامي،وممكن قصصي...انطلاقاً من قاعدةتقول:إن وجدان الشاعر وجدان متضادات داخل النفس الإنسانية يستطيع التمظهر بالقول الشعري القائم على الصراع،وسرد الصراع بإظهاره شعراً"[2]،ويكاد يجمع النقاد على ثبوتها في الشعر القديم عامة[3].

وتفرض القراءة السير ذاتية تلمس النزعة القصصية في النصوص الشعرية —موضع الدراسة– بوصفها أهم المقومات الفنية التي تتماس بها مع نصوص الموضوعات السير ذاتية المـرتـكـزة على الإحالات ذات الصلة بالواقع السيري للشاعر، فتتضمن من عناصر السرد والقصة ما يصلها بفن السيرة على مستوى الأحداث والمشاهد والصراع والحوار والشخصيات والـزمـان والمكـان ،مـا تتواشج به النصوص الشعرية لموضوعات السيرة المفترض تعايشها معها ؛ لـتقويـة ظـهور المـلامح

---

[1] عباس،محمد:جـد لية القصة في الشعر–ديوان عمر بن أبي ربيعة أنموذجاً–د."،تونس:التفسير الفني ،صفاقس٢٠٠٣م ص٩.

[2] باسم،حموي:الشعر و الأداء القصصي–د.ط،مهرجان المربد الحادي عشر،دار الشؤون الثقافية العامة،١٩٩٦م،ص١٦٥. ص١٨٩.

[3] من الدراسات التي تناولت القصة في الشعر العربي:

١ | ناصيف،علي الجندي:القصة في الشعر العربي إلى أوئل القرن الثاني الهجري–د.ط،القاهرة:دار نهضة مصر للطبع و النشر،د.ت.

٢ | المنصوري،علي جابر:القصة في مقدمة القصيدة العربية(في العصر الجاهلي و الإسلامي)–د.ط١،بغداد:مطبعة الجامعة،١٩٩٠م.

٣ | التطاوي،عبدالله عبد الفتاح:قضايا الفن في قصيدة المدح العباسية،القاهرة:دار الثقافة للطباعة و النشر،١٩٨١م.

السير ذاتية .

ويسري التمايز بين الموضوعات السير ذاتية الشعرية على تمايز الأداء القصصي لكل موضوع كما أشار إلى ذلك النقاد من خلال منطق فن الشعر،الذي ينطبق عليه قول أليوت:" الشعر أصوات ثلاثة:شاعر قد يتحدث عن نفسه،وشاعر قد يتحدث مع الجمهور، وشاعر قد يتحدث من خلال شخصية من الشخصيات أبدعها"[١].

فهم يرون أن هناك تمايزاً بين الغنائي والقصصي والدرامي في الشعر؛لأن الزمن والظواهر اللغوية تأخذ دورها في هذه الجزئيات ،فيقرنون الغنائية بالماضي المتحقق بالاستذكار في الحاضر،والاعتماد على ضمير المتكلم، بينما القصصي ذو النزعة الملحمية يهيمن عليه صيغة الماضي المتحقق بطريقة العرض بضمير الغائب،أو المتكلم،بينما ترتبط الدراما بالانفتاح على المستقبل،والمنطقية الفكرية،فالدرامي ذاتي بأصوله الداخلية غير أنه موضوعي بتحقيقه الخارجي[٢] .

وتبعاً لتنوع الموضوعات السير ذاتية الشعرية للشاعر ومجتمعه،تتنوع أشكال النزعة القصصية بما يناسبها من أشكال القصة التي تتوافق مع نصوص كل موضوع .

---

[١] أدل،لين:فن السيرة،ص٨٧.

[٢] انظر: لفتة،ضياء غني :البنية السردية في شعر الصعاليك–ط١،عمان:دار الحامد،٢٠٠٩م،ص٦١ .

المبحث الأول | العناصر االقصصية في السيرة السياسية للمعتمد :

لعل من أهم البواعث المحركة لنصوص هذه السيرة،هو تحقق النزعة القصصية التي اتكأ عليها المعتمد إلى حد كبير،فلا يُستحضر ذكر المعتمد إلا بتبادر قصة أسره التي لم يدونها بوضوح إلا في شعره،وتبدأ ملامح الميسم القصصي بعناصره المترددة في شعره منذ سطوره الأولى منذ بدايته الشعرية،سواء في المقطوعات أو القصائد.

لذا فإن ترتيب أطوار القصة في شعر المعتمد يعتمد على تصاعد الحدث،أ ومايمكن أن نسميه بالقص المتدرج، متوافقاً مع الترتيب الزمني المسبق في زمن الدراسة الموضوعية،مكوناً سيرة ذاتية مرتبة متآزرة في جانبيها الفني والموضوعي في انسياب،ووضوح لمعالم القصة .

ثم إن استيفاء عناصر القصة ومقوماتها في شعر المعتمد ،تتواجد بحسب تدرج تضخم الحدث محل القصة،وتصاعد الصراعات،ولو لم يكن شعره في بدايته على شكل رسائل لوالده؛لما ظهر فيها الميل للنزعة القصصية الخافتة؛لأن الرسائل كما يعدها النقاد شكل من أشكال السيرة،كما أن هناك تلازما بين الرسالة و النوع القصصي[1].

فلا تظهر القصة إلا بضوء خافت في شعره الذي نظمه في صباه،أو مايمكن أن يسمى(بقصة الحادثة)[2]في غياب واضح لمعظم عناصرها،ومقوماتها،كما في قوله[3]:

خَلــعتَ ثـــــوب الصفِيِّ عـــــلى العُـــــــبيد الوَفِّي

يا مُـــــسترِقـــــاً بنـعُمـا هـ كـــل حّـــرٍّ سَـــــرىّ

أتـــى علـى الـــورد سـرجٌ كالـــــهدي فوق الهــدِىّ

---

[1] الروبي،ألفت:تشكل النوع القصصي-قراءة في رسالة التوابع و الزوابع-مجلة فصول،مجلد١٢،العدد١٩٩٣م،ص١٩٣.

[2] انظر:الغضنفري،منتصر عبدالقادر:عناصر القصة في الشعر العربي _ط١،عمان :داربجدلاوي ،٢٠١١م ،ص٧١.

[3] ديوان المعتمد،ص٤٥.

فـــــــسوف أُوردُ رُمـــحي علـــيه قـــــلبَ الكَميِّ

نرى ظهور الخبر الحكاية هنا المفتقر لعناصر القص في مقطوعة بسيطة اعتمد فيها على ضمير المتكلم،التي لايكاد يظهر فيها الزمن إلا متعجلاً حين يقول: (خلعت)،(أتى)،ثم يستشرف مستقبله منهيا قصته بحوار سريع مع والده،متنقلاً من ضمير المخاطب إلى المتكلم يتشكل في أقصوصة بسيطة،تتناسب مع المناسبة والحدث،والطور الشعري المبتدئ للشاعر،وقد وفر المعتمد لنصوصه العناصر القصصية التي تعينه في التعبير عما يريده،ويسعى إليه دون أن يشكل غياب بعض العناصر خللاً واضحاً في بنائه.

فعندما تتطور الذات الشاعرة في تناولها لوسائلها الفنية،وتكبر الأحداث،ويتوسع الشاعر في ميله للنزعة القصصية وإن لم يكن عارفاً بها؛لأن"اللغة الشعرية لقصيدة الحكاية متفاوتة وفق الحدث... والحدث بحد ذاته يفرض طبيعته اللغوية،ويستخدم لغة الإقناع ليكون عنصراً من عناصر الصدق الذي يرتجيه"[1]،ويظهر ذلك في قصيدة غزلية يروي فيها ملامح من قصة حبه لجارية،فيقول[2] :

القـــــلب قد لـــجَّ فما يُقصر والـــوجد قد جـــل فما يُسْتَرُ

و الدمـــــــع جارٍ قطرُه وابلٌ والجســـــمُ بالٍ ثوبـــه أصفرُ

هذا ومن أعـــــــشقُه واصلٌ كـــــيف به لو أنه يهـــجرُ

لكن عدتـــــني نائبات النّوى في دَوحِـــه و الشّادن الأحورُ

والكوكبُ الوقّادُ تحت الدُّجَى في أفـــــقه و القـــمرُ الأزهرُ

---

[1] الحربي،فايزة:السرد الحكائي في الشعر العربي المعاصر–دراسة موضوعية،د.ط،الرياض:النادي الأدبي ١٤٣١هـ ص٧٦٢.

[2] ديوان المعتمد،ص١٦.

والنّرجـــسُ الفوَّاح غب الندى في روضـــه و المنَدل الأذفرُ

فأبـــدت الإشفاق من حالتي ومـــــثل ماتبـــديه ما تضمر

يتولى الشاعر وصف آثار العشق للجارية،وما أصابه من الكلف بها،وماأصابه من هذا العشق ويسهب في وصف ملامح جسده في قوله:(الدمع جارقطره و الجسم بال ثوبه)(هذا ومن أعشقه واصل)،وهذا الوصف أعطى المشهد القصصي حركة،وتطور للحدث في رموزه (القمر الكوكب) وبواسطتها أشار إلى ملمح من لهوه مع جواريه في قصوره في إشبيلية،كما يفرض عليه أن يستكمل سرد القصة ،فيقول[1]:

واستفهـمت إن كُنـتُ ذا علةٍ أو ذا اشـــتياق نـــارُه تُسعَرُ

سيـــــدتي لم تنصف عاشقا أضحى كـــما أخبرك المُخبرُ

إذ قلـــت هل من ألَمٍ طائفٍ ما بـــك أو شـــوقٍ فما تصبرُ

ظلمـــت بالشّكّ هواي الذي يـــــــعرفه الغُيَّبُ و الحُضَّرُ

والله ما سُـــــــقمي إلا هَوىً كل هـــــوى في جنبه يصغرُ

غَيَّر جسمي فاعـــــلمي أنني أرومُ لقـــــــياك ولا أقـــدرُ

فاستغفري الله من الظُّـــلم لِي فـــإن من يـَــظلم يستغفرُ

نلحظ أن المعتمد جعل نفسه راويا للحدث بضمير المتكلم،فالراوي"يعد عنصراً أساسياً في عملية التواصل السردي للقصيدة الحكائية،وأهم مكون له"[2]،فينطلق من أثر الحدث ،وهو العشق على شخصية البطل، وهو العاشق المتيم بجارية تبادله الشعور نفسه، فهي الشخصية

---

[1] المصدر السابق،ص١٦.

[2] الحربي،فايزة:السرد الحكائي في الشعر العربي المعاصر –دراسة موضوعية –ط،الرياض :النادي الأدبي ،١٤٣١م،ص٧٦١.

المدعمة لشخصية البطل ،فهي شخصية حية بدليل الحوار الذي أسنده إليه بضمـــير ا لمتكلم والمتبادل بتينه وبين الجارية(فأبدت الإشفاق،استفهمت،إذ قلت) ،ويتجلى حواره لها في قوله:(سيدتي ظلمتِ،فاستغفري)،فالشخصية" وثيقة الصلة بعناصر القصة كلها لا الحدث وحده"[1].

وأدت إطالته في الوصف الذي يشرح فيه ما حل به من ألم وتعب إلى استضافة المكان الطبيعي من حيث نرجسه الفواح،وندى روضه،والمندل الأذفر وحضور قرائن المشهد الزماني في قوله: (والكوكب الوقاد تحت الدجى في أفقه) راسما زماناً،ومكاناً محددين لقصته للاستمتاع بتتمة القصة لتكون خلفية متناسقة مع موضوع القصيدة،مما أدى إلى استبطاء العقدة،الواقعة في قوله:(والله ما سقمي إلا هوى /كل هوى في جنبه يصغر)،وهو بهذا يستخدم عنصر التشويق المكثف في الأسلوب القصصي الذي يجبره عليه صعوبة الموقف،ثم أوجد نهاية سريعة رغم أنه أطال البداية.

إن الاستجابة العاطفية لاتمام القصة تجعلنا أمام مايشبه المشهد الدرامي،وهو يقول: (غير جسمي فاعلمي أنني أروم لقياك و لا أقدر)،فالحدث رغم بساطته في هذه الأبيات إلا أن وضوح عناصر القص وواقعيته ،جعلت منه شيئاً يستحق المتابعة،وهذا ما نلحظه في القصة المعتادة-النثرية-،فنحن نثاروندهش بسبب السرد الذي يكون الصراع فيه بين الحدث والشخصيات بخلفية مسبقة عن الزمان والمكان المحددين هنا.

وإذ تكاد تجمع الدراسات النقدية على أن الشخصية هي أهم عناصر في البناء القصصي،فهي التي تقوم بالأحداث،وتنشئ مواقفها المتعددة،فإن شخصية المعتمد هي الشخصية المركزية في نصوص موضوع سيرته ،إذ تجمع بين وظيفة الراوي، والبطل بوصفه شخصية نامية ومتعددة الأدوار في نصوص بتعدد مراحل حياتها،وأحداثها،وهذا ما يقرب الشعر من فن السيرة، فالتطور

---

[1] الغضنفري،منصر عبد القادر: عناصر القصة في الشعر العباسي،ص٩٦.

للشخصية ينعكس على تطور الأحداث،وتصاعدها،ومتابعتها،وتوارد عناصر القصةالأخرى ويتمثل ذلك في قصيدته [1]:

وألـــــذّ من طعم الخضوع عـــــلى فمي السم النـقيع

إن يـــــسلب الــقوم العدا ملـــكي وتسلمني الجموع

فالـــــقلب بين ضـــــلوعه لم تســـلم القلب الضلوع

لم اســـــتلب شرف الطباع أيُســـــلبُ الشرفُ الرفيع

قـــــد رمت يـــــوم نزالهم ألا تـــحصنـنى الـــدروع

و برزت ليس سـوى القميص على الحـــشـا شيْء دفوع

وبذلت نفـــــسي كي تسيل إذا يســـــيل بـــها النجيع

أجـــــلي تأخـــــر لم يكن بهـــــواي ذلي و الخضوع

ماسرت قـــــط إلى القتال وكـــــان من أملي الرجوع

شـــــيم الألى أنـــا منهم والأصـــــــل تتبعه الفروع

تكاد تكتمل في هذه القصيدة عناصر القصة للمشاهد الدرامية النهائية للمعتمد في إشبيلية وكأنها أول فصول مسرحيات المنفى التي تمثلها نصوص شعره ذات النزعة القصصية ؛لرسم ملامح من سيرته في منفاه بطريقته،حيث تقوم الشخصية الأساسية(الشاعر)بإدارة الأحداث بوصفها الراوي للأحداث،والبطل الذي يقوم بدور شخصية المقاتل،والمناضل ذات الطابع

[1] ديوان المعتمد،ص٨٨.

المأساوي،فهو يحدد الحدث،"والحدث في العمل القصصي مجموعة من الوقائع الجزئية يرتبط بعضها ببعض بطريقة مرتبة ومنظمة"[1]،ونرى أن الحدث في هذه القصيدة له بداية ووسط،ونهاية تتدرج هذه الأجزاء تدرجاً تصاعدياً بتصاعد الأحداث،والزمن فالحدث يبدأ من قوله: (لما تماسكت الدموع) ،ثم يتولى توجيه الحدث بواسطة الحوار بينه وبين الأشخاص المتضمنين في (قالوا)؛ لتبدأ أزمة الموقف والصراع ،تتشكل منذ أن أصرّ على موقفه،وتملك قراره الذاتي،ورفض الاستسلام والإذعان،ثم يكمل مشاهد الصراع مع الشخصيات الأخرى التي لم يحددها إلا(بالقوم العدا،الجموع) ،وهي من تآمرت على تسليمه لهم ويركز المعتمد روايته بضمير المتكلم،وهو ما يعني أن الاهتمام منصب على الشخصية أكثر من الأحداث،وتشتد وطأة الأحداث،والصراعات على شخصية البطل الذي قرر منازلتهم،وهنا تظهر خصوصية المكان و الزمان عندما يقول: (وبرزت ليس سوى القميص) ؛لتتجلى من هذه العبارات عقدة القص وإرهاصات الظهور التي تأزم عندها الموقف نفسه،وتقدم للموت صادقاً؛لتتبعها النهاية ويظهر الحل،وهو في قوله:

أجلي تأخر لم يكن بهواي ذلّي و الخضوع

فخضع واستسلم للمحاربين دون رغبة منه،بل وتمنى الموت،ولأول مرة يتمنى المعتمد الموت بصدق؛للانكسار والشرخ الكبير الذي حدث له على مستوى التاريخ والذات .ويحقق المعتمد لقصته إطارا موقفيا ،يثبت حقيقة الأحداث والشخصيات متمثلا في مكان وزمان محدد بذاته ليكونا وعاء للأحداث وركيزة لتأصيله،ويساعدان على فهم الجو النفسي للشخصية؛ولأن مايرد على المكان من تغير يكون بسبب الزمان وتعاقبه،فنجد المعتمد يحكي لنا قصة القمرية التي تحمل لقطات من سيرته الذاتية بغرض الرثاء،فيقول[2]:

بكت أن رأت إلفين ضمّهما وكرُ مساءً و قد أخنى على إلفها الدّهرُ

---

(١)الغضنفري ،منتصر عبد القادر،عناصر القصة في الشعر العباسي،ص ٣١.

[2] ديوان المعتمد،ص٦٨.

بكت لم ترق دمعاً وأسبلت عبرة يقصر عنها القطر مهما همى القطر

وناحت وباحت واستراحت بسرها ومـــا نطقـــت حرفاً يبوح به ســـر

تقمص المعتمد دور الراوي للمشهد محاولاً ان يضع القارئ في سياق العمل،ونقله عاطفياً إلى الموقف،حين يستخدم (بكت،ناحت،باحت،استراحت ومانطقت) .إن إحساسه العميق بالحزن جعل من مجرد رؤيته حمامة مع صغارها قصة،فإدراكه لخاصية الراوي في هذا المقطع جعله يداخل بين الماضي والحاضر،ويلتفت من ضمير الغائب إلى ضمـــير المتكلم،ويجعل الحمامة المعادل الموضوعي،هي البطل المثير لانفعالاته،حين يقول متمماً[1]:

فـــمالي لا أبـــكي أم القلب صخرة وكم صخرة في الأرض يجري بها نهر

بـــكت واحداً لم يشجها غير فقده وأبـــكي لألاف عـــديدهـــم كثر

بنـــيّ صـــــغير أو خليل موافق يـــــمزق ذا قـــفر ويغـــرق ذا بحر

ونجـــمان زيـــن للزمان احتواهما بقرطـــبة النكداء أو رنـــدة القبر

إن في حواره مع نفسه حين يقول(فما لي لا أبكي أم القلب صخرة)دلالة على أثر الحدث الذي جعله متحسراً على نفسه ،كما أفصح عنها منذ بداية هذا المقطع ، فهودائم البكاءوالحزن ومستشهداً أيضاًبحكمة حين يقول:(وكم صخرة في الأرض يجري بها نهر)،فظهور الحكمة في قصته هذه؛لأنه يسردها في زمن لاحق أي بعد وقوع الأحداث أي بعد دخوله في الأزمة ،وفن السيرة هو فن الأزمات،و الاعتبار من الحدث يتطلب معه إيراد مثل هذه الحكم،ثم لا يذكر المكان إلا بكونه مكاناً جغرافياً،حين يقول: (قرطبة النكداء رندة القبر)،والمكـان الجغـــرافي هو"المكان الذي تدور فيه الأحداث،أو المكان الذي يغري الشاعر ،فيـتحول إلى موضـــوع

---

[1] ديوان المعتمد،ص٦٩.

تخيل،وهو ما يحدد جغرافياً من طرف الكاتب"[1]،فهو لا يريد من ذكر المكان سوى تعينه،وسبب ارتباطه به،وتحديده للقارئ؛لأنه سبب شؤوم لايريد الإسهاب فيه.

ثم نرى إدراكه القوي بذهاب أبنائه،ويقينه بأنه لم يتبق له سوى الحزن حين يقول [2]:

غدرتُ إذاً إنْ ضَنَّ جـفني بقطره و إن لَؤُمتْ نفسي فصاحبها الصبرُ

فقل للنجوم الزهر تبـــكيهما معي لمثلهما فلتـــحزن الأنــجم الزهرُ

وقف البطل كثيراً عند الحزن،وهو بؤرة الحدث هنا بشكل واضح،وصار للحزن زمن واسع استوى فيه الحاضر والماضي والمستقبل؛لذا خرج من حواره مع ذاته لحوار(النجوم الزهر) محـاولاً تسلية نفسه بإخراج الصراع من كونه بينه وبين ذاته؛ليتحول إلى حزن الكون بنجومه وأيامه على أبنائه.

أما حين يكون الظرف النفسي أكبر من أن يُحتمل،فنجده يقص الحكاية تحت قيد الأسر كراوٍ بضمير الغائب، والاعتماد على ضمير الغائب يعـني أن القـصة تنصب على الاهتمام بـرواية الأحداث أكثر من الحديث عن الشخصية،يقول فيها[3]:

بـكى المبارك في إثر ابن عباد بـــكى على إثر غزلان و آساد

بكـــت ثرّياه لا غمَّت كواكبُها بمثـــل نوءِ الثُريا الرائحُ الغادي

بكى الوحيد بكى الزاهي وقبته والنـــــهر والتاج كل ذله بادي

ماء الســـماء على أبنـائه دِرر يا لـجة البحر دومي ذات إزباد

إن الطابع السير ذاتي يحدد القصيدة بحدود الزمان،والمكان،حيث العين ساقطة في هذه القصة على تكثيف المكان،فتبرز الأماكن التي عاش فيها،وتحدث عنها بوصفها البطل للقصة والفاعل فيها،حين يقول(المبارك،الوحيد،الزاهي،النهر،التاج).؛لتحتضن ملامح السيرة وتبرهن

---

[1] كحلوش،فتحية:بلاغة المكان قراءة في مكانية النص الشعري،ط١،بيروت:الانتشار العربي،٢٠٠٨م ص٢٣.

[2] ديوان المعتمد،ص٦٩.

[3] المصدر السابق،ص٩٥.

على ماضيها.

إن ارتكازه على المكان الذي كان محبباً له يوماً ما عائد؛لأن المكان عند المعتمد يتسم بالمحدودية والتمركز بمنطلقات وأحياز،ومساحات مكانية معينة لها صلة وثيقة بالبعد السيرذاتي الاجتماعي ،لا يتمثل في غير القصور المرمزة للثراء و الترف التي يشعر فيها بالحماية والانتماء والحب،و لخصوصية المكان صنع منه ابن عباد معادلاً موضوعياً؛لحضوره الطاغي وحريته قديماً ليخلع عليه ذاته الأخرى في الزمن الحاضر،ويروي مشاعره في شرنقة من السهل على القارئ أن يمزق خيوطها،ولعل صدق التجربة وعفويتها،وانتماءها العميق لحساسية المكان،ورؤيته وفضائه هي من أبرز العناصر العاملة على نجاح النزعة القصصية عند المعتمد.

بينما تتوارى العقدة بخفر،عندما يقول(كل ذلّه بادي)،فهذا هو الحدث الحيوي الذي آثار القصور للبكاء ،فالحدث هنا هو لب الحكاية القصصية، لكنه لم يحاول إبرازه؛لأنه ليس هو ما يجري على قلبه وعقله،بل المكان هو الذي يأخذ كل حيز لاهتمام من الشاعر،فهي ليست مجرد أمكنة،ولكنها ترمز لحياة عامرة،ثم مايلبث الحدث أن يتطور حين يقول: (ماء السماء على أبنائه درر)حتى ينتهي بنهاية مالحة تضطرب فيها أجواء المكان هي: (يالجة البحر دومي ذات إزباد).

إن روعة الحدث في هذه القصيدة تتجلى في أنه لم يشعرنا في أنه يتحدث من وجهة نظر شخصية أي أنه لم يجعل الامر كترجمة ذاتية،بل استخدم السرد ببراعة عالية رغم أنه شخصن الأبيات في بدايتها حين قال: (ابن عباد)،وفي نهايتها حين يقول: (ماء السماء).

وإن كنا في الأبيات السابقة لم نجده ينسب البكاء لنفسه،بل حمله القصور،فإنه هنا يتحدث عن فجيعته بضمير المتكلم في الزمن الحاضر[1]:

يقولون صبرا لا سبيل إلى الصبر سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري

هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه يزيد فهل عند الكواكب من خبر

---

[1] ديوان المعتمد،ص١٠٥.

نــرى زهرهــا في مـأتم كـلَّ ليـلة تُخــمّش لـهفاً وسطَـهُ صُفحةُ البدر

ينحن على نجمين أُثكلتُ ذا وذا وأصبر ما للقلب في الصبر من عذر

مدى الدهر فليبك الغــمامُ مصابَه بصـنويه يعذر في البكاء مدى الدهر

بعين سحاب واكف قـــطر دمعها على كـــل قبر حـــلّ فيه أخو القطر

إن استهلال الشاعر لقصيدته بالحوار دلالة على الرغبة الضاغطة في إنشاءحدث قصصي ،أو جملة من الأحداث،فللحوار دور مركزي في تمييز القصيدة السيرذاتية؛لأن الحوار قرينة على سيرية الأحداث،كما هي الرسائل،وربما أجبره على الحوارفي هذه القصيدة تعدد الشخصيات الذين تمثلوا في الآخرين ،،حين يقول:(يقــولون)، ثم في نفسه(سأبكي،وأبكي) وأبنـائــه(الفتح،يزيد،الغمام القطر).

إن ازدحام الشخصيات في بيتين ،جعلت الحوار شيقاً مُكسباً القصيدة شيئا من الإثارة والتوهج ؛ليعبر عن الشخصيات المكثفة،والشاعر لا يريد من الحوار سوى أنه وسيلة لنقل الأحداث وعرض مشاعره من خلالها.

ثم يرجع إلى المتلقي واضعاً له صورة مكانية حزينة في قوله(نرى زهرها في مأتم)،ولأن هذا المكان لن يتفق إلا مع زمان يناسبه،ويتوافق مع حزنه كان(ليلة تخمش لهفاً)،فهو أتم الصورة الناقصة عن المكان بزمان لا يتوافر إلا فيه.

وبعد أن رسم لنا صورة واضحة تكشفت منها الشخصيات من حواره،وخلفية عن المكان والزمان،ابتدأ صراعه المحبوك مع الحدث في قوله: (ينحن على نجمين أثقلت ذا وذا وأصبر وما للقلب في الصبر من عذر)،واصلاً للعقدة (على كل قبر حل فيه أخو القطر)تاركاً إياها دون حل،وكأنما النهاية مفتوحة لخيال القارئ،وهذه الطريقة تدعوم سيرية القصيدة بإثارة عنصر التشويق.

ويتطور الحوار الذي يتوسل به في عرضه للقصة"فيعد بذلك وسيلة للنفاذ إلى جوهر الأشياء فيوحي بالحقيقة الكامنة وراء المظاهر"[1].

فحواره في القصيدة الأغماتية(غربان أغمات) ،يكشف فيها الحوار عن تحول المكان المعادي ومكوناته إلى مكان مألوف، فلا يظهر صراعه مع المكان الذي أُسر فيه،بل استسلم له حين قدمت بعض نسائه عليه عندما قال[2]:

غـــــربان أغمات لاتعدمن طيبة ... من اللـــــيالي و أفناناً من الشجر

تظـــــــل زغب فراخ تستكن بها ... من الــحرور وتكفيها أذى المطر

كـما نَعبْتُنن لي بالفأل يعجبني ... مخـــــبرات به عن أطيب الخبر

أن النجوم التي غابت قد اقتربت ... منا مـــــطالعها تسري إلى القمر

علي إن صدق الرحمن مازعمت ... ألا يروعن من قوســـي ولا وتري

والله والله لا نــفـّرت واقــعـها ... ولا تـــــــــطيرت للغربان بالعور

ويا عـــــقاربها لاتعـــدمي أبداً ... شـــجا وعقرا ولا نوعا من الضرر

كما مـلأتن قلبي مذ حللت بها ... مخــافة أسلمت عيني إلى السهر

ماذا رمتـــــك به الأيام يا كبدي ... من نبـــــلهن ولا رام سوى القدر

أسر وعـــــــــسر ولا يسر أؤمله ... استـــــــغفر الله كم لله من نظر

---

[1] فزيزرا:الكاتب الحديث وعالمه-ترجمة:أحمد سلامة السيد-القاهرة:الهيئة المصرية العامة،١٩٩٤،ص٢٨٣.

[2] ديوان المعتمد،ص١٠٠.

فمع بقاء المكان محتفظاً في القصيدة بالعداء المرتبط بالحالة النفسيةالسيئة للأديب"فهو مكان في ضيق مستمر،و في منأى عن دواعي الفرح" [1]،فإن شخصياته(غربان ،القطا العقارب)تحولت إلى شخصيات جالبة للفأل السعيد،واشتبك ضمير المخاطب الذي يحاور به هذه الشخصيات مع ضمير الغائب ،الذي يوحي بشعور الشوق لعائلته؛لتضج بالانفعالات عندما أخبرته بقدوم أحبابه،فلم يعد يظهر تمرده على المكان أو معاداته ؛ليقينه بعدم خروجه منه،فحوله إلى صديق للعقارب والغربان والطيور، التي تسكن معه في هذا السجن رغم تلك اللحظات الجازعة الموحشة والذليلة التي تسببت فيها قبل ذلك من الشج والقرص للشاعر وتتمظهر ألفة المكان من القسم الذي قطعه على نفسه بألاّ يطيرها،و ألا ينفرهامن أعشاشها مثلما كان يصنع سابقاً ،وهذا بدوره يرمز بإلماحة إلى أحداث حصلت وراء القضبان من صراع للمعتمد مع مكونات سجنه حتى يئس من الخروج، واستسلم للمكان ومحتوياته ،بل وتصالح معه ويدهشنا النص بالتسليم للقدر، وكثرة الاستغفار الذي لم يعهد بوضوح في شعره؛ لكثرة الصراع والتجارب،فالمكان يمد النزعة القصصية بالصدق الفني،والانفعال الحقيقي؛ليدل على أن كل تأليف أدبي كما يقول النقاد،ناتج عن تجربة حقيقية.

ويتصاعد الحدث، فنشاهد القصة التاريخية في عمل إبداعي متكامل،تجتمع فيها عناصر القصة بصورة آسرة في قصيدته[2]:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس لايملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

---

[1] الطربولي،محمد عويد:المكان في الشعر الأندلسي في عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي،ص١٠١.

[2] ديوان المعتمد،ص١٠٠.

لا خــد إلا ويشكو الجدب ظاهره و ليــس إلا مع الأنفاس ممطورا

أفطرت في العيد لا عادت إساءته فـــــكان فطرك للأكباد تفطيرا

قد كان دهـــــرك إن تأمره مـمتثلا فـــــردك الدهر منـــهياً ومأمورا

من بـــات بعدك في ملك يسر به فإنـــــما بات بالأحـــلام مغرورا

تقوم القصة على ضمير المخاطب (أنت)"إما من أجل مواساته،أو من أجل التخلي عنه"[1] ويتخذ من ضمير المخاطب سارداً ووسيلة،أو قناعاً للحديث عن ذاته عــبر تقانة الاستــرجــاع و مقابلته الحاضر بالماضي في ترتيب زمني للأحداث حسب حدوثها مسنداً الأحداث للدهر بوصفه شكلاً من أشكال التعتيم الإعلامي للأسباب الحقيقة عندإشارته إلى طول الزمن،وكناية عن العبء الذي تركه الزمن عليه ، الذي يـعينه باسم المدينة (أغمات) ترهيـناً للحكايـة في ارتباطها بالحال والحدث ،ونفياً لعلاقة أي مكان آخر بالحدث مفجراً الحدث التاريخي الماضي والحاضر من خلال تسمية المكان،أو تحديد الحدث (يوم الطين) وحضور شخصيات بناته بأحوالهن في الماضي والحاضر.

فالشاعر نقلنا لمشهد تاريخي حافل بالحركة والصراع والزمان و المكان داخل نفسية البطل الذي يتحدث عنه بوصفه راويا وساردا،وسارد لشخصيةالبطل النامية،حيث ظهرفي هذه القصيدة الأب المتحسر على حياته وأسرته،فالقصيدة في عمومها تعرض لقطة تاريخية،فقد اختار الشاعر حدثاً يحمل في طياته أكثر من مغزى،ويؤرخ لفترة زمنية مظلمة،سبقتها فترة مضيئة وسعيدة وقد عمد فيه الشاعر لخلق جو قصصي مشحون بالانفعالات الذاتية،والمواجهات الخارجية سواء له أو لبناته.

إن اعتماده على لغة الوصف في تطوير احداثه،وتوضيحها دلالة على اهتمامه في وضع نفسه موضع الراوي،ربما لأن المكان يعتبر أقل شأناً من أن يجعل نفسه واقعاً فيه،الأمر الذي ربما جعله

---

[1] عبدالغني،محموده:فن الذات-دراسة في السيرة الذاتية لابن خلدون،ص٦٧.

يستعين بالوصف؛لأنه أكثر لزوماً للنص من السرد،فهو يسهم في تسليط الضوء على الموقف والحدث بعيداً عن ذات الشخص.

ومن الملفت في الأمر أن القصيدة كلها عُقد،ففي كل بيت نجدعقدة جديدة،مثل(فساءك العيد،ترى بناتك في الأطمار جائعة،يغزلن للناس،لايمكلن قطميرا،برزن نحوك،أفطرت في العيد قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً)،ويتضح من ذلك أن استثنائية الحدث والمكان نسبة لحياتهم المترفة جعلت الأمر مليئاً بالعقد ،التي لا حل لها الأمر الذي يبرز مدى التأثر الذي أصاب المعتمد عند رؤيته بناته وهن في تلك الحال.

إن وقوف صاحب القضية خارج الحدث راوياً،ومؤرخاً لمشهد تاريخي حزين،واصفا تفاصيله المؤلمة ،هو ما أبرز الملامح الجسدية والنفسية والمكانية والزمانية،حاضراً وغائباً،قديماً وجديداً وهو ما جعل هذه القصيدة شاهداً لسيرته،وبناته في فترة ما.

إن التشكيل القصصي الذي قدم به المعتمد ملامح من سيرته اتسم بتواجد دائم للعناصر القصصية،ومكوناته من الضمائر،و أساليب السرد،فطغى هذا الحضور على النقص الحاصل في بعضها والذي قد تفرضه طبيعة الشعر وتحاصره،أو طبيعة الحدث،أو تركيز الاهتمام من قبل الشاعر على عنصر بعينه خاصة أن التشكيل القصصي مبني على المشاهد المتتابعة لمسيرة حياته التي تجمع بين السرد والوصف والحوار والبناء على الثنائيات التقابلية بلغة خالية من التكلف قريبة من اللهجة المحكية في عفويتها وتلقائيتها،وبرع في توظيف عناصر القصص فجاءت سيرة شعرية شديدة التميز،والخصوصية ذات جذب قوي للمتلقي.

ولعل فيما مر بنا من شواهد شعرية مايؤكد هذا التوجه الفني في شعره الذي ترجم به لجوانب من سيرته.

المبحث الثاني | مظاهر النزعة الدرامية في السيرة الفكرية للإلبيري:

رافق الحس الدرامي الشعر العربي القديم طوال رحلته،وإذا كان"أصل الدراما قائمة على تبادل الأفكار في الحوار والتمثيل ،وتطور الحدث وتشير إلى حالة،أوسلسة أحداث تنطوي على تضارب عنيف أوممتع بين قوى مختلفة"[١]،فإن الرؤية الدرامية هي المشغل لنصوص السيرة الفكرية مناقشتها قضايا الوجود الإنساني ومعالجة ما يتعلق منها بالخير والشر، والحق و الباطل والصراع من أجـــل البقاء،والفناء بأساليب متنوعة وهذه القضايا تجلي الملامح الدرامية لتحقق أهم عناصرها المهمة: الصراع والحوار الدرامي[٢]،فالصراع هو عمود العمل الدرامي"ويكون بين إرادتين ولذلك هو ذو علاقة بالشخصية المركبة المعقدة فإذا كانت الشخصية مسلوبة الإرادة فهي لا تصلح للصراع الدرامي لأنه ينشأ من موقف ناتج عن إرداة ويكون بين إرادتين متقابلتين أو قوتين كالخير والشر وتحاول إحدى هاتين قهر القوة الأخرى"[٣] .وهذه الخاصية تظهر بشكل ملفت في سيرة الإلبيري ما الحوار الدرامي"هو وسيلة لتقديم حدث درامي...نوع من الفعل يخلق التوتر،وبعمق الحركة ويغوص وراءالحقائق النفسية ويدل على طبائع الشخوص ويسهم في تطوير الشخصية،و يوضح المواقف،ويبين الحوارطبيعة الصراع،والقوى المتصارعة"[٤].

وجوهر قصة الصراع عند الإلبيري ،قبل أن يكون صراعاً عملياً يرتبط بالحدث،أو البطل ،فهو صراع فكري وقيمي وسلوكي للسائد الجمعي في عصره؛ لذلك غالباً ما يقوم الصراع عنده على التناقض،والتقابل،والتضاد،وهذا هو أساس الدراما[٥] .وتتجلى حيوية هذه الجدلية الدرامية في

---

[١] البعلبكي،منير:المورد-قاموس إنجليزي عربي-د.ط،بيروت:دار العلم للملايين،١٩٩٢م،ص٢٩٢.

[٢] انظر:الخياط،جلال:الأصول الدرامية في الشعر العربي-د.ط،بغداد:منشورات وزراة الثقافة و الإعلام،١٩٨٢م،ص١١.

[٣] موسى،خليل:بنية القصيدة العربية المعاصرة،ص٢٧٨.

[٤] المصدر السابق،ص٢٨١.

[٥] انظر: إسماعيل،عز الدين:الشعر العربي المعاصر-قضاياه وظواهره الفنية و المعنوية،ص٢٧٩.

سيرة الإلبيري في ثلاث علاقات تنبثق عن الموضوعات،والقضايا التي ارتكزت عليها سيرته،وشكلت الأطر الأساسية لها وهي:علاقة الذات من خلال الآخر،وموقف الذات تجاه مانشعر به من تناقض داخلها،وأخيراً الذات في مقابل الآخر؛ لذا ليس من الضروري أن تبدأ القصيدة الدرامية بلحظة حرجة،أو حضور العناصر القصصية كلها وإنما يكفي أن تكون القصة موزعة،و تتداخل صراعاتها وتتنافس حتى ينتصر أحدهما في آخر المطاف.

لذلك ستكتفي الدراسة بمثال على كل موضوع ؛لئلا يتكرر الحديث نفسه،فمثلاً :سيجسّد ملامح الذات من خلال الآخر، حديثه عن الصراع بين العلم والجهل في مقطع من قصيدته التائية، وحديثه مع طالبه الذي يحاول أن يؤطره بقصة يستبق بها الزمن من خلال أبعادها المستقبلية،فيقول[1] :

أبا بكر دعوتك لو أجبتا إلى مافيه حظك إن عقلتا

إلى علم تكون به إماماً مطاعاً إن نهيت و إن أمرتا

وتجلو ما بعينيك من عشاها وتهديك السبيل إذا ضللتا

وتحمل منه في ناديك تاجاً ويكسوك الجمال إذا اغتربتا

وكنزا لا تخاف عليه لصّا خفيف الحمل يوجدحيث كنتا

يزيد بكثرة الإنفاق منه وينقص أنْ به كفاً شددتا

إن تقاليد الدرامية ومطالبها ،تحفز على اصطناع مخاطب ولو أن يجرد الشاعر من نفسه مخاطباً آخر؛ليبث الحيوية والحركة في خطابه،ولكن الخبر المصاحب للقصةة يأبى إلا أن يذكر مخاطباً حقيقياً هو طالبه أبو بكر ،فحدوث التناقض بين مفردات الواقع المعيش،وبين الذات وطموحاتها للوصول لعالم أفضل، يجعل الهروب للذات بوصفه ملاذاً شيئاً أساسياً في تكوين رؤية الشاعر

[1] ديوان الإلبيري،ص٢٥.

لتعويض الذات من خلال الشعر،فيصب أجزاء من هذا الصراع على قصيدته،وإذا بنا أمام حالة من حالات الصراع تعرف بحالة الصراع الأفقي، والذي "يتمثل في صراع البطل مع القوى الاجتماعية بل الإنسانية أيضاً مما يجعله حاضراً على مرِّ الأزمان واختلاف المكان"[١].

إن خطابه لأبي بكر خطاب فكري ديني علمي ،يُظهر منه ذاته العلمية،ووجهة نظره في السائد من خلال نصائحه،ورسم صورة لطالبه فيما لو أخذ بنصائحه،حين يقول (تكون به إماماً مُطاعاً وتهديك السبيل،تحمل تاجاً،يكسوك الجمال،ينالك نفعه،يبقى ذخره)،فلم يكن الخطاب خاصاً لكنها طريقة غير مباشرة ؛لعرض ما يريده من الآخرين من خلال الحوار مع طالبه الذي يعتمد على ضمير المخاطب،بوصفه إحدى مكونات المخاطب؛"لأنها ترتبط نحوياً بصيغة المستقبل معتمدة على ضمير المخاطب"[٢]. مثبتاً مصداقية حديثه بذكره النتائج المترتبة على رغباته التي تكشف أنه يسعى لتحقيق هدف يبتغيه،ويتجنب مصيراً يكرهه،ناتج عن صراعاته وتجاربه في الحياة،ولذلك قيل :"إن الحياة الإنسان يمكن أن تكتب على أفضل طريقة من خلاله هو"[٣].

فنرى في هذه الأبيات أن لا أهمية لديه للمكان ولا الزمان ،فكل مايعنيه هو الخير،والصلاح في كل مكان وزمان،فلم يورد دلالة مكانية سوى (حيث كنتا) ،وهي إشارة صريحة إلى انعدام المكان الخاص في نصه،واتجاه نحو أي مكان يجد فيه ذاته التقية.

وتبدأ في القصيدة مرحلة من مراحل التطور الدرامي عبر عناصر توسّع درامية الجانب الفكري من سيرته ، الكامن في بطانات هذه العناصر المتشكلة استناداً لنمو الحدث،وتطور الشخصية بمساعدة الزمان والمكان،وفي الذات والآخر في المقطع الآتي [٤]:

---

[١] جديتاوي،هيثم محمد:البناء الدرامي في القصيدة العباسية،ص١٠٨.

[٢] لفتة،ضياء غني:البينية السردية في شعر الصعاليك-ط١،عمان:دار حامد،٢٠٠٩م،ص٦٠.

[٣] إدلبي،بهجة مصري:السيرة الذاتية في الخطاب الروائي العربي-ط١،د.ن:مكتبة الوراق،٢٠١١،ص٦١.

[٤] ديوان الإلبيري،ص٣١.

وقل لي يانصيح لا أنـــت أولى بنصحك لو بعقلـك قد نظرتـا

تقطعـني على التفريـط لومـا وبالتفريـــط دهرك قد قطعتـا

وفي صغري تخوفني المنايـــا وما تجري ببالـــك حين شختا

وكنت مع الصبا أهدى سبيـــلا فما لك بعد شيبك قد نكسـتا

ولم أشرب حـميـّا أم دفـــر و أنت شربتها حتـــى سكرتـا

ولم أحلل بواد فيـــه ظـــــلم وأنت حللـت فيـــه وانهملتـــا

ولم أنشأ بعصر فيه نفـــــــع وأنت نشأت فيه وما انتفعـتـا

وقد صاحبت أعلاماً كـــــبارا ولم أرك اقتديت بمن صحـبتا

وناداك الكتاب فلم تجـــــبه ونهنك[1] المشيب فما انتبهـتا

ليقبح بالفتى فعل التصـــــابي وأقبح منه شيخ قد تـــفتـــى

يظهر احتدام الصراع الدرامي بين الحق،والباطل بالتناظر في القصيدة،ورأينا أن التناظر من أهم مكونات البنية الدرامية بين شخصيتين .كما يظهر بين أشطار الأبيات التي انقسمت إلى قصتين الأولى :يتقمص فيها الشاعر دور الراوي البطل ويقابله شخصية(نصيح) ،وهي قناع لشخصية يتهكم بها الشاعر؛لما تحفل به من الأخطـاء والتجاوزات،وتـعكس مـوقف الإلبـيري مـن هـــذه الصفات والخصال ، الـــتي يمتاز بها الـكثير من النـاس في عـصره ،وهي الانتكاسه والافتتـان بالدنيا وهم في زمن المشيب ،ويكشف الترتيب الزمني بواسطة المشهد الحـواري موضوع التـركيـز الدرامي ،الذي يعتمد على هذا الانضباط الزمني منذ الطفولة وحتى المشيب،وينقل انفعال الشاعر بالواقع ؛ليجعل انثيال الحوار بين ذاته،والذات الأخرى قـوياً، يتغلب فيه الحـس الـدرامي ويجعل

[1] نهنهه:زجره ونهاه.

القارئ في وسط الحدث من خلال كثرة استخدامه الضمائر (أنت ،كنت ،فمالك ،هاأنا ،أنت شربتها،أنت ،حللت)،و"ضمير المخاطب -غالباً-يتسم بالوظيفة الإفهامية"[1].

وإذا كان المكان عاماً لديه ، فإن الزمان عنده يساوي(الدهر) في قوله(وبالتفريط دهرك قد قطعتا) ،فهو يتحدث عن انقلاب الزمان،وتحوله من الزمان الصعب إلى الزمان السهل في عهد طالبه أبي بكر.ومحاولته لتغيير الأحوال من السلب للإيجاب،ومن الباطل للحق،مثل(وناداك الكتاب ،فلم تجبه،ولم أشرب حميماً ،وأنت شربتها،ولم أنشأ بعصر فيه نفع و أنت نشأت فيه).

ونراه يؤكد عفة نفسه بنفي الفعل حين يقول: (لم أشرب، لم أحلل، لم أخض، لم أنشأ) ،فهو يحاول مقاومة الدهر مهما اشتد عليه إساءته،فهذه المفارقات التي يزخم بها النص،إنما هي امتداد لموقفه من الزمان،والمجتمع وصراعه معهما،وتأكيدا لملمح من أهم ملامح سيرته الفكرية.، ثم يأتي على نهاية نصه،واختتام نصائحه،يقول [2]:

جمعتُ لك النصائح فامتثلهـا حيـاتك فهي أفضل ما امتثلتا

وطولتُ العتاب وزدتُ فيـه لأنـك في البطالة قد أطلتـا

فلا تأخذ بتقصيـري وسهوي وخـذ بوصيتي لك إن رشدتـا

وتظهر لنا في هذه الخاتمة شخصية المعلم البطل،وطلابه بوصفهاالشخصيات المساعدة في طرح القضية ،فقد تجلت الخاتمة واستبانت أنه أستاذ ينصح بقوله: (جمعت لك النصائح،وطولت العتاب،خذ بوصيتي) ،فيما يدلل على انتصار قوة العلم وقهرها للشر والجهل ،فهو يستشرف لطالبه مستقبلاً ينتصر لنفسه فيه،بوصفه مظهراً من مظاهر الحق إن هو أخذ بنصائحه،وعمل به مسيراً صراعه الأفقي بالطريقة التي يريد من خلال طرح نتائجه التي تشير إلى منهج لحياة أكثر رشداً نابعة من ثقافته الفكرية،وسيرته الفكرية ذات المنحى الديني.

---

[1] ياكبسون،رومان:قضايا شعرية-د.ط،ترجمة:محمد الولي و مبارك حنون،د.م:دار توبقال،١٩٨٨م،ص٣٢.

[2] ديوان الإلبيري،ص٣٥.

وكثيراً ما ينطلق الإلبيري في بداية قصائده من الحوار،يقول جورج ماي:"الهدف من الحوار أن يجعل الحكاية أكثر حيوية،بل أكثر درامية"[1].وحين يأتي الإلبيري راوياً يكشف عن تحوله من الإقبال على الدنيا إلى الإدبار عنها؛ليقول[2]:

قالــوا ألا تستـــــجد بيتا تعجب من حســـنه البيوت

فقــلت ماذلكــم صــواب حفـــش كثيــر لمن يموت

إن ارتباط الأبيات في هذا النص القصصي ،هو ارتباط سببي تحت تأثير مرجعي ديني،تحمل أفكراً تعالج نفسه وفكره وقناعاته ، فهو لم يجعلها أبياتاً كثيفة عشوائية،بل جعل هذا المقطع الدرامي متسلسلاً تسلسلاً منطقياً موضحاً بجلاء زهده وورعه بصورة الحكاية ،فإتيانه على الحوار في بداية قصيدته،هو رغبة جادة في إحداث صراع وتكوين دراما مناسبة بين معنى البقاء،والفناء الحقيقين من خلاله ، في قوله: (قالوا ألا تستجد بيتاً)، فانبعثت من الحوار العقدة، المتمثلة في الإجابة على السائلين،وحولها سيدور الحدث الذي كسر أفق التوقعات،ثم أورد إثباتاته؛ومسباباته لعدم امتلاكه منزل حسن [3]:

لولا شـــــــتاء ولفح قيظ وخـــوف لص وحفظ قوت

ونســـــــــوة يبتغين ستراً بنيـــــــت بنيان عنكبوت

و أي معـــنى لحسن مغنى ليـــــــس لأربـــابه ثبوت

ما أوعـــظ القبر لو قبلنا موعـــظة الناطق الصموت

يوحـي إلي ممتطي الحشايا مالــك عن مضجعي عميت

---

[1] ماي،جورج:فن السيرةً،١٨٥.

[2] ديوان الإلبيري،ص٧٠.

[3] المصدر السابق،ص٧٠.

نسيـــت يومي وطول نومي وســـوف تُنسى كما نسيت

وشـــــدتَ ياهادمي قصوراً نعمـــت فيهن كيف شيت

معتنـــــــــقاً للحسان فيها مســـتنشقاً مسكها الفتيت

تسحب ذيل الصبا و تلهو بآنـــــسات يـــقلن هيت

إن مما يدهش هو قدرة الإلبيري على توحيد مظاهر الوجـود ، التي يلـخصها في أن الكـــون والدنيا للفناء بما فيها،فلم ينظر للزمان بعين الرفق والأمان،بل نظر إليه نظرة الخائف الحذر،ولذلك وردت القصة في شعره منتهجاً فيها منهجا تربوياً،انتقل إليه بحيلة ذكية من الإطار الســير ذاتي ،و وضع خطوطه العامة،واستعمل فيه القص بوصفها وسيلة مرغوبة وناجعة لتنمية الفكر.

إن إحساسه بالوجود ازداد عمقاً،واتساعاً مع وعيه وثقافته الدينية،ويقينه بالفناء حين يقول (ليس لأربابه ثبوت).

وكون الإلبيري راوياً، لم يجعله يتناسى أنه مفكر وفقيه،فأعلن رأيه تجاه قضية استحداث منزل جديد،مستلهماً معانيه الدينية من خلال سوق الحوار الذي وسع من سقف الحرية الفكرية في الأبيات.

وقد كثّف من عنصري الزمان والمكان،فالزمان الذي تعددت أنواعه (الشتاء،القيظ،اليوم زمن اللهو) ،والمكان الذي حشد فيه أشكاله (البيت،بيت العنكبوت،القبر،القصور) ،وتعددت الشخصيات(النسوة،اللصوص،ممتطى الحشايا،معتنق الحسان،الآنسات)،وهذا الحشد يستدعي الانتقال بين الضمائر من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم ،فيبطئ زمن الصراع ويزيد الحركة بين الأحداث التي تقوم بها الشخصيات،فتتوهم طول الأمد والاغترار بدار الفناء؛لذلك يسوقها الإلبيري في هذه القصة عاملي هدم،فصور لنا أنه بعد مرور الزمن سوف تهدم كل هذه الأماكن

وتفنى معها هذه الشخصيات ولن تكون شيئاً.

ثم ينهي قصيدته بمدخل مكاني،وإدانة للزمان فهو رمز الضياع كما فعل في البداية،يقول[1] :

فاذكر مـــهادي إلى التنادي و امـــــهد له قبل أن يفوت

فعن قريـــــب تكون طعمي سخـطت يا صاح أم رضيت

إن استشرافه المستقبل،عاد به لبداية وجوده في (المهاد)،مؤكدا حقيقة الموت،وأنه سيكون للدود طعما في القبر،عائداً نحو الأسلوب الوعظي الذي يهدف له .

وتتحق الدراما من خلال توافر عواملها الملموسة المتحققة في النصوص كالحوار الذاتي،أو الداخلي وخير ما يمثل الحوار الداخلي عند الشاعر قصيدته ،التي ذكر فيها أسباب عودته إلى مدينته (العقاب)وفرحته بتلك العودة،بوصفها ناتجة عن حالة من الضجر يعرّض فيها بضياع الصداقة والوفاء وظهور الغدر والخيانة وسيادتها عند الناس،فظهر صوت الشاعر يعتمل في نفسه عبر حوار يبثه في قصيدته،فيقول [2] :

ألا حيّ الـــــعقاب وقاطنيه وقـــــل أهـــلا به وبـزائريـــه

حللتُ به فـــنفّس ما بنفسي وآنسني فما استوحـشت فيه

وكم ذيب نـــــجاوره ولكن رأيت الذئب أســـلم من فقيه

ولم أجـــــزع لفقد أخ لأني رأيت المرء يؤتـــى من أخيه

وأيأســـــني مـن الأيـام أني رأيت الوجه يزهـد في الوَجِيْه

فآثرت البـــعاد على التداني لأني لم أجد من أصطفيـــــه

---

[1] ديوان الإلبيري،ص٧١.

[2] المصدر السابق،ص٨٣.

تتشكل المشاهد الدرامية للحدث من الوحدة المكانية المركزية المشار إليه منذ التشكيل الاستهلالي للقصة،حيث تدلف (الأنا) إلى المكان مباشرة بقوله: (ألاحي العقاب) اعترافاً بالانتماء للمشهد المكاني الذي يمنحه بعداً جديداً مقابل انتفاء الانتماء للآخرين ،فهولايكاديثق بأحد ولم يعد يحزن على موت الإخوان،فهو محبط ؛لضياع قيم الصلاح،ولذا فالقصة بلاحدث واضح،وهو ما يعرف بالصراع الإخباري،وهو" صراع زائف يتعلق بالحكاية أكثر مما يتعلق بالحدث،ويكون إطاراً خارجياً يحرك الشاعر،ولكنه لا يحرك العمل الفني"[1]،من خلال بروز الحوار منذ قوله :(ألاحي ..وقل...) ،ونستطيع إدراك المأسآة التي عاشها الشاعر من خلال المقابلات، التي أوردها في(آنسني ،استوحشت) (الذئب ، أسلم من فقيه) (البعاد ،التداني) ،فنجده في حوار داخلي،يستبطن فيه ذاته بغير المتكلم الطاغي على الحكاية ملؤه الاستنكار الذي تهيمن عليه الحكمة،مرتكزاً على سلوكيات وطبائع الشخصيات ،التي تمثل بؤرة الحدث الدرامي وهي التي تحرك الصراع؛بسبب حركة تفكيره الدائمة ،فالتفكير الدرامي"لا يسير في اتجاه واحد ،إنما يأخذ في الاعتبار دائماً ان كل فكرة تقابلها فكرة ، و أن كل ظاهرة يستخفي وراءها باطن وأن التناقضات وإن كانت سلبية في ذاتها،فإن تبادل الحركة بينهما يخلق الشيء الموجب،إنها تعني الحركة من موقف إلى موقف مقابل ومن عاطفة ،أو شعور إلى عاطفة وشعور متقابلين،ومن فكرة إلى وجه آخر للفكرة" [2] .

وفي حالة نادرة ،نجد الإلبيري يحدد مكاناً خاصاً(العقاب) وهو مكان الإقامة الاجتماعية ولربما كان دلالة على شعوره بالضيق،وعمم الزمان بقوله:(الأيام)دلالة أخرى على عدم اهتمامه بالزمان الخاص،فكل مايعنيه هو الزمان العام؛لأنه يستخدم كثيراًفي تعبيره عنه(الأيام ،الدهر)يقيناً منه ،أن الزمان "سرّ من أكبر أسرار الوجود،وحوله تتمحور هموم العيش ومعاناة الإنسان"[3].

ويضعنا الإلبيري في وسط مسرح صنهاجة الغرناطية ببراعة بحوار انفجاري ،يملؤه الاستنكار

---

[1] موسى ،خليل:بنية القصيدة العربية المعاصرة ص٢٧٩.

[2] االزرزموني،إبراهيم أمين:تأويل الخطاب الشعري،ص٢٣٥.

[3] الزرزموني،إبراهيم أمين:تأويل الخطاب الشعري،ص٥٥.

وتسيطر عليه السخرية المريرة؛لمهاجمة الوضع الراهن في الأخلاق،والسياسية،والسلوك،والتفكير حين يقول[1] :

ألاقل لصـــــنهاجة أجمعين بدور النـــــدي و أسد العرين

لقد زل سيـــــدكم زلـــــة تقر بهـــا أعـــين الشامتين

تخيّر كـــــــاتبه كـــــافراً ولو شاء كان من المسـلـمين

فعز اليهـــود به وانتـــخوا وتـــاهو وكانـــوا من الأرذلين

ونالوا مناهم وجاوزا المـدى فحان الهـــلاك ومـا يشعرون

يمكن القول بأن الإلبيري ،اتخذ موقف الراوي،واتخذ من الزمان والمكان نقطة انطلاقه،ونقطة عودة بقياسات ذاتية تحكي تجربة،وتعبر عن الفلسفة الفكرية التي تدعم تشكل الشخصية المفكرة في عصره،منذ قوله: (ألاقل لصنهاجة)،هي رغبة في تصعيد الحدث من قبل الإلبيري؛لـــشـــدة انفعاله به،فهو يريدأن يجلي عتمة ما يحدث في صنهاجة،و أن الحديث عنها ليس لمجرد حدث عابر،وإنماياندرج تحته صراع ديني وعرقي وأخلاقي اجتماعي.

إن اعتماده على ضمير الغائب عند حديثه عن اليهود؛ليعلو صوته عن تلك الشخصيات الغائبة التي مارست تأثيراً كبيراً في شخصية البطل(سيدكم)،وخلقت أحداثاً،وفجرت الصراع وكان لها حضور فاعلا في البناء القصصي الدرامي،في قوله(كاتبه كافر،عز اليهود،انتخوا ،كانوا من الأرذلين،ونالوا مناهم،وجازوا المدى).

وحين ننظر للشخصيات التي أثثت هذا النص،منذ بدايته هي(سيدكم) وهو من عيّن الوزير اليهودي،بالإضافة (لليهود)،و المخاطبين؛ليجعل المشهد أكثر وضوحاً بصورة الإنكار،ثم يعاود

---

[1] ديوان الإلبيري،ص١٠٨.

خطابه لباديس،قا ئلا [1]:

أباديس أنــت امرؤ حـــاذق تصيب بظـــنك نـــفس اليقين

فكيف اختفت عنك أعيانهم وفي الأرض تضرب منها القرون

إن "الثيمة "التي وضعها الإلبيري لباديس ،إنما هي تتمة للمشهد ؛ليكون أكثر قوة حين يقول عنه:(أنت امرؤ حاذق،تصيب بظنك نفس اليقين)،مـوضحاً مـــن خلاله –أيضاً السبب الذي جعل الإلبيري ،يخص أمير غرناطة بحواره ،كونه يعلم ذكاءه، وسياسته السليمة، مبدياً في الوقت نفسه اندهاشه من فعله.

ثم يتخذ زاوية الراوي الشمولي ، المطلع على الأحداث التي مارستها الشخصيات الغائبة في زمن ،يسبق زمن السرد مما يعطي المؤلف فرصة للحضور،الذي أثبته في أول بيت عندما تحدث بضمير المتكلم بداية؛ليسرد قلقها من الوضع القائم،والتشوق للمستقبل في محاولة ؛لتلمس اليقين فيقول [2]:

وإني احتلـــــــــلتُ بغرناطة فكـــــــنت أراهم بها عابثين

وقد قســــــــموها و أعمالها فمـــــــــنهم بكل مكان لعين

وهم يقـــــــــبضون جبايتها وهــم يخصمون وهم يقضمون

وهم يلـــــبسون رفيع الكسا وأنتـــــــم لأوضعها لابسون

فصـــــــــارت حوائجنا عنده و نـــــــحن على بابه قائمون

---

[1] المصدر السابق،ص.١٠٨.

[2] المصدر السابق،ص١٠٩.

ويضحـــــــك منا و من ديننا فإنـا إلى ربـــــــــنا راجعون

ينتقل في بقية الأبيات إلى الضمائر المنفصلة (هم،أنتم) ،فهي أقرب للدلالة وأكثر تجلياً للمخاطب، الذي يتلقى ما يرسله الراوي ؛ لتشغيل حس التدليل الـذي تهيمن عليـه الـروح الجماعية المتمركزة في ضمائر الغائب والمخاطب الجمعي؛لتصعيد الصراع وتوزيع الأحداث بين طرفين ؛لوصف حالين للمسلمين واليهود امتاز بكثر التفاصيل والخصوصيات والاستثناءات ؛التي لا يلتقي فيها الفريقان ،مثل قوله:(يلبسون رفيع الكسا،وأنتم لأوضعها لابسون)(وقد نـا هضوكم إلى ربكم فما تمنعون وما تنكرون) ؛مما جعل الصراع النفسي يأخذ مساراً عقلياً كاشفاً عما حل بغرناطة بسبب اليهود مسلسلاً الأحداث بتوتر كبير،ببعده عن الغنائية في النص؛لتصعيد التوتر الدرامي الذي يفضي إلى الذروة، ويتقدم شيئاً فشيئاً إلى نهاية الحدث بين القطبين ، فتتغلـب الضحية على الشخصية المتعدية،فيقول [1] :

فبادر إلى ذبـــــــحه قربة وضحّ به فهو كبش سـمين

وفـرّق عداهم وخـذ مالهم فأنت أحق بما يجـــــمعون

فلا ترض فيـــــنا بأفعالهم فأنت رهين بما يـــفعلون

وراقب إلهـــــك في حزبه فحـزب الإله هم الغــالبون

وتوجه الإلبيري في آخر مقطع إلى نهاية لحدث الدرامي،ثم إلى الحل والانفراج ، معبراً بأسلوب الأمر الطلبي(فبادر،ولاترض،وضح،راقب)عاقداً الآمال على المخاطب(أباديس)في أن يأخذ الأمر على محمل الجد ، وينهي العقدة القائمة، فكانت النهاية بمثابة المقطع التنويري للحدث اواقعي الذي ينهي المواقف الدرامية،ولكن دوراً واحداً يجب أن يدخل،وهو دور الشاعر

[1] المصدر السابق،ص١١٢.

في النهاية بوصفه دوراً ينسجم معه كراوٍ،وشخصية موجودة في ميدان الحدث،وشهادتها تتوافر لها القدرة على التأثير الذي استمر حتى نهاية أخر بيت ينصح فيه ابن باديس ،ليعلق على أبيات هذه القصيدة مواقف من سيرته ، لم يكن غيره ليأتي بأصدق مما أتى به وحفظته أبياته على صفحات التاريخ الأندلسي لأحد أشهر مفكريها.

نرى أن النزعة الدرامية عند الإلبيري تبرز عن طريق المتجانس والمخالف ،وذات علاقة عضوية بالواقع السياسي والاجتماعي والديني المعاصرله ، فرضتها طبيعته الفكرية وإحساسه بالوجود والزمن والقضايا الأساسية ،التي أثارت قلقه وزهده،فازداد إحساسه عمقاً واتساعاً مع وعيه وثقافته وتجاربه،"وكان في دراميته...يلبس في الأغلب لبوس الخشونة،و الجهامة فالسلوى التي يهيئها لقرائه لاتأتيهم بغير مشقة،إن شعره لا يحظى بأحسن تقدير إلا من قرّاء تخطو الخامسة و العشرين من عمرهم...الخليق بمتعتنا هو أن قصائده الغنائية في جوهرها درامية لاستعماله التناقض الذي يفاجئنا بالدرامي"[1].

فهو لاينحاز لعواطف وتجاربه وآلامه إنما يدسها في فنه،كما لو كان إنساناً آخر،وهذا مايبعد نصوص سيرته عن السطحية والانسيابية مع الإحساسات الذاتية المباشرة،فهي ذاتية في جوهرها موضوعية في خطابها،و"هي بهذه الخاصية أخرجت القصيدة من سذاجة الغنائية إلى ملحمة البناء وهي بداية الخروج مما هو فردي إلى ماهو جماعي"[2].

إنها سيرة متفردة على مستوى مسرح العصر الذي عاشت فيه،وعلى مستوى الفن الذي نسجت خيوطها منه،فكان هو المرجع الذي حفظ معالمها،حينما ضنت بها المصادر.

---

[1] كادون: الأديب وصناعته-د.ط،ترجمة:جبرا إبراهيم جبرا،بيروت:د.ن،١٩٦٢،ص٢٥٣.

[2] أبوسنة،محمد إبراهم:ومضات من القديم والجديد،القاهرة:دار الشروق،١٩٨٨م،ص٢٧٠.

المبحث الثالث:ملامح من السرد الغنائي في السيرة العاطفية لابن زيدون:

صار السرد من ذخيرة القراءة السيرذاتية لدى الدارسين والباحثين،ومكوناتها التي تواجه بها النصوص الشعرية المعروفة بكثافتها الغنائية؛للوقوف على الملامح السيرية في ثنايا القصائد؛لأن القصيدة مهماً بلغت من الغنائية،فهي بشكل من الأشكال تحكي قصة ،تعرض بشكل محدد ومنظم الإيقاعات ،وثمة مسلمة نقدية تقول:"إن السردية تتحكم في كل خطاب مهما كان نوعه"[١].كما يقرر النقاد أن وجود رواية ،أو قصة بلا حوار هو استثناء،فكذلك خلو قصيدة غنائية من السرد هو استثناء أيضاً، فالصيغة السرديةكما يقول النقاد المحدثون مرافقة للشعر العربي منذ شعر العصر الجاهلي[٢] .وقد وردت إشارات في النقد القديم تعرض لمفهوم السرد من أشهرها قول ابن رشيق:"و من الناس من يستحسن الشعرمبنياً بعضه على بعض..مثل الحكايات وما شاكلها ،فإن بناء اللفظ على اللفظ أجود هنالك من جهة السرد"[٣].والسرد هو"إجادة سياق الحديث"[٤] .وطريقة عرض الخبر ،أو قص الحدث في النص الأدبي وغالباً مايكون في الشعر"تصويراً فنياً للوقائع و الأحداث"[٥].

ولعل السرد الغنائي ،هو السمة التي تحتملها النصوص الشعرية للسيرة العاطفية،لأن شعره يمتاز بالغنائية التي تعج بها نصوص سيرته ،فتقربها من الواقع،وتبتعد به في آن،فتأتي الأحداث متقطعة ،أو مجزأة،أو تسير رتيبه بدون عقدة،ولاتحمل خطاباً قصصياً كاملاً،وهذا مايقربها من

---

[١] مفتاح،محمد:تحليل الخطاب الشعري-استراتيجة التناص-د.ط،الدار البيضاء:المركز الثقافي العربي،١٩٨٥م،ص١٣٠.

[٢] من الدراسات التي تناولت السرد في الشعر العربي القديم :

- الجاردة،محمد عبدالله:البناء القصصي في القصيدة الجاهلية-مجلة أقلام،عدد١٩٨١،٣م.
- خياط،جلال:الأصول الدرامية في الشعر العربي-د.ط،بغداد:دار الحرية للطباعة،١٩٨٢م.
- مراشدة،عبدالرحيم:الخطاب السردي و الشعر العربي-ط١،إربد:عالم الكتب الحديث،٢٠١٢م.
- لفتة:ضياء غني:البنية السردية في شعر الصعاليك-ط١،عمان:دار حامد للنشر و التوزيع،٢٠٠٩م.

[٣] ابن رشيق:العمدة،ج١،ص٢٦١.

[٤] المرزوقي:سمير،وجميل شاكر:مدخل إلى نظرية القصة-د.ط،تونس:الدرا التونسية،د.ت،ص٢٩.

[٥] محمد،عبدالحليم محمد:القصة العربية في العصر الجاهلي-د.ط،مصر:دار المعارف،١٩٧٥م،ص٣٧٩،٣٧١

السيرة الذاتية[1]،ولا تغيب ذاته التي يفصح عنها- غالباً في جل نصوصه، التي تسير في الاتجاه العميق للشعر الغنائي،الذي قال عنه النقاد:"إنه اكثر ذاتية في منحاه ومادة من أي نوع آخر من أنواع الأدب،ولذا كثيراً مايخضعه النقاد لتفسيرات تتصل بسيرة صاحبه "[2].

لهذا فالاستعانة بالقراءة السردية لشعر ابن زيدون من حيث موقع الراوي،والمروي له والشخصيات،وعناصر الزمان،والمكان،وجهات النظر التي تستجلي كلما -أسعفها النص - إيقاعات السيرة التي تتردد،وتنفتح مناخاتها داخل لغة السرد، فتبني حكاية علاقة الذات الزيدونية بواقعها في جوانب متعددة في ظل تحقق أهم عناصر السرد في نصوص سيرته،وهما الوصف والحوار[3]،فمعظم النصوص مزيج من التصوير الوصفي الذي يسير مع الحوار،وهو ماحلق بشعره في أجواء الغنائية.

ثم إن معظم أغراض النصوص التي فيها ملامح من سيرته كانت في أغراض الغزل،والوصف والمدح والرثاء،"ويرى النقاد إمكانية تحقق السرد القصصي بشكل أكبر في هذه الموضوعات"[4] وهذا يفتح مزيداً من الدلالات السردية كوجود أثر مكونات السرد من راو،ومروي له،و وجود سلطةالأزمنةوالأمكنة في أغراض شعره ،التي تألفت منها ملامح سيرته ،فـإذاما نظرنا إلى قصيدة ابن زيدون التي يتوجه فيها لابن جهور معاتباً وشاكياً له حاله في معرض مدحه،قائلاً[5]:

قل للـوزير الـــــذي تأمليه وزري إن ضاق مضـــــطرب أوهال مطلع

أصـخ لـــــهمس عتاب تـحته مقة تكلـــــف الـنفس فيه فوق ما تسع

ما لـلمـتات الذي أحصفت[6]عقدته قد خامر الـــقلب من تضييعه جزع

---

[1] انظر:حسن،ماهر:السيرة تاريخ و فن،ص٢٤١.

[2] ديفيد،دتش:مناهج النقد الأدبي بين النظري و التطبيق،د.ط،ترجمة:محمد يوسف نجم،بيروت:فرنكلين للطباعة والنشر ١٩٦٧م،ص٥٢٠.

[3] الغضنفري،منتصر:عناصر القصة في الشعر العباسي،ص١١٢.

[4] مراشدة،عبدالرحيم:الخطاب السردي و الشعر العربي-ط١.

[5] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج١،ص٣٠٠.

[6] احصفت:أحكمت .

لـــي في المـــــوالاة أتباع يسرهم أني لـــــهم فـــي الذي تجزي به تبع

إن مطلع الأبيات عبارة عن رسالة من مرسل إلى مرسل إليه،وهذا يحقق معنى السرد بالمفهوم النقدي[١]،حيث يضمن وجود راوي،ومروي له،وهو(الوزير)،وبمشاركة آخر يظهر على مسرح الأحداث منذ مطلع القصيدة في قوله:(قل للوزير)وهوبمثابة تقنية سردية ،تدل على وجود مطلوب في الحاضر،وتضيف مظهراً من مظاهـــر معايشة الشاعر للتجربة وصدقها ؛وللتأثير في المروي له فقد استخدم فاعلية الحوارالذي ينطلق من الداخل إلى الخارج في(قل،أصخ،ماللمتات) الذي ينقل بدوره الوضع النفسي للشاعر، ومايشعر به من ألوان العواطف والقلق،فيأمل أن يسمعه ويصخ لعتابه المنبعث من حبه وإعجابه بالوزير ،الذي أقلقه بوادر قطيعة يتحسس آثارها من تجاهله له ،فيذكره بأياديه التي سبقت في خدمته وولائه له قبل الكثيرين ،الذي يتظاهرون بالتقدم عليه،ونيل نعماء هذا الأمير،ووعطائه فيكيدون له.

ثم يستكمل سرد القصة بذكر الأسباب التي آثارت حزنه وقلقه،وتحفزّه العاطفة الثائرة،،فيتماهى الرواي مع الشخصية الرئيسية؛ليصبح الرواي هو الشخصية نفسها في قوله [٢] :

ألســـت أهل اختصاص منك يلبـــسني جـــــــمال سيماه أم مافي مصطنع

لم أوت في الحال من سعي لديك ونـــى[٣] بل بالـــــجدود تطير الحـال أو تقع

تقـــــــدمت لك نعـــمى رادها[٤] أمـلي في جـــــــانب هو للإنـسان منتجع

مازال يونـــق شكري في مواقـــــــعها كالـــــــمزن تـونق في آثـاره الترع

شكر يروق و يرضـــي طيب طـــعمته في طـــــــيه نفـحات بينها خُلع

نرى أن القصيدة مسرح للحوار وفي حواره مع ابن جهور، ينتقل الشاعر من ضمير المخاطب إلى ضمير المتكلم ،متحدثاً عن نفسه في حاضره الظاهر من اعتماده على المـضارع في قـــوله

---

[١] مراشدة،عبدالرحيم:الخطاب السردي،ص٦.

[٢] ديوان ابن زيدون و رسنائله،ج١،ص٣٠١-٣٠٢

[٣] ونى:فتور.

[٤] رادها:تقدمها.

(ألست،يلبسني،تطير،يونق،يروق،يرضي)؛ليعبر عن شكره الذي عرضه بتدرج،وعرض مبتكر تتمازج فيه الغنائية التصويرية مع إطالة الوصف الذي يوهم المتلقي بتوقف حركة السرد للقصة ولكن هذا الوصف كان وسيلة لاستئناف السردبعدأن يتبوأ الرواي الشاعر المكانةالمركزية ليجلي أدوار الشخصيات المشاركة من خلال شبكة العلاقات ووصف سلوكها وتحركاتها ،فتتحول القصيدة ،لعرض سيرة كفاح ونضال ،وتعبير عن الآلام المجتمعية والسياسية عندما يستتم قصيدته[1] :

ظن العدا إذْ أغبّتْ أنها انقطعت هيهات ليس لمدّ البحر منقطع

لا بأس بالأمر إن ساءت مبادؤه نفْس الشقيق إذا ماسرّت الرّجع

إن الألي كنت من قبل افتضاحهم مثل الشجى في لهَاهم ليس ينتزع

لم أحظ إذْ هم عدا باد نفاقهم إلا كما كنت أحظى إذ هم شيَع

ما غاظهم غير ما سيّرتُ من مِدَحٍ في صائك[2]المسك من أنفاسها كَنَع[3]

إذا تأملتَ نصحي غِبّ غشّهم لم يخف من فلق الإصباح مُنصدِع

أودعت نعماك منهم شر مغترس لن يُكرم الغرس حتى تكرم النُّقع

لقد جزتهم جوازي الدهرعن منن عفتْ فلم يثنِهم عن غمطِها ورع

يوضح النص استقلال الراوي عن المروي له ،الذي يتلقى هذه الرسالة،وعبر هذا المكون السردي تتعدد الشخصيات،وتأتي الأحداث متقطعة والتفاصيل القصصية موجزة ،تعتمد على استرجاع الماضي مع هؤلاء الأعداء منذ قوله:(ظن العدا)،وتوحي عاطفتهابانقطاع التواصل بين ابن زيدون وابن جهور،ولكن هيهات فإحسان الأمير متواصل،فقد تسوء المبادئ ،ثم تحسن الخواتيم،فهو مازال غصة في حلوق بني ذكوان من قبل أن يفتضح أمرهم،وكانت منزلته عالية عند الأمير،ولكن يبدو بعد هذه المؤامرة تغير مكانته؛لأن الأمير يحسبه من المتآمرين عليه ،ولذلك

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله،ج١،ص٣٠٢،٣٠٣،٣٠٤.

[2] صائك:لاصق.

[3] كنع:كنع المسك بالثوب لزق به.

فهويحاول أن يقنعه بأن هذه المؤامرة بسبب غيظهم من مدائحه التي سيرها في ابن جهور وبقاء ولائه للأمير بعد انكشاف نفاقهم وخيانتهم له، فهودليل على عدم اعترافهم بالجميل وسوء اختيار الأمير ،فالحوار يشكل محوراً مهماً في السرد ،حيث يكشف عن رموز الذات والحياة ويقدم رؤية السارد المبدع المتأججة داخل نفسه ،التي تبدي تشفيها بآل ذكوان في آخر بيت، فغاية الشاعر من هذا السرد المتواصل لسلوكيات خصومه ،ليس مجردعرض لموضوع،وإنما للإقناع العاطفي الذي وقع تحت وطأته من جراء تكالب الأحداث التي يصطدم بها طموحه ،فانعكس على تجربته الشعرية ،فأضحى بطل مدائحه.

وللمكان الاجتماعي بتجلياته ورموزه وعلاماته، سحره الطاغي في سيرة ابن زيدون،إذ يمثل مرجعية مركزية وإحالة جوهرية ،تنطوي على كثافة وجدانية،وترميز عاطفي عالٍ بوصفه مرتكزاً أصيلاً ترعاه الذاكرة ،وتؤلف حركيتها من خلال طاقاته على استنهاض نسق الذكريات،واسترجاع أجزاءا من سيرته في عدد من نصوص شعره ،التي اتخذ بعضها شكلاً مفارقاً للسائد من قصائده،وهي المخمسات ،كما استبان ذلك في الدراسة الموضوعية،وشغل كذلك الحيز الأهم و الأوسع من قصائده،منها حائيته التي مطلعها[1] :

خليليّ لا فطر يسر و لا أضحى فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى

لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل أخص بممحوض الهوى ذلك السفحا

وما انفك جوفيّ الرصافة مشعري دواعي ذكرى تعقب الأسف البرحا

ويهتاج قصر الفارسي صبابة لقلبي لا تألو زناد الأسى قدحا

وليس ذميما عهد مجلس ناصح فأقبل من فرط الولوع به نصحا

كأني لم أشهد لدى عين شهدة نزال عتاب كان آخره الفتحا

وأيام وصل بالعقيق اقتضيته فإلا يكن ميعاده البعيد فالفصحا

لايصبح المكان مكاناً في العمل الفني إلا متى ماظهرت خصوصيته،وساعد على نقل التجربة

---

[1] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج١،ص١٥٨.

الذاتية للشاعر،وأسلوب الحوار الذي استهل به الشاعر الراوي قصيدته في قوله (خليلي) فهو من أنسب الأساليب التي تساعد على تصوير الشخصية وكشف أفكارها وطبائعها ونوازعها،"يقول الروائي (جون بيرن)إن وصف العبارات لا يبني الشخصية مهما بالغنا في صياغة تلك العبارات إذن فسبيلنا الوحيد لمعرفة الناس هو حين يتحدثون"[1].

ثم يتوجه بالحوار لصاحبيه اللذين يناديهما في قوله(خليلي)في الزمن الحاضر،منطلقاً منه للماضي؛ليسترجع وقائع وأحداث مرهونةبالمكان،ويسرد من خلاله محاوله تخلصه من الحاضر بكل مباهجه في قوله(خليلي، لافطر يسر ،و لاأضحى)،فحتى الأعياد رمز السعادة،والفرح لايتوافق معها،فالماضي هو الحاضر ،متمثلاً في الأمكنة التي طغى حضورها على حضور الزمان،فقد تم استغلال المكان لإيصال الدوال النفيسة بما يتفق مع وعي الشاعر الذي يحول المكان إلى مشهد نينثال جمالاًويتدفق فرحاً وحياة وانسابية، فيختص(شرق العقاب)القرطبي بجمال سفوحه،وحب الشاعر الخالص،بينما(جوفي الرصافة)في شمال قرطبة ،حيث نشأ الشاعر تبعث ذكرياته الأسف والحزن الشديد على مفارقته،ويستمر الشاعر في الاحتفاء بالذكريات التي يهتاج لها ،كلما تذكر (قصر الفارسي)الذي يقدح زناد الذكريات،ويثير جذوة أحزان الغربة،فكأنه المكان الذي يستلهم فيه ذاته،ثم يقول(وليس ذميماً عهد مجلس ناصح)؛ليؤكد على أنه لم يغفل أي مكان أحبه،بينما (عين شهدة)كان نزال العتاب والإعتاب والحوادث مع من أحب،فتصبح الأحداث والشخصيات أجزاء من المكان (فالعقيق)كان موضع اللقاء،وزمنه معاً في أعياد الفصح،بينما اللهو في(مسناة مالك)،وهو السد المائي في قرطبة الذي تحيط به الرياض الخضر البديعة وفيه أماكن السياحة ،فتسلسل الأحداث يتبع تسلس المكان،"فذاكره المكان هي ذاكرة الإنسان"[2]، وهي –أيضاذاكرة ابن زيدون التي نعتها بقوله[3]:

---

[1] لفته،ضياء غني:البنية السردية ي شعر الصعاليك،ص١٨٨.

[2] باشلا،جاستون:ذاكرة المكان،ترجمة:غالب ،د.م:المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع،٢٠٠٦م،ص١٨٤

[3] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج١،ص١٦٠.

مـــعـــاهد لـذّات وأوطـارُ صبوةٍ أجلْتُ المعَلّى[1]في الأماني بها قدْحا[2]

ثم يستكمل ذكريات تلك المعاهد في شبابه،وكأنه يصرخ بأعلى صوته[3]:

ألا هـــــــــل إلى الزهراء أوبة نازح تقـــــصّى تنـــائيها مدامـــعُه نـزحا

مقاصيـــــــــر ملك أشرقت جنباتها فـــخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا

يمـــثّل قرطـــــيها لي الوهم جهرة فـقبـــتها فالكوكب الرحب فالسطحا

محـــــل ارتياح يذكـــر الخلد طيبـه إذا عّز أن يصدى الفتى فيه أو يضحى

هناك الجمام الـزرق تندى حفافها ظـلالٌ عهدتُ الدهـر فيها فتى سـمحا

تعوضتُ من شـدو القـيان خلالَها صدى فلوات قد أطـار الكرى ضَبـحا

ومن حملي الكأس المفدّى مديرُها تقحُّمُ أهوالٍ حمـــلتُ لـها الرّمـحا

أجل إن ليلي فوق شـاطئ نِيـطـةٍ لأقـــصر مـن لـــيـلي بآنةَ فالبَطحا

نرى أن التسريد الوصفي الكثيف لقرطبة في حواره مع صاحبه، هو محاولة للدفاع عنها في مواجهة زوال ،يقوده زمن النفي خارج قرطبة؛لنسف هذه المرجعية الأثيرة، فتنوعت تبعاً لذلك طرائق سرد الذكريات لهذا المكان،واندرجت مسافاته؛ فأصبح اهم تكوينات الواقع حتى أصبح يحمل الزمان ويصنع تاريخه؛لإعادة انـتهـــاج المشهد الجمالي للمكان بـتـــشكيلاته ،ونظمه وتفصيلاته المختلفة ،التي تشي بشدة تعلق الشاعر به،ولهذا تتطور الأحداث التي حصلت في هذا المكان للشاعر،ويعكس المكان صورة التحول في حياة ابن زيدون،فبعد أن كانت الزهراء محل ارتياح يـذكر الخلد طيبه ومحـل جمـام،وشـدو للقيـان،وحمل للكـأس في القصور ؛ أصبحت أماني وذكريات،تمثل الوهم،وعَزّ قربها، يقابلها —في الحاضرصدى فلوات يطيرمعها الكرى،وتقحم أهوال،وطوى طول ليالي آنة و البطحا وطولها في المنفى ،قصرلياليه في نيطة أحد متنزهات قرطبة.

---

[1] المعلي:سهام الميسر وهو أوفرها حظاً.

[2] القدح:السهم قبل أن يراش و ينصل .

[3] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج١،ص١٦٠.

إن المكان عند ابن زيدون كما يقول باشلار:"له أهمية خاصة وفضاء،فحديثه عن المكان مرتبط بحياته وعلاقته بشكل حقيقي،وليس مجرد ذكر للأمكنة من قبيل تزيين شعره ،فالمكان جزء أساسي من حياة ابن زيدون"[1].بوصف المكان تاريخاً وعوضاً عن الفقد،والمنحى السردي الذي تتجلى فيه الصورة المتتابعة للمكان وهو يستلطفه ويستعطفه،أو يتراهن عليه؛لكي ينوب عنه،وباتفاق مع وعي الشاعر الذي عنيي بالكثير من الانفعال العاطفي ، يسمح معه بالإمساك بطرف الخيط السردي ،الذي يقود نحو الدلالات العاطفية وحضورها السير ذاتي ،وإذ يظل الزمان مكوناً أساسياً من مكونات النص السردي،فإن وعي ابن زيدون بحركة الزمن جسّد إحساسه به إحساساً نابعاً من عاطفة الحنين إلى الماضي،فقال[2]:

شحطنا وما للدار نأي ولا شحْط وشطّ بمن نهوى المزار وما شطوا
أ أحبابنا ألوت بحادث عهدنا حوادث لا عقد عليها ولا شرْط
لعمركمُ إن الزمان الذي قضى بشتّ جميع الشمل منا لمشتطّ
و أما الكرى مذ لم أزركم فهاجرٌ زيارته غِبّ وإلمامُه فرط
بأبرح من شوقي إليكم و دون ما أُدير المنى عنه القتادة و الخرطُ

يتشكل الزمن السردي من مجموعة من العلاقات الزمنية القائمة بين الأحداث،والمواقف الانفعالية وكيفية سردها،حيث يبدأ الشاعر فيها من نقطة معينة ،يختارها من وسط الأحداث لتلمح إلى زمن البعد في قوله(شطحنا)،وتعسر زمن اللقاء في قوله:(وشط بمن نهوى المزار وماشطوا وتتشعب بعدها مسارات الزمن،واتجاهاته صعوداً،وهبوطاًوتوقفاً من خلال الحوار الذي ينطلق من قوله(أحبابنا)بأداة النداء للقريب ،الذي يؤكده بروايتة مشتركة يظهر من استخدام ضمير الجمع للمتكلمين منذ مطلع القصيدة،ومردّه إلى أن ضمير المتكلم المفرد كان مما ينبغي اجتنابه في زمن كان الأنا فيه بغيضاً إلى النفس التي تبغض الوحدة،وتأنس بجماعة احبتها،وتخاف فقدها،ويأخذ السرد مداه في استعادة الزمن،ثم إدانته بالجور والظلم؛لهذا قاد الزمن الأحداث،واستطاع بواسطته

---

[1] دياب،علي:الغزل الأندلسي في القرن الخامس الهجري-ابن زيدون و المعتمد بن عباد-نموجاً-د.ط،دمشق:مطبعة الجمهورية د.ت،ص٢١١.

[2] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج١،ص٢٨٥.

ان يروي حكايـــته مع الغربة والتشرد بوصفه ملمحا مهما من سيرته،فالزمن أبعد حتى النوم عنه،فأصبح يزوره على فترات متباعدة وطول زمن البعد زاده ظمأ للقاء،وحال بينه وبين تحقيق الأماني،وهذا يدعوه للعودة إلى السرد الذاتي الذي يظهر من ضمير المتكلم المفرد الذي يكثف الغنائية للأحداث التي يسردها بعد ذلك ،فيقول[1] :

عليـــــك أبـا بـــــكر بكرت بهمة لـــــها الـخطر العالي و إن نالها حطّ
أبي بعـــــدما هِيل الترابُ عــلى أبي ورهـــــطيَ فذّا حيث لم يبق لي رهط
لك النــعمة الخضراء تندى ظــلالها علي ولا جــحــــد لــديّ ولا غـمط
هرمتُ وما للـــشيب وخــطٌ بمفرقي ولكن لشيــب الهمّ في كبدي وخْـط
وطاول سوءُ الحال نفــسي فأذكرت منى[2]الروضــة الغنّاء طاولَها القحط
مئين من الأيام خـــــــمس قطعتها أسيراً و إن لم يبـــــد شدٌّ ولا قمط[3]
أتت بي كما ميص الإناء من الأذى وأذهب ما بالـــثوب من درن مسط[4]

يفتتح ابن زيدون هذا الجزء الذي قدم له بالجزء السابق بقوله(بكرت)أي أتيت إليك مبكراً مستعيناً،ومستشهداً تدفعه همة عالية،وإن حاول الآخرون إحباطها،فهو بمثابة الأب والجماعة بعد أن مضوا منذ زمن بعيد،ويعترف الشاعر بأفضال أبي بكر عليه منذ صغره وهذا الوصف يقدم خدمة كبيرة للسرد الذاتي" ،فهو عندمـــا يلفت النظر إلى الوسط المحيط ،يحدث استرخـــاء،أو ترويحا عن النفس بعد مرور زمن الحدث،وفي بعض الأحيان يـكون بمثابـة افتتاحية"[5]،فينثر بعضاً من ملامح سيرته في ثنايا أبيات شعره،وتأتي غنائية الوصف والتصوير،فتؤدي إلى عدم طرح القضية بأسلوب مباشر،كأن يصف المكان السجن وما حل به،و يأتي الزمن مرتبطاً بالإدراك النفسي و مؤشراً، ليبين تطور الأحداث بالترميز،والتكثيف من خلال أفعال الزمن،وآثارها على السارد الـشاعر،وهـي(هرمت،طـاول،قطعتها،أتت،أهب) .فقد أصابـه الهرم والـشيب من سوء مايرى ومن الهم والقهر،وإلا فهو لم يتجاوز الثلاثين كما يذكر ذلك في قصيدة أخرى،ثم إن طول

---

[1] المصدر السابق،ج١،ص٢٨٩،٢٨٨.

[2] منى:الموت.

[3] قمط:الشد و الربط.

[4] مسط:بل الثوب وعصره لتنظيفه.

[5] الغضنفري،منتصر:عناصر القصة في الشعرالعباسي،ص٧٥.

المدة التي قضاها في السجن،وهي مايقارب السنين بدون قيد،أو ربط كان بمثابة الأسير،ثم يكثف ويلخص هذه الفترة بأنها محنة أخلصته من الأخطاء و علمته من التجارب،حتى أصبح كالإناء الذي يحك حتى يذهب درنه وما علق به،ثم تظهر من خلال العدسات الزمانية المسترجعة عن الماضي أسباب سجنه،وأسباب تشفعه بأستاذه،فيقول[1]:

عدا سمعه عنّي وأصـــــغى إلى عداً لهم في أديمـــي كل ما استمكنوا عط[2]

وقد وسموني بالتـــي لـــــست أهلها وإن لـــــم يُـمْن أمثالي بأمثالها قطّ

فـــررت فـإن قـــالوا الفرار إرابـة فقد فرّ موسى حين هـــــمّ به القبط

فمـــــالك لا تختـــــصني بشفاعة يلوح على دهري لمـــــيسـمـها علْط[3]

يفي بنسيم العـــــنبر الـورد نفـحها إذا شعشع المسك الأحـمّ[4]بها خلط

إن السرد الوصفي الممتزج بالحوار يبين علاقة السارد بالأحداث ومدى تأثيرها فيه،وبالمسرود له وبالشخصيات التي يتفاعل معها،ويحقق صدق التجربة التي تتجه إلى الماضي الذي يذوب في الواقع وحاضر الشاعر،ولايظهر الزمن في حالة استباق للمستقبل إلا في قوله: (تختصني،يلوح على دهري،يفي بنسيم) أي عندما تداعبه عواطف الطموح،فنراه يسخر وسائله لتخدم هذه العطافة بين عواطفه جميعاً،وعليه يصبح النص مذاباً في الماضي متشاكلاً،أو متعالقاً مع الواقع ومخترقاً طريقاً للمستقبل الذي يسعى الشاعر لتحقيقه ،والتتبع الدقيق للبطل من أساسيات السرد الذي يظهر أنه يعاني منذ بداية القصيدة من ظاهرة التحول في معاملة أصدقائه ، والتآمر عليه في قوله من رسالته التي بعث بها إلى صديقه من السجن[5]:

ماعـــــلي ظني باسُ يـــجرح الدهر وياسو

ربما أشـــــرف بالمر ء عـــــلى الآمال ياسُ

ولقد ينـــــجيك إغفا ل ويرديـــــك احتراس

وكذا الدهـــــر إذا ما عزّ نـــــاس ذّل ناس

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله، ج١،ص٢٩١

[2] عط:التمزيق.

[3] علط:كي في العنق.

[4] الأحم:الأسود

[5] ديوان ابن زيدون و رسائله، ج١،ص٢٧٣.

يرتكز السرد الذاتي الذي يروي بصيغة المتكلم منذ مطلع القصيدة (ماعلي ظني باس) على تدرج الأحداث الذي يتيح للشخصية أن تواجه القارئ مباشرة،فتتحدث إليه،وتحاوره دون توجيه بتقنية غنائية عالية تتؤول بالأحوال إلى الترميز والإيحاء،وتحويل الأحداث إلى حكم،وكأنها دعوة من الشاعر للاعتبار من تجاربه عن طريق الحكمة،يظهر ذلك من يقينه بأن الدهر يجرح و يداوي ويبدو أن شدة احتراسه أذلته،فأدرك أن المقادير لا ترد،وأنها قد تتسب في النكبات كما ترسل الأقواس السهام،وأن الناس مختلفون منهم الكرام ومنهم اللئام وهذا الوصف ،يخدم حاجيات السرد ،فهو بمثابة التمهيد لالتقاط معالم للشخصية و إلماحات لما تعانيه ،يطرح على جانبيه الحوار مع أبي حفص صديقه،فيقول[1]:

يا أبا حـــــفص وماسا واك فـــــي فـــهم إياس
من سنا رأيـــــك لي في غسقِ الخطـــب اقتباس
و ودادي لـــــــك نصّ لم يـــــخالـــفه القياس
و رأوني ســـــــــامرياً يُتـــّـــقى منه المـــساس

يطالعنا سياق الأبيات بمزيج من الحوار الحي والواصف،وثمة شخصيتان رئيستان تسوق قضية السياق ،هما :ابن زيدون في ضوء ماينقله البطل،أو الراوي عندما يستفسر عن الشخصيات،وما قامت ،ليشع فضاء التمثيل الحرفي لبعض العلاقات الاحتوائية بينهما التي تقوم على حب ابن زيدون لصديقه، لرأيه السديد وفهمه العميق،ثم يجلو السيـــاق أفكار السارد المتمثلة في حيرته ودهشته من قوم ،خانوا العهد وضيعوا الميثاق وتآمروا عليه وأبعدوه عنهم حتى كأنه السامري من قوم موسى الذي عوقب بالوحشة الانفراد.وتنساب النعوت والأوصاف متتالية لعرض العلاقـــة الداخلية بين المتكلم والآخر في شحنه غنائية متألمة؛ لتكشف عن أزمة ذاتيةلا يمكن تغافلها عرضها في صياغات سردية معبرة متدثرة بعباءة شعرية عن صلة الشاعر بواقعه المعيش.

ينوه بمكانته للمروي وهو أبو حفص الذي تلقى الرسالة،ويعد المروي له"عنصراً مهماً وحاسماً في بناء السرد،لايتحقق السرد بغيابه،فهو من مكونات السرد ذات الأهمية الكبرى؛لأن الخطاب السردي ليس إلا تعبيراً يهدف للتأثير في الآخرين"[2]ويظهر ذلك من تتمة القصيدة[3]:

---

[1] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج١،ص٢٧٥.

[2] ثامر،فاضل:الصوت الآخر-د.ط،بغداد:دار الشؤون الثقافية،١٩٩١م،ص١٤٦

[3] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج١،ص٢٧٦.

أذؤب هـــامت بلحمي فانتـــهاش و انتـــهاس
كـــلهم يسأل عن حا لي ولـــــلذئب اعـتســاس
إن قـــسا الدهر فللما ء من الـــصخر انـبجـــاس
ولئن أمســـــيت محبو ســـاً فللـــغيث احتبـــاس
يلـــــبد الورد السبنتي ولـــه بـــعـــد افتـــراس
فـتـــــأمل كيف يغشي مـــــقلة المجد الـنعـــاس
و يُفَـتّ المسكُ في التر ب فـــيـــوطـــا و يـــداس

يعود الشاعر،أو الشخصية الأساسية إلى ذاته وصفاتها وتحديهما ؛لهذه الضغوطات التي زادته طموحاً وأملاً في مستقبل أفضل مع كثرة المنافسين الحاقدين الذي يبدومن شدة حنقهم عليه أن شبههم بالذئاب الجائعة ، يبدو من تمرده على أعدائه وعلى سجنه الذي لم يكن إلا كحابس الماء في الصخر،أو الغيث الذي ما يلبث أن يعم الأرض بعد انبجاسه،ثم إن مكوثه في السجن كان بمثابة هدوء الأسد ، الذي يسبق الانقضاض على الفريسة، ولاضير فالمجد يغشا ه النعاس ،والمسك يوضع في الأرض فيداس بالأقدام،ت وهنا تتجلى بعض أشكال التغيير في الشخصية التي تحاول ردم الماضي، وتتجاوزه بالسعي،واستشراف المستقبل المبني على قدراته التي تؤهـلـه للمواجهة والصدام.

يمكن القول بأن مفهوم الذات الذي يقول"أنا ما أحكي،وأنا ما أسرد عن نفسي"[1] ،ينطبق على نصوص سيرة ابن زيدون التي كانت بيئة حاضنة لكثير من ملامح السرد القصصي لحضور مكوناته وتقنياته وعناصره، كما أن المشهد السردي مرسوم عند الشاعر عبر تعاملاته الحياتية التي ينتقي منها مشاهد ،رفد بها نصوصه بصورة فاعله مع ملاحظة الكثافة الغـنائية للنصوص ،الـتي تلبي حاجة الإنشاد والصلة بالمتلقي،وتؤطر خطابه الشعري،ولكنها لا تخنقه،ولا تقصي ملامح السرد بدليل أن ابن زيدون كان أسرع في إثارة الوجدانيات المماثلة في شعور الآخرين،وأكثر نجاحاً في أداء مهمته في التعبير عن عواطفه،والعواطف الإنسانية من جهة أخرى .

---

[1] كاظم،نادر :الهوية و السرد،ص٣٥.

الفصل الخامس:

الظواهر الأسلوبية المشتركة.

الفصل الخامس: الظواهر الأسلوبية المشتركة:

أفضى تنوع المضامين لموضوعات السيرة الذاتية إلى تنوع الظواهر الفنية الأسلوبية المشتركة بينهما،وتعرف الظاهرة " بأنها ما يمكن إدراكه أو الشعور به،أو ما يعرف عن طريق الملاحظة والتجريب"[١] .والأساليب من أهم الظواهر الفنية، وكل ظاهرة يناسبها نمط من الأساليب الأدبية التي تأخذ مفهوماً واسعاً تتعدد أنواعه، وتتنوع سماته بتنوع المؤثرات والعلاقات وطرائق الإبداع،ومقدار ارتباط الذات بموضوعها ، فالأسلوب يعني " طريقة الأديب الخاصة في رؤيته للأشياء"[٢]،.وقد يتسع ليشمل الفن الذي يتخذه الأديب للتعبير من خلاله عن تجربته، أو للتأثير والإقناع كما أشار إلى ذلك البلاغيون عندما عرّفوا الأسلوب، بأنه" فن القول"[٣] .

والأسلوب يشير إلى طرائق مختلفة للتمكن الشعري من واقعة، أو لتسجيل حدث ،أو موقف، أو رصد مشهد ما،وقد ينم عن مستوى ثقافي وفكري معين، وقد يتحكم في علاقة الشاعر بماحوله ،" وكل ما من شأنه أن يرسم صورة تعبر عن الشعور والمواقف وتعيين الأديب للوصول إلى الهدف "[٤]. كل ذلك يدخل في الأسلوب .

وهذه المفاهيم الواسعة للأسلوب تتيح الاشتباك بين الفنون الأدبية ؛لتلتقي في كثير من خصائصها الفنية وفي هذا يقول التوحيدي:" إذا نُظر في النظم والنثر على استيعاب أحوالهما وشرائطهما... كان كأن المنظوم فيه نثر من وجه، والمنثور فيه نظم من وجه، ولولا أنهما يستهمان

---

[١] المعجم الفلسفي – د.ط ، القاهرة : مجمع اللغة العربية ، ١٩٧٩م ، ص ١١٤

[٢] إسماعيل ، عزالدين : الأدب ، وفنونه – ط٥ ، بيروت : دار الفكر العربي ، ١٩٧٧م ، ص ٣٧.

[٣] ناجي،مجيد:الأسس،النفسية للأساليب البلاغية العربية ط١،بيروت:المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٨٤م،ص١٢.

[٤] ابن يحي ، محمد : السمات الأسلوبية ، ص ١٣١ الشايب ، أحمد : الأسلوب : دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية – ط٧ ، مصر : مكتبة نهضة مصر ، ص ١٣٤.

هذا النعت لما ائتلفا ولا اختلفا"[1]،لأن الأديب لا يستطيع أن يعتمد على أسلوب واحد في فنه، وإنما يستغل ضعف الحدود بين فنون الأدب ،ليستفيد منها وتكون جسر عبور للمقومات الفنية خاصة في أهم السمات الفنية المشتركة بين الشعر والنثر، وهي الأساليب التصويرية والأساليب المباشرة ؛التي تختلف درجة حضورها وتواترها حسب حاجة الأديب،وإمكانيات الفن وما تتيحه من مساحة لأحدهما أكثر من الآخر في إطار فنه .

المبحث الأول : وسائل الأسلوب التصويري لتشكيل الملامح السير ذاتية :

لما كان الأدب نشاطاً يتميز في طبيعته عن غيره من الأنشطة الإنسانية بأنه نشاط تخيلي، فإن من أهم عناصر الأسلوب: الأسلوب التصويري الذي يتوسل به الأديب لتنظيم معالم التجربة،والكشف عن معنى أعمق للحياة والوجود، " فالفن يفقد جوهره بقدر ما يكف عن أن يكون استيعاباً للعالم الحقيقي من خلال الصورة الفنية"[2].لا سيما أن الدراسات النقدية لهذا الأسلوب تعُنى به من زوايتين، الأولى: بأنه تعبير عن نفسية الأديب، والثانية: بأنه يكشف عن معنى أعمق من المعنى الظاهر للنص الأدبي[3]مهما كان نوع هذا الفن، فهذا الأسلوب تقنية من تقنيات الاتصال والتأثير بين الأديب والمتلقي، ويتبوأ الأسلوب التصويري في الشعر مكانة أساسية، فهو أداته الأولى حتى قال الجاحظ :"الشعر جنس من التصوير"[4]،لاعتماده الكبير على أساليب البيان من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، بوصفها مقومات أساسية لتصوير الأحداث والتجارب والمواقف والانفعالات ،وتنظيم أجزاء التجربة في ارتباط وثيق بالخيال،فذلك ما يميز

---

[1] التوحيدي ، أبو حيان : الإمتاع والمؤانسة ، ج٢ ، ص ١٣٥.

[2] الطوانسي ، شكري : مستويات البناء الشعري عند محمد إبراهيم أبو سنة – دراسة في بلاغة النص – د. ط ،د.م : الدار المصرية العامة للكتاب ، د . ت ، ص ٣٦٧ .

[3] انظر:الطربولي، محمد عويد: الصورة عند الأعمى التطيلي – دراسة فنية موضوعية .- ط١، القاهرة : المكتبة الدينية ، ٢٠٠٥م ص٢٥.

[4] الجاحظ،أبوعثمان:الحيوان_ط١،تحقيق:عبدالسلام هارون،مصر:منشورات مصطفى البابي الحلبي،١٩٨٣م ج٣ ص١٣٢.

الشعر عن بقية الفنون الأخرى[1]،ولا يعني ذلك بأن الخيال يمنع النص الشعري من أن يكون مرجعاً لالتماس ملامح من سيرة الشاعر، فمهما كانت التجربة مفعمة بالخيال،فلابد أن تكون قد اعتمدت على أساس الواقع وامتزجت به بأي شكل من الأشكال،ولكن لخيال يخترق عتمة الأشياء، أو كثافتها وقد يكون "تذكر الحقائق السابقة التي سبق مشاهدتها واقعياً"[2].فالخيال يربط بين عالم الشعور وعالم الإدراك والفهم ،ويحول فوضى الانفعالات إلى عواطف منسجمة مع بعضها ، وقوة تعمل على استعادة الرواسب والتجارب المختزنة في الذاكرة، ويعيد تشكيلها من جديد بما يتناسب ونظرة الشاعر الشخصية ورؤيته التي تعيد بناء الواقع ،وتثير حساسية المتلقي ؛ليتزود من هذه الرواية الشعرية خاصة في ظل مفاهيم الصورة ومعاينها وأشكالها الواسعة ،سيما أنها لم تعد قاصرة على التشبيه والاستعارة ،بل اتسعت لتستوعب كل الوسائل التصويرية المتاحة للشاعر،بما فيها الوسائل البديعية كالمقابلة والطباق وغيرهما، فقد تــكون "الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص، يعبر به عن جانب من جوانب التجربة مستخدماً طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والترداف والتضاد وغيرها من وسائل التعبير الفني"[3].

ونظراً لأهمية هذا الأسلوب ودوره المكين في الشعر،فإنه بلا شك سيكون له وسائله التي اتكأ عليها الشاعر ،وتشكلت بواسطتها ملامح من سيرة الشعراء، وأسهمت في توضيح أبعاد كثيرة منها، بأشكال متنوعة، أهمها:

١/ التشكيل بالتشخيص :

---

[1] انظر: بسطاويسي، محمد رمضان : جماليات الشعر بين الفنون ، مجلة المنهل ، عدد ٥١١ ، مجلة ، ٥٥ ، رجب ١٤١٤هـ ،ص٣٣.

[2] المجالي ، جهاد : دراسات في الإبداع الفني في الشعر رؤى النقاد العرب في ضوء علم النفس الأدبي د.ط ، د.م : دار يافا العلمية، ٢٠٠٨ ، ص ٧٤

[3] القط ، عبد القادر: الاتجاه الوجداني في الشعر– رؤى النقاد العرب في ضوء علم النفس الأدبي د.ط ، د.م: مكتبة الشباب ،ص ٤٣٥.

من أهم الظواهر الأسلوبية التصويرية التي ارتفعت نسبة تكرارها في موضوعات السيرة الذاتية وركن إليها الشعراء في بناء الصورة الشعرية ، وعدّه بعض النقاد جوهر الصورة، لأن الشاعر يريد أن يلمس الحقائق، ويقدمها مجسدة ومن ناحية أخرى يبدي تعاطفه مع واقعه المادي[١]والتشخيص هو : أن يخلع الشاعر الملامح الإنسانية والصفات البشرية ، وما يقوم به الإنسان من أفعال وتصرفات تبوح عن مشاعره وانفعالاته على المعنويات والحسيات، والأفكار المجردة الأخرى التي لا تتصف بالحياة الإنسانية[٢]ولا يكون ذلك إلا بالخيال ، لذا فإن التشخيص يقوم على المجاز،"الأداة الكبرى من أدوات التعبير الشعري ،وتدخل تحت المجاز الاستعارة "[٣] .بأشكالها المختلفة، وتعد ركن الأسلوب التصويري التشخيصي الأساسي التي تعبر عن الموضوعات بصورة غير مباشرة ، وتخرج الواقع من سياقة الأليف فتوفر له الإثارة.

وقد أتاح اعتماد الشعراء على التشخيص فرصاً كثيرة للظهور والسيطرة والتوهج السير ذاتي، فخدم قضاياهم المختلفة، لما قدمه من عون وقدرة على التكثيف العاطفي والإيجاز والإيحاء والكشف عن مدى الانفعال بالتجربة ، وعكس إلى حدّ كبير درجة الارتباط بين الذات الخالقة للنص والمعطيات وعناصرها المتممة للصورة الشعرية لملامح الذات .

وقد تشكلت الصورة التشخيصية في نصوص كل موضوع سير ذاتي حسب المؤثرات والمكونات والانفعال والشخصية. الصورة التشخيصية باب واسع في هذه النصوص وسنكتفي بعدد من الأمثلة ؛ فالمعتمد استطاع أن ينقل صورة من صور استيلائه على قرطبة مشخصاً حالته الشعورية عندما قال [٤]:

---

[١]انظر: الجيار،مدحت سعيد:الصورة عند أبي القاسم الشابي– د.ط ، ليبيا:الدار العربية للكتاب ، د. ن ، ص ٢/٨٩ .

[٢]انظر: معجم المصلحات العربية في اللغة والأدب ، مادة (تشخيص) ، وأبو إصبع ، صالح : الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة من : عام (١٩٤٨م / ١٩٧٥م ، – ط ١،بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٩م ، ص ٤٤

[٣] العقاد، عباس: اللغة الشاعرة – مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية –د. ط، القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية ، ١٩٦٠م، ص ٣٧

[٤] ديوان المعتمد ، ص ٦٥.

مَنْ للمـــلوك بشأوِ الأصيد البطل هيهـــاتَ جـــاءتكُمُ مهديةُ الدول

خطبْتُ قـــرطبة الحسناءَ إذْ منعتَ من جاء يخـــطبها بالبيضِ والأسلِ

وكمْ غَدَتْ عاطِلاً حتّى عَرَضْتُ لها فأصبحتْ في سرِيّ الحَلي والحُللِ

عِرْسُ الملوك لِنا في قصـرها عُرُسٌ كـــلُ الملـوك به في مأتمِ الوَجـلِ

نرى أن الصورة مشبعة بالتجربة الواقعية المتمثلة في استيلاء المعتمد على قرطبة، التي لم يكن لها أن تتضح لوما اعتمد على تشخيص الحدث ، وبث الحياة في أشطار القصيدة من أول بيت عندما قال (جاءتكم مهدية الدول) ،فقرطبة كعروس ضمها إليه بعد أن خطبها بوصفها فتاة تمنعت عن خطبة الملوك، وفضلت أن تبقى عاطلاً حتى خطبها المعتمد ، فأقامت الولائم في قصرها فرحاً بهذا الزواج ، بينما الملوك يتحسرون على فقدها، وكأنهم في مأتم ، فالتشخيص جسّد الفرحة الشديدة للمعتمد في قمة اغتباطه ، فدور التشخيص هنا يعطي التشخيص إيحاءاً ورموزاً إلى حقيقة الصراع الذي لم يتماد معه الخيال ، وإنما اكتفى بتنظيم العلاقة ، وترتيب المشهد السيري الذي يعطي إيحاءات ورموز إلى الأبعاد الحقيقية لهذه الحرب وهذا الصراع .

كما أن الصورة التشخيصية في النصوص السير ذاتية للمعتمد تلعب دوراً في إلهاب العواطف واستفزاز المشاعر، لإسنادها على مرجعيات وحقائق بوصفها مصادر للصورة ، يعود ذلك لرغبة المعتمد الشديدة في تقريب وتوضيح الغائب بوضعه في علاقة مشابهة بأشياء معلومة لتصير بدورها معلومة أيضاً في مثل قوله يتحدث عن نفسه[1] :

غريـــبٌ بأرضِ المغربين أسيرُ سيبـــــكي علـيه منـبر وسريرُ

وتنـــدبه البيضُ الصوارم والقنا وينـــــــهلُّ دمـــعٌ بينهن غزيرُ

سيبكيه في زاهيه والزاهر النّدى وطـــلابُه والعـــــرُف ثمّ نَكير

مضى زمن والملك مستأنس به وأصـــــبح عنه اليوم وهو نفور

[1] المصدر السابق ، ص ٩٨.

أذلّ بنِـــي ماء السـماء زمانُهم وذُلُّ بنـــــــي ماءِ السماء كثيرُ

فمـا ماؤهـــــا إلا بكاءٌ عليهم يفـــيض على الأكباد منه بحورُ

التشخيص للماديات والمحسوسات التي طِرحها من خلال الصور الجزئية التي تحمل أشكال الرثاء من تفجع وندب وتأبين وكأننا أمام مسرح ،يتنافس أبطاله من محتويات حياته وفكره السابقة (القصور ، المنبر ، الندى، الطلاب، العرف ، الملك ، ماء السماء) بكاءاً على المعتمد ،فهو يتوسل بكل صورة تجسد وتشخص موقفه من ماضيه السعيد، فيحاول أن يخلق علاقة بين ذكرياته وخياله ويصور واقعاً مضى ، لم يستطع الفكاك منه أسقط عليه مشاعره الذاتية من الألم والحزن على فقد ملكه وسلطانه بواسطة التصوير المرتبط بالخيال ،الذي يحقق الانسجام بين عناصر من واقعه ،كانت مفككة لا يمكن الربط بينها إلا بالتشخيص لحالين متشابكين في حياة الشاعر الماضي الجميل والحاضر البائس وكثيرا، ما يلجأ الشاعر إلى أنسنة المكان بأشكال مختلفة ،لينقل انفعالاته بصورة حية في مثل قوله[1] :

بكى المباركُ في إثر ابن عبّادِ بكى على إثر غزلانِ وآسادِ

بكَتْ ثريّاهُ لا غُمّت كواكبها بمثْلِ نوءِ الثريا الرائحُ الغادي

إن أنسنة القصور،تتمثل في بكائها عليه وتعني أقصى حالات الاندماج بين الشاعر وهذا المكان الذي لعب دوراً مهماً في تشكيل الذاكرة السير ذاتية له نالتي منحت المتلقي فرصة أكبر للوقوف على المشهد السيري وتصويره بين حالين ، وساعده التشخيص في نقل الصورة بواسطة الحوار القصصي مع القيد عندما خاطبه ، قائلاً[2]:

قيدي أما تعلمني مسلماً أبيتَ أَنْ تُشْفِقَ أو تَرْحَمَا

---

[1] المصدر السابق ، ص ٩٥

[2] المصدر السابق ، ص ١١٢.

دمي شرابٌ لكَ واللحم قد أكَلْتَه لا تهْشـم الأعْظُمَا

إن أنسنة القيد وتشخيصه بإنسان ،يستعطفه ويسترحمه،تلامس الجوانب الخبيئة في نفس المعتمد، فلربما استعار القيد؛ليوْرّي عن شخص آخر لا سيما أنه يذكره بإسلامه الذي لم يحافظ عليه، فحوّله المعتمد في البيت الثاني إلى وحش ينهش اللحم ، ويكسر العظم ، للتعبير عن تجربة صادقة بعناصرها الشعورية والتصويرية ، فأصبحت الصورة التشخيصية "عملية إسباغ وصبغ ، إذ يسبغ الأديب على المشهد مشاعره، وتصوراته الذهنية ، ويصبغه بلون نفسه، وتتّحد به في مساق انفعاله اتحاداً يتيه في رحلة وهمية تشبه الحلم"[1].

ويمكن أن نعدّ التشخيص عنده صورة مركزية استحوذت على مساحة واسعة من نصوص سيرته ، وفي أغراضه الشعرية المختلفة ، فلم يقتصر عليها في الجانب المأساوي ، بل امتطاها المعتمد كثيراً في أغراض شعره وموضوعاته المختلفة، فنجدها حتى في وصف شغفه بالخمر، فيقول[2]:

مررتُ بكرْمةٍ جذبَتْ ردائي فقلتُ لها : عزَمْتِ على إذائي

فقالت لِمَ مَررْتَ ولم تُسلّمَ وقد رُويتْ عَظامُكَ من دمَائِي

تعود القيمة الجمالية للبيتين في قوة التشخيص وكثافته ،التي أضفت الانطباع الحسي على موضوع الصورة ، وقرّبتَ المتلقي من مقدار انغماس المعتمد في الخمر، فالاستعارة استخدمت لغة الأفكار للدمج والتوحيد بين الخيال والواقع والمشاعر والانفعال الصادق ؛لنقله للمتلقي بشفافية ووضوح .

---

[1] إسماعيل، عز الدين ، التفسير النفسي للأدب ، ص٤٤١.

[2] ديوان المعتمد بن عباد ، ص ٢.

كما أُغرم ابن زيدون بالتشخيص في توضيح ملامح من سيرته العاطفية، فلجأ إليه يصور به ما آلت إليه حاله في سجنه وفراره من قرطبة في قصيدته القافية ، ومنها[1]:

إني ذكرتـــــكِ بالزاهراءِ مُشتاقاً والأفـــقُ طلقٌ ومَرْأى الأرضُ قد رَاقا

وللنّســيم اعـــــتلالاٌ في أصائلهِ كأنـــــــه رقّ لي فاعـتَلّ إشـفاقـاً

والرُوض عن مــائهِ الفضي مبتسمٌ كما شـــقّقْتَ عَنْ اللـــبّاتِ أطواقاَ

يومٌ كأيـــــام لذّاتٍ لنا انْصَرَمَتْ بِتْنَا لها حـــين نَــام الدَّهْرُ سُـرّاقا

نَلهُو بمـا يَسْتَميلُ العينَ مِنْ زَهَرِ جَال النّــدى فيــه حتّى مالَ أعْنَاقا

كَأن أعـــــينـه إذ عايَنَتْ أرقي بَكَـتْ لِمَا بَي فجَالَ الدَمْعُ رقراقَا

سَـــــــرَى يُنافِحُهُ نَيلُوفَرٌ عَبقٌ وَسْنَـــــانُ نبّهَ مِنْهُ الصُّبْحُ أحدَاقَا

الأبيات لوحة قائمة على التشخيص والتجسيد ، يرسم بها ابن زيدون ملامح من حياته النفسية والمادية التي يعب فيها من معطيات الطبيعة الأندلسية وصورها ،كما يلقاها معكوسة في عدسة الذات الإنسانية ،ذات الفنان التي تخصبها بأجوائها واتجاهاتها ، فعاد إلى الطبيعة بحثاً عن المماثل ،فتحولت الزهراء إلى إنسان يشاركه انفعالاته ، واصطفت الصور ليقف على عتبة خط متصاعد نسْجه ؛ لاستيعاب هموم الشاعر وذكرياته التي بنيت موادها من الطبيعة ، فالأفق طلق والمرأى رائق يهيج ذكرى ولادة والأيام الجميلة ، فالأفق في جماله كوجه طلق للإنسان السخيّ المستبشر، شأنه شأن الشاعر في الحاضر والروض مبتسم والدهر نائم والزهر مالت أعناقه وله عيون ،بكت وجال في ساحتها الدمع والنيلوفر وسنان، نبّه الصبح أحداقاً ؛ ليسقط عليها ملامح من حالته النفسية ، ويعبر عن حنينه وألم تشرّده بعد العمر الذي قضاه بعيداً في مدينه

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ص ١٣٩

الزهراء، فمزج بين الحنين والتشبيه والوصف للمشهد السيري،يقول الدكتور عمر الدقاق :"ولعل أجمل ما وُفّق إليه ابن زيدون في قصيدته القافية أنه استطاع أن يشخص مظاهر الطبيعة بشراً يحبون ويتحركَون وينفعلون وهذا الخيال ،تطلب من الشاعر أن يلجأ إلى أسلوب طريف من المجاز، أحال معه الرياحين والورود والمياه أناسيّ ،تنبض بالحياة وتشارك الشاعر آلامه وآماله ... كلها استعارات مستمدة من الطبيعة الخلابه ،استطاعت بجمالها وقرب مأخذها أن تعنى بعنصر التصوير في القصيدة" [1] .

ونلحظ أن ابن زيدون، يعتمد على التشخيص في جوانب حياته الأكثر أهمية ،التي يريد أن يبرزها للمتلقي ، فحظيت معاني الطموح وأشكالها بنصيب وافر من الصورة التشخيصية رغبة في بسطها أمام متلق خاص عندما حدث انكسار لأفق التوقعات في بلاط آل جهور ،فقال [2] :

مــقامي في جواركمُ الذليل وحــدّي في رجائكم الكليلُ

لمــختلفان مِنْ حَالي مهما أجــال الفكر بينهما مُجيلُ

نصـيبٌ من ولايتكم كثيرُ وَحــظٌ من عـنايتكم قليلُ

أتـحيا أنفس الآمال منكم ولي أثنــاءَها أمــلٌ قتيلُ

لا يكتفي ابن زيدون بمجرد التنفيس، بل يحاول عامداً أن ينقل الانفعال إلى الآخرين ويثير فيهم ما أثاره الإحباط وإهمال الأمير لرغباته وطموحه، فحوّل الإقامة والمكوث في قرطبة إلى إنسان ذليل كليل متعب ،أتعبت هذه الأوضاع الفكر الذي جسّده بشخص يتحرك ويتجول مذهولاً من ردود الفعل للولاء الكبير ، والعناية القليلة من آل جهور، ويقابل ذلك آمال الآخرين

---

[1] الدقاق،عمر:ملامح الشعر الأندلسي –د.ط،بيروت:دار الشرق العربي،١٩٨٢م،ص١٥٦.

[2] ديوان ابن زيدون ورسائله،ج١،ص٣٣٢.

التي تحيا وتنهض وأمله وآمانيه كالقتلى ،لا حياة فيها، فالعاطفة ترتبط بالخيال، وهذه هي التي دفعت ابن زيدون لتشخيص ما حلّ به وما آلت إليه آماله وطموحاته.

ويجد الإلبيري ضالته في التشخيص الذي يعينه في رسم منهجه الفكري ،ونقل الصورة من حيز الذهن إلى الواقع عن طريق الأنسنة لكثير من الأمور المعنوية والمادية في نصوص سيرته فعندما وصى طالبه وحذروه عن التكاسل ، فقال[1]:

سَتَجْنِي مِنْ ثمار العَجزِ جَهْلاً وتصُغُر في العيون إذا كَبُرْتا

أضفى التشخيص على العجز الذي شبهه بشجرة ذات ثمار لا فائدة منها بياناووضوحا، وحين يضفي الإلبيري التشخيص على شئ معين يصبح ذلك الشئ كالحق كما في البيت السابق ، وكأنه يتمثل قول المرزباني"أحسن الشعر ما قارب القائل فيه الشبه ، وأحسن منه ما أصاب الحقيقة ، ونبّه فيه بفطنةٍ على ما يخفى على غيره ، وساقه برصف قوي ، واختصار قريب ، وعدل فيه عن الإفراط"[2] .فالاقتراب من الحقيقة تسمو بالفكر ليكون شيئاً مادياً وتتحول معه القيم إلى حياة حية متحركة في مثل قوله[3]:

يُضيّعُ مفروضٌ ويُغفَلُ واجبٌ وإنّي على أَهلِ الزّمانِ لعاتب

أ تُندبُ أطلالَ البلاد ولا يُرَى لإلبيرةٍ منهم على الأرْضِ نَادِبُ

فكم مِنْ نجيب أجبتُه وعالِمٌ بأبوابهم كانَتْ ثُنَاحُ الرّكائب

شبه المفروض من الدين بشئ ملموس ،يضيّع والغفلة تنتاب الواجب كما تنتابُ الإنسان ويعتمد البيت الثاني والثالث على الصورة الاستعارية التشخيصية لمدينته إلبيرة التي شبهها بامرأة تُرثى وتُندبُ ؛لما قد أنجبته من العلماء الأفذاذ الذين تشد إليهم الرحال .

---

[1] ديوان الإلبيري ، ص ٢٧.

[2] المرزباني : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، ص ٣٨٠

[3] ديوان الإلبيري ، ص ٤٤.

إن هذا لأسلوب التصويري يُتيح للذات مواجهة ذاوت أخرى للتحاور ،والتواصل معها باستقلالية وحرية في مثل قوله يعاتب نفسه في حوار ذاتي[1]:

لو كنُـتْ في ديني مــن الأبطال ما كـــنت بالــواني ولا البطّال
ولبسْـــتُ منْهُ لأْمـــةً فضفاضةً مــسرودة من صــالحِ الأعمال
لكنني عــطلتُ أقـــواسَ التُقَى مـــن نبـــلها فرمت بغير نَبالِ
لا شئ أخْـــسر صفقةٍ من عالمٍ لعـــبت بـــه الدنيا مع الجُهال

إن مكونات الصورة مستمدة من ثقافته وعلمه ، فهي مصدره الأول (فالإيمان وَصالح الأعمال والتقى وعالم والجهّال)ركب منها جميعاً صورته التشخيصية التي يعبر بها عن تحسره على تراخيه وتباطئه في العمل للآخرة ، فاستطاع أن يتجاوز ذاتيته لتتمازج مع الذوات الأخرى في تجربة حقيقية عامة، فلم يتخذ من الإيمان سلاحاً يناسب مقاس جسده ، يسرده من صالح الأعمال كما يسرد أداة الحرب بعددها ، ولكنه تراخى وعطل أقواس التُقي ، فلم يكن مسدداً في عمله لقلة الزاد مثل من يرمي بالسهام ولا يصيب ، لذلك لعبت به الدنيا، فالصورة الأخيرة صورة من الدارج اليومي الشعبي القريبة من فكر العامة ،يسهل فهمها .

لم يكن لجوء الشعراء لهذه الظاهرة الأسلوبية التصويرية ،إلا لما تقدمه لهم من عون في طرح تجاربهم ، فالتشخيص يمنح الشاعر مساحة واسعة للتعبير عن الذات ويوفر عنصر الإثارة ويخرج الواقع من سياقة الأليف معبراً،ومبتكراً لأجزاء الواقع ومضيفاً علاقات جديدة بين المتباعدات التي تتبلور من خلالها الملامح السير ذاتية للشاعر ومجتمعه .

---

[1] لأمة : السيف ، أو أداة الحرب.

ثانياً / التشكيل بالمفارقة التصويرية :

ظهرت المفارقة التصويرية بوصفها وسيلة من أبرز وسائل الأسلوب التصويري ؛لتشكيل الصورة في الموضوعات السير ذاتية، وهي :"تكنيك فني يستخدمه الشاعر لإبراز التناقص بين طرفين متقابلين بينهما نوع من التناقض"[١].

أو هي :"إبراز التناقض بين طرفين ، أو وضعيين كان المفروض ألا يختلفا ، أو أن يقع بينهما التناقص، والغاية من ذلك هي استنكار هذا التناقص ، أو التعجب منه ،أو تعميق الإحساس به"[٢] . والمقابل التراثي للمفارقة التصويرية ،هو التصوير البديعي كما عُرِف به في النقد القديم القائم على فكرة التضاد ،وعولج تحت مسمى الطباق[٣]في صورته البسيطة ، والمقابلة[٤]في صورته المركبة ولكنها اتسعت مفاهيمها وأقسامها وأنواعها في النقد الحديث[٥]ولم تعد قاصرة على المقابلة والطباق .

وتمتاز المفارقة التصويرية بأنها أسلوب عقلي من أرقى أنواع النشاط العقلي وأكثرها تعقيداً قادر على تكثيف الدلالة ووضوحها، بمعنى " إحداث أبلغ الأثر بأقل الوسائل تبذيرا"[٦].وتبرز أهميتها في كونها تقرع الحقائق بعضها ببعض ،دون أن تستطيع إحداها زعزعة الأخرى من

---

[١] زايد ، علي عشري : بناء القصيدة العربية الحديثة – ط٢ ، مصر : مكتبة دار العلوم ، ١٩٧٩م ، ص ١٣٧.

[٢] حسين، عبد الباقي محمد : سيد قطب حياته وأدبه – ط١، المنصورة : دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٦م ، ص ٢٤١.

[٣] انظر: الطباق : هو الجمع بين الشئ ، ونقيضه في الكلام ، و قد يكونان اسمين أو فعلين أو طرفين ، أنظر : الحمامشي : السيد أحمد : جواهر البلاغة ، د . ط ، بيروت : دار الكتب العلمية – د. ت ص ٢٩١

[٤] انظر: المقابلة : أن يؤتي بمعنيين متوافقين أو أكثر ، ثم يؤتي بما يقابل ذلك على الترتيب ، ينظر : الهاشمي : السيد أحمد ، جواهر البلاغة ، ص ٢٩٢ .

[٥] انظر:دي ميونيك : المفارقة وصفاتها – د.ط ، عبد الواحد لؤلؤة ، بغداد : وزارة الثقافة والإعلام ، ص٦٣ .

[٦] الحكمي : عائشة بنت يحيى : تعالق الرواية مع السيرة الذاتية الإبداع السعودي نموذجاً – ط١ ، القاهرة : الدار الثقافية للنشر ٢٠٠٦ ، ص ٥٥١ .

مكانها[1]مع اعتمادها على الأساليب البيانية ، والخيال هو الذي يقوم بوظيفة الانسجام والتنظيم لمفردات الواقع وظواهره المتنافرة في حياة الشعراء ،نتيجة لكثرة المتناقضات والمفارقات المتنوعة في جوانب حياتهم المختلفة ، ولذا فإن موضوعات السيرة الذاتية، تنبض بأنواع من المفارقات التصويرية ،بوصفها من أهم المقومات الكاشفة عن الملامح السير ذاتية للشعراء، تتفق مع المكونات السير ذاتية لكل موضوع . ولذلك فإن دراسة المفارقة ستقف على نماذج منها في الموضوعات السير ذاتية ؛لاتساعها وكثرتها مما لا يتسع له المقام لاستقصائه وتبدو المفارقة التصويرية في قصيدة المعتمد التي صور فيها وقع خبر أسره على الناس ، فقال [2] :

أنـــــباءُ أسْـرك قد طبّــقْـن آفاقاً ... بل قد عمــَمْن جهات الأرض إقلاقاً

سَرَتْ من الغَرْبِ لايُــطوى لها قدمٌ ... حَتّى أتـــــت شَرْقـهَا تنعاك إشـراقا

فأحْـرَق الفجعُ أكْـــــباداً وأفـئِدةً ... وأغْرَق الـــــدّمعُ أمـــــاقاً وأحداقاَ

قَدْ ضَاقَ صَدْرَ المعالي إذْ تُعيتَ لها ... وقيـــــل إن علــيك القيدَ قد ضاقاَ

أنّي عُلبتُ وكنتُ الــدّهـرَ ذا غلبٍ ... للـــــتغالبين وللســــُّباقِ سبّاقاَ

قلت : الخــطوبُ : أذلّتني طوارُقها ... وكان عـــــزْميَ للأعـــــداءِ طُـرّاقا

إن المفارقة التصويرية التي ينفتح عليها النص تفصح عن الإحساس بمأساة الفراغ على المستوى الإنساني والقيمي والأخلاقي حيث يجعل منها الشاعر في قصيدته مركزاً دلالياً تلتف حوله الأبيات عَبّر عنه بقوله [2]: (أنباء أسْرك) ، وهذا المركز الدلالي هو ملتقى الأضداد التي انطلقت من الشطر الأول في القصيدة بين (طبقن آفاقاً وبين عممْنَ جهاتَ الأرض) وبين (سرت مع الغرب، أتت شرقها إشراقا ، (الخطوب أذلتني طوارقها) وبين كان(عزمي للأعداء

---

[1] انظر: إبراهيم ، نبيلة : فن القصص ، ص ٢١.

[2] ديوان المعتمد ، ص ١١٠.

طراقا) ،فاستعان الشاعر بالاستعارة التصويرية ؛لتشخيص الموقف والحدث المناقض للشعور العام بأسباب أسره، فالمفارقة موقفية ، بمعنى أنها :" تستوعب موقفاً متكاملاً يجسد علاقة الذات المتكلمة ، أو الموضوع المتكلم عنه بالبيئة المحيطة به ، أو بالآخرين الحافين به في زمن ومكان محددين والواقف هنا يقف بسلوكه وفكره موقفاً ،يكثف من خلالهما عما يحيط به ومن يحيط به : بوصفهما وسائل مساعدة ، أو عوائق حاجزة أمام سلوكه وفكره ورغباته وطموحاته ،فيتخذ من ذلك موقفاً محدداً ،يحاول من خلاله تغيير الواقع أو تعديله على أقل الاحتمالات"[1] ،وهكذا تغلب المفارقة الموقفية على نصوص سيرة المعتمد ، فالملاحظ أن اكتمال المشهد وانعكاساته على الآخر ،كان كما يود المعتمد ، أو كما يراه ،يكتمل بظهور تكنيك المفارقة التصويرية المعتمدة على الصورة الاستعارية والتشبيهية ،لإبراز التناقض بين صورتين لموقفين متناقضين ، ويظهر ذلك بجلاء عندما يرثى ماضيه بعدما أُسر ، فيقول[2]:

كنَـــتُ حلْفَ النّدى وربَّ السماح وحبيبَ النـــــــفوسِ والأرواح

إذ يمـــــينى للبـذل يومَ العطايا ولقبضِ الـــــــرواح يومَ الكفاحِ

وشـــــــمالي لقبْضِ كلِّ عنانِ يقْحمُ الـــخيلَ في مجالِ الرِّماحِ

وأنا اليـــــــوم رَهنُ أسـرٍ وفقـرٍ مُسْتباح الحـــمى مهيضُ الجناحِ

لا أجـيبُ الصريخَ وإنْ حضر النا سُ ولا المـــــعتفين يوم السّماح

عَادَ بِشـْرِي الذي عهدتَ عبوساً شغلتنِي الأشـــــجانُ عن أفراحِي

فالتمـــاحي على العـيون كريهٌ ولقـــــــد كان تُـــــرفَةَ اللمّـــاح

---

[1] محرز،سامية:المفارقة عند جيمس جويس وإيميل حبيبي ألف: مجلة الأدب المقارن ، العدد الرابع ، ١٩٨٤م ، ص ٣٥

[2] ديوان المعتمد ، ص ٩٤.

تموج الأبيات بالمفارقات التصويرية ؛لنقل صورتين متناقضتين :لحياته الأولى إيجابية، والثانية :سلبية بواسطة الاستعدادات التصويرية التي صعدت بالأحداث إلى أبعاد المأساة ودقائقها بواسطة تكثيف دلالات التضاد ، فكل تضاد يدخل مع آخر لتوسيع المفارقة يبدأ من قوله : (حلف الندى ، رب السماح) وينطلق من الألفاظ (يميني ، شمالي ، البذل القبض، بشري ، عبوساً ،الأشجان ، أفراحي ، كريه ، ترفه)

ثم تأخذ المفارقة التصويرية بالاتساع عندما تدخل الألفاظ في مستوى تركيبي ،مثل :(يميني للبذل يوم العطايا، وشمالي القبض كل عنان) ،ثم تأخذ المفارقة التصويرية مساحة أوسع، حينما تصبح اللوحة بين الصورتين المتناقضتين عن الماضي الذي عبر عنه بقوله:(كنت) وبين الحاضر الذي أشار إليه (وأنا اليوم) ، فيخرج التقابل الحركي للصورة بالتقابل الزمني عندما يضع الماضي في مواجهة الحاضر، وكأنه يحفز نفسه ضد الألم واليأس ،الذي اشتد جذبه لقدراته بعد أن تغلغل في ملامح الذات حتى وصل إلى الملامح الجسدية ، فعاد بشره وجماله عبوساً وتجهماً ، فالأحزان تتكالب عليه، وأشغلته عن الأفراح ، وفي هذه الاستعارة الماح يشير إلى عدم تصديق الشاعر بالأسر ووضعه الراهن وكأنه شغل ،سيفرغ منه ،أو كربة يعود بعدها ،لأفراحه فهذا هو الأصل . ثم إن حذف المشبه به والاعتماد على الاستعارة ، لأنه لا يريد أن يشبهه أحد ، فمازال يشعر بالتفرد حتى وهو في أسوأ الأوضاع ، ومع ذلك فإن الاستعارة أسعفته في تقديم ملامح من حياتين مختلفتين بكثافة ؛ ليظهر بصورة الضحية لتعاون الظروف عليه ويدحض عن نفسه أن يكون سبباً فيها.

وتستغرق المفارقة التصويرية معظم نصوص السيرة العاطفية لابن زيدون، وقد تنبه لها الدكتور فوزي خضر في قوله:"ويعد ابن زيدون واحداً من الشعراء العرب الذين أكثروا استخدام المقابلة والتضاد بدرجة عالية من الجودة والبراعة والإبداع والمقابلة عنده لم تكن جزئية، وإنما كانت مقابلة

على مستوى بنية النص"[1]. وهذه الظاهرة الأسلوبية عند الشاعر ،ساهمت في تقريب شعر ابن زيدون من ذاته وواقعه ،كما لاحظ ذلك النقاد لشعره قديماً وحديثاً ، فمثلاً: استطاع بالمفارقة التصويرية أن يصور التناقض بين الواقع المعيش للشاعر، والماضي في قوله مخاطباً صاحبيه شاكياً[2]:

خلـيليّ لافطرٌ يســـــرُّ ولا أضحى ... فمَا حالُ مَنْ أمْـسى مشوقاً كما أضْحَى

لئن شـــاقني شرقُ العُقــابِ فلم أزَلْ ... أخُصُّ بممَحوض الهوى ذلك السّفحا

وما انــفك جوفيّ الرصافة مشعري ... دواعي ذكــرى تعقُبُ الأسفَ البَرْحا

يصور الشاعر حاضره الحزين الذي لا يفرحه فيه حتى الأعياد : (الفطرَ، والأضحى) مــستنكراً الاخــتلاف والتــفاوت بين هــذا الواقع وبين أيــامه وذكرياتــه، التي يــستجديها ،بقوله : (شاقني شرق العقاب) الذي يخصه (بممحوض الهوى) ومازال(جوفي الرصافة) ،يشعره بالذكريات الجميلة التي تــتم بالــتشــخيص ،وتــشــــخيص الاستــعارة لانفعالات الشـاعر"لأن وظيفة الاستعارة ليست وصفية تهدف إلى تقريب صورة الشئ أو حتى تجسيده وإنما إدراكه "[3] ، والخيال بدوره، يعكس حالة الذات ،بواسطة تنظيم العلاقة بين المــتناقضات والمــتــضــادات بين أطــراف الــواقع والزمــان والمــكان ، وانــدمــاجها مع أحوال الذات وعواطفها .

---

[1] خضر ، فوزي : عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون – د.ط ن الكويت ك مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، ٢٠٠٤م ، ص ١٤٩ .

[2] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص ١٥٨ .

[3] عبد الله ، محمد حسن : الصورة والبناء الشعري ، ص ١٥٥

وتحفل نصوص ابن زيدون بأنواع من المفارقات؛ لتوظيف قدراتها على التهكم والسخرية ، بوصفه من أهم وظائفها ،كما يراه النقاد[1]لتصوير المواقف والأحداث ، عندما جلّت عن سخريته من ولاّدة في قوله[2]:

وأشْعِره أنّي انتخبت البديلَ وأعْلمُه أَني اسْتجدْتُ العِوضْ

فَــلا مشْــرَبي لِقــلاَه أَمَــرّ ولا مضجــعي لنـــواهُ أقَـضّ

وأنّ يَــدُ البــين مـشكــورةٌ لعَارٍ أمــاطَ وَوَصْـمٌ رحَــضْ[3]

وحَسْبيي أنّــي أطبْتُ الـجَنىَ لإبّــانــه وأبَـحْــتُ النـّقـضْ[4]

تظهر المفارقة التصويرية من خلال (أشعره ، أعلمه ، انتخبت البديل ، استجدت العوض وبين (فلا مشربي لقلاه أمر، ولا مضجعي لنواه أقضّ)، ويبدأ التهكم والسخرية من البيت الثاني فقد شبه واقعه وحياته بالمشرب الذي لم يتغير طعمه بعد بُعدها ، ولم يقض ويزعج المضجع هذا النّوى والبعيد ، بل شكر البين والبعاد لإبعادهما وإزالته للعار الذي وصمته به علاقته بولاّدة ، ثم يأتي البيت الأخير ؛ليبرز موقفه وقراره الساخر بحق هذا الحب ، فكان كشجرة موسمية تلذذ بجناها ، وترك بقايا وآخر هذا الثمر للآخرين. كما أن أسلوب المخاطب والحوار حوّل الصورة المفارقة إلى أسلوب يتسم بالموضوعية، وتؤيد مخبوءات هذه المفارقة زيف العلاقة بمجرد شعوره بخطورتها، وتأثيرها السلبي على حياته السياسية في قرطبة التي يعدّها أهم وأحب من ولادة "فأي شئ يمس هذا الواقع ، ويعاكسه يصبح في نظر الإنسان هدفاً للحرب أو المقاومة، (ولو كانت ولادة) وعلى قدر خطورة هذا الشئ من ناحية وقدرة الإنسان من ناحية أخرى يكون أسلوبه في هذه المقاومة

---

[1] انظر:أمين طه ، نعمان : السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري – ط١ ، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر، ١٩٨٧م، ص٩

[2] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ٢ ، ص ٥٨٩

[3] رحض : الرّحض : الغسل

[4] النقض : ما تساقط من الورق والثمر .

فقد تكون حرباً طاحنة وقد لا يصل الأمر إلى هذا الحد ،فتعالجه طبيعة الإنسان الفنية بوسائلها الرقيقة الهادفة التي تستخدم الذكاء الإنساني الموروث في تحقيق أهدافها ، وبوحي هذا الرصيد ، نستخدم أسلوب السخرية في الحفاظ على الواقع الذي طالت صحبتنا له وتعلقنا به"[1] ،وهذا ما حققه جانب مهم من جوانب المفارقة في الموضوعات السير ذاتية للشعراء .

كما أن المفارقة التصويرية عند ابن زيدون ،تشابكت من امتزاج للخارجي بالداخلي للذات الذي ألهب عواطفها ،واستثارها بمفارقات حياتية نشيطة في اتجاهات سير ذاتية كثيرة .

ويمكن أن تعدّ المفارقة عند الإلبيري منهجاً فنياً وبنائياً في جل نصوص سيرته الفكرية ،فقد حفلت بأنواع وأشكال متعددة منها، ويعود ذلك لسيرة الإلبيري وعمق نظرته للمفارقات التي تسود الحياة والشخصيات والوجود ، فدخلت المفارقة في علاقة ارتباط دائمة مع الإلبيري في جلّ نصوص شعره التي لا تخلو – غالباً من النقد ، الاستنكار ، السخرية الدرامية ، بأشكال متعددة لكثرة القضايا والأفكار والمواقف، التي تأخذ في شعره شكل الحوار والجدل و طرح الأدلة والبراهين لفكر محارب، أو أنه لا يجد قبولاً لدى مجتمعه مع يقينه بصحة فكره وقوة انتمائه لتياره الفكري الذي يمثله ويتمثله .

وكانت وسيلة أسلوبية أثيرة لديه ،تتوسد بين الصوت والواقع المادي الملموس والتجربة الحياتية المعاشة، فأتت المفارقة شاملة تستغرق النصوص قصائد ومقطوعات ، أذكتها نزعة الصراع الدرامي وستكتفي الدراسة بأمثلة عليها ، كما في قوله متعجباً مما يحدث له من تسلط الزمان عليه[2]:

أفي الستين أهجعُ في مقيلي وحادي الموت يوقِظُ للرواحِ

وقد نشرَ الزمان لواءَ شيبي ليطويني ويسلبني وشاحي

---

[1] الهوّال،حامد عبده:السخرية في أدب المازني– د.ط ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢م ، ص ١٦

[2] ديوان الإلبيري ، ص ٤٩.

وقـــد سلّ الحمامُ عليّ نصْلاً سـيقتلَني وإن شاكتْ سلاحي

ويحملني إلى الأجداث صحبي إلى ضـــيق هناك أو انفساحي

تكرّس المفارقة التصويرية الشعور بالتقصير للتضاد ،بين ما يحدث وما ينتظر حدوثه نتيجة لسلوك الشاعر المتمثل من خلال تصويره لذاته وقد بلغ الستين ، وهو كالهاجع النائم في وقت القيوله ، وحادي الموت وداعيه يوقظه، ليصل إليه مع الرواح أي عند الغروب ، مبالغةً في بيان ضيق الوقت وقصره وأن الزمان أوضح عن ذلك بدلالة الشيب الذي وخط رأسه حتى كأنه رفع به لواءً ، ليبين له بأنه سيطويه كما يطوي السجل ويسلبه كل مقومات العيش ، لا سيما أن الموت قد مدّ سيفه ، ولا قدرة له به مهما تعاظمت قوته، فهو هازمه لا محالة ، ثم تأتي المفارقة الموقفية لإنهاء هذا الصراع ، ليموت الشاعر ويحمله إلى قبره أصحابه ، وهناك تبقى النهاية مفتوحة ومبهمة تحتمل أكثر من خيار ، ومقابل هذه النتيجة يتبلور الشعور القاتم للمبدع وتشاؤمه.

والمفارقة التصويرية في هذه الأبيات تهدف إلى قصد تصحيحي للوضع القائم، ونفي الازدواجية بين ما هو كائن وما يجب أن يكون ممثلاً بذاتهِ وما تعانيه من صراع بين المظهر وواقع الحال .

وعندما رثى إلبيرة مدينته التي أصابها الخراب ، قال[1]:

لَعَــهدي بها مُبَيضّةَ الليل فاغتدت وأيـــــامها قد سـوّدَتْها النوائبُ

وما كـــان فيها غـير بشـرى وُأنْعُمُ فَلَمْ يبـق فـيها الآن إلاّ المصائبُ

غدَتْ بعد ربات الحجولِ قصورها يبَــاباً تُغَادِيها الصّــبا والجنـــائبُ

[1] ديوان الإلبيري ، ص ٨٧.

إن رغبة الشاعر في استنكار الوضع القائم في مدينته ،مال به إلى المفارقة التصويرية ، فزاد من وتيرة الصراع الدرامي القوي مختلف الإيقاع والدهشة، ووضع اليد على النواحي السلبية ومكامن الخطأ والنقص مع التعريض الخفي ،يلمح إليه من ثنايا الأبيات بمن تسبب في هذا الدمار ، حيث كانت مبيضة الليل لما فيها من إشراقات دينية وحضارية وثقافية ، فسوّدت وحطمت كل ذلك نالنوائب وكانت من الأمن والرخاء ما صوّره (ببشرى وأنعم) ، تحولت إلى (المصائب) ، وتحولت القصور بمن فيها من مظاهر الغنى والجمال إلى أرض يباب يروح ويغدو فيها هبوب الصبا،والإبل الضائعة بلا رب يتفقدها؛كناية عن تضيع ولاة المسلمين لهذه المدينة .

فالتوازن الذي أحدثته الصورة ،ينم عن توحد الأشياء المتناقضة ، فيغدو الشاعر منظماً للأشياء ،ناظراً إليها في شبه تعادلية بوصفه منطقاً لها وللواقع .

مما تقدم يتبين لنا بأن المفارقة كانت وسيلة تشكيل حية للصورة ،ومقوما فنيا فعّالا في نصوص موضوعات السيرة الذاتية التي يتوحد بها الشاعر مع واقعة ومظاهره المختلفة .

ثالثاً / التشكيل بالتصوير الحسي :

التصوير الحسي، هو تشكيلات حسية ذهنية ،تُستسقى من عمل الحواس "فالوجود الدائم للحس لا يغيب مطلقاً في أي تشبيه أو استعارة حتّى إن بدا أن هناك تشبيهاً غير محسوس بغير محسوس ، إذ لا يمكن تصوّر هذا الغياب كلياً ، وكأن العمل الأدبي الجيّد يعتمد على واحدة من قوى الإدراك الحسي ، أو العقلي أو الخيالي ، فلا بد من وجود وحدة مؤتلفة من هذه القوى"[١] ،فالاستعانة بالتصوير الحسي شئ من طبيعة الشعر .

وتتحدد منازع الشاعر الداخلية في تجربته سواءً ،كانت آتية من العقل ،أو الحس مع موضوعاتها الشعرية المرتدة إلى مجالات الحياة الإنسانية واليومية وإلى ثقافة الشاعر ، فالحواس البشرية واسطة بين الإنسان ، وبين أغلب ما حوله من ظروف ،"فمن شأن لون معين أو صوت أو عطر، أو ملمس أو مذاق أن يستثير ذكريات وتجارب تؤدي إلى صياغة صور شعرية خاصة في ذهن المبدع والمتلقي على حد سواء"[٢]

وتتوزع أشكال التصوير الحسي في موضوعات السيرة الذاتية بتنوع الحواس البصرية والسمعية والذوقية والشميّة واللمسيّة وتتقدمها:

١/ الصورة البصرية :

غالباً ما تكون الصورة البصرية هي أبرز أشكال التصوير الحسي ، وهذا نابع من المكانة العليا التي تحظى بها حاسة البصر بين بقية الحواس ،"فالبصر أدق الحواس ، وأكملها وأمتعها ، فهو يمد العقل بأكبر قدر من الأفكار وأكثرها تنوعاً ، ويلتقط الأشياء من بُعد شاسع ، ويظِل ينقل ما يمتع من غير كلل أو ارتواء)"[٣] ، والبصر أدق الحواس حساسية وتأثراً بالواقع المحيط ، ولذلك كثرت نسبته في الموضوعات السير ذاتية ، وتوزعت بين مكوناتها المتعددة ، وتدخلت في صنع المشاهد التصويرية لقصة قيود المعتمد التي وصفها مراراً في شعره ، وكانت عامل إيصال نشط ؛لتفاعل المتلقي مع القصة في قوله[٤]:

تخلصتم من سجن أغماتِ والتوتِ عليّ قيودٌ لمْ يحن فكها بَعْدُها

---

[١] المبارك ، محمد : استقبال النص عند العرب ، ص ٢١٩

[٢] الصايغ ، وجدان : الصورة الاستعارية في الشعر العربي الحديث ن ص ١١٤ .

[٣] عبد الرحمن ، نصرت : في النقد الحديث – د.ط ، عمان : مكتبة الأقصى ، د.ث ، ص٢٢.

[٤] ديوان المعتمد بن عباد ، ص ٩٥.

من الدُّهم أمّا خَلقُها فأساودٌ تلوّى وأمّا الأيدُ والبطشُ فالأسدُ

يضع الشاعر صورة القيد مستخدماً الأدوات المرئية ، كالألوان والأشكال والأحجام ، وما يستفز حاسة البصر من الحركات والصفات، فوصف ألوان القيود بأنها تشبه الدّهم من الألوان وهي المائلة للسواد ، وأما أشكال مقدماتها الملتفة على معاصمه فحالكة بالسواد ، فالشاعر لا ينقل الصورة نقلاً أصم وإنما تساعده الصورة التشبيهية الحسية لطرفيها في تكثيف الدلالة على وحشية القيد ، ومأساة التعامل مع ديمومة التفافها حول ساقيه ومعصمية بقسوة ، فهو يُعمل فيها خبرته وعاطفته وفكره للتعبير عن ضرورة واقعية، يتعاطاها الشاعر ،فتظهر بشاعة الصورة وتدل على قسوة المعاملة وشدة التنكيل بالمعتمد ،فلم يعامل بوصفه أسيراً، وإنما عومل بالتعذيب والتنكيل الشديدين .

والصورة عند المعتمد صورة واقعية تؤدي دوراً مقرر في اللوحة في مثل قوله يصف مجلساً من مجالس أنسه[1]:

حَسَدَ القـصُر فيكم الزهراءُ ولعـــمري وعمركم ما أساءَ

قد طلعتم بها شموساً مساءً فاطلــعوا عندنا بدوراً مساءً

فشبه حضور أصحابه في قصره في الزهراء بالشموس في المساء وهو وقت يقرب من غروب الشمس ، حيث تبدأ الشمس في أصفى وأجمل ألوانها ، وشبه طلوعهم فيها ليلاً بالبدور التي تضئ الظلام فالصورة الضوئية المتقاربة الألوان والتقليدية ،يناسبها الموقف اللاهي للتجربة المستمدة بمكوناتها من بيئته .

وقد "كانت الزهور على جانب الحدائق من الموضوعات المفضلة لدى شعراء الأندلس"[2] .واستطاع ابن زيدون أن يسوق من الألوان والطبيعة ،ما يوائم ذكرياته رابطاً إياها بحالته النفسية في مثل قوله[3] :

أيـــــنَ أيامُناَ وأين لِيالٍ كـــرياضٍ لبسن أفواف زهر[4]

حين تغدو إلى جداول زُرق يتغــلغلن في حدائق خضرٍ

فالتشبيه التمثيلي الذي قامت عليه اللوحة قائم على الألوان التي حظيت بها بيئته القرطبية وشكلت بحد ذاتها عامل جذب وحنين دائم لدورها في إثراء عواطفه بالسعادة الخالصة من المنغصات فهو

---

[1] المصدر السابق ، ص٤٩

[2] غُومس ، غرسيه : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، ص ١٤٩.

[3] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص ٢٣٣ .

[4] أفواف : مفردها فوفَه وهو البياض .

يتساءل عن أيامه ولياليه ،التي تشبه رياض اكتست بأزهار بيضاء في بداية فصل الربيع مع ذوبان الثلج وانسياب الجداول الزرقاء المتغلغلة بين الحدائق المخضرة التي تعلق بها وبزخرفها الأندلسيون .

فارتباط ابن زيدون بجمال قرطبة حدا به لهذا التشبيه، واختيار هذه الألوان تعبر عن حالة معينة فالماضي بصعوباته وبكل ما فيه من تعب وراحة وألم وأمل ،يُعد سعيداً قياساً بالحاضر في البياض مقياس للدلالة على الطور الإيجابي الذي زال، وأصبح الحاضر للشاعر معاكساً له.

ولم تخل سيرة الإلبيري من الصورة البصرية التي يراوح بها في مجاله الفكري عندما قال[1]:

يشهدُ العالمون في كل فنٍ أنّه كالشهاب في العلماء

وقضاةُ الزمانِ أرضٌ لديه وهو من فوقهم كأفق السماء

فلكي يعلي من شأن قاضيه وتميزه، ومكانته الفريدة ، فقد شبهه بالشهاب المضئ ، الذي اعتلى – أيضاً ، فأصبح كالأفق الواسع الذي يحتوي الشهب والنجوم والكواكب والقضاة دونه كالأرض تحت السماء ،ويلجأ الشعراء إلى استخدام أدوات أخرى غير الألوان في تصويراتهم البصرية ، فالإلبيري يصور القانت الصامت في قوله[2]:

وصـــــامت في قلبه مقول بالذكـــــــر لله طويل لسن

تراه كالأبلـــــــه في ظاهرٍ وهو من أذكى الناس فيما يُظنْ

فقد شبه المسلم كثير الصمت المتفكر في آلاء لله كالأبله والبله ،هم الغافلون عن الدنيا وأهلها وفسادهم وغلّهم ، فإذا جاؤوا إلى الأمر والنهي ،فهم العقلاء والفقهاء[3]وهو بذلك من أذكى الناس مع أن مظهره لا ينم عن هذا الباطن المغاير له ، فالإلبيري يهتم حتى في التصوير الحسي بالنواحي المعنوية والفكرية أكثر من الشكلية .

وتذكر رؤية سرب القطار ومرورها في أفق معتقل المعتمد في أغمات بأهله ، فيلهمه الخيال صورة أسرته المجتمعة قديماً في الأندلس، فقال[4]:

بكيتُ إلى سرب القطا إذ مررْن بي ســوارحُ لا سجنٌ يعوقُ ولا كبْلُ

ولم تـــــكُ والله المعيذُ حسادةً ولكن حنيناً أن شكلي لها شكلُ

---

[1] ديوان الإلبيري ، ص٩٩ .

[2] ديوان الإلبيري ، ص ١١٦.

[3] ابن منظور : لسان العرب – ط٦ ، بيروت : دار الصادر ، ٢٠٠٨ ، مادة بله .

[4] ديوان المعتمد بن عباد ، ص ١١٠.

فالصورة تقوم على التشبيه ،لكنها موغلة في الحسية الواقعية المباشرة بين أطراف حقيقية، فقد شبه اجتماعه بأسرته ، وترابطها وعلو مكانها بترابط سرب القطا المحلق في الأفق العالي في أجواء الأفق العالية وفي هذه اللوحة "ليس بين الحقيقة والخيال صراع ، فكلاهما عنصر فعال في مجال أوسع هو عالم الأشياء ، والأشخاص والأحداث"[١].

فالشعر ليس خيالاً صرفاً ، وإنما الطاقة الإبداعية الخلاقة توحي بطاقة تخيلية ، والملاحظ أن ابن زيدون لم يبعد عن عناصر الطبيعة في صورة ،أو بالأحرى لم يستطع الفكاك منها ومن سيطرتها على وجدانه في أغراض وموضوعات شعره ،فعندما وصف قدراته السياسية ،ومكانته المتفردة لابن جهور قال[٢]:

أنا غَرْسٌ في ثرى العلياء لو أبْطأتْ سُقياك عنْه لذَبَلْ

فقد امتدت الصورة للذات لتشبه الغرس، وهو النبت في أفضل أطواره وهو نابت في الأماكن العالية ويذبل بمجرد تأخر السقيا عنه، التي شبهها بعطاء ابن جهور وتحقيقه لحلم الشاعر .

٢/ الصورة السمعية :

يلي التشكيل بالصورة البصرية التشكيل "بالصورة السمعية من حيث القيمة الجمالية ، وهما معاً يفضُلان الحواس الأخرى من حيث القيمة العقلية والثقافية"[٣]، والصورة السمعية هي التي تتدخل حاسة السمع على نحو كبيرة – في تشكيلها وذلك بالتركيز على ما فيها من أصوات وأجراس ، وقد وظف الشعراء هذه الحاسة في تصوراتهم ، في مثل قول المعتمد[٤]:

أمَا سمْعتَ بسلطانٍ شبيهك قد بزّته[٥]سودُ خُطوب الدّهر سلطانا

تستدعي المخيلة في هذا الظرف القاسي والمأساة المروعة صورة أبي فراس الحمداني ،الذي استذكر ما سمع عنه من مأساة استلبت ملكه وغلبت سلطانه ، فشبه نفسه وما أصابه من الخطوب والنوائب بأبي فراس الحمداني الذي سمع بسيرته التي تشبه سيرة المعتمد ونرى أن الصورة الحسية، تلامس سيرة الشاعر في أبعادها السياسية ،أو يحاول هو أن يقربها للمتلقي من سيرة أبي فراس.

---

[١] إسماعيل ، عز الدين : التفسير النفسي للأدب – د. ط ، بيروت : دار العودة ، د.ت ، ص ٤٤

[٢] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ٢ ، ص ٣٤٢

[٣] مراد، يوسف : مبادئ علم النفس العام – ط٧ ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٧م ، ص ٩٨

[٤] ديوان المعتمد بن عباد ، ١١٥

[٥] بزته : استلبته.

بينما يعتمد عليها الإلبيري – أيضاً في افتخاره بذاته وقدراته على ارتجال الكلام وسهولة انثياله على لسانه ، وسرعة انقياده له في طواعية بوصفه عالماً وفقيهاً تعد الفصاحة معه لازمة من لوازم حياته ،فيقول[1]:

ولو أنني أدعو الكلام أجابني كإجابةِ المأسور دعوة آسر

فالكلام يجيب دعوته ويستمع له، ويتدفق على لسانه بسهولة وطواعية مثل ما يجيب المأسور متلهفاً دعوة الآسر ليطلق سراحه، والإلبيري يرمز إلى رغبته الشديدة لتبليغ أفكاره وأن مقوماته كافية ولا يمكن أن تقف حائلاً دون ذلك ، ولكن الحواجز الخارجية تحول دون إطلاق قيد هذا الكلام .

بينما يصوّر ابن زيدون ذيوع خبر ارتباط ولاّدة بابن عبدوس، وردود فعله عندما سمع هذا الخبر، بقوله[2]:

قالوا أبا عامرٍ أضحى يلمُّ بها قُلْتُ الفراشةَ قَدْ تدنو من النارِ

بأسلوب ساخر تهكمي يصوّر ابن زيدون تشكيل العلاقة بمستوى وضيع وواهٍ وضعيف، عندما شبه قرب ولادة من ابن عبدوس بقرب الفراشة من النار، فتظهر النتيجة الحتمية لهذه العلاقة دون كثرة إمعان تفكير ،بالنهاية الحتمية وهي الاحتراق بالنار .

ولا تأخذ الصورة السمعية الحيّز الذي تتبوأه "الصورة البصرية وقد أشار أحد النقاد إلى ذلك بقوله : إن من أصعب الصور تصويراً صور المسموعات ، إذ لا يجيد الأديب تصويرها إلاّ إذا سلك مسلك الإسهاب والتفصيل"[3] ،ولذلك بدت اقل وروداً من الصورة البصرية .

٣– الصورة الشمية :

هي الصورة التي يتمّ فيها إدراك الأشياء ، وتجسيدها بالتركيز على حاسة الشم ، وهذه الصورة تشيع بشكل أظهر في السيرة العاطفية لابن زيدون، مقارنة بورودها في موضوع السيرة السياسية والفكرية وبديهي ،أن تبرز في نصوص شعره ،ارتباطها – كثيراً بالطبيعة القرطبية والتفاعل مع الحياة الاجتماعية، وتقاليد المجتمع الأندلسي الذي أغرم بالجمال وأدواته المختلفة ، وامتازت الصورة الشمسية عنده بالابتكار والقدرة على تركيبها في أي غرض شعري ،كما في تصويره لتعامل آل جهور معه عندما قال[4]:

---

[1] ديوان الإلبيري ، ص ٩٣.

[2] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص٩٦ .

[3] حامد ، عبد القادر : دراسات في علم النفس – د.ط ، القاهرة : المطبعة النموذجية ، ١٩٤٩م ، ص١٧٢.

[4] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ٢ ، ص ٥٩٠.

بني جهورٍ أحرقتُم بِجفائِكم ضميري فما بالُ المدائحِ تعبَقُ

تعدونني كالمندلِ الرّطبِ إنّما تطيبُ لكم أنفاسُه حين يُحْرَق

استثار جفاء بني جهور الشاعر، فمع ولائه وكثرة مدائحه لهم ،أحرقه حسرة كثرة مدائحه لهم التي شعر معها بضياع آماله وتبخر أحلاه ولكن مع ذلك ،فقد بقي اعتباره لذاته وافتخاره بها يبدوعاليا وفي الصورة التشبيهية عندما شبه نفسه بالمندل وهو عود طيب الرائحة ،يستعمل للبخور ، فتزكو رائحته بالحرق وتنتشر في الآفاق وكأنه، يشير إلى أنه سيبقى جميلاً متميزاً حتى لو أحْرِق من كثرة الأعداء وتحطيم الطموح .

ويعيد على ذاته في صورة شمّية أخرى مستقاة من الطبيعة ،يؤكد فيها على تميزه في قوله يتحدث عن مقداره الرفيع[1] :

إذا راق حسْنُ الرّوضِ أوفاح طيبه فما ضَرّهُ لوطنّ فيه ذُبابُ

تحول ابن زيدون في هذه الصورة إلى أينع زهره وراق حسنه ، واتسعت مناحيه حتى فاح طيبه في الآفاق ، فما يضره طنين الذباب الذي يعيش عليه ويقتصر به أعداءه ؛لقلة الأثر وحقارته بجانب كثافة الروض واتساعه ، ويؤيد هذه الصورة الحسة الاعتبار العالي للذات عن ابن زيدون وإقباله على الحياة .

وظهرت الصورة الشمسية في تغزل المعتمد بإحدى جواريه ، وما زالت الصورة مرتبطة بالطبيعة في قوله[2]:

هي الظبي جيداً والغزالة مقلة وروضُ الرباعَرْفا وغصن النّقا قدا

بدت الصورة الحسية الشمية في قوله (روض الربا عرف) فقد شبه رائحة الجارية (سحر) بطيب أزهار الروض ما يدعوه لهذه الصورة ، هو انحسار دواعي الجمال .

بينما الإلبيري لم يأبه بمثل هذه الصورة ، فالشم لا يشغل فكره بقدر ما تثار حواسه الأخرى كالبصر والسمع أو اللمس .

---

[1] المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٣٨١

[2] المصدر السابق،ج١، ص٢١٥.

٤–الصورة الذوقية :

تقوم هذه الحاسة على الاتصال المباشر بين الإنسان والأشياء من حوله "وهي قائمة على التماس المباشر"[١] والصورة الذوقية أقل وروداً في النصوص السير ذاتية من سابقاتها ، وقد وردت عند المعتمد في قوله[٢] :

وارحمْ أُخيّات له مثله جرّعْتُهن السُّم والعلقما

شبه شدة المحنة التي أصابت نباته بمن يتجرع ويغص بالسم والعلقم المرّ من هذا المشهد الذي يرسف فيه والدهم في قيوده ، فمشاعر الشاعر الحزينة هي الدافع لاستجلاب الصورة التذوقية معادلاً للغصص التي يتجرعها كل يوم في أسره .

ويبقى الفكر هو الأثر الفعال في الشاعر وصورته عند الإلبيري ،فها هو يشبه ألم السوط الذي جُلد به أحد الأشخاص الذين أقيم عليه حد القذف بأنه مرَّ المذاق في قوله[٣]:

السوطُ أبلغُ من قال ومن قيل ومن نباح سفيه بالأباطيل

مرُّ المذاقِ كحد النار أبردُه يُعقّلُ المُتعاطي أيُّ تعقيل

كان السوط وشدة ألمه قد رفعته إلى مستوى حاسة الذوق إمعاناً في تصوير الموقف الذي يهدف منه للاعتبار والعظة .

وترتبط الصورة التذوقية في النصوص الشعرية غالباً بالمرارة والملوحة والحموضة ، بوصفها انعكاسات لانفعالات نفسية أليمة، لذا لم تبرز الصورة التي تتعلق بالحلاوة أو اللذة عند المعتمد والإلبيري، ولكن نجد الصورة التذوقية عند ابن زيدون تتعلق باللذة وحلاوة الطعم، عندما قال[٤]:

عيّر تمونا بأن قدْ صارَ يخلُفُنا فيمن نُحِبّ وما في ذاكِ من عار

أكلٌ شهيٌّ أصبْنَا من أطايبه بَعْضاوبعضاً صفَحْنا عنْه للفارِ

فقد شبه علاقته بولادة بمثابة الأكل الشهي اللذيذ الطعم الذي أصاب منه وأكل بعضاً ، وترك الباقي فضلة للدواب وهذه الصورة ،تظهر عمق السخرية والاستهتار بالقيمة الأخلاقية لهذا الحب .

---

[١] مراد، يوسف : مبادئ علم لانفس العام ، ص٦٤.

[٢] ديوان المعتمد ، ص٧

[٣] ديوان الإلبيري ، ص١٢٥ .

[٤] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص١٩٦م.

٥- الصورة اللمسية :

وهي الصورة التي تتحسس مواطن الجمال باستخدام حاسة اللمس المتمثلة في الجلد ، فتستبطن ملمس الأشياء من حيث النعومة أو الخشونة الليونة ، أو الصلابة ،الحرارة أو البرودة ،فهي بذلك تضم إحساسات رئيسة هي :" أولاً : الإحساس بالتماس والضغط ، ثانياً : الإحساس بالألم . ثالثاً : الإحساس بالبرودة . رابعاً : الإحساس بالسخونة"[١]

وارتبط اللمس عند المعتمد بالقيود وكثرة ملازمتها للمس جسمه في مثل قوله ،يصف ألمه الشديد على ساقيه[٢]:

تعطّف في ساقي تعطّف أرْقمٍ يساورها عضاً بأنياب ضيغم

إن تشبيه القيد بأنياب الأسد في شدة عضها نناتج عن إحكام القيد والسلاسل عليه حتى كأنها ثعبان ،يتعطف ويتلوى وهذا يدل على ملازمته للقيد وتشديد العقوبة عليه في منفاه .

وفي التحذير من العقوبة الأخروية والترهيب مما يقرّب إلى النار ، يشرح الإلبيري بعض أوصاف أهل النار بأسلوب وعظي ، فيقول[٣]:

ويــلٌ لأهـــل النّار في النّـار ماذا يقـــاسون من النّار

تنقدُّ من غيْظ فتغلي بــهم كمــرجلٍ يَغْلي من النّار

إن الصورة اللمسية ،تقوم على تشبيه النّار بالمرجل وهو القدر من الحجارة النحاس الذي يغلي وتشيع الحرارةفيه ،فلا يلمس ويبدو تأثر الشاعر بالبيئة التدريسية والتعليمية التي تقوم على مباشرة الواقع الحسي موضوعياً وفنياً وضرب الأمثال .

بينما تفرض عاطفة الألم والشعور بالمحاصرة والمضايقة الشديدة من قبل أعداء ابن زيدون نفسها على عواطفه ،فيصورها في معرض شكواه من المنافسين لابن جهور بقوله[٤] :

فلا بَرِحَتْ تلك الضَغَائنُ أنّها أفاعٍ لها بين الضلوع لَصَابُ

إن الصورة المبدعة المنطوية على نزعة اللمس تظهر دقة التصوير للضغائن وأنها خفية ناعمة اللمس،

---

[١] مراد ،يوسف : مبادئ علم النفس العام ، ص ٦٤

[٢] ديوان المعتمد بن عباد ، ص ١١١ .

[٣] ديوان الإلبيري ، ص ١٠١ .

[٤] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص٢٩٤

لكنها شديدة الالتصاق بالجسد فلا يشعر بها الإنسان مباشرة نلنعومتها ولكنها شديدة التأثير، ووجه الشبه يقوم على التأثير القوي الملامس له بدون أن يشعر ابن جهور بقوة هذا الألم .

ونرى تنوع أشكال التصوير الحسي في الموضوعات السير ذاتية واعتمادها بشكل كبير على التشبيه الذي يقربها من الواقع وكما يقول النقاد :"الصورة تضعف كلما انحصرت في نطاق الحواس"[1]لأنها تقربها من الواقع مصادر ومضامين ومعانٍ.

وقد تقدمت الصورة البصرية على أشكال التصوير الحس واشتركت الحواس البقية في تشكيل بتفاوت نسبي بين الموضوعات حسب الحاجة إليها .

واشتركت في ارتباطها جميعاً بحياة الشاعر وانفعالاته واستقت منها مصادرها ، وإن اختلفت مشاربها ومواردها من سيرة إلى أخرى ، وأسهمت بوصفها أحد عناصر المقومات الفنية في تشكيل ملامح نفسية وموضوعية للشعراء .

كان الأسلوب التصويري بوسائله واشكاله ،وسيلة شعرية راقية ملازمة للشعر ، وكذا الموضوعات السيرية ،جنح إليها الشعراء لتشخيص معانيهم لحوالهم الذاتية وأوضاعهم السيرية للعيان وإظهار عواطفهم ، لجعلها شاخصة للمتلقي وبيان المفارقات والمتناقضات في حياتهم وتصوير الواقع بأطرافه تصويراً حسياً ،يقرب من الأذهان في جوانبه المختلفة .

---

[1] غنيمي هلال ، محمد : النقد الأدبي الحديث ، ص ٤٠٠ .

المبحث الثاني : الأسلوب المباشر ودوره في تشكيل الملامح السير ذاتية .

قد يكون الأسلوب أنساقاً غير مألوفة تبرز في فترة تاريخية معينة الأسباب ودوافع تفرضها طبيعة الظرف الفكري والثقافي والحضاري ، فتزدهر بعض الأغراض والموضوعات والقيم، أو الظواهر الفنية غير المنتظرة في النص الأدبي شعراً ونثراً في عصر ما .

وقد كان الأسلوب المباشر أحد الظواهر الفنية التي ازدهرت في الشعر– فترة الدراسة – وظهر في الموضوعات السير ذاتية ، ويعتمد هذا الأسلوب على تقديم الشاعر تجربته تقديماً مباشراً بحيث تفهم في سرعة، ولا يجد القارئ معاناة في البحث عن أفكار الشاعر ومراميه واستخلاصها من قصيدته ، لأن الشاعر يعتمد على طاقات تعبيرية لا تحفل بالبيان كثيراً ، وتزداد فيها جرعة الدلالة المباشرة للكلمات والتراكيب المعيارية والجمل والعبارات ، "ويسير غالباً على نهج التقريرية المباشرة ويأتي متجاوباً مع ظرف آني ، أوحدث سريع ،أو تشكل طبيعي مرئي وإذن ، فقد اتسم بعنايته بالناحية الوصفية للموضوع أو الحدث ، فهو لوحة امتزجت فيها الألوان والحركات مستلّة من أجواء الطبيعة والواقع المعاش "[1].

ولم يحفل هذا الأسلوب بعناية النقاد ،كما حفل الأسلوب التصويري؛ إلا إشارات متفرقة وقليلة عند حازم القرطاجني الذي لا يمانع في أن يوشح الأسلوب التعبيري التصويري بالتقريري ، لأن صناعة الشعر تستعمل يسيراً من الأقوال الشعرية ، لتعضد المحاكاة في هذه بالإقناع في تلك المحاكاة ، وإنما يعاب الشاعر إذا أكثر أقاويله ، أو قارب مساواة الباقي بزياد قليلة ،أو نقص خطابه"[2].كما أن الأثر الجمالي قد يوجد في نظم مجرد من الخيال .

---

[1] البلدواي ، حميدة : قراءات أندلسية– في الجهود النقدية والظواهر الفنية والتجربة الشعرية ، ص٥٦

[2] القرطاجني ، حازم : منهاج البلغاء ، ص ٢٩٣.

وهناك مقوله تنص على أنه :"كلما قربت اللغة من وضعها البدائي ، كلما كانت تصويرية"[١] .ويقول أبو حيان التوحيدي "وأحسن الكلام مارقّ لفظه ، ولطف معناه ، وقامت صورته بين نظم كأنه نثر، ونثر كأنه نظم"[٢] .فهو الأسلوب الذي يحتفي فيه الشاعر بالواقع الكثير سواءً في ألفاظه أو معانيه .

وألمح الدكتور محمد غنيمي هلال إلى هذا الأسلوب عندما رأى بأن الصورة "لا تلتزم ضرورة أن تكون الألفاظ والعبارات مجازية ، فقد تكون العبارات حقيقية الاستعمال ، وتكون مع ذلك دقيقة التصوير"[٣] .

وإذا لم تحفل الدراسات النقدية بهذا الأسلوب كثيراً ، فإن الأسباب التي حفزت هذا الأسلوب كفيلة ،بأن تبين أهميته ودوره في تشكيل الملامح السير ذاتية ووضوحها عند الشعراء ، ومن أهمها : أن الشعراء ناثرين وكتاب وعلماء ووزراء اشتهروا بالملكة اللسانية، والحفظ والفصاحة المتأتي من الحفظ الغزير والمتنوع لدواوين الشعراء[٤] ،فقربت لغة الشعر من لغة النثر حتى عند أكثر الشعراء غنائية مثل : ابن زيدون الذي قال عن شعره ابن بسام "تأتي من إشبلية كتب عنه بالنظم الخطير أشبه فيها بالمنثور"[٥]، وكان لتغلغل الشعر في الحياة العامة، واستخدامه في كثير من الأمور اليومية ،فكان في بعض الأحيايين يؤدي وظيفة الرسائل والبطاقات ، وأحياناً يحل محل لغة الجدل والمناظرة"[٦]، دوره في البحث عن أساليب تعبيرية حية تمد النتاج الشعري بالتجديد والانفتاح على الواقع المباشر الحي الذي يشكل محور اهتمام في حياة الشاعر ، ويرغب في احتوائه وتسجيل انفعالاته به .

---

[١] ابن يحي ، محمد : السمات الأسلوبية ، ص ١٧٩ .

[٢] التوحيدي ، أبو حيان : الإمتاع والمؤانسة ، ج م ، ص ١٤٥.

[٣] هلال ، محمد غنيم : النقد الأدبي الحديث ، ص ٤٣٢.

[٤]انظر: البلداوي ، حميدة : قراءات أندلسية ، ص ٥٥.

[٥] ابن بسام :الزخيرة ، ق١ ج٢ ، ص ٣٥ .

[٦] هيكل، أحمد: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة – د. ط ، القاهرة .دار المعارف ، ٨٣، ص٢٢١ .

ووافق هذا الأسلوب الذوق الفني السائد الذي يراعيه الشعراء ، وهو الميل لظاهرة البديهة والارتجال[1]في الشعر التي ازدهرت في المجالس الأدبية الأندلسية التي يقيمها الخلفاء للمنافسة في النظم وارتجال الشعر على البديهة في مثل قول المعتمد يستجيز أحد الحاضرين عندما صنع شطراً من الشعر، يصف فيه قصره[2]:

سعد السعود يتيه فوق الزاهي .

فقال ابنه الرشيد[3]:

وكلاهما في حسنه متناهي

وسنرى أن هذه المباشرة في الأسلوب أمدّت الشعر بملامح من سير الشعراء في جوانب مختلفة ، وأضفت عليها سمة الوضوح والصدق الفني وإلقاء الضوء على ملامح من ممارسات الشعراء من خلال البطاقات الشعرية التي يبعث بها الشعراء لأصدقائهم للدعوة والزيارة في مثل قول ابن زيدون ،يستدعي صديقه أبا عامر[4]:

طابتْ لنا ليلتنا الخالية فلتنسينا هذه التاليه

أبا المعالي نحن في راحة فانقل لنا القَدم الغالية

تغلب نثرية ألفاظ المقطوعة على الأبيات،فيزيد وضوحها وبعدها عن التكلف أو التصوير .

ويكثر عند ابن زيدون والمعتمد الميل لمثل هذه المقطوعات القصيرة ، وبأساليب تعتمد على الألفاظ دون تصوير ،خصوصاً في التعبير عن الجانب الاجتماعي اللاهي من حياتهم ؛لتلمح

---

[1] للوقوف على ظاهرة البديهة والارتجال عند الأندلسينن بالتفصيل ن ينظر : البلداوي ، حميدة ، قراءات أندلسية ، ص٥ وما بعدها، ٢- الجمل، إيمان : المعارضات في الشعر الأندلسي – ط١، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠٧م، ص ٥٥٨.

[2] ديوان المعتمد ، ص ٧٦.

[3] ديوان المعتمد ، ص ٧٦.

[4] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص ٢٢٨.

إلى ميل الوزراء والأمراء للترف، بينما لا يظهر عند الإلبيري مثل هذه الموضوعات والأغراض ، أو الاعتماد على البديهة والارتجال لأنها غالباً لا تصدر إلا عن نفوس أحبت الحياة ، ومالت إلى الظرف والمدح والتأنس وأولعت بتسجيل هذه اليوميات مباشرة .

إن ظاهرة الأسلوب المباشر ،تمتاز بالميل للواقع سواءً في اللغة اليومية ، أو في الأحداث والتجارب، فيمكن أن نطلق على هذه النصوص قصيدة"التفاصيل اليومية" ،التي ينساق فيها الشاعر لذاته وليس لخياله ، ومن ذلك رد المعتمد على سؤال زوجته ، واستنكارها لما وصل إليه حالها وحال زوجها فقال[1]:

قـــالت ياسيدي هنا هناّ مـــــــــولاي أيـــن جاهُنا

قـــــــلت إلـــى هـــنا صـــــــيّرنا إلا هُـــــنا

فالشاعر يعتمد على تصوير الموقف ونقل ما حصل بينه وبين زوجته من حوار باللفظ المعبّر، فينحاز إلى لغة شديدة الواقعية في وصف الحدث في تناسب مع طبيعة الموقف والتجربة .

ويغلب على الشعر الذي يميل لهذا الأسلوب بأنه شعر انطباعي ،يجاري تحولات الحياة السريعة وتقلباتها في حياة الشعراء ، فلا وقت للتأمل والإعادة للظروف المحيطة بالموقف ، أو لأن الحدث ينتهي بعد تسجيله شعراً وذلك في مثل قصيدة المعتمد يصف الموقف الذي حدث بينه وبين شاعره ،الذي زاره في أغمات، وأعطاه المعتمد الترر القليل من المال ، فأعاده الشاعر للمعتمد إشفاقاً بحاله وفقره ، فوقع ذلك من نفس المعتمد موقعاً مؤلماً مع أنه عذر الشاعر ، لكنه تذكر أيام العطاء بلا حساب كيف عادت عليه عكس ما كانت؟ فقال يصور ذلك اللقاء ويصف بعض ما أصابه من ألم[2]:

---

[1] ديوان المعتمد ، ص ١١٤

[2] المصدر السابق ، ص ١٠٤

ردّ يِـــــــرى بغـــــــيـاً وبـــراً وجَـفَا فاســـــتحق لـومـاً وشـكرا

عاف نـزْري إذ خاف تأكيد ضُرّي فاستـــــحق الجفاء إذ عاف نزْرا

يـا أبـا بكر الـــــــغـريب وفَـاءً لا عـــد منـاك في الـمغارب ذخراً

إن صعوبة وضع المعتمد لا تسمح له بإعادة النظر في القصيدة ، كما أنه لم يتكلفها فالموقف والحدث والظروف لا تسمح بذلك ، لذا اعتمد مباشرة الوصف مكتفياً بالألفاظ وتنظيمها ، وتعليق بعضها ببعض من خلال صيغ الأفعال (ردّ ، جفا ، فاستحق ،عاف ، عاد ، طويت) وتكثيف حركتها وحيويتها ؛لتنشيط الموقف السيري واللقطات السريعة للمشاهد باكتمال الجمل في كل شطر على حده في صور جزئية، ترتبط بالمشهد الثاني بحروف العطف لتكون صورة كلية للمشهد دون استغراق ،أو استخدام واضح للأسلوب البياني أو التصويري.

ونرى أن هذه العضوية والمباشرة ، قد منحت الشاعر فرصة للدخول في التفاصيل للأحداث فمنح النصوص أبعاداً سيرية أكثر وأوضح ومثل ذلك ،يتجلى في اعتذار المعتمد لشاعره ابن حمديس الذي زاره في منفاه ، فلم يخبره الخدم بذلك ، فتوجه لشاعره ، يفصل له حقيقة الموقف فقال[1]:

حُجْـبتُ فلا والله ما ذاك عن أمري فأصغْ فدتْكَ النّفسُ سمـْعاً إلى عذر

عَدمْـــتُ من الخُـدامِ كلّ مُهـذّبٍ أشـيرُ عليه بالـــــخفيّ من الأمـرِ

ولم يبـــــــق إلا كلُّ أدْكنَ ألْكَـنٍ فلا آذنٌ في الأذْنِ يبْـــرأ من عرِّ

[1] المصدر السابق ، ص ١٠١

ولعل مثل هذه الخصائص هي ما يقصدها إبراهيم أمين عندما يرى "أن هذا الأسلوب لا يقوى عليه إلا شاعر قدير ، إذ هو أصعب من الصورة الخيالية"[١] .فالشاعر يقرب من ذاته ومن سيرته بشكل كبير وهذا ما لاحظه الدارسون للشعر السياسي الأندلسي، بأنه "شديد الارتباط بالحياة والواقع الذي يعيشه المسلم الأندلسي"[٢]. وحياة الشعراء عامة والشعراء الثلاثة – موضع الدراسة كانت مرتبطة بالحياة السياسية ؛ لأنها المؤثر الأقوى في الحياة آنذاك ،كما كان من عوامل ظهور هذا الأسلوب اعتماد الشعراء عليه في المواقف التي تمتاز بالصراحة ، وصدق التعبير عن الموقف دون حرج ، وقد كان الأندلسيون لا يرون حرجاً في أمور كثيرة ،كان يتحرج منها العربي قديماً ، بل من السهل التعبير عنها، وهذا ما قرّب الشعر من ذواتهم وسيرهم ، فلا يتحرجون من الغزل بالعلماء ووصفهم صراحة ، ونقل مشاهد من حياتهم الهازلة أو الغاضبة بوضوح مثل قول ابن زيدون عن ضرب ولاّدة[٣]:

إن تكن نالتك بالضّرب يدي وأصابتك بما لم أُردِ

فلقدْ كنْتُ لعمري فادياً لك بالمالِ وبعض الولدِ

وعندما غضب من ابن القلاّس ،صرّح له بما يمكن أن يتعامل به معه دون خوف وبأكبر قدر من الألفاظ والأصوات والأساليب الطلبية المباشرة ،التي يرى بأنها الأفضل ؛لأنه يحتاج للحقائق والبراهين التي تدعم موقفه، فقال[٤]:

أصخ لمقالتي واسْمَع وخذْ فيما ترى أوْدَعْ

---

[١] الزرزوني ، إبراهيم أمين : تأويل الخطاب الشعري .. النظرية والتطبيق – محمد أحمد العزب ((نموذجاً – د.ط ، مكتبة الآداب بالقاهرة ٢٠١٠ ، ص ١٩١

[٢] الغزيوي ، علي : أدب الحرب والسياسة من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري – ط١ الرباط ، مكتبة المعارف ، ١٩٨٧م ص ٣٦٥

[٣] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص ١٧٥.

[٤] المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٢٠.

وأقصـــــِرْ بعدها أوزد وطِـــــرْ فِي إثْرِها أو قَعْ

أَعِـدْ نظـــراً فإن البغي ممّـــا لم يزلْ يصـرعْ

وقد يعتمد الشعراء على الأسلوب المباشر ، ويصبح الأسلوب التصويري جزءًا من مكوناته الداخلية التي تسهم في بناء الصور النهائية للمشهد والحدث وذلك ،في مثل قول المعتمد يصف حال بناته في أغمات[1]:

فـــيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فســـاءكَ العيدُ في أَغَماتِ مأسورا

تـــــرى بناتك في الأطمار جائعةً يغـــزِلن للناسِ لا يملكن قطميرا

برزْن نـــــحوك للتـسليم خاشعةً أبـــــصارُهن حسيرات مكاسيرا

يطأن في الطـــين والأقدام حافيةً كأنَّـــــها لمْ تطأ مسكاً وكافورا

إن واقعية الأحداث وصدق التجربة والعاطفة ،هي من استدعى الأسلوب المباشر والوصف الحقيقي لمظهر بنات المعتمد البائس الفقير بأثواب مهلهلة ومرقعة وأقدام حافية ، وهن واقفات في طرقات أغمات ،يغزلن الصوف للبيع بعد أن كنَّ أميرات مترفات ،لا يمشين حافيات إلا في تربة مبلولة بالمسك والكافور ،هذه الحقائق يشهد بها والدهن الذي زوّدن حزنه حزنا، فكان الشعر تنفيساً للذات وألمها ، لذا فالموقف لا يحتاج لتصوير أو خيال ، فالواقع أبلغ منه وأقوى ويكفيه ترتيب وتنظيم وسرد للأحداث بجمل مترابطة ((نصل بها على الصورة عن غير طريق المجاز"[2] ،إلا فيما يقوي صورة المشهد عندما استخدم (حسيرات ومكاسيرا) ، بل إن استخدام هذا الأسلوب حوَّل دلالة الأبيات على موقف إنساني عام يتجلّى في اختلاف الأقدار على الإنسان حين تنزل به وتضعه بعد رفعه ومنعته .

---

[1] ديوان المعتمد ، ص ١٠٠

[2] عبد الله ، محمد حسن : الصورة والبناء الشعري – د.ط ن القاهرة : دار المعارف ، د.ن ، ص ٢٧

ويشيع هذا الأسلوب في السيرة الفكرية للإلبيري بشكل أوسع من شيوعه في السيرة العاطفية والسياسية ،يعود ذلك لتناسبه مع موضوعات وأغراض شعره القائمة على الوعظ والوصايا والحكم ، وقد لاحظ ذلك الدكتور أشرف نجا، فقال" الإلبيري لم يتكئ على الصورة إتكاءه على مثيرات أخرى فيزيائية نفسية فاعلة شحن بها الخطاب ، ولم يكن ذلك شيئاً عجيباً ، فعند شكلوفسكي ليست الصورة هي العنصر الوحيد المكون للأدب ، فالرموز والاستعارات ليست سوى آلات لإحداث التأثير ، وأن ثمة أدوات شعرية كثيرة غيرها تصل بالتأثير إلى غايته ، تقود إليها مبادئ الإدراك وقوانينه العامة"[1]. وهذا ما يرغب به الإلبيري الذي اتخذ من الشعر وسيلة لتحقيق أهدافه الدينية والتربوية ، واهتم بتقديم حقائق عامة لجوانب من سيرته العلمية ، وهذا واضح في مثل قوله[2] :

لـــــــقد زلّ سيدكم زلةً تقرّ بهـــا أعين الشـامتين

تـــــــخـــيّر كاتبه كافرٌ ولو شـاء كان من المسلمين

فعزَّ اليـــــهود به وانتخوا وتـــــاهوا وكانوا من الأرذلين

وقد أنـــزل الله في وحيه يـــحذر من صُحبة الفاسقين

تتشكل معالم القضية من خلال لغة وصفية ،تعتمد على الألفاظ عالية الثراء بالأفعال والمشتقات والصفات ، وتقبل تنوعاً عالياً في استخدامها المباشر ؛لتعطي معان أقوى ، وحركة أوسع للصورة المأخوذة من الصفات الحقيقية لليهود مثل: (زلّ، تفز ، الشامين ، تخير ، لو شاء ، عز اليهود انتحوا ، تاهو الأرذلين ، أنزل الله ، يحذر من الفاسقين) فضرورة تقديم براهين وحجج قوية تدعم الموقف ، وتوثق الحدث الذي لا يناسبه إلا الاستناد على المركب الفعلي للتأثير في المتلقي واستثارته وليس لشئ آخر .

---

[1] نجا ، شرف محمود : في الأدب الأندلسي ، ص ١١٢.

[2] ديوان الإلبيري ، ص ١٠٨.

فالبعد المعرفي والفكري للشاعر الذي يستخدمه في المناقشات العلمية وطرح الأفكار والحوار والجدل والمقابلة بين الأحوال التي تقوم عليها الأدلة ، يبرر استخدامه للأسلوب المباشر في قصائده الطويلة وذلك في مثل قوله في إحدى مواعظه[1]:

ولم أشـــرب حُـــميّا أمَّ دِفْرٍ وأنْتَ شـــــربتها حتى سكرتا

ولم أنشـــأْ بعـــصْرٍ فيه نَفعٌ وأنْتَ نشَـــأت فيه وما انتفـعتا

وقد صاحبتَ أعـــلاماً كباراً ولمْ أركَ اقْتَـديتَ بِمن صحبتا

يرفع الإلبيري خطاب الذات ،التي تمتلك طاقات خلاقة لتغذية الأفكار والمعاني الشعرية وكل ما يختلج في النفس دون اللجوء لأسلوب التصوير ،والاعتماد على الخيال بوسائله الفكرية التي تعتمد التركيز على الناحية اللغوية ، والمقابلة بين الأوضاع نفياً وإثباتاً سلباً وإيجاباً باستقلال طاقات الجمل الإنشائية الخبرية والمزاوجة بينهما في أشطار الأبيات، فأسهمت هذه الطريقة في النقل الحي للواقع الذي يمارسه الشاعر، ويُلمح به إلى طريقة تدريسه لطلابه ، وحرصه على توجيههم بأسلوب تعليمي يناسب مستواهم ، ويقرب من حياتهم التي يزاولونها .

ويقوّي هذا الأسلوب ومساحته الواسعة عند الإلبيري : ميله لما يمكن أن نسميه بالمعاني الجاهزة التي تأثر بها بفعل ثقافته القرآنية ،فكثر عنده الاقتباس من القرآن بين طيّات أبيات شعره الذي يتماشى معه الخيال ويميل للحقائق والبراهين والأدلة، فتعزز مباشرة المعنى وتقريره وهو كثير في شعره في مثل قوله[2]:

وأنزلـــهم حيث يستاهلون وردّهُـــم أســفل سـافلين

وكيــف استنمت إلى فاسقٍ وقارنتــه وهو بيس القرين

---

[1] ديوان الإلبيري ص ٣١.

[2] المصدر السابق،ص١٠٩.

فمعاني القرآن تشع من ألفاظ البيتين ، فالشطر الثاني من البيت الأول مأخوذ من قوله تعالى : "ثم رددناه أسفل سافلين"[١]، والبيت الثاني من قوله تعالى:"حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بُعْد المشرقين، فبئس القرين"[٢]، فمثل هذا الأسلوب يخلق نوعاً من الإثارة النفسية ، ويحفزها لاستنكار التمرد مستخدماً وقائع محددة ،تمس الحياة المادية الأكثر التصاقاً بحياته وحياة الآخرين، وتؤثر بشكل أكبر في بناء الصورة .

ويسود هذا المظهر في نصوص موضوعات السيرة العاطفية عندما يرغب ابن زيدون في تأكيد حجته أو التبرير لموقفه ، دعْماً لاستمرارها في الذاكرة ، كما في قوله يبرر هروبه من السجن[٣] :

فرَرْتُ فـــإنْ قالوا الفرارُ إرابةً فَقَدْ فرّ موسى حين هَمَّ به القبْطُ

فقد اعتمد في رسم ملامح هروبه على موقف سابق هو فرار موسى من الأقباط، وورد في قوله تعالى : "فَفَرَرْتُ منكم لمّا خفتكم"[٤].

ونلحظ أن ابن زيدون والمعتمد ، لايلجآن لمثل هذا الأسلوب إلا عندما يضغط عليهما الواقع بمؤثرات قوية ، ويصبحان في مواقف مؤلمة مثل موقف ابن زيدون من أصدقائه الذين خانوه عند آل جهور ، وساعدوا على دخوله في السجن ، فشعر بأنه أصبح منبوذاً مطروداً يُخشى الاقتراب منه، وكأنه السامري الذي ورد ذكره في القرآن وذلك في قوله يشكو لصديقه ما وصلت به هذه الوشايات ممن كان يعدهم معشره [٥]:

---

(١) سورة التين آية ٥.

(٢) سورة الزخرف ، آية ٣٨.

(٣) ديوان ابن زيدون ورسائله ، ج ١ ،ص٢٩٢.

(٤) سورة الشعراء آية ٢١.

(٥) ديوان أبن زيدون ورسائله،ج١،ص ٢٧٣

ما تَرى فـــي معشرحـــا لوا عـــن العهد وخاسوا

ورأونـــي ســـــامريـــاً يـــــتقى منه المســاس

ويدلنا هذا الأسلوب عند المعتمد ويؤكد على أن من أسباب ضياع ملك المعتمد ،هو ابتعاده عن التمسك بالدين، حيث لا نلاحظ أن التأثر بالقرآن ،كان غائباً من شعره وهو في الأندلس ، ولم يبد تأثره بألفاظ القرآن ومعانيه إلا في نهايات أيامه في الأسر عندما ضاقت عليه الدنيا ، فتذكر أن ذلك أمر الله وأسلمه ذلك للحكمة ، فقال[1]:

في الله عن كل مفقود مضى عَوضٌ فأشعر القلب سلواناً وإيمانا

وطّـنْ على الكره وارقبْ إثـرَهُ فـرجاً واستغفر الله تَغْنَم منه غُفـرانا

فيأخذ المعاني من القرآن والسنة ومن آيات الاستغفار الكثيرة في القرآن .

ومن مظاهر الأسلوب المباشر الاعتماد مباشرة على الترميز بالأشخاص في مثل قول المعتمد يخاطب ذاته[2]:

اقنع بحظّك في دنياك ما كانا وعزّ نفسك إنْ فـارقْت أوطانا

أما سمعتَ بسلطانٍ شبيهك قد بزتّه سُودُ حَطوب الدهرِ سلطانا

يرى أن قصة أسره لم تكن إلا أمراً معهودا في حياة الأمراء أمثال :أبي فراس الحمداني الذي أسُر وسجن في بلاد الروم، فتشبيه وضعه بوضع أبي فراس ليس لمجرد التشابه ، وإنما يدل

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص٢٧٣.

[2] ديوان المعتمد ، ص ١١٤.

على قيم وأفكار ومعان يريد أن يشير إليها، " لأن استدعاء الشخصيات التراثية يعتمدعلى إقامة جدل متوتر بين علاقات الحضور وعلاقات الغياب داخل النص في ذاكرة المتلقي" [١].

من مظاهر هذا الأسلوب استعانة الشعراء بالأمثال والحكم لنقل المشاهد، وتدل على مقدار محفوظ الشاعر الثقافي الذي تميز به ابن زيدون ، ومثال ذلك عندما قال لولاّدة [٢] :

فديتك إن تعجلي بالجفا فقد يهبُ الرّيثُ بعض العجل

فصرخته بالتحذير والدعوة للتريث عن القطيعة التي قد تدفعها للندم مثلما دفع الندم ليث بن عمرو بن عوف الذي لم يستمع نصيحة أخيه الذي طلب منه ألاّ يخرج أثناء المطر ، فخرج وهو يقول : "رب عجلةٍ تهبُ ريثا"[٣]فصارت مثلاً استخدمه ابن زيدون لأمر يريد أن يصل إليه من هذا المثل .

كما أن استعانة الشعراء بالنصوص الشعرية لشعراء سابقين ، له أسبابه ودواعيه الموضوعية والفنية وتأكيد على التشابه والاختلاف بين الشعراء ، وهو ما يسمى بالتناص الشعري :"وهو الوقوع في حال تجعل المبدع يقتبس ، أو يضمن أفكاراً وألفاظاً قد التهمها في وقت سابق ما دون وعي صرح بهذا الأخذ المتسلط من مجاهل ذاكرته"[٤] ، إذ يتم التسريب من الغائب إلى الحاضر في غيبة الوعي ، أو يتم ارتداد الحاضر إلى الغائب في نفس الظرف الذهني والتجربة الفكرية ، مثلما استقى الإلبيري معان لأبيات وقصائد لأبي العتاهية .

---

[١] مجاهد ، أحمد : إشكال التناص الشعري – د. ط ن القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م ، ص ٣٨٨

[٢] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص ١٨٧.

[٣] البكري ، أبو عبد الله : فضل المقال في شرح كتاب الأمثال – د. ط ، تحقيق : إحسان عباس وعبدالمجيد عابدين ، بيروت : دار الأمانة ، د. ت ، ص ٣٣٥.

[٤] مرتاض ، عبد الملك : فكرة السرقات الأدبية ونظرية التناص – مجلة علامات في النقد ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، ج١ ١٩٩١م ، ص ٨٧.

في قصيدته التي يعظ فيها نفسه والآخرين ومطلعها[1]:

أين الملوك وأين ما جمعوا وما ذخروه من ذهب المتاع الذاهب

مما ينم عن وجود تأثير فلسفة أبي العلاء الذهنية على الإلبيري وسيرته كامتداد لفكر سائد قبله امتد لعصر الإلبيري ، ليكون أحد المتأثرين ، وهذا ما ينادي به النقاد من أن على الشاعر "أن يختار من بين ملامح الشخصية التي يتناولها ما يتناسب وتجربته المعاصرة ، ثم يسقِط أبعاد تجربته على هذه الملامح التي اختارها"[2] .

وقد يعتمد التناص على الوعي والقصد حينما يشير على نحو من الأنحاء إلى نص آخر ، ويكاد أن يحدده تحديداً كاملاً يصل إلى درجة التنصيص[3]ومثال ذلك قصيدة ابن زيدون التي عارض بها المتنبي، ومطلعها[4]:

هل تذكرون غريباً عاده شجنٌ من ذكركم وجَفَا أجفانه الوسنُ

وختمها ابن زيدون بمطلع القصيدة المعارضة للمتنبي وهو[5]:

بم التَّعلّلُ لا أهلٌ ولا وطنُ ولا نديم ولا كاسٌ ولا وتَرُ

فقد وجد الشاعر في المتنبي وقصائد غربته وحنينه ما يناسب غربته وحنينه خارج قرطبة ، فحاول الاستفادة مباشرة من فنه ومكانته الأدبية ليلفت الانتباه لمقدار ما يعانيه.

---

[1] ديوان الإلبيري ، ص ١٣٣.

[2] زايد ، علي عشري : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، ص ٨٦.

[3]انظر: المغربي ، حافظ : التشكيل بالصورة وصور التشكيل في الخطاب الشعري عند عبد القادر القط – د. ط ، مصر الدار الأزهرية للنشر والتوزيع ،٢٠٠١م،ص١٧٧.

[4] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص ١٦٢.

[5] شرح ديوان المتنبي ، جـ٤ ، ص ٣٦٣ .

واستطاع الشعراء عن طريق التناص الاستفادة من تجارب السابقين والاستعانة بها للتعبير عن ذواتهم وتجاربهم وتسجيلها من خلال أشعارهم ، فالمعتمد وجد في تجارب أبي فراس الحمداني الشعرية ما يوافق تجاربه،"وكأنه يقرن مأساوية حاله بمأساة أبي فراس التي وجد فيها توافقاً بين الوضعين"[1]بمعارضه بقصائد كثيرة ، منها قصيدته[2]:

فمالي لا أبكي أم القلب صخرةً وكم صخرة في الأرض يجري بها نهرٌ

وهي معارضة لقصيدة أبي فراس الحمداني التي مطلعها[3]:

أراك عصيّ الدمعِ شيمتك الصبرُ أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمْرُ

وقد وجدت أنواع التناص مكانها في موضوعات السيرة ، واستفاد منها الشعراء في تضمين المعاني وفي طرح تجاربهم ، وأضاف لها دلالات جديدة تقوي المعنى المراد وتثبته ، ويمكن بالمقارنة بين الشعراء أن يكشف الشعر عن ملامح لم تظهر في الدراسة خاصة عندما تتلاقى التجارب، ولكن بشكل لا تذوب فيه شخصية الشاعر وتجربته .

---

[1] جرار ، صلاح : قراءات في الشعر الأندلسي ، ص ١٣٧.

[2] ديوان المعتمد بن عباد، ص ٦٨.

[3] ابن خالولية :(شرح ديوان أبي فراس الحمداني)

الفصل السادس:

اللغة والبناء الفني لموضوعات السيرة.

الفصل السادس | اللغة الشعرية و البناء الفني:

ترتبط الملامح السير ذاتية للشاعر في شعره بالخصوصية الفنية للبُنى الشعرية الأولية التي يرتكز عليها بوصفها مكونات أساسية فنية لا ينهض بغيرها ؛ فتتشكل الملامح السيرية مندمجة داخل السياق اللغوي والبنائي للشعر، وهذه الخصوصية تتطلب الوقوف على الخصائص،والتقنيات الفنية للغة وأصواتها وألفاظها وتراكيبها،ومعانيها وعلى البناء الفني لشعر الموضوعات السير ذاتية، تفصيلا بالمقارنة للمتمايز فيما بينها لإظهار خصوصية لغة كل موضوع مع ما يتوافق مع فردية التجربة الشعرية لكل شاعر،أو إجمالاً للخصائص الركائز المشتركة فيما بينها ؛ لمعرفة مقدار ما قدمته خصوصية اللغة ،والبناء الفني من عون للشاعر ؛لتناول ملامح من سيرته من خلال مكوناتها المختلفة في شعره .

المبحث الأول | اللغة الشعرية و تشكيل الملامح السيرية :

يجمع النقاد المعاصرون على أن ما يميز اللغة الشعرية عن اللغة العادية، هو الانزياح مما يجعلها قابلة للعديد من القراءات،والتأويلات بالنظر إلى النص الشعري،واعتباره"فعل إبداع خلق وتغيير أداته اللغة التي لم تعد وسيلة نقل وتفاهم فحسب،بل عدت وسيلة استبطان واكتشاف تثير المتلقي،وتغمره بإبحارتها وإيقاعاتها"[1].ولذلك تعد اللغة الشعرية معادلا لغويا لتجربة حياة الشاعر،"فالصلة بين الشعر والحقيقة صلة لغوية"[2]،واقتراب لغة الشعر وهيئته من حياة الشاعر و وجوده السيري،تجعل متنه يتكيف بشكل صحي،بحيث يقبل استضافة الآليات السيرية وإجراءاتها ،متمثلة في التشكلات اللفظية المعجمية والمكونات الصوتية والتراكيب الدلالية التي تسمح لنا برؤية الشاعر يحيا،ونحسه يتحرك،ويتفاعل مع مجتمعه،وواقعه الموضوعي مسجلاً ملامح من سيرته ومجتمعه .

أولاً | السياق السير ذاتي للمعجم اللفظي:

يعتبر لوتمان المعجم اللفظي:"المستوى الأساسي في البنية الكلية للنص الفني"[3] .ولا ينفي ذلك مطلقاً علاقته القوية ببقية مكونات النص الشعري ، وتبنى دراسة المعجم اللفظي للموضوعات السير ذاتية للشعراء على تلك المفردات المتكررة بنسبة تردد عالية بنفسها، أو بمرادفاتها أو مشتقاتها،أو بتراكيب تؤدي معناها،وكانت من الكثرة،والوضوح وتضافر دلالاتها بحيث أصبحت "الألفاظ الموضوعات"؛لتتراءى الهوية الذاتية شيئاً فشيئاً من خلال التعرف اللفظي،أو النظام الجدولي لكل موضوع الشئ الذي يسمح بتأكيد مسايرة الشاعر لموضوع سيرته وتمركزه حول ذاته.

---

[1] سعيد،أحمد:مقدمة للشعر العربي-د.ط،لبنان:دار العودة،د.ت،ص٧٩.

[2] ناظم،حسن:أنسنة الشعر،ص٨١.

[3] حسان،تمام:اللغة العربية معناها ومبناها،د.ط،المغرب:دار الثقافة البيضاء،ص٣١٢.

وهذا يعني أننا أمام ثلاثة معاجم لفظية هي المعجم السياسي،والعاطفي،والفكري لكل واحد منها ثوابته وحقوله الدلالية التي تهدف إلى القبض على المكونات الدلالية الأساسية للنصوص السيرذاتية التي توجه القراءة لسيرته الذاتية.

فاختص **المعجم السياسي** بسيرة ابن عباد في شعره،إذ انتزع من ملكه،وحياته الخاصة حقوله الدلالية المعبرة عن ذاتية متفردة،وحياة خاصة لا يشاركه فيها غيره من الشعراء إلا من اكتسب الملك الذي كثرت مادته في شعره،مثل: (ملكت،مالكاً،مليكاً،ملوك،ملكي،ملك)كما في قوله[1] :

إن يسلب القوم العدا ملكي وتسلمني الجموع

فاكتسبت كلمة الملك صفة الملكية الخاصة به وبوالده؛لكثرة تكرارها ونسبتها إليه عن طريق ياء المتكلم،أو إلى والده الذي خاطبه بقوله[2] :

يأيها الملك الذي كفّاه بخلتا السحاب

كما يمتاز هذا اللفظ بهيمنته المطابقة على العلاقة بين الدال،والمدلول وتحيل إلى مراجعها مباشرة عندما يتحدث عن ذاته بين حالين وزمنين متقابلين عندما كان ملكاً،ثم سلب منه الملك وصار بعيداً عنه كما في قوله[3] :

مضى زمن و الملك مستأنس به وأصبح عنه اليوم وهو نفير

وقد يختار مرادفات للفظ السابق،أو مايشاركه في معناه،مثل: (مولاي،سيدي،معتضداً،بني ماء السماء) ؛ليؤكد بها ذاته وخصوصية مكانتها الاجتماعية في مثل قوله يخاطب ذاته،ويصف

---

[1] ديوان المعتمد ،ص٨٨.

[2] المصدر السابق،ص٣١.

[3] المصدر السابق،ص٩٨.

والده[1]:

فوّض إلى الله فيما أنت خـائفه وثـــق بمعتضد بالله يغتفـــــر

من مثل قومـك من مثل الهمام أبي عمرو أبيك له مـــجد و مـفتخر

ويرشح له واقعه ألفاظاً بعينها لا توجد إلا في محيط الأمراء والملوك،فهو حيزّها الخاص،مثل: (عبد عبد،عبدك القن)،وقد تكررت في شعره ست عشر مرة،وكان ينعت نفسه بهذا اللقب في مقام خطابه لوالده ،منها قوله في استعطافه لوالده[2]:

تــرفّق بعــبد ودّه لك شيمة إذا كان ودّ من سواه تصنعا

وتتغذى ألفاظ المعتمد من مفردات محيطه،وتجاربه،فيتكون لديه معجم يدل على حياة الترف واللهو التي عاشها في الأندلس،مثل:(الخمر،الساقي،الروح،المجلس،المدام الأقداح)في دعوة لأحد أصدقائه[3]:

نحن في المجلس الذي يهب الراحة والـــمسمع والغـــنى و الغنــاء

نــتعاطى التـــــي تنسي من اللّذة والـــرقة والـــهوى و الهـــواء

كما يقترن معجم الغزل بألفاظ الحرب والقتال،التي كانت تغص بها الأجواء من حوله وكثرة الصراعات على الملك،فاستعارها في غزله اللاهي بجواريه،في مثل قوله[4]:

وبيـــض وسـمر فاعـــلات بمهجتي فعال الصفاح البيض و الأسل السمر

وما يميز المعجم اللفظي للمعتمد ، هو تموجه بتموج حياته ومراحلها وتقلباتها السياسية،ويبرز حصيلة التحول السياسي من الملك،والحرية والترف وقوة الإرادة إلى ضعف ،فلّ عزمه وفقر ،خارت قواه معه بعد تلاحق هزائمه وتخلت عنه عوامل قوته،وذلك من خلال قاموسه

---

[1] المصدر السابق،ص٣٧.

[2] المصدر السابق،ص٣١.

[3] المصدر السابق،ص٤٩.

[4] المصدر السابق،ص١١١.

اللفظي "الأغماتي" المكثف الأكثر غزارة في ثيماته المركزية، "فاللغة تستعمل وتخلق ألفاظها وتتداول في مختلف الأشكال ،تكملة لما عجزت عنه الأعضاء البيولوجية،وهذا يعني تداخل البيولوجي مع الثقافي ،وتأثير كل منهما في الآخر، ومؤدى هذا أن المؤهلات اللغوية تختلف باختلاف البيئة "[1]،مثل تكراره لكلمة : (الأسير،أسراً،مأسوراً،القيود،قيدي،ذل ،الكبول أغمات)،لأكثر من عشرين مرة،في مثل قوله[2] :

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيد في أغمات مأسورا

والملفت للانتباه تكرار مادة(بكى)إحدى وخمسين مرة،ومنها يصف حاله وحال أسرته[3] :

أبكي و تبكي ونُبكي غيرنا أسفاً لدى التذكر نسواناً و ولدانا

وارتبط البكاء في مواضع كثيرة بلفظ القلب الذي تكرر تسعاً و ثلاثين مرة في مثل قوله[4] :

فمالي لا أبكي أم القلب صخرة وكم صخرة في الأرض يجري بها النهر

إن تكرار كلمة قلب بأشكال مختلفة منسوبة إلى ذاته بالياء ،تؤيدان أن هذا الشاعر كان إنساناً مرهف الإحساس،ولم تكن رتبة الملك والإمارة ،تتناسب مع هذه الرقة التي كررها مراراً،فقال[5] :

فما أشعر الرحمن قلبي قسوة ولاصار نسيان لأذمة من سعيي

ونرى قلة ورود ألفاظ الموت،ومايدل عليه في شعر المعتمد،وهذا يخالف حياة هذا الملك المليئة بالصراعات والحروب التي قيّد على إثرها أسيراً، لايرد ذكر الموت إلا ما يأتي عفو الخاطر،أو مايلائم الحديث عن الذات والافتخار بها،او الحكمة،كما في قوله[6] :

لنفسي إلى لُقيا الحمام تشوق سواي يحب العيش في ساقه حجل

---

[1] المعتوق،أحمد محمد:الحصيلة اللغوية:أهميتها-مصادرها وسائل تنميتها،عالم المعرفة،عدد(٢١٢)-ربيع الأول ـ١٤١٧ هـ ص١٣١.

[2] ديوان المعتمد،ص١٠٠.

[3] المصدر السابق،ص١١٤.

[4] المصدر السابق،ص٥٢.

[5] المصدر السابق،ص٥٢.

[6] المصدر السابق،ص٨٧.

ومرة أخرى وهو في الأسر ويبدو أنه ناتج عن الشعور بالذل الذي بالغ فيه المرابطون،فشعر بأنه كصغير الحمام في ضعفة،فقال[1]:

لنفسي إلى لُقيا الحمام تشوّقٌ سواي يحب العيش في ساقه حجل

وغياب حقل الموت حتى عندما رثى نفسه ؛ل يدل على نوع الحياة التي كان يعيشها المعتمد ووصفها ابن بسام بقوله:"قدمت من عجب المعتمد بذاته،وتوفره كان لذاته،وتقديره أن يضبط أزمة البلاد ويملك رقاب العباد، وحيله في الإجلال ، وكأسه في يد الساقي المختال على مكانه من العلم،ووفور حظه من الحلم مافيه كفاية لمن استغنى"[2]

إن هذا الافتراض الحاد بين طبائع وإمكانات وممارسات حياة الشخص نفسه بين مرحلتين من حياته،تؤصل خوفه من الموت وصراعه مع ذاته للبعد عن التفكير في الموت.

رتب المعتمد ألفاظه على رتب معانيه إلى حد كبير[3]،ولم يمازج معجمه ألفاظاً غريبة،أو أعجمية بل كان واضحاً ميسور الفهم قريب المعاني قوي الدلالة المتجذرة،والمتشابكة مع سيرة الشاعر.

أما **المعجم العاطفي** :فقد تألق في موضوع السيرة العاطفية لابن زيدون، فالثراء اللغوي للشاعر وتمرسه في استخدام اللغة في شعره ،ضاعف كثافة المعجم اللفظي الذي لا يقف عند حدود الكثرة بل يغوص في عمق التجربة؛ليلتقي قاموس الألفاظ كعناصر بنائية أولية للنص مع الذات؛لتشع ملامحها من الأغراض،والموضوعات المختلفة،فمثلاً احتفى بالحقول الدلالية للأمل والأماني وكررها في شعره–الذي بين الدراسة–لأكثر من عشرين مرة؛لأن المعجم ليس مفردات معزولة عن ذاته،وإنما ترتبط بذاته وطموحاتها التي يحيل عليها بهذه المفردات مبتعداً عن الألفاظ المعتادة في المدح،فعندما مدح ابن جهور،قال[4]:

---

[1] المصدر السابق،ص١١٠.

[2] ابن بسام:الذخيرة،ق،ج١،ص.٤١٥.

[3] الجرجاني،القاضي علي عبدالعزيز:الوساطة بين المتنبي و خصومه–د.ط،تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم،علي محمد النجاوي،ص٢٤.

[4] ديوان ابن زيدون و رسائله،ج١،ص٢٤٨.

يســـرتُ آمـــالي بتأميلـــه فـــما عـداني منه فوز القداح

عتـــــباك بعـــد العتب أمنية مالـي على الدهر سواها اقتراح

لم يثـنـني عـــن أمل ما جرى قد يرقع الخرق وتؤسى الجراح

إن ابن زيدون يسعى للمزج بين وسائل اللغة التعبيرية،ووظائفها الدلالية في الوصول إلى المقولة الشعرية بكامل حرارتها وأفقها وحيويتها،وإيحاءاتها رغبة في النماء وبعث الحياة وتجديدها فيقول[1]:

لايهنـــئ الشـامت المرتاح خـــاطر أنّى معنى الأماني ضـائع الخـــطر

لـم يكن ابن زيدون أحفظ الناس للغة،ولـم يكن معجمه اللفظي فريداً لكنه جعل الواقع وأشكاله ،تتفجر تحت سلطان الذات الشاعرة التي لم تعد تقنع بأن تتلقى مضموناتهاوصورها، بل تصر على أن تخلقها بنفسها خلقاً،فيرتجل ألفاظاًويشحن أخرى بالمعاني والظلال ،معتبراً ذلك جزءاً منه ومن ثقافته ومع قدرته على الاشتقاقات اللفظية،والربط بينها في البيت الواحد مع الحفاظ على اللفظ المشترك وهو كثير هذه في مثل قوله [2]:

ألا وقد حان صبح البين صبّحنا حَيْنٌ فقام بنا للحين داعينا

فنجد (حين،حان،حين،صبح،صبحنا)[3] ،كذلك تتسرب ألفاظ الغزل والطبيعة،مثل: (الروض،الولع،الجفاء الهم) ؛لتكون دلالات على أهدافه،في مثل قوله يتشفع بشيخه[4] :

لك النعمة الخضراء تندى ظلالها علي و لاجـحد لدي و لاغمـــط

ولا ألفت أيــدي الربيــع بدائعـي فمن خاطري نثر و من روضه لـقط[5]

وتبقى الألفاظ تشتق من عاطفة الحب،ومعانيه بإيحاء قوي استمده من حب الطبيعةوالمرأة

---

[1] ديوان ابن ويدون ورسائله،ج١،ص٢٨٩.

[2] المصدر السابق،ج١،ص١٤٢.

[3] المصدر السابق،ج١،ص١٤٢.

[4] المصدر السابق،ج١،ص٢٨٩.

[5] لقط:تناول الشئ بلا مشقة .

والجمال والطموح والحياة الاجتماعية ،كثيمات مركزية مرتبطة بقدرتها على توصيف ملامح من سيرته أهمها ألفاظ: (الذكرى ،الشوق،العهد،اللهو،ضاحك،الروض،الحبيب،الجمال[1] ومنها[2]:

واسأل هنالك هل عنّى تذكّـرُنا إلفـا تذكـّره أمـسى يعـنّينا

كما يسود معجم الذكريات بشكل ملفت للانتباه،كثرة ألفاظ الأفعال الدالة على الماضي كدوال سيرية تدل على البحث الدائم للذات،فلم يرد عنه أي إشارة بأنه قاتل،أو شارك في معركة،أو ثورة أوحروب مع أنه عاصرها ،وإنما تشي ألفاظه أن حياته لم يصبها تكدير وذلك في قوله[3]:

فحزنا من اللذات أطيب طيبها ولم يـعرنا هم ولاعـاق تكـدير

خلا أنه لو طال دامت مسرتـي ولكن ليالي الوصل فيهن تقصير

ولـعل هـذا يـفسر قلـة قاموس الغزل المتمثل في:((الأسى،الحزن،البكاء)،كما هي عـادة العاشقين كما يندر عنده ألفاظ الموت والحروب،فلا تظهر في شعره بحيث تشكل قاموساً ،يرتبط بذاته ، أو سيرته إلا في عرض المدح للأمراء ، ويبدو أن ابن زيدون على وعي بذاته وقدراته ،فهو شاعر قبل كل شئ، والتعامل مع أمراء عصره أخلصه إلى أن يكون كمن يمسك بأذني الأسد كما يقول هو.

و مع ذلك فإن عبقرية ابن زيدون وثقافته الشعرية الواسعة ،تشعر المتلقي بالتصاق شعره بذاته في مستوياتها المختلفة؛لأنه"ينطلق إلى العمل من وحدة عاطفية وهذه الوحدة ،تكتسي بما يمكن أن يسمى الصورة اللغوية الداخلية، فيخترع الكلمات ويتلاعب بمعاني الألفاظ ويوسع

---

[1] انظر: ديوان ابن زيدون و رسائله،ج١،ص٢٤٩،١٩٤،١٥٩،١٥٧،١٥٦،١٥٥،١٥٢،١٤٩،١٤٥،تنظر الدراسة الفصل الثاني.

[2] المصدر السابق،ج١،ص١٤٥.

[3] المصدر السابق،ج١،ص٢٤٥.

نطاقها"[1].فارتقى بشعره إلى مستوى يليق بالحضاري والجمالي والمعرفي،وغلب عليه عذوبة اللفظ ورقته مع فصاحة،و وضوح للمعاني بكثافة شعرية مليئة بالدلالات السيرية التي رفدها صدق التجربة.

بينما يتألق **المعجم الفكري** في موضوع السيرة الفكرية للإلبيري،وتظهر العلاقة الوثيقة بين المعجم اللفظي والفكر الديني ، مسيطراً بثقافته على معجمه الديني المتكئ فيه على الألفاظ والدوال القرآنية الملحة عليه بكثافة عالية بحيث ،مثلت له عالماً ثرياً بتداعيات السياقات القرآنية تتركز في مواضع وفي ألفاظ دون غيرها،فقد استغل هيبة لفظ الجلالة(الله)،وكرره في إحدى قصائده خمساً و سبعين مرة وهي القصيدة التي مطلعها[2]:

يا أيهـــا المغتـر بالله فـــــــرّ من الله إلى الله

فالإلبيري ينطلق في معجمه اللفظي بما يتوافق مع المقولة النقدية عن الشعر"بأنه رسالة كبرى للشاعر حرص على أدائها منذ البداية ومـؤداها ،أن يسخر الشاعر الكلمة لإقامة ماهو بـاق وماهو ذو قيمة لوجود الإنسان"[3].

ويبرز الاتصال الحميمي بالقرآن الكريم،فهو الأقرب إلى ذوقه والأدنى إلى قلبه،فتكرر لفظة الجنة والنار في قصيدة ،تتألف من ثلاثة و سبعين بيتاً[4]:

يا أيهـا الناس خذوا حذركم وحصـنوا الـــــجنـة للنـار

ويرتبط زهده بقرائن معجميه،مثل(الشيب،الموت،الهلاك)،وتتنوع الحقول الدلالية الدالة على الزهد مثل حقلي الفقر،والغنى،وترددت ألفاظهما لأكثر من خمس وستين مرة،وقد يجتمع اللفظان

---

[1] المعتوق،أحمد محمد:الحصيلة اللغوية:أهميتها و مصادرها،ص١٣١.

[2] ديوان الإلبيري،ص٧٥.

[3] هيد جر:الفلسفة و الشعر،ص٢٤.

[4] ديوان الإلبيري،ص١٠٣.

في بيت واحد لتكون دالا على نظرته للحياة،فيقول[1] :

ما إن يدوم الفقر فيك ولا الغنى سـيان فقرك عـندنا وغناك

ترتبط الألفاظ أيضا بطبيعة الشاعر الفنية،ونوع المسؤولية التي يتحملها في مجتمعه،فتصبح ألفاظ اللغة ألفاظاً للمعنى،والفكرة المفروغ منها المتسمة بالنبرة القوية،والمفردات الخطابية ،فقد ارتبطت به حقوله الدلالية للألفاظ وأهمها حقل الذنوب الذي تكرر ،فيما يقارب تسعين موضعاً في ديوانه،فانعكس عمق دراسته للقرآن بخوفه من الذنوب التي يلخص الهدف من تكرارها في قوله[2]:

يخاطبنا:أن أخذت بذنبـكم وما أحد فيكم عن الذنب تائب

و أما موقفه من الدنيا ونظرته الدونية لها ومحاولته تقريب مغزاها للمتلقي،فقد اتخذت أكثر من ستة و سبعين حيزاً وحولها ،تدور أفكار قصائده في مثل قول[3] :

لا غـارت الدنيا ولا أنجدت فالعاقـل الحـر بها ممتحن

وقد كان يرى العلم هو أساس للفهم الفكري السليم،فتوجه إلى منطق الحكمة مستعيناً لقاموس (أعلام علم،عالم،إمام،قاضي)،وقال[4] :

سينطق عنك علمك في ندي ويكتب عنك يوما إن كتبـتا

ومن النقاد القدامى من رأى ضرورة قرب الألفاظ في الشعر من دلالاتها،ووصف معانيها واستخدامتها في المواضع التي اعتاد الناس استعمالها فيها"وكأن قائلها مخبر بالأمر على ماهو"[5].

---

[1] المصدر السابق،ص٤٢.

[2] المصدر السابق،ص٨٨.

[3] المصدر السابق،ص١١٦.

[4] المصدر السابق،ص٢٨.

[5] الآمدي:الموازنة،ج١،ص٥٢٣.

فكان تكثيف التكرار اللفظي لحقول دلالية بعينها عند الشاعردلالة على المنهج الفكري السيري للشاعر المعتمد على الألفاظ كثيرة الاستعمال المألوفة عند عامة الناس ؛ لأنه يتجه لمخاطبة الجماهير فمن الطبيعي أن يراعي مستوياتهم الفكرية، فيقترب من مستوى معجم الألفاظ التعبيرية اليومية على لسان العامة،مثل(ديننا،الدين،مسلم،مسلمين الصالحين،الفاسقين) محاولاً أن يكيف ألفاظ الخطاب بما يتناسب مع الحظ الضئيل للمتلقي البربري من العربية ،يتجلى ذلك بوضوح في قصيدته التي مطلعها [1]:

ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور السّنا و أُسْد العرين

يقول كارل فوسلر:"إنه بالنسبة للفنان الذي يمتلك حساً دينياً،فإن كل الأشياء لها لغتها،فهو يشعر بأن جميع الكائنات في العالم...تتحدث إليه وليس الإنسان وحده ؛ لأنه يعطي هذه الكائنات الروح من خلال قوة إيمانه وشعره وطالما أن الكون ، يتحدث إليه فإن الحقيقة تأخذ شكل اللغة"[2]. فحقق بذلك شعبية كبيرة لديوانه وتمثّله أهل الأندلس ينشدونه في مناسبتهم ويرددونه في أشعارهم.

ونرى أن معجم الألفاظ للإلبيري ، لم ينتفح على قراءات فكرية خارج نطاق فكره الديني حيث سادت عنده الثقافة الفكرية النوعية ذات الاتجاه الواحد،وامتاح من محفوظه الديني معجم ألفاظه ولم يسع شعره غيره.

وهكذا فإن لكل موضوع من الموضوعات السيرية عالمه الخاص به من معجم الألفاظ،والتعابير التي كانت كداول ورموز، تكشف عن طبيعة علاقة الشاعر بموضوعه،وخلفيته الثقافية والدينية والاجتماعية ولم يعمد أي من الشعراء إلى الجري خلف الغريب من الألفاظ الأعجمية،بل جنح إلى اللغة المرتبطة بحياته،وإن جنحت إلى اللغة اليومية الواضحة دون أن يضر ذلك بفصاحتها وبذلك تكون ذات صلة بتحقيق هوية القصيدة السير ذاتي

---

[1] ديوان الإلبيري،ص١٠٨.

[2] البلداوي،حميدة:موازنات شعرية،ص١٦٦.

ثانيا: مكونات اللغة الصوتية ودورها في التشكيل السير ذاتي :

الأصوات هي عنصر بناء أولي وأساس في اللغة الشعرية "وشبكة أصواتها التي تضطلع بوحداتها الدلالية، مما يعني أن الصوت في الشعر غير مفصول عن المعنى، إذ هناك علاقة حميمية لحمية بينها"[1].وَأول ما يقابل المتلقي ويثير انتباهه، وهي عناصر مشتركة في الشعر عامة ولذلك فإن هذا المبحث .سيتناول ما يشكل منها قوائم مشتركة بين نصوص موضوعات السيرة ،وهي:

١/ الوزن والقافية:

لا يستقيم الشعر شعراً إلا بوزنه وقافيته ولا يفترق عن النثر إلا بهما، فهو أقوى ثوابت اللغة الشعرية، ويرى بعض النقاد أن الوزن والقافية من أقوى الأسباب التي تقف دون قدرة الشعر على استيعاب ملامح من سيرة الشاعرة [2]، لأن الوزن يحاصر الشعراء والقافية تقطع تدفق الخطاب الشعري، الأمر الذي نفته الدراسة الموضوعية في هذا البحث، ثم إن الدور الأساسي الذي يقوم به الوزن والقافية في البناء الشعري، وتشظي علاقاتهما في كافة عناصر ومكونات النص الشعري الذي يقوم عليهما ، يؤكد علاقاتهما الوطيدة بالمعاني وتشكيل مضامينها بحساسيتهما الصوتية والإيقاعية، فيمنحهما صلاحيات واسعة لاحتواء سيرة الشاعر بشكل أدق وأعمق، ليتحول القطع والحصار إلى مسار دقيق للملامح السير ذاتية التي توارت في ظلال المشهد الشعري العام للشاعر.

---

[1] الطاهري، الحسين : الإبداع الموحدي بين شعرية النص وأدبية المتلقي – د.ط ، فاس : المكتب المركزي ، ٢٠٠٥م ،ص ٢١٥.

[2] من النقاد الذين تناولوا الدراسة أدب السيرة الذاتية وحصروها في النثر ، ينظر لذلك : الحيدري ، عبد الله : السيرة الذاتية في الأدب السعودي ــ ط٢ ، الرياض ، دار طويق للنشر ، ص ٦٨

فالوزن :هو القالب الذي تصب فيه " صورة الملامح الذاتية التي لا تصبح شعرية إلا إذا لامستها أصابع الموسيقى، ونبض في عروقها الوزن"[١]. لاسيما أن الملامح السير ذاتية ،لم تأت في نص شعري واحد ،إنما في المجموع الشعري المكون لسيرة الشاعر بأبعادها المختلفة ، ووجود عديد من بحور العربي ومجزوءاتها... لم يكن عبثاً، ((لقد كان يكفي الشاعر بحراً واحداً لو أن النغم لا علاقة له بالتجربة، والتصادي بالأصوات التي تعج في رأسه ،يدفع بتلك الإيقاعات المتنوعة ويفرض وجودهما "[٢]. لذا نجد أن الشعراء نظموا على البحور وأوزان الشعر المتنوعة ومنها : الطويل والكامل والبسيط والوافر والمتقارب والسريع والخفيف والوافر والرمل والمجتبث [٣]وغيرها.

وقد ربط فريق من النقاد بين موقف الشاعر ومعانيه وبين الإيقاع والوزن اللذين يعبران عنه ووصلوا إلى نتيجة مفادها : أن الشاعر قبل أن يعد قصيدته، فإنه يبحث عن القافية والوزن المناسبين لغرضه وعلى ضوء ذلك ينظم قصيدته ،وذهب إلى هذا الرأي عدد من النقاد القدامى منهم: ابن طباطا وأبو هلال العسكري وسار على ردربهما آخرون[٤]، بينما يحدد حازم القرطاجني هذه القضية بارتباط الغرض الشعري بالوزن على ما هو ماثل في الواقع الشعري، ويبني رؤيته على أساس ذوقي مُشْرَب بتأثير أرسطي، فيقول:"ولما كانت أغراض الشعر شتّى ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم وما يقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان وتخيلها للنفوس، فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة، وإذا قصد في موضوع قصداً هزلياً، أو استخفافياً وقصد التحقير، أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة قليلة البهاء وكذلك في كل مقصد، فالعروض الطويل

---

[١] الملائكة ، نازك :قضايا الشعر المعاصر د.ط ، بيروت منشورات دار العلم ، د.ت ، ص ٢٢٥.

[٢] عبيد ، محمد صابر : عضوية الأداة الشعرية فنية الوسائل ودلالية الوظائف في القصيدة الجديدة – ط١ ، عمان : دار مجد لادي ، ٢٠٠٧م ،ص ١٤٦.

[٣] تنظر إحصائية البحور في ديوان المعتمد ، ص (١٢١-١٢٧ ، وابن زيدون عصره وحياته وأدبه ، جـ ٢ ، ص ٣٦١.

[٤] الطرابلسي ، محمد الهادي : في مفهوم الإيقاع – حوليات الجامعة التونسية ، العدد ٣٢ ،كلية الآداب ،جامعة تونس ١٩٩١م ، ص٢١

تجد فيه بهاءاً وقوة وتجد للبسيط بساطة وحلاوة، وتجد للكامل جزالة وحسن اطراد وللخفيف جزالة ورشاقة، وللمتقارب بساطة وسهولة وللمديد رقة ولينا مع رشاقة وللرمل ليناً وسهولة ، ولما في المديد والرمل من اللين ،كان أليق بالرثاء وما جرى مجراه"[1].

ومن النقاد المحدثين الذين اهتموا بهذه القضية الدكتور : إبراهيم أنيس الذي عرض لها بشيءٍ من الاطمئنان على نحو ما يقره التنبؤ العلمي للظواهر مقرراً : " أن الشاعر في حالة اليأس والجزع يتخير، عادة- وزناً طويلاً كثير المقاطع يصب فيه أشجانه وما ينفس عن جزعه وحزنه، فإذا قيل الشعر في وقت المصيبة والهلع، تأثر بالانفعال النفسي، وتطلب بحراً قصيراً يتلاءم مع سرعة التنفس وتراجع ازدياد نبضات القلب "[2]، والدكتور/ عبد الله الطيب ،كان ممن بذلوا جهداً كبيراً لدراسة الأوزان وعلاقتها بموضوع الشاعر وأحاسيسه من حيث قيمتها الصوتية، فقدّم الطويل والبسيط، فهما أطول البحور وأعظمها أبّهة وجلالة، ويليها الكامل والوافر، ويرى الطيب أن الكامل أكثر بحور الشعر جلجلة وحركات، وأن فيه لوناً خاصاً من الموسيقى يجعله إن أريد به فخماً جليلاً مع عنصر ترنمي ظاهر، ويراه أصلح البحور لإبراز العواطف البسيطة المعقدة والوافر أكثر تدفقاً وقريب من الكامل[3] .

وبالنظر إلى هذه الآراء حول خصائص هذه البحور ،نرى أنه يمكن مقاربتها مع شعر الموضوعات السيرية وأفادتها منها، وسيوسع من إمكانية استيعاب الشعر للسيرة ويضيء زوايا معتمة لا توضحها المكونات الموضوعية، مثل المكونات النفسية ولحظات الانفعال وطبيعتها في المواقف المختلفة ، فالشعراء ركزوا على بحور بعينها، حيث استأثر الطويل والكامل والبسيط بمعظم الشعر ذي الملامح السيرية الذي تم استعراضه في الباب الأول من الدراسة في موضوعات السيرة، وتأتي بعدها بقية البحور بنسب أقل، واكتفى الإلبيري بسبعة أوزان في ديوانه كله، تتصدرها

---

[1] القرطاجني ، حازم : منها ج البلغاء ، ص ٢٦٦ .

[2] أنيس ، إبراهيم : موسيقى الشعر – ط د ، القاهرة ، مكتبة الإنجلو المصرية ، ١٩٨١م ، ص ٢٧٧ .

[3] انظر:الطيب ، عبد الله : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها – ط١ ، مصر : مطبعة البابي الحلبي ، ١٩٥٥م ،

الثلاثة السابقة، ثم يأتي الوافر ثم السريع والمتقارب في ثلاث قصائد والمنسرح في واحدة، وامتياز هذه البحور بتعدد التفعيلات واتساع المقاطع يستدعيه المشهد السيري، فالحديث عن الذات بمفاهيمها المتعددة ،يتعدى إلى الخارج والداخل،ويتجاوز الحسي إلى النفسي والمعنوي والمحيط والمؤثرات الخارجية، وتموجات الواقع واهتزازته، وتمنح الشاعر فرصة للحديث عن ذاته بحرية دون شعوره بالوقوع في الحرج أو الإدانة.

كما تمنح صفاتها الشعراء فرصة أكبر، للتنقل بين الموضوعات والأغراض الشعرية، وتنويع الإيقاع الموسيقي للأغراض، مدحاً ورثاء وهجاء وشكوىً وفخراً وغزلاً.

وقد امتطى كل شاعر ما ينسجم مع انفعالاته ،فقد يعتمد على البحر الواحد في أكثر من غرض، فمثلاً ابن زيدون ينظم على بحر الطويل في غرض المدح،فيقول[1]:

بنـــيتَ فلا تهدمْ ورشْتَ فلا تبري وأمــرضْتَ حُسادي وحشاك أن تُبري

أرى نبـــوةً لم أدر سرّ اعتراضِهـا وقد كان يحلُو عارضُ الهـمّ أنْ أدري

جفـــــاءً هو الليلُ ادّلهمّ ظلاَمـه فـــلا كوكبٌ للعـذر في أفقِهِ يسـري

هـــبْ العزل أضْحى للولايةِ غايةً كما غاية الموفي من الظل أنْ يُكـرى

كما أن الطويل "بحر يصلح للفخر والحماسة والوصف والتاريخ وسرد الحوادث ووصف الأحوال" [2]. فيستخدمه في وصف حنينه ويلوّن عروضه بأصباغ ذاته وأحوالها الخاصة، فيغدو ملائماً للتجربة وأحوال التشوق لقرطبة، فيقول [3]:

ألا هلْ إلى الزهراء أوبةُ نازحٍ تقصـي تنائيها مدامعـه نزحـا

---

[1] ديوان ابن زيد من وسائله ، ج١ ، ص ٢٩٤.

[2] الراغب ، عبد السلام أحمد : الصورة الفنية في شعر علي بن الجهم – ط١ ،سوريا : دارا لرفاعي ، ٢٠٠٩م ، ص٢٧٤.

[3] ديوان ابن زيدون ووسائله ، جـ١ ، ص ٢٦٠.

وعندما يرغب في الخروج من السجن ،يشكو مستشفعاً أستاذه ابن أفلح على البحر نفسه فيقول[1]:

عليك أبا بكر بــكرت بهمـَّةٍ لها الخطرُ العالي وإنْ نَالـها حطُّ

أبي بعدما هـيلَ التـرابُ على أبي ورهطيَ فذّا حيث لم يبْقَ لي رهطُ

لك النعمة الخضراءُ تُندى ظلالُها عليّ ولا جحــدٌ لديّ ولا غـمـطُ

فاستغل الشاعر تفعيلات البحر الممتدة، واستغل طاقات الزحافات والعلل التي لا تطل بصورة واحدة، بل تتنوع فاتسع لاستيعاب المعاني الذاتية، وأحوال الذات النفسية، فأبانت القصائد الثلاث السابقة عن موجات الاضطرام والتوتر، لتضئ لنا ذاتاً مشحونة بالتمني السلبي اليائس لعالمه الداخلي من إصلاح الأحوال، وتحايل على ظهور هذا الضعف والألم بالمظهر الخارجي من الاعتزاز بالذات والإحساس بالتميز الذاتي، فأضفى على الذات تبجيلاً وتقديراً وشأناً، يتناسب مع الوسط الذي تحيا فيه بالوزن الطويل الذي يوسع المعاني، فيهرب إليه بوصفه متنفساً للذات وبوصفه صَدىً عن ذاتٍ داخلية لا يرغب لها بالظهور على حقيقتها .

وينتقل ابن زيدون إلى بحر آخر في مدح ابن جهور، لكن كان متفائلاً وإيجابياً ومعتداً بذاته التي تبرز من خلاله الثقة بالذات، فكان الكامل هو الأنسب لذلك في قوله:[2]

للجــهوري أبي الوليد خلائقٌ كالروضِ أضحكهُ الغَمامُ الباكي

قلـّدني الرأيَ الجمـيل فإنـه حســــــبي ليومي زينةٍ وعراكِ

---

[1] ديوان ابن زيدون ،ورسائله، ج١،ص٢٦٠

[2] المصدر السابق، جـ١ ،م ص ٣٥٠

بينما يميل المعتمد في ملامحه السيرية السياسية للبحر الكامل المقدم على بحوره الشعرية وتماهى معه في مواقف الجد خاصة عندما ،تلتف الذات حول ذاتها، والإخبار عن أوضاعها السياسية والاجتماعية، لأن الكامل" يصلح لكل نوع من أنواع الشعر لا سيما القصصية، وهو في الخبر أجود منه في الإنشاء وهو أقرب للشدة"[١]وقد وجد فيه المعتمد ضالته في موقف الفخر والافتخار بمكانته ووالده، فقال[٢] :

امنن على عبد رجـاك بسـاعةٍ يرتاح فيها باصطياد أرانبْ

حتى يصيد بسعدك الأبطال في يوم الوغي بأسّنةٍ وقواضبْ

وتفرض الدهشة وقوة التحولات جزعا وشعوراً معقداً ،يجمع كل عواطف الحزن عندما يقص التحولات الخطيرة والمفاجئة على مستوى جسده وأحوال حياته، فتهز كيانه وانفعالاته، فتأتي جلجلة الكامل وحركاته لتحملها إلى الإبداع، فيقول[٣] :

سلَّت علـيّ يدُ الـخطوبِ سيوفَها فجذذْنَ من جِلدي الحصيفِ الأمْتَنا

ضربتْ بـها أيدي الخطوبِ وإنما ضربت رقـابَ الآملين بها المنى

يا آمـلي العـادات من نفاحتنا كفـّوا فإن الدهرَ كفّ أُكفنا

إن اختلاف الحركات وحروف المد ومرونة الوزن في استيعاب الآهات والزفرات ،عمّق مشاعره وألهب أخيلته ؛لأنّ " الوزن في يد الشاعر قمقم سحري يرش منه الألوان والصور على الأبيات المنغومة" [٤] ، فحينما يرتفع المنطق التعزيزي للذات، لتكبير صدى الجواب ،يعتمد على الكامل والغرض منه أن ((يهجم على السامع مع المعنى والعواطف والصور حتى لا يمكن فصل

---

[١] الطيب ، عبد الله : المرشد إلى فهم اشعار العرب وصناعتها ، ج١ ، ص ٣٦٢

[٢] ديوان المعتمد ، ص ٣٢

[٣] المصدر السابق ، ص ٣٢

[٤] عبد الله ، محمد حسين : الصورة والبناء الشعري ط١، د. م : دار المعارف ، ١٩٨١م ، ص ١٠

هذا البحر عنها بحالٍ من الأحوال"[١]. وتنطبق صفات القوة لوزن الكامل مع موقف التهديد والوعيد فيظهر الارتباط العضوي بين الوزن والتجربة في قول[٢] :

يا مـن تمرّسَ بي يريـد مساءتي لا تعرضـنّ فقد نصحـت لمندمي

من غـــرّه مِني خـلائق سهلة فالســـمّ تحت ليان مسِ الأرقـمِ

وينحسر هذا الوزن في شعر الأسر بعد إن انحسرت عن الشاعر أبهة الملك وجلال السياسة والسلطان، فتتحول الإيقاعات مع تحول نبرة الصوت وخفوت الشموخ والكبرياء، فترشّح أوزان الطويل والبسيط والوافر والرمل ،وهي بحور تصلح للأوصاف والبكائيات والاستعطافات والرثائيات [٣] التي أبرزت ملامح من زمن الأسر وأحداثه[٤]الأليمة.

بينما يكتفي الإلبيري بسبعة أوزان ، لتحمل فكره ونزعته الخطابية الحكيمة، ويأتي المتقارب عنده متوافقاً مع تدفقه الشعوري الغاضِب في قصيدته التي تأججت فيها انفعالاته، فأثر في الأثر العاطفي عند الملتقى حينما قال [٥]:

ألا قلُ لصنهاجة أجمعين بدور النّدى وأُسد العرين

فوزنه يناسب الحماسة والمشاعر القوية و"نغماته من أيسر النغمات حيث تتكرر فيه النغمة الواحدة في انسياب" [٦]، فتحدث رنّة واضحة ونغمة مطربة، وتعطي تأكيداً على قوة استشعار الإلبيري للمأساة التي تحيط بمن حوله، فشحنتها بقوة النغم والإيقاع الحماسي للمتلقي،

---

[١] الطيب ، عبد الله : المرشد إلى فهم أشعار العرب ، ج١ ص ٣٦

[٢] ديوان المعتمد ، ص ، ٦

[٣] انظر: الطيب ، عبد الله ، المرشد إلى فهم أشعار العرب ج١ ، ص ٣٣٢ .

[٤] تنظر الدراسة الموضوعية للشعر ومأساة الأسر في الفصل الأول.

[٥] ديوان الألبيري ، ص ١٠٨.

[٦] بدوي ، أحمد : أسس النقد الأدبي عند العرب – د ط ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، ص٧٩

ليحسم القضية وينهي المأساة. ثم يميل إلى الوافر في قصيدته التي وجهها إلى طلبة العلم وهي قصيدة طويلة، ومطلعها [1]:

أبا بكر دعوتك لو أجَبْتا إلى ما فيه حظك إنْ عَقلتا

وكما يقول حازم: "الشاعر القوي المتين الكلام إذا صنع شعراً على الوافر ،اعتدل كلامه وزال عنه ما يوجد فيه مع غيره من الأعاريض القوية من قوة العارضة وصلابة النبع واعتبر في ذلك بأبي العلا"[2] .والشاعر كان في موقف الواعظ المرشد في محرابه المتوازن في انفعاله، فأتى فكره على هذا البحر ،وفي ذلك دلالة على أن الشاعر ،كان يجد ذاته مطمئنة في حلَق العلم والتذكير.

والشاعر عندما يتحدث عن ذاته في الشعر، ويعمد إلى صب أفكاره ومشاعره في قوالبها العروضية، فذلك لا يعني أنه العنصر الوحيد الذي يقوم عليه شعره، وإنما تتآزر معه الخصائص الفنية الأخرى، كالسرد والحوار والتصوير وتنشط كفاءته الاستيعابية، فالإلبيري يكشف هذه الخصائص في قصيدة أتت على بحر البسيط ،لما يمتاز به من رقة وجزالة [3]يدير بها الحوار ليقول[4]:

قـــالوا ألا تستـــجدَّ بيتاً تعـــجبُ من حسنه البيوتْ

فـــقلت ما ذلكم صوابُ حفـش كثـــيرُ لمن يمـوتْ

كما أن ارتباط الوزن بالعاطفة، أو الموقف الذي يعيشه الشاعر أثناء الحدث لا يمكن أن يكون ذا نتائج حاسمة أو نهائية، فإن اعتماد الشعراء على الأوزان القصيرة.، والمجزوءات لا يبطل آراء النقاد ولكنه يضاف إليها خاصة أن الشعراء ،اعتمدوا على مجـزوءات البحور الطـويلة التي

---

[1] ديوان الإلبيري ، ص ٢٥ .

[2] القرطاجني ، حازم : منهاج البلغاء ، ص ٢٦٩ .

[3] انظر:الطيب ، عبد الله : المرشد إلى فهم أشعار العرب ، جـ١ ، ص ٣٦٤

[4] ديوان الإلبيري،ص٧٠.

شاعت فيها ظاهرة التدوير، والتدوير هو " إخراج البيت في قالب واحد يصل بين صدره وعجزه لفظ واحد مشترك بينهما"[١].

وهذه الظاهرة لا تقف عند حدود الشكل، ولكن لها دلالتها السير ذاتية، فقد شاع التدوير عند ابن زيدون والمعتمد ولذلك أسبابه، فقصيدة المعتمد التي وصف فيها لحظة اقتحام المرابطين على قصره تشيع فيها هذه الظاهرة في مثل قوله[٢]:

وبـــذلت نُفسي كي تسيد لَ إذا يـــسيل بُها النـجيعْ

وبـــــرزتُ لي سوى القميـ صِ عــلى الحشاشيء دفوعْ

ما سْـــــرتُ قطُّ إلى القتا لِ وكــان مِنْ أملي الرجوع

وسنرى أن هذا التدوير يحل الخلاف الذي وقع فيه النقاد حول وقت نظم هذه القصيدة فمنهم من قال بأنه نظمها في زمن الاقتحام، ومنهم من رأى أنه نظمها في السجن في أغمات[٣]، وبالنظر إلى دلالة التدوير على تمزق نفس الشاعر وحيرته وانقسامه بين الندم والرغبة في الخلاص وانثيال الحوار داخل نفسه بين الذات والذات الأخرى، حيث يتغلب فيه الهاجس الدرامي على الحس الغنائي ؛ليدل عن انفعال الشاعر بواقعه الصادم[٤]وهذا يؤيد أن الشاعر نظمها وقت الحدث وليس بعد، وكأن المعتمد يريد أن يتبرأ لنفسه من تحمل مسؤوليته تجاه ما حدث، وتبقى هذه القصيدة المفعمة بالعواطف شاهداً له على مقاومته.

---

[١] شعلال ، رشيد : البنية الإيقاعية في شعر أب تمام بحث في تجليات الإيقاع تركيباً ودلالة وجمالاً – ط ١ ، ١ إربد : عالم الكتب الحديث ، ٢٠١٠، ص ٤٥

[٢] ديوان المعتمد ، ص ٨٨.

[٣] انظر:الخانجي ، عبد الرحمن : المعتمد بن عباد الإشبيلي – ملك ومملكتان ، ص ٩٩.

[٤] انظر:عبد الله ،السعيد محمود : التجديد في موسيقى القر العربي المعاصر – د.ط الإسكندرية : دار الفنون العلمية ، ١٩٩٣م ، ص٢٠٦.

وبالعودة إلى ظاهرة التدوير في شعر المعتمد، نرى أنها لا تبرز إلا في الأبيات التي يرد فيها ذكر الحرب أو القتال، أو الموت والمواقف العنيفة، فتثير فيه هزة وفزعاً تنعكس على مخارج الأصوات ومجرى النفس، ويعكسها التدوير[1]في مثل قوله لوالده[2]:

ولست بمنكر ذنبي ولكنّـ ني قد جئت في حال المريب

وهذا الخوف الذي يعتريه والتوتر الذي ينتابه في المواقف التي تقربه من الموت ،تفسر أسباب عدم ذكره للموت أو مصارعته في الحروب له كما هي عادة الملوك والأبطال، وهذه العلامات تلمح بأنه كان يعاني خوفاً وضعفاً في همته خلاف ما ذكرت المصادر من شجاعته وادّعى هو ذلك في الظاهر من شعره، وهو أمر أوضحته عروض البيتِ، ولم يكن المعتمد يعتقد بأنه سيظهر للمتلقى يوماً، وحاول إخفاءه حتى بالشعر الذي يزود به الشعراء ويعطي معه المال لتغطي سماحته عيوبه وضعفه.

ويظهر التدوير عند ابن زيدون في مواقف مماثلة ،هزّته حتى أثرت على مواضع نبر الحروف في حالة التوتر الشديد والشعور بالقهر الذي لا يظهر إلا أثناء شعوره بالألم العميق من أحد أصدقائه، فبعث لأقرب أصدقائه يبثه شكواه من سجنه، فيقول على مجزوء الرمل في استخفاف وتحقير لأصحابه وهو أمر يناسب البحور القصيرة[3]:

أنا حـــــــيران وللأمـ رِ وضـــــــــوحٌ والتباس

ما تــرى في معشر حا لـــوا عن العهد وخاسوا

كما يكشف التدوير عن شدة غيظه وحنقه على ابن القلاس الذي يبدو أنه تفاجأ وذهل من خيانته له، فاغتاظ منه أكثر مما اغتاظ من ابن عبدوس، ويتبين ذلك من لهجة الأبيات،وما تحمله

---

[1] ينظر الدراسة ، ص ٥٨ ، ص ٦٨ ، ٨٤

[2] ديوان المعتمد ، ص ٣٣ .

[3] ديوان ابن زيدون ورسائله، جـ ١ ، ص ٢٧٥.

من صدق للتهديد والوعيد عندما هجاه على مجزوء الرمل ،وقال[1] :

أعد نـــــظراً فإن البغـ ـي ممـــا لم يزلْ يصرَعْ

ولا تطــع التي تغـويـ ـك فهـــي لبغيهم أطوعْ

ولاتك منك تلك الدا رُ بالــمرأى ولا المسمع

مما اضطر ابن القلاس للتنحي عن طريق ابن زيدون وغاب ذكره حتى في المصادر، ولعل لابن زيدون وغضبه دوراً في اختفائه.

وأخيراً يمكن الاستئناس برأي العقاد من أن تجارب العصور الماضية تتجلى عن صلاح القوالب العروضية لمجاراة أغراض الشعر في أحوال كثيرة، وأن أساس العروض العربي قابل للبناء عليه بغير حاجة إلى نقضه، أو إلغائه وأنه استوعب ترجمة العصور المختلفة، كما استوعب ترجمة الملامح في العصر الحديث وما يشبهها من القصائد التاريخية المطولة بالإضافة إلى استجابته لمطالب المسرح[2] ،فالوزن سبيل للتوازي اللغوي الموسيقي الذي يعد الامتداد الأكثر عمقاً، يتجاوز بدقته ودخوله في التفاصيل إلى الدلالات النفسية والشعورية والعاطفية لملامح سيرية أخرى أكثر عمقا والتصاقاً بذات الشاعر.

وَالقافية :

قسيمة الوزن في الأهمية والدور للبناء الموسيقي ،وتمثل القرار والإيقاع لأمواج النغم، وركيزة بناء البيت الشعري والقصيدة وهذه الرتبة المقدمة والمسؤولية المناطة بالقافية ،لن يجيلها إلى عامل قطع أمام حديث الشاعر عن ذاته،لاسيما أننا ننظر للنصوص الشعرية للموضوعات السير ذاتية بوصفها تتفرع منها النصوص المختلفة المكونة للموضوع الأساسي لسيرة الشاعر، ولهذا لم يعد

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله، ج١ ،ص٥٧٨.

[2] انظر:العقاد ، عباس محمود : اللغة الشاعرة – د. ط ، القاهرة : مكتبة غريب ، د. ت ، ص ٦٣

دور القافية مجرد دور بنائي صوتي ، بل غدى بإيقاعاته الصوتية دالاً من دوال النصوص ، يدفع لاكتشاف آليات فنية سير ذاتية للكشف عن الزوايا المعتمة والجوانب المنزوية من سيرة الشاعر.

فالقوافي تمتلك إمكانيات واسعة بانفتاحها على حروف الهجاء جميعاً، وقدرة الشاعر على التنقل فيما بينها ومن ثم تنوعها ،لما تنطوي عليه من معان وخصائص متنوعة، ودلائل إيحائية للحركات والمدود المستخدمة لحروف الروي، وهو الحرف الذي تبنى عليه القافية ، يقول ياكبسون والقافية ،تتضمن بالضرورة علاقات معنوية بين الأجزاء التي تربط بينها"[١] .فالقافية بذلك تخزن داخلها عالماً مثقلاً بالدلالات والرموز والإشارات العميقة، فهي كالمجهر الدقيق الذي يكشف مالا تراه العين المجردة، ومالا تدركه حاسة البصر للنفاذ للمكونات السير ذاتية الدقيقة ذات الحساسية العالية التي تنجذب وتذوب في الإيقاع والموسيقى للقافية، كالمكونات السيرية النفسية المرتبطة بالمواقف الانفعالية المتفرقة وتمثل علامة فارقة في سيرة الشاعر ، فتغير مجرى حياته ، أو ترجح رأياً طرحته الدراسة الموضوعية ،أو تنفيه ،أو تثبت قضية ما ، أو تنفي أخرى، أو أمراً اشتهر به الشاعر ، لا سيما أن الشعر هو الأثر المعتمد عليه بوصفه مصدراً أساسياً لسير الشعراء في ظل غياب آثارهم .

وقد نُظم شعر الموضوعات السير ذاتية على معظم حروف الهجاء واحتلت القوافي الأكثر شيوعاً في الشعر العربي، وهي ما سماها النقاد بالقوافي الذُّلل[٢] الصدارة وهي قافية (الباء ، الراء ، الميم ، الدال ، النون ، اللام ، العين ، والسين)[٣] ، واستحوذت على القدر الأكبر من النصوص الشعرية مع تفاوت حضورها، وتغير رتبها من موضوع إلى آخر ، وتنوعت تبعاً لذلك حركات الروي وأنواع القافية .

وتمتاز هذه الحروف السابقة بمرونتها وثراء معجمها اللفظي، ويسْر تطويعها للموضوع وقبولها للحركات الطويلة والقصيرة، فتكثر في الجوانب السير الذاتية التي يرغب الشاعر، أن يتوسع

---

[١] كوين،جون:بناء لغة الشعر د.ط ، تحقيق : أحمد درويش ، القاهرة مكتبة الزهراء ،١٩٨٢م ، ص ٢٤٤.

[٢] قسم النقاد القوافي إلى ذُلل ، ونُفر ، وحُوش أنظر لذلك : الطيب، عبد الله: المرشد إلى فهم أشعار العرب ، ج١، ص ٤٦ ، ٥٩

[٣] ينظر جدول القوافي لابن زيدون لكتاب : ابن زيدون حياته وعصره وأدبه ، جـ٢،ص وجدول وقوافي شعر المعتمد في ديوانه، ص ١٢١

في الحديث عنها فرحاً أو حزيناً ، راضياً أو غاضباً، وطرحها للمتلقي وتقريبها منه ،متنقلاً بين الحروف ليدفع الملل والفتور عن النفوس .

وارتباط القوافي بالمكونات العميقة النفسية من خلال دلالتها الصوتية، وإيقاعاتها الإيحائية يطغى على بعض القصائد ذات الوضع الخاص الشاذ المغاير للمشهد السيري المعتاد لابن زيدون لتكون بمثابة وسيلة سير ذاتية صوتية تضيء جانباً متزوياً من الملامح الذاتية للشاعر، وهذا ما أكده فاليري بقوله:"إن القصيدة تبدأ بإشارة إيقاعية بسيطة لتشكل شيئاً فشيئاً معنى ما"[١] .وهذا ما نقف عليه في قصيدة ابن زيدون[٢] :

أثرتَ هزَبْر الشرى إذْ ربَض ونبّـــهته إذا هدا فاغتمضْ
وما زلت تَبسطُ مســترسلاً إليه يـــدُ البغي لمّا انقبضْ
حـــذار حذار فإنّ الكريم إذا سِيم خسفاً أبيَ فامتعض
فإنّ سـكونَ الشجاعِ النهو س ليـــس بمانعه أنْ يعضْ
وإن الكـواكب لا تُسْتذلّ وإن المـــقاديرَ لا تُعترضْ
إذا زيـغَ فَلْيقتصد مُسْرفٌ مساعي يَقْصرُ عنها الحَفَضْ[٣]
وهلْ واردُ الغَمْر من غيره يقاسُ به مستشف البَـــرَضْ[٤]

فالأفكار يسيره ومفهومه، وهي تحذير ابن عبدوس وتهديده، ولكن إيقاظها وتفعيلها بالحس الإيقاعي ضرورة، لمنحها الحرارة والحياة عن طريق الانفعال بالحدث الذي منح المخيلة تحديد نمط القافية المنسجمة معه، فاختار الضاد روياً للقافية وهي قافية حرون ،لا تنقاد إلا لشاعر متمرس، فمعجمها ليس من السهل استقصاؤه والإلمام بمعانيه الدقيقة، وتصريف صيغها للتناسب مع الموقف ،يحتاج لمهارة فائقة وتوتر خاص ،يتناسب مع القافية.

والقاف من الأصوات الانفجارية الشديدة،وتظهر نتيجة إنسداد مجرى الهواء انسداداً تاماً في أدنى الحلق بما في ذلك اللهاة،ثم يحدث تسريع لتيار الهواء فجأة محدثاً فرقعةً قوية ،تبلغ المدى

---

[١] موسى ، خليل : بنية القصيدة ، العربية المعاصرة ، ص ٩٠.

[٢] ديوان اين زيدون ورسائله ،جـ٢ ، ص ٥٨٣

[٣] الحفض : رديء المتاع أو عمود الخباء

[٤] البرض : القليل .

الزمني لصوت القاف من ثلاثين إلى أربعين ثانية[1]، وهو من أقل الأصوات الساكنة مدى، ويكثف من مداها التوسل بالوقف للروي والقافية المقيدة بالسكون، وهذا ما يجعل من القاف صوتاً يكاد ينطق بعواطف الشاعر من قوافيه (اغتمض، انقبض، امتعض، يعض، لا يفترض ، الحفض ، البرض) ،فتلحظه الأذن وتميز كيفية نطقه في هذا النموذج ،توحي بحالة من الاختناق والانحباس، وهي تقريباً الحالة الشعورية التي يمر بها الشاعر المشحون بالغضب، فألجأت الشاعر لهذه القافية العسيرة، فأحال غضبه الهادر إلى القوافي وإيقاعها ،فشدت إليها المعاني وصَعدت بالتوتر مع أبيات القصيدة انتقالاً من الحسي إلى المعنوي، ليقابل ما سبّبه من عسر لابن زيدون، محاولاً تضييق الحدث في أبعاده المختلفة إلى أضيق مسافة ممكنة ، وتكثيف حضوره وحصره بمتلقٍ خاص، لا يبتغي غيره وتوقياً للأثر الخطير الطارئ ،الذي سيتركه هذا الموقف وهذه الشخصية على مسار حياته وتعكير وجوده السعيد المرفّه.

وقد تقدم أن ابن زيدون رجلٌ لا يحب أن يُرى إلا سعيداً شامخاً ناجحاً، ولا تتسع عواطفه للضيق والألم وسورات الغضب ، بدليل أنه لا يتعرض لها في تجاربه الشعرية، ولا تستثير قريحته الشعرية، لذلك لم يركب من القوافي الصعبة إلا هذه القافية ؛ ليواجه بها صعوبة الموقف الذي يبدو أنه فَاق قدراته.

وتأتي كلمات هذه القافية"ذات معان متصلة بموضوع القصيدة بحيث لا يشعر المرء أن البيت مجلوب من أجل القافية بل تكون هي مجلوبة من أجله"[2]، وخالفت ما اعتدناه من تعامله الإيجابي مع الأحداث مهما صعبت ولعدم قدرته على قبول مثل هذه العواطف الطارئة ، فقد غيرت مجرى حياته وكانت سبباً للهروب من قرطبة ومقاطعته لولادة التي بدأت تثير منه عواطف لا يحبها، فهو يعيش لذاته ولذّاته وسعادته ، ويهرب من المنغّصات، وهذا الجانب النفسي يعود لترف ابن زيدون وثرائه، ولذا يقابل هذا الضيق والعسر في القافية ،التي تمثل إحدى ردات فعله توسعه في الحديث عن قرطبة وحبها وأكثر من وصف جمالها وما وهبته من لذة ورضا ، فعمد إلى القصائد المخمسات للتوسع في الحديث، ولم تأت المخمسات إلا في حديثه عن قرطبة ومنها[3] :

تنشّق من عَرْفِ الصبا ما تنشقا وعاوده ذكر الصبا فتشوقا

---

[1] انظر:أنيس ، إبراهيم ، موسيقى الشعر ، ص ٩٩

[2] هلال،محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث – د. ط القاهرة : مكتبة نهضة مصر للطباعة والنشر ، د. ت ، ص ٤٤٢ .

[3] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص ١٣٢

وما زال لمعُ البرْقِ لمّا تألقا يهيبُ بدمع العين حتى تدفقا

وهل يملِك الدمع المشوقُ المصبّا.

وتنوعت قوافي هذه المخمسة ،فالذاكرة وسرد الذكريات ،استلزمت التنويع في الإيقاع، ليجذب به المتلقي، فتنوعت المصاريع وأتت على (القاف ، الهمزة ، الراء، الباء ، الحاء ، العين ، الكاف ، اللام ، النون ، السين ، الدال، الميم، الهاء). واستخدم الضمة حركة للروي "والضمة حركة تشعر بالأبهة والفخامة، وشعراء الفخامة يميلون إلى الضم"[1].كما أن قوانين الغناء السائدة في عصره وحبه للغناء وجمال صوته كان سبباً آخر وربما هذا ،يشير إلى أن ابن زيدون كان منشداً أو مغنياً كما أشار إلى ذلك ابن بسام في ترجمته للشاعر .

ومن مظاهر القافية التي تشير دلائلها الصوتية للوضع النفسي للمعتمد، نرى تفوق الروي المكسور للقوافي على أشكال الروي الأخرى ، فيما يقارب الخمسين في المائة من روي شعره كله.

ويشكل معظم روي شعره الأغماتي، حيث يأتي في ثمانية عشر نصاً من مجموع النصوص الشعرية لهذا المكون البالغة سبعة وثلاثين نصاً، بينما تأتي القافية المطلقة في اثني عشر نصاً، ويرى النقاد أن الكسرة حركة رقة ولين [2]، ومثال ذلك قصيدته التي مطلعها [3]:

كنت حلفَ النّدى وربّ السماح وحبيبَ النفوس والأرواحِ .

وهذه الظاهرة تؤيد ما ذهبت إليه الدراسة الموضوعية من أن رقة وضعفاً وانكساراً ،يعتري شخصية المعتمد منذ صغره، واشتدت معه باشتداد حزنه وبلغ ذروته في أسْرياته ؛ لتتوغل دلائل القافية في أعماق السيرة الوجدانية للأنا ويعاضد هذا القافية المطلقة التي لا تظهر بوضوح إلا في مرحلة الأسر ؛لكثرة الآهات التي أراد لها المعتمد أن تدوي بمأساته في الآفاق ويبث عبر أثيرها ما يستدر به العطف ويغطي به القصور ، ومن ذلك قوله [4]:

من بات بعدك في ملك يسرُّ به فإنما يأتي بالأحلام مغرورا.

---

[1] الطيب ، عبد الله : المرشد إلى فهم أشعار العرب ، ج١ ، ص ٦٨

[2] انظر :المصدر السابق،ج١،ص٧٥.

[3] ديوان المعتمد،ص٩٤.

[4] المصدر السابق ، ص ١٠١.

وقد حفظت له ما أراد من سيرته وأغفلت ما أغفل ، فالإيقاع والصوت والموسيقى العذبة الحزينة ،كانت عامل حفظ لسيرته حتى ارتفعت بالشعر ؛ليصبح مصدراً لها وعامل تفاعل قوي مع المتلقي .

بينما يخرج الإلبيري في قوافيه عن المألوف بتكراره لكلمة واحدة في كل أبيات القصيدة التي مطلعها[1]:

يا أيـــــــها المغترّ بالله فـــــــرّ من اللهِ إلى اللهِ
ولُذ به واســـأله من فضله فقـــــد نجا مَنْ لاذ بالله
وقُمْ له والـــليل في جُنْحه فَـــــحبّذا مَـــنْ قام للهِ

إن تجـاوز الإلـبيري للـمألوف والاعتـماد على لــفظ الجــلالة (لله) قافيـة لكل أبيات القصيدة ،يضفى على قصيدته القبول لعظم الكلمة ويندفع بهذه القافية لكلمات ،يكتنزها من معطياته المتنوعة؛ ليحول الغنائية الشعرية للقصيدة إلى فكرة عن طريق شحنها بكفاءة عالية مضاعفة وقادرة على توجيهها لفضاءاته السير ذاتية الفكرية، ومحاولته استثارة مكامن الإدهاش عند المتلقي بلزوم مالا يلزم .

وتبقى مذخوراته الثقافية هي المتحكمة في شعره فلا يحيد عنها ، لتبرز كلمة (النار) قافية أخرى لقصيدة طويلة ؛لتقوية الإيقاع الموسيقي للتأثير في المتلقي من طلبة العلم من البربر ، فهي تحقق غرضاً معنوياً في إحكام المعنى، وغرضاً فنياً في إحكام النغمة وإعلائها على أصوات القصيدة ومطلعها[2] :

ويلٌ لأهـــــل النار في النار مـــــــاذا يقاسون من النار
تتقدُّ من غيـــظ فتغلي لهم كـــمرجلٍ يغلي على النـار

فالقافية هي المصدر الذي يعبر عن ذاته ، يقول هيدجر " الشاعر الحق لا ينتظم أبداً في سلسلة التدجين المنطقي المتصالح مع الموجودات والسوائد والمألوفات ، بل يشغل بمرونة عالية وشفافية مدهشة على تنقية مزاجه من شوائب الآني والثابت ، ليتدخل تدخلاً رشيقاً في إيقاع

---

[1] ديوان الإلبيري ، ص ٧٥.

[2] المصدر السابق ، ص ١٠١

أرواحنا ويدعنا نكون في انفتاح ملتهب بالجدة على نكهة مختلفة وطعم مغاير"[1] ؛فالاستثنائية شديدة الخصوصية للإلبيري 'نقلت فكره إلى شعره بقوافيه لتخدمه، لا ليذوب فيه .

وأخيراً ، يمكن القول بأن الظلال السير ذاتية بمستوياتها المختلفة ،تنعكس على أصوات القافية بمستويات وأشكال ،تختلف من شاعر إلى آخر ، فهي البنية الفنية الأولية ، التي تنهض بذات الشاعر في جوانب حياته المختلفة بواسطة موضوعات شعره ومناسباته .

[1] الضاهر ، عادل : الشعر والفلسفة – ط١ ، دمشق : دار المدى للثقافة والنشر ، ٢٠٠م ، ص ١٠٩

٢. التكرار الصوتي على مستوى الألفاظ والتراكيب :

الشعر كما يقول النقاد "تردد بين الصوت والمعنى"[١]ومعنى القصيدة، يثيره بناء الكلمات بأصوات أكثر مما يثيره بناء الكلمات، بوصفها معانٍ وتكثيف المعنى هو حصيلة لبناء الأصوات،ولهذه الخصوصية، فإن التكرار اللفظي بمستوياته المتنوعة مكون بنائي أساسي في البنية اللغوية، وجزء من المعمار الهندسي للعبارة الشعرية،يتحرك الشاعر بواسطتها ؛لتنظيم الترددات الصوتية وتوازنها الإيقاع في البيت الشعري، وتحفزه إيحاءاتها على المستوى الإيقاعي والدلالي ،لرفع مستوى الوعي والشعور بالذات إلى أعلى درجاته .

والتكرار سمة بارزة في الشعر عامة، وفي نصوص شعر الموضوعات السير ذاتية خاصة،يقول الزركشي"، الكلام إذا تكرر تقرر"[٢] .وقد أخذ التشكيل التكراري في موضوعات السيرة أشكالاً ،تناسب حديث الشاعر عن ذاته، ضمن محاور متنوعة، وقعت في الأداة والصيغ والتراكيب، لذا فإن دراسة التكرار تقوم هنا–على منحيين، المنحى الأول: دراسة التكرار المألوف للكلمة الشعرية، والمنحى الآخر: تكرار الظواهر وقضايا مشتركة بين موضوعات السيرة ،أو بعضها ومن أبرز أشكال المنحى الأول :

التشكيل بالتجانس:

ينهض في موضوعات السيرة الشعرية على أساس التشابه بين اللفظين في الإيقاع واختلافهما في المعنى[٣]، ولم يتردد الجناس التام في النصوص الشعرية بحيث يشكل حضوراً ملفتاً للانتباه؛ لأنه يقوم على الاتفاق التام في عدد حروف الكلمة وترتيبها، وأنواع أصواتها وهيئاتها الحاصلة من الحركات والسكنات[٤]، وهذا الشكل من الجناس لا يلائم حديث الشاعر عن ذاته وملامح تطورها السيري ولكن غلب الجناس الناقص الذي يسقط فيه أحد أركان التام، أو بعضها ليمنح الشاعر مساحة أوسع من البيت الشعري ،فيستغله في الحديث عن ذاته، والتعبير عن تجاربه وأحداث حياته ؛وليخدم به الوسائل الكبرى:كالأسلوب القصصي والتصويري وعلى هذا السبب ،يكثر الجناس الناقص بأشكاله وصوره المختلفة وستقتصر الدراسة على بعض نماذج في

---

[١] فضل ، صلاح : نظرية البنائية في النقد الأدبي – ر . ط ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠م ، ص ٣٩٠

[٢] الزركشي:البرهان في علوم القرآن – د.ط ، تحقيق :أبو الفضل الدمياطي،القاهرة : دار الحديث ، ٢٠٠٦م،ص٦٢٧

[٣] انظركيحي ، محمد : السمات الأسلوبية في الخطاب الشعرية د . ط ، إربد : عالم الكتب الحديث ، ٢٠١١ ، ص ١٣٠

[٤] انظر:سلطان ، منير : البديع تأصيل وتجديد – ط١ ، الإسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٨٦م ، ص ١٣٠

كل موضوع ، لأنه سمة مشتركة بين موضوعات السيرة ويؤدي وظائف لخدمة الذات ،فيبرز دوره في مساعدة المعتمد للمقارنة بين حالين في قوله [1]:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءكَ العيدُ في أغمات مأسورا

فالاختلاف الصوتي بين الألفاظ ،أدى إلى اختلاف في زمن الإيقاع بين المتجانسين، فالأول أطول زمناً في تردد الذبذبات الصوتية، والآخر أقل زمناً منه والتصريع بين مسروراً، ومأسوراً) ،أعطى توازناً صوتياً يلحق كل كلمة مكررة في كل شطر مع اختلاف المعنى الذي خلق منه الشاعر وجهاً للمقارنة .

وابن زيدون يقول مخاطباً أمه[2] :

وفي أم موسى عِبْرة إذ رمتْ به إلى اليمِّ في التابوتِ فاعتبري واسلي

فالجناس الناقص بين (عبرة، اعتبري) بين اسم وفعل سببه صوتين :الثاني أطول صوتاً من الأول وفي هذا دلائله المعنوية، يقول أحد الباحثين:"أما الجناس فإنه ظاهرة إبراز للفرق عبر درجة قصوى من التشابه، أي أنه تعميق للفرق والتشابه (الفرق الدلالي والتشابه الصوتي) ولأنه كذلك فإن الفجوة: مسافة التوتر فيه أكثر حدة وبروزاً"[3]، وهذا ما استغله الشعراء من الجناس، فلم يأت من باب الزينة، ولم يسرف الشعراء في استخدامه لأن له مهمة وظيفية ،تخدم توجه الذات حتى عندما يسرف الشاعر في استخدامه، فإنه دلالة على حياة الشاعر غير الجادة اللاهية المنعكسة على أدائه الفني وإسرافه في البديع مع ضعف الصدق الفني كما في قول المعتمد[4] :

اشرب الكأس في وداد ودادك وتأنّس بذكرها في انفرادك

إن اجتماع شرب الخمر مع التلاعب بـ (وداد ، وودادك) الأولى اسم الجارية والثانية الحب والود مقترناً بالأنس ،ينم عن صفحات اللهو الكثيرة في حياة المعتمد.

وعندما يقول الإلبيري [5]:

وما فعلتْ أعلامُها وفئامُها وآرامُها أم أين تلك المراتبُ

---

[1] ديوان المعتمد ، ص ١٠٠.

[2] ديوان ابن زيدون ورسائله ، ج ١ ، ص٢٦٤.

[3] انظر:أبو ديب ،كمال : في الشعرية- د .ط بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٨٧م ، ص ١٠٢ .

[4] ديوان المعتمد ، ص ١٠

[5] ديوان الإلبيري ، ص٨٧.

فالتجانس المتتالي بين (أعلامها، فئامها ، أرامها) وإيحاءات الإيقاع الصوتي للكلمات رغبة في زيادة التنبيه والتهويل للوضع السائد وفق السياق السيري الذي يدل على أمنية ،تحولت إلى محال بعد تدمير مدينة الشاعر، لكنها كالآهات الحزينة تكشف عن جانب ذاتي للشاعر وهو حزنه وإدراكه للخسارة الحاصلة عن الفقد بعد تدمير مدينته إلبيرة .

ومن أشكال التكرار **الترديد،** وينهض" على أساس أن يعلق الشاعر اللفظة في البيت بمعنى من المعاني ثم يردها بعينها ويعلقها بمعنى آخر"[1]، ليفجر طاقتها المعنوية في السياق الشعري الكثيف، وقد لجأ إليه الشعراء ، فتوسلوا به في مواضع كثيرة لما يتضمنه من فوائد دلالية فيها تقرير وبيان وتدليل ،لما يوفره من قيم صوتية تتردد على أبعاد متقاربة من الأذن عندما ،يسلط الضوء على نقطة حساسة في البيت، ينفذ إلى أهميتها بواسطة الترديد الصوتي، ولذا يصعب تحققه على مدى واسع في الموضوعات السير ذاتية، ولكنه ورد في مواضع مختلفة من نصوص مكوناتها في مثل قول الإلبيري نيناقش قضية فكرية كان يرفضها[2]:

أمْ مَنْ رأي لي عالماً ساكتاً وعقله في عالم جائل

فترديد (عالم، وعامل) أدى إلى اشتقاق معنى إضافي من الكلمة الأولى من شأنه أن يوسع من دلالة اللفظ وتعميقه بأثره الصوتي المتردد، الذي نراه عند المعتمد بلفظ آخر في قوله[3]:

يا آملي العادات من نفحاتنا كفّوا فإن الدهر كَفَّ أكُفَّنا

فترديد (كفوا- كف- أكفنا) في كل مرة يمنح معاني البيت ترابطاً وقوة ؛لانعكاس قوة الحدث وتجسيد المعاناة التي تتسع ؛لأنها بترديها مرتين توحي بانقضاء الأمر وانتهائه.

ويقول ابن زيدون مبرراً هروبه[4]:

فررتُ فإن قالوا الفرارُ إرابةً فقد فرّ موسى حين هَمّ به القبْطُ

فترديد (فرّ) بصوت مقارب للصوت الأولى وإطالة حرف الراء في (الفرار) ،ثم إدغامه في الفعل (فرّ) ؛ليزيد نبر الراء بالتشديد ؛فيتكثف الصدى ؛ ليحمل معان ذاتية وكأنها ،توحي

---

[1] ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر ونقده_ط٥،تحقيق:محي الدين عبد الحميد ،بيروت :دار الجيل، ١٩٨١م ،جـ ١ ، ص ٦٦.

[2] ديوان الإلبيري ، ص ٦٦.

[3] ديوان المعتمد ، ص ١١٥.

[4] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص ٤٩٠.

بأهوال الفرار أثناء الرحيل، والثالثة جماع للخوف والتعب والألم من الشامتين الذي فر منهم كما فر موسى من مصر.

ومن أشكال التكرار تكراره حرف العطف الواو، وإن كان تكرار الحرف لا يرقي في قوته إلى التأثير الصوتي للكلمة المكررة، ولكن تكرار هذه الأداة بشكل مكثف في موضوع السيرة العاطفية، والفكرية ملفت للانتباه حيث تكرر في قصيدة واحدة لابن زيدون، وهي نونيته المشهورة المكونة من اثنين وخمسين بيتاً خمساً وخمسين مرة كحرف عطف فقط، منها قوله[1]:

والله ماطـــــلبت أهــواؤنا بدلاً مـنكم ولا انـصرفت عنكم آمانينا

ولا اســـتفدنا خليلاً عنك يشغلنا ولا تـــخذنا بديلاً منك يسلينا

يا ساري البرق غاد القصر واسق به من كان صِرفَ الهوى والود يسقينا

فالواو أصبحت لازمة أسلوبية صوتية ،وظفها الشاعر توظيفاً دقيقاً لتقوم بالربط بين الجمل، وتزيد من النغم الصوتي المتتابع لها،وتعمل على تسريع السرد القصصي وربط المشاهد التصويرية لحركة الأحداث حتى غدت لازمة في نصوص الشاعر السيرية الأخرى [2].

ويلجأ إليها الإلبيري بتوسع ،فهي وسيلة الربط لعرض أكبر قدر من التفاصيل التي تقوم عليها المفارقة والتضاد، ونقل صوته الثائر المتدفق من ذات متمردة على الماضي والحاضر في مثل قوله من قصيدته النونية [3]:

وهـــم يقبـــضون جباياتها وهم يخـضمون[4]وهم يقضمون

وهم يلـــــبسون رفيع الكسا وأنتم لأوضـــــعها لابسون

وقد لا بـــسوكم بأســـحارهم فما تســـــمعون ولا تبصرون

ورخـــــمَّ قـــــردُهم دارَه وأجـــــرى إلها نَميرُ العيون

يخضع امتداد الواو بشكل أفقي وعمودي معمّق ومترابط للتداعي، ولطبيعة الموقف الذي عايشه الشاعر ، وتعداد صور الأشياء بنغمة موسيقية لتكرار الحرف مع واو الجماعة في الأفعال لتكثيف حضورها، وجذب المتلقى للنص وجعل السامع ،يستشعر المعنى المقصود مباشرة، وقد

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ٢ ، ص١٦٧

[2] تنظر الدراسة ، ص : ١٥ ، ١٥١ ، ١٥٢ وما بعدها

[3] ديوان الألبيري،ص١١١،١١٠

[4] يخضمون : الخضم: الأكل بأقصى الأضراس

أصبحت الواو لازمة صوتية عند الإلبيري[1] ،بينما لا تظهر بوصفها لازمة عند المعتمد، ولم تظهر إلا في مواضع قليلة عندما يقابل بين حالتين كما في قوله[2] :

كنت حلف الندى ورب السماحِ وحبـــيب النـــفوسِ والأرواح

إذ يـــــميني للبذل يوم العطايا ولـــــقبض الأروح يوم الكفاح

وربما يعود ذلك للنزعة القصصية عند المعتمد المختلفة عما سواه، أو عدم الاعتماد على المفارقة بشكل مكثف، فهو لا يعرض فكره ولا عواطفه وإنما يتحدث عن سياسته ومأساته.

ومن أشكال التكرار المعنوي الخاص بموضوعات السيرة الذاتية السائد فيها،هو تكرار صيغ المشتقات والجموع حتى يكاد الشعراء لا يفارقونها في جل أبيات النصوص الشعرية وعلى امتداد المكونات كلها، وهذا التكرار بالذات يعلي من شأن الذات ويدل على تمحور الشاعر حول ذاته، فيسخر لها الطاقات الصوتية والمعنوية الممكنة ؛لتعينه في التعبير عن ذاته، فالمشتقات ليست ألفاظاً مفردة، أو وحدات بسيطة، وإنما هي ألفاظ مركبة مكثفة الإيقاعات، وعميقة الدلالات للمعاني والشعر بدوره ،يحتاج لحشد من الكثافة والرمز والإيحاء لأطره المحددة بالوزن والقافية والبناء التي لا يتجازوهما.

فالمشتقات تدل على الحدث وصانع الحدث معاً، أي تعمل عمل الفعل والاسم ،تحمل بين طياتها الجملة الاسمية شكلاً، والجملة الفعلية مضموناً،والجموع توحي بالكثرة والاتساع وهذه الخصائص ،تعطي مجالاً أرحب وأدق للقراءة،وأكثر عمقا في التأويل والتفسير لمعاني النصوص ومرجعياتها علاوة على قوة الإيقاع ووضوح النبر،وقد وجدنا قصيدة المعتمد التي نظمها عندما حاصره المرابطون في قصره، وقد استولت على ألفاظ القصيدة صيغ المبالغة والجموع ومطلعها[3]:

لمـــــا تماسكت الدموع وتنـــــبّه القلبُ الصديع

تكررت صيغ المبالغة في شطرى أبيات القصيدة البالغة أحد عشر بيتاً ثماني مرات (الصديع/ النفيع/ الرفيع/ دفوع/ النجيع) وتكررت الخضوع ثلاث مرات، وتكررت ألفاظ جمع التكسير (ست مرات) وهي (الدموع- الجموع، الضلوع (مرتين) الطباع، الدروع) وأبيات القصيدة على مجزوء الكامل، فضيق المساحة وأزمة الموقف لا تمكن الشاعر من الإطال، فاستعان بهذه الصيغ

---

[1] تنظر الدراسة الموضوعية ، ص ١٠٦ ص ١٠٧ ، ١٠٨ وما بعدها .

[2] ديوان المعتمد ، ص ٩٤.

[3] المصدر السابق ، ص ٩٩.

التي أعلت من إيقاع الكثرة والزيادة على وزن (فعول ، فعيل) المتكررة ارتفاعاً وانخفاضاً؛ لتسد مسد الكثير من المعاني والصور والقصص عن هذا الموقف.

ويمكن القول: إن من أسباب تعميق مأساة المعتمد وشهرتها مع وضوح لغتها هو اعتماده على المشتقات وألفاظ الجمع وهي ظاهرة لغوية دقيقة وذات دلالات مهمة على اتجاهات حديث الشاعر عن ذاته وتظهر هذه الدقة في نصوص سيرته في مثل قوله[1]:

فيما مضى كنتُ بالأعيادِ مسروراً فساءَك العيدُ في أغماثَ مأسوراً

ترى بناتك في الأطمار جائعةً يغزلن للنـّاس لا يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليمِ خاَشعةً أبصارهُن حسيراتٍ مكاسيرا

فألفاظ الجموع بلغت منتهاها في(أعياد- أطمار- بناتك- مكاسير) مستندة أو مسندة إلى مشتقات متنوعة (مسرور – مأسوراً- جائعة- تسليم خاشعة- حسيرات) ،فتتجاوز معناها المباشر بهذا التكرير الكثيف إلى معنى أعمق وأوسع وتزخر بأكثر مما تظهر، وتشير إلى ملامح سير ذاتية ذات مشاهد عريضة من الماضي والحاضر للشاعر، وتشي بأكثر مما تقول من المعاني .

وتشيع هذه الظاهرة عند المعتمد في جل شعره حتى عندما يكون ذلك من باب الاستهزاء بابن عمار في قوله[2]:

الأكثـــرين مُسوّدِاً ومملكاً ومتـــوّجاً في سَالف الأعصارِ

المــكثرين من الكباء لنارهم لا يوقـــدون بغيره للسَّاري

فالألفاظ المشتقة تنحو منحى المبالغة والكثرة لأداء مقاصد الشاَعر من أجل توكيد الصفة المراد خلعها على الموصوف وتمكينها في ذهن المتلقي عن ابن عمار ليتلقاها هو ، ويدركها غيره .

ومثل ذلك نجد الإلبيري في جل نصوص مكونات سيرته في مثل قوله يشيد بإقامة الحدود الشرعية[3]:

الســوُط أبلغُ من قالٍ ومن قيلٍ ومـــن نباح سفيهٍ بالأباطيل

مرُّ المـــذاقِ كحَرِّ النّارِ أبرده يعـــقّلُ المتعاطي أيّ تعقيلِ

---

[1] المصدر السابق،ص ١٠٠.

[2] المصدر السابق، ص ٧٢.

[3] ديوان الإلبيري ، ص ١٢٥.

يرقّـص المرءَ ترقيصاً بلا طربِ لو كان أثقل أوْ أجْسَى من الفِيل

وقد هجـاهُ بهجو مؤلم موجع لا يشبه الشعر في نظم وتفصيل

فالأبيات تتراوح بين اسم الفاعل واسم التفضيل الذي يناسب توجه الإلبيري الفكري في محاولته ترجيح الكفة الراجحة على المرجوحة، لأن صيغة أفعل تدل في سياقها على الاتصاف بالحدثِ من جهة تفضيلها على غيرها مما يتصف بالحدث من أجل منح المعنى المسوق تجدداً واستمرار خاصاً أنه يذكر المفضل والمفضل عليه.

وعلى تكرار هذه الصيغ تكرار مكثفاً ،نهضت قصيدته في يهود غرناطة التي أثرت معانيها أصواتها جلجلة، وتدفقت قوةً اخترقت شباك المتلقين، فقاموا على إثرها ثائرين حيث غصت بالمشتقات والجموع على اختلاف أشكالها ومعانيها يقول النقاد "إن ما يحفظ الشعر الغنائي من التحلل إنما هو التكرار"[١] ،وهو من الخصائص الجوهرية للشعر ومن أمثلة ذلك تكرار اسم الفاعل من نفس القصيدة السابقة[٢]:

فلا تتـــــخذُ منهم خادماً وذرهـــــم إلى لعنة اللاعنين

وكيـــــف انفردْتَ بتقريبهم وهم في البلاد من المبعدين

على أنك الملك المرتضى سليل الملوك من الماجدين

إن الشاعر يعوض ضيق مساحة البيت الشعري بتكثيف الدلالة الصوتية للألفاظ على معانيها، بما يدل على الحدث وزمنه وما يدل على الكثرة والزيادة ،فيراوح بين صيغ المبالغة واسم الفاعل وألفاظ الجموع للتهويل وتوسيع الأبعاد الخطيرة للوضع القائم.

ونلاحظ اعتماد الإلبيري على تكرار اسم الفاعل بالذات في نصوص شعره ،فقامت عليه بعض قوافي قصائده[٢] مما هو جدير بالانتباه،وتكرار هذه الصيغ عند ابن زيدون هو في حقيقته الحاح على جهة هامة وبؤرة ،يعنى الشاعر بتعميقها والالتفات إليها، كما في قوله يستدعي ذكرياته[٤] :

رمتني الليالي عن قسّي النوائب فما أخطأتني مرسلات المصائب

---

[١] فضل ، صلاح : ملامح أسلوبية في شعرية الحداثة مهرجان إربد العاشر الشعري ، ١٩٨٩م ص ١٦.

[٢] ديوان الإلبيري ، ص ١١٠.

[٢] تنظر القصائد كاملة في الديوان ص ١١٨ ، ص ٩١.

[٤] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص ١٣٢.

إن امتلاء المقطع بهذه المشتقات والجموع وتبادل المكانة الوظيفة الإسنادية بينهما، تدل على لحظة مأزومة للذات مفعمة بالانفعالات والعواطف لقضيته الذاتية والمنافحة عن طموحه الذي أنهك قواه، فيهرب من هذا الشعور ويعود إلى عشقه قرطبة ويفسح لها كل أجزاء مخمسته وحاشدا لها كل أشكال صيغ المشتقات والجموع ؛لتكون ذات أثر في السامع.

إن أسمى ما يصل إليه الشاعر أن يجعل الإيحاء اللفظي من القوة والسيطرة وبعد المدى والحيوية والدقة بمكان عظيم وذلك ما فعله ابن زيدون في مخاطبة بن جهور، عندما قال[1] :

مقامي فـــي جواركم الذليلُ وحّدى في رجائكم الكليلُ
لمختـــلفان من حاليّ مهما أجال الفــكر بينهما مجيلُ
أتحيا أنـــفس الآمالِ منكم ولي أثنـــــاء ها أملٌ قتيلُ
وأعجب حادث نظري إليكم إلى غُلل النجاح ولي غليلُ

إن الاختزال الكثيف والمهارة اللغوية التي من شأنها تفجير كمون الكلمات وإطلاق طاقتها المولدة للمعاني التي تخدم وجود الذات ومكانتها أمام متلقيها ناسبها صيغ المشتقات والجموع للابتعاد عن الحشو ، والإسهاب الذي يسيء للايحاءات السير ذاتية بما يختلج في الذات من طاقات.

إن ما تملكه صيغ المشتقات من دلالات بمساندة الجموع، وما تحدثه من إيقاعات صوتية ذات أثر واضح على المعاني، لجديرة بأن تدرج ضمن المكونات الفنية الموضوعية التي تهدي للملامح السير ذاتية بدقة وعمق وبتركيز ووضوح قوي لحضور الذات في المشهد السيري .

٣. التراكيب الانفعالية:

هي التراكيب التي اتسم بها التشكيل المعنوي للألفاظ نتيجة للإشباع الصوتي **لأدوات الطلب، وأهمها:** الأمر والنداء والاستفهام والنهي والتمني والترجي بدلالات انفعالية متباينةٍ لاستدعاء مطلوب غير حاصل عند الطلب"[2]، أي أثناء نقل التجربة من مستواها الواقعي إلى المستوى اللغوي، بوسائل وإمكانيات أخرى واسعة اللغةلها وظائف انتباهية، لا تقف بها عند الأسلوب الخبري ،بوصفها أداة وخلفيات موقفية للملامح السير ذاتية الظاهرية وانعكاسات

---

[1] ديوان ابن زيدون ورسائله ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

[2] يحي ، محمد : السمات الأسلوبية في الخطاب الشعرية – ط١ ، إربد : عالم الكتب الحديث ، ٢٠١١ ، ص ٢٨٠.

أخرى لها،ترفع الخطاب عن الذات وقيمته وتكشف عن مستوى الموقف، ومقدار عمق تأثر الشاعر به نفسياً أو جسدياً، أو التعبير عن الصدمة الاجتماعية التي واجهت الشعراء عبر شرائح صوتية ،لا تقوم بالمعنى بذاتها ،إنما بمثابة قرائن مرجعية فنية.

وسيقف هذا المبحث على بعض النماذج التطبيقية من نصوص الموضوعات السير ذاتية مثل خطاب المعتمد وحواره مع القيد عندما قال[1] :

قيدي أما تعلمنيُ مـــسلماً أبيت أن تـــــشّفقَ أو ترحْما
دمي شرابٌ لك واللحُم قدْ أكلتهَ لا تـــــهشُم الأعظمَا
ارحم طفيلاً طائـــــشاً لبهُّ لم يخش أن يأتيك مسترحماً
وارحم أُخـــــيّات له مثله جرعتُـــــهنّ السُّمَّ والعَلْقما

يلجأ الشاعر إلى تركيب جملة النداء، والأمر مكرراً تكرراً رأسياً في حواره مع القيد المنادى المنسوب إلى نفسه، وكأنه أصبح هو المتحكم في أمره منفعلاً بظروفه ووضع (طفيله،وأخيَّاته) فيعمد إلى النداء والأمر غير ملتزم في أسْره بما يجب عليه فعله مستقياً ،ذلك مما تعوّد عليه من الأمر والنهي والاستعلاء عندما كان ملكاً، الأمر الذي نلم يتحول عنهما مع فظاعة مرآه ومرأيٍ صغاره من أجل تغيير سلوك المخاطب المضمر ، فلم يلجأ بما يتناسب مع الموقف من أساليب الرجاء والتمني والاسترحام من الأعداء في السياق حتى وهو، يرسف في ذل القيود ولم يظهر الترجي والتمني في شعره ولم يلجأ إلا للأمر والاستفهام والنداء على امتداد مشاهد حياته السيرية ملكاً وأسيراً إلا ما يأتي عفواً.

وتعددت وتنوعت وسائل التراكيب الانفعالية في السياق الشعري للسيرة العاطفية لاتساع هذا الموضوع، الذي استفاد ابن زيدون من دلالات الاستفهام الواسعة وعدوله عن حقيقة معاينة إلى معان أعمق وأوسعُ واستغل نبرة أدوات الاستفهام في رثاء صديقه ابن ذكوان عندما قال[2]:

منْ للعلوم؟ فقد هوى الَعلم الذي وسُـــــــمِتْ به أنواعها الأَغفالُ
مَنْ للقـــــــضاء يعز في أثنائه إيضـــــــاح مظلمةٍ لها أشكال
من لليـــتيم تـــــتابعت أرزاؤه؟ هلك الأب الحاني وضاَع المالُ

---

[1] ديوان المعتمد ، ص ١١٢.

[2] ديوان الإلبيري ، ص ٣٥ .

إن التفاعل النامي للتنغيم بالضغط على المقاطع الصوتية للاستفهام غير الحقيقي الذي ورد لإثبات المعاني المطروقة التي انفعل بها، لتؤدي وظيفة التوصيل والتركيز على المضامين الفكرية بالراهن، زادت من وتيرة العاطفة الصادقة لإظهار مناقب صديقه ورفيق صباه بوصفه انعكاساً لشعور ابن زيدون تجاهه .

ومن منبر الخطابة والوعظ والإرشاد والترغيب والترهيب ،يكرر الإلبيري استخدام أدوات النهي والنفي ،بوصفه فقيهاً يطرح قضايا الفكر، ومثال ذلك قوله [1] :

وليس لجاهل في الناس معنى ولو مُلـــــْك العراقِ له تأتىَّ

ومايغنيك تشـــييدَ المــباني إذا بالجهل نفسك قد هدمتا

وقوله منها:

ولا تضحك مع السفهاء لهواً فإنك سوف تبكي إن ضحكتا

وسل من ربـــك التوفيق فيها وأخلص في السؤال إذا سألتا

فالنبر الذي تحدثه وسائل النهي والنفي تشحذ ذهن المتلقي للآتي من المعاني التي يعمل الشاعر ذهنه للتخلص منها أو الخلوص إليها.

إن ما تحدثه التراكيب الانفعالية من إشاعات عاطفية ونفسية في النصوص للإيحاء بمعانيها ،ما هو إلا حلقة داخل سلسلة المقومات الصوتية البنائية الأولية للتشكل السير الذاتي للشاعر.

ومما سبق؛يتضح أن صيغة اللغة وخصائصها البنائية من نصوص موضوعات السيرة الذاتية للشعراء ،نهضت على أساليب تناسب الأسلوب القصصي والتصويري،ومن ثم تؤسس مقومات معينة للخطاب الشعري السيري الذي يدعم قرب الشعر من السيرة، ومن ثم تعبير الشاعر عن ذاته السيرية .

---

[1] المصدر السابق،ص٢٨،٢٧.

المبحث الثاني : البناء الفني وتشكيل الملامح السير ذاتية :

يُهيمن البناء المعماري للشعر العربي القديم ، على النصوص الشعرية لموضوعات السيرة الشعرية، فقد انسلكت في بناء يتراوح بين المقطوعة والقصيدة، ويعود الفرق بين القصيدة والمقطوعة إلى عدد الأبيات، فمنهم من يرى بأن القصيدة ما جاوزت أبياتها الخمسة عشر، ومادون ذلك ،فهو قطعة ومنهم من يعد القصيدة ما بلغت عشرة أبيات وما جاوزها، والرأي المرجوح هو الرأي القائل :"بأن القصيدة ما بلغت سبعة أبيات فأكثر وما دونها فهو مقطوعة"[١]، ويحتاج الشاعر للقصار حاجته للطوال ، وكما اشتهر بعض الشعراء في تقدمهم في القصائد، وتقصيرهم في المقطوعات كأبي تمام ، فكذلك اشتهر أبو نواس بجودة المقطوعات[٢] ،فللقصيدة الطويلة ما يستدعيها ، وَللقصائد والمقطوعات ما يستوجبها.

وهذا الهيكل البنائي الثابت للشعر، لا يعني جموده كما يفهم من ظاهره ولكنه إطار ،يتسم بالاستقرار والثبات للحفاظ على القيمة الجمالية المميزة للشعر من التمزق، ليجد المعنى الداخلي داخل إطاره وسياجه في محافظة منه على المحتوى النظري للمضمون ولملمة محتويات النص، فهو "أهم عناصر القصيدة وأكثرها تأثيراً فيها، ووظيفته الكبرى أن يوحدها ، فيمنعها من الانتشار والانقلاب ويلمها داخل حاشية مميزة" [٣]، كما أنه إطار مرن بمعنى :إمكانية إدراج أبنية أخرى ،تناسب النصوص الشعرية وموضوعاتها، وتنبع من خصائصها الداخلية الموضوعية والفنية ووحداتها الصغرى والكبرى .

لا سيما أن أبنية النصوص الشعرية للدراسة – قصائد ومقطوعات ،تمتّ بنسب كبير لأدائها السير ذاتي الذي يخرجها من التقليد، ويستجيب مع توجهات الشاعر لذاته ،الذي لم يحفل معه بالأعراف لهيكل البناء التقليدي للقصيدة قدر احتفاله بتطوير المضمون الشعري الذاتي ، فلا تأتي القصيدة حريصة على الشكل أولاً ، ثم المضمون لاحقاً وإنما يولدان معاً في لحظة الإبداع ، إذ يشكلان وجهين لعلمة واحدة .

وقد أدرك النقاد القدامى هذا الأمر ،أو قريباً منه عندما رأوا، أن ثمّة نوعين من القصائد شخصية ذاتية ،يعبر بها الشاعر عن مكنوناته وشؤونه وتجاربه الخاصة وغيرية عامة ،لا يتحدث فيها عن نفسه، وذلك في قول ابن رشيق :" فشعر الشاعر لنفسه ومراده وأمور ذاته من فرح وغزل ومكاتبة ومجون وخمرية،

---

[١] ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر ونقده ، جـ١ ، صـ ٢٣١.

[٢] انظر: المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٨٨.

[٣] الملائكة ، نازك : قضايا الشعر المعاصر ، ص ٢٠٩.

وما أشبه ذلك غير شعره في قصائد الحفْل التي يقوم بها السماطين"[١]. إن تحديد هياكل ثابتة للقصيدة والمقطوعة يعد من قبيل الافتراضات الذهنية مفروضة على القصيدة من خارجها وليست نابعة من داخلها، إذ أن لكل قصيدة هيكلها الخارجي، لكن لها بناءها المتشكل من عناصرها البنائية وأدواتها الفنية والتعبيرية الخاصة بالشاعر التي تساعد في تشكيل سيرته الممتدة في بنائه الخارجي ،؛ ليصبح الشعر معادلاً موضوعياً للذات.

والنصوص الشعرية لموضوعات السيرة الذاتية ،تندرج تحت بناء القصائد الذاتية التي أشار إليها ابن رشيق ؛لأنها ذات موضوع واحد،أو فكرة واحدة تشير إلى ملمح سير ذاتي آخر ،يندرج تحت مكوّن من مكونات السيرة،ولا تخرج النصوص سواءً قصائد ،أو مقطوعات إلى أغراض وأجزاء متعددة غالباً،ويعود ذلك لطبيعة موضوع السيرة،حيث تشتبك فيه أجزاء النصوص بخيوط ،تشكل لها وحدة عضوية يعيدها للنسيج السير ذاتي الشعري،ليؤدي البناء الشعري دوراً مهماً في النمو السير ذاتي للنصوص ؛التي تستند على تجربة صادقة وترتكز على معايشة واقعية ،تخترق الطبقات الداخلية للبناء الفني بإمكانيات ،وتشكّل بنائي سير ذاتي دون حياد من الاحتكام للوحدة النفسية ،التي اهتم بها ابن قتيبة[٢]،و لا اختلاف مع البناء الأسلوبي للتفسير والتعليل ،الذي أشار إليه ابن طباطبا وابن خفاجي[٣] مع عقد اتفاق توافق مع الوحدة العضوية ،التي أشار إليها الحاتمي[٤] وتأصيل للإرهاصات النقدية القائلة بأن هناك تجديد في البناء الشعري الأندلسي ،متأثراً وموازياً لبعض أشكال العمارة العربية الذي أسهم في ظهورالموشحات[٥] مما يتيح المجال ؛لاتساع أكبر للبناء ليستوعب ملامح أكثر وأعمق من سيرة الشاعر ، يسهم في تكوين أو تأصيل متن بنائي غيرالسائد المألوف للموروث الشعري ويبرهن على أن العلاقة بين البناء،والتجربة علاقة جدلية ، وأن لكل تجربة نظامها التشكيلي، الذي يتقرر بفعل وعي الشاعر الاستثنائي البنائي ، الذي يوفر له الشاعر بناءً خاصاً به قادراً على الاستجابة ؛لتنوع أنماط التجارب السير ذاتية ، وبناءً منسجماً ومؤيداً للخصائص الموضوعية والفنية التي تم عرضها ومكملاً لها.

---

[١] ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر ونقده ، جـ١ ، ص ١٩٩

[٢] انظر:ابن طباطبا ، عيار الشعر – د ط ، تحقيق : طه الحاجري ، القاهرة : المكتبة التجارية ، ١٩٥٦ ، ص٥

[٣] انظر:الخفاجي ، ابن سنان : سر الوضاحة – د. ط ، تحقيق : عبد المتعال الصعيدي ، القاهرة مكتبة، صبح، ص ٢٥٣

[٤] انظر:ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر ونقده ، جـ ٢ ، ص ٣٢٣ .

[٥] نجا ، أشرف محمود : في الأدب الأندلسي – بحوث في نقد الخطاب الإبداعي ، ص ١٢٧ .

وقد ارتأت الدراسة أشكالاً للبناء الآتية :

أولاً : البناء السردي :

استفاد هيكل القصيدة السير ذاتية من الأداء القصصي المعتمد في موضوعات السيرة، فتشابكت عناصر البناء التشكيلي مع عناصر القصة من أحداث وشخصيات ومواقف وحبكة وصراع عبر الزمان والمكان، فكانت هي القالب الذي احتوى هيكل القصيدة ونما بنمو الأداء القصصي نمواً عضوياً ،يتصاعد بتصاعده، لاسيما في القصائد ذات الموضوع الواحد، فيبدأ ببداية القصيدة وتطورها، ثم ينتهي بنهاياتها ، ويتمثل هذا النموذج في القصائد ذات النزعة الفقهية ،التي تم عرضها في الفصل الرابع من الدراسة الفنية ومن نماذجه : قصيدة المعتمد [1]

من عزا الـــمجد إلينا قد صـدق ... لم يلم من قال مهـما قال حـق
مجدنا الـــشمس سناءً وســـناً ... من يُرم ســـــتر سناها لم يُطقْ
أيهـــــا النـــاعي إلينا مجـدنا ... هل يضير المجد أن خطْب طرقْ
لا تـــرع للدمع فـــي آمـاقنا ... مـــــزجته بـــدمٍ أيدى الحُرق
حنـــــق الدهر علينا فسـطا ... وكـــــذا الدهر على الحر حنق
وقـــــديما كلُف الملْكُ بـنا ... ورأى مـــــــنا شمُوساً فعشقْ
قد مـــضى منا ملوك شُـهِروا ... شـهرة الشمس تجلت في الأفقْ
نـــحن أبناء بني ماءِ الســـماء ... نـــحونا تطمح الحاظُ الحَدقْ
وإذا مـــــا اجتمع الدين لـنا ... فـــــحقير ما من الدنيا افترقْ
حجـجاً عشراً وعشراً بـعدها ... وثـــــلا ثيـن وعشرين نـسق
أشـــرقت عشرون من أنفسها ... وثـــــلاثٌ نيـــــراتٌ تأتلقْ

تتنامى القصة منذ مطلعها بقوله: (من عزا المجد إلينا) ، وتتصاعد في بنائها بمصاحبة الراوي الذي يروي قصة المجد والتبرير لهذا السقوط، وعدد سني الحكم الذي استمر عشرين عاماً، فالبناء تَفَاعل مع

---

[1] ديوان المعتمد ، ص ١٠٩.

الشاعر في حواره مع ذاته حتى انتهت القصة مجملة سيرة آل عباد، ونلاحظ أن البناء الشعري لنصوص ابن عباد في القصائد ،يسودها المنزع القصصي وفي هذا دلالة وإثبات على أن الشاعر، لايستطع أن ينعتق من ذاته وتسلطها عليه في مراحل حياته، فلم يكن لغيرها ولم يشارك غيره حتى في شعره الذي سار معه حتى انكفأ به على نفسه وتدوين ملامح منها، فغدت نصوص شعره تشكل مجموعاً بنائياً مؤلفاً من وحدات قصصية معتمدة في بنائها على توافر عناصر القصة .

بينما يغلب البناء القصصي على عدد من القصائد لنصوص السيرة الفكرية ، والعاطفية التي يحتاجها الشاعر ؛لترتيب لبناته الفكرية الكثيفة ، ويوزعها في القصيدة منذ بدايتها حتى نهايتها ، معتمداً على وجهة نظره في إقامة البناء القصصي الشعري، كما في قصيدة الإلبيري ، التي يسرد فيها قصة الجدال الدائر حول ضرورة بنائه بيتاً، فدلف إلى موضوعه مباشرة ،واستهل القصيدة بقوله[1] :

قالوا ألا تستجدّ بيتاً تعجب من حسِنه البيوتْ

فالحوار منذ مطلع القصيدة ،يصعد ببنائها الشكلي متآزراً مع العناصر الأخرى حتى نهاية القصيدة وختمها بخاتمة القصة ، فقال[2] :

فعن قريب تكونُ طُعمي سَخطْتَ يا صاحِ أَمْ رضيتَ

ويفرض التنوع العاطفي لسيرة ابن زيدون أن تنتقل نصوصه بين أشكال بنائية متعددة، وهذه الطريقة بحدذاتها دلالة على ملمح سير ذاتي عام ، وهو تنوع تجاربه الواسعة وتفاعله مع واقعه، وكثرة نشاطاته وخبراته العاطفية، لذا فالبناء يتسع أفقياً للتغطية الشاملة التي يحتاج إليها ، فكان البناء القصصي الذي يندمج بعاطفته ،فتبلغ الغنائية الشعرية منه مبلغاً عظيماً من أشهر مبانيه الشكلية ،التي أحاط بها نصوص سيرته ، لذا عمد إلى المخمسات ؛ليحكي من خلالها قصة حبه لقرطبة ويعرج على الأسباب والبراهين التي تثبت ذلك الحب ،فيقول[3] :

أقرطبةُ الغرّاء هل فيك مطمعُ وهل كبدٌ حرّى لبينك تنفعُ

---

[1] ديوان الإلبيري ، ص ٧٠.

[2] المصدر السابق ، ص٧٠.

[3] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص ١٣٥

بنى ابن زيدون مخمسته في عشرين مقطعاً أو جزءً ا، وكل جزء ينتهي بقاعدة عريضة ،تتآزر لتشكل مع بقية المقاطع بناءً معمارياً ،يتفنن الشاعر في كل جزء منه ببنائه الذي يبدأ من المعجم اللفظي، وتنوع الوزن والقافية والأصوات والعناصر القصصية وأساليب التصوير، التي تنهض بالبناء في تناسق معماري يدل على تمازج الشاعر مع واقعه وحضارته وعصره ،الذي يتلاقى مع معطياتها في مخمساته .

ثانياً : البناء الترسلي :

تعاملت كثير من النصوص السير ذاتية لموضوعي السيرة السياسية والعاطفية قصائد ومقطوعات مع الرسائل ، فقد كانت عبارة عن رسائل ،يكتبها الشعراء في أغراض شعرية لا تقتصر على الإخوانيات، أوالتشاكي بينهم وإنما في أغراض الشعر المختلفة ،موزعة بين البناء الشكلي للقصائد والمقطوعات ، وقد أشار ابن طبا طبا إلى أن الشعر رسائل ، فقال: "الشعر رسائل معقودة والرسائل شعر محلول وإذا فتشت أشعار الشعراء كلها وجدتها متناسبة ، إما تناسبا قريباً أو بعيداً ونجدها مناسبة لكلام الخطباء، وخطب البلغاء وفقر الحكماء "[1] .

وتمثل الرسائل أحد الأساليب التي يستعين بها الشاعر لاستكمال النص السيري[2]،والرسائل قلمّا يتسع إطارها للتعمق والتحليل، فهي خواطر وانفعالات ،أملتها الانفعالات الوقتية ومثال ذلك: دعوة المعتمد لأصدقائه برسالة لمجلس شراب ، فقال من مطلعها [3] :

أيها الـــــصاحبُ الذي فارقت عيني ونفـــــــسي منه السنا والسناء

نحن في المجلس الذي يهبُ الراحةَ والمـــــــــسمعَ والغنَي والغناءَ

نـــــتعاطى الـــــتي تنسّي من اللّذةِ والرقـــــــة والهـوَى والهواءَ

فهو يوظف الرَسالة في التعبير عن ملمح من ملامح حياته، كما يتناسب الموقف مع المشهد السيري الذي لا يحتمل أكثر من عدة أبيات، ويضفي البناء الترسلي تماسكاً وتتابعاً عضوياً للأفكار في الأبيات موضوع الرسالة، وتصلح للأغراض المختلفة كما في رسائله التي استشفع بها والده وجرى معظم

---

[1] ابن طباطبا : عيار الشعر ، ص ٨١

[2] انظر: الصكر ، خاتم : كتابة الذات ، ص ٢١٠

[3] ديوان المعتمد بن عباد ، ص ٤١

بنائها على بناء الرسالة منذ الرسالة، التي استهلها بما تستهلّ به الرسائل من مطلع استهلالي يناسب المقام وتعظيم المخاطب ،بما يناسبه بوصفه ملكاً وقائداً ،فقال[1] :

ألا يا مليكاً ظل في الخطب مفزعاً ويا واحداً قد فاق ذا الخلق أجمعا

ثم ينتقل إلى تفاصيل الرسالة ، وهو متن القصيدة ، فيقول[2]:

ترْفق بعـــــبد ودّه لكَ شيمةٌ إذا كـــان ودُّ مَنْ سِواه تَصَنَّعَا

أقلني تجد عبداً شكوراً وصارماً يَحزُّ مِــن الأعداءِ ليثاً وأخْدَعَا

وكثيراً ما تعامل ابن زيدون بالرسائل القصائد، وبأشكال متعددة وواسعة، فإذا كانت القصيدة رسالة، حافظت على البناء لترسلي منذ مطلعها مثل رسالته لابن القلاس ، الذي انطلق فيها من ذاته ووسم القصيدة بأنها مقالة عن الموضوع، فقال مستهلاً الرسالة [3] :

أَصـــــخ لمقالتي واسْمع وَخُـــذْ فِيما ترى أَودَعْ

ثم انتقل إلى تفاصيل الحيّز الترسلي الذي يميل للجمل القصيرة ، فقال[4] :

ألم تــعلم بأنّ الدهرَ يعطي بعـــــد ما يمنع

وأن السّعي قد يكدي وأن الظـــــن قد يخدع

وكـــــم ضر امرءا أمرٌ تَـــــــــوهّمْ أنه ينفع

وتفاعلت القصيدة مع البناء العضوي القوي للرسالة ،الذي يشد الأبيات لبعضها، فيستكمل البيت فكرته من البيت الذي يليه، وهو كثير عنده وفي موضوعات السيرة في مثل قوله[5] :

فـــإن يجدبْ من الدنيا جنـــــــابٌ طالما أمْرعْ

فـــما إن غاض لي صبرٌ وما إن فــاض لي مدمع

---

[1] المصدر السابق ، ص ٤١.

[2] المصدر السابق ، ص ٤١.

[3] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ٢ ، ص ٥٧٨.

[4] المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٧٨.

[5] المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٧٩.

ويختمها بالأسلوب الترسلي الذي يقوم على ختام الرسالة ،وإقفالها[1] :

ولاتكُ منــك تلك الدآ رِ بــالمرأى أو المسَمْعَ

فإن قصـــارك الدهليز حين سواك في المضجع

إن البناء الترسلي للنصوص الشعرية ،يشير إلى ملامح سير ذاتية منها: انعكاس حياة الشاعر وعمله الذي يزاوله على شعره والرسائل ،كانت من ضروريات الملوك والوزراء والكتاب في التعامل مع الآخرين كما أن كثرتها لدى المعتمد وابن زيدون ،يوضح ميلهما لأن يكونا من الشعراء الناثرين وتؤيد رغبتهما في تدوين ملامح من حياتهما للمتلقين ؛للفت الانتباه إليهم من منطلق مكانتهما المتميزة ، وهذا ما لم يقع فيه الإلبيري الزاهد الذي ،لم يعمد ولو لرسالة واحدة وإنما سخر الشعر ليحمل فكرة وهنا تلتقي موضوعات السيرة الثلاثة في الاتفاق على أن الشعر هو الأفضل والأنسب في عصرهم ،لتدوين ملامح من ذواتهم من أي فن آخر .

ثالثاً : البناء الموضوعي :

لم يمنع اهتمام الشاعر بسيرته في شعره من أن يجول في القوالب البنائية الموروثة المتعددة الموضوعات، ولم يظهر هذا البناء إلا في قصائد ابن زيدون المتعددة الموضوعات، فقد زجّ بملامح من سيرته منها في هذه القصائد التي رآها الأنسب ؛ ليسكب فيها من ذاته ما يلائم المقام ، وقد تنبّه إلى ذلك الدكتور شوقي ضيف، فقال :((كان ابن زيدون يحسن ضرب الخواطر والمعاني القديمة في عملةٍ أندلسيةٍ جديدة ، فيها جمال الفن وبهجة الشعر وما يفصح عن أصالته وشخصيته"[2].

كما أن هذا البناء يناسب موضوع السيرة العاطفية المنفتح على احتمالات كثيرة ، ويناسبه تعدد الأغراض من مدح ووصف وإخوانيات وشكوى وغيرها ، فالشاعر يستجلب منها ما يعنيه على التعريف بحبه وعشقه للمرأة والمدينة مسقط رأسه والمنصب المرموق ،متأثراً بما يحيط بها من مؤثرات ومحفزات، فالبناء الواحد للنصوص لا يكفي، ولا بد من استغلال مناسبات تلائم الخوض في أحد جوانب هذه

---

[1] المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٨١

[2] ضيف ، شوقي : ابن زيدون ، ص ٤٠

السيرة خاصة ،أنه شاعر بلاط ووزير والمدح ،يفرض عليه استعراض مواهبه ومراعاة إطراب الأمراء، واستعراض قدراته والنفاذ إلى المدح بتلطف[1]والتخلص منه بمهارة.

واستغل ابن زيدون هذه المنافذ كثيراً للحديث عن ذاته "ويعد الشاعر القرطبي ابن زيدون من بين الشعراء العرب الذين ينسجون تجاربهم الخاصة بالفقد والحزن بصورة جدّ متماسكة، ومحبوكة في النسيج الموضوعاتي العاطفي ،لِما كان ذات يوم النسيبَ البدوي، وهو يحاول أن يصل بوعي عالِ على نحو جدّ واضح بالفطنة الرمزية للقالب القديم إلى العناصر الجوهرية للنسيب، وهناك يقابل فوق كل شئ الحالة النفسية بسمتها المطوّقة والمشُرنقَة تقريباً وهو يستسلم لها، لكن هذا لا يكون إلا بقدر ما يستطيع استسلامه للشكل ،أن يتحمَّل وبعد ذلك، يظلّ الشاعر بصورةٍ واضحةٍ نفسَه وتوضع الرمزية النموذجية الأصلية العريضة للنسيب في خدمة ظرفه المحدد وحالته الذهنية والمهم بالنسبة إلينا نحو أنه من خلال الطريقة الإبداعية المتحولة للداخل التي يواجه فيها ابن زيدون نفسه إزاء التقليد الشعري، يصبح المعنى المعلق في النموذج الأصلي للنسيب أكثر وضوحاً"[2].

فعندما مدح أبا الحزم بن جهور في إحدى قصائده، استهلها بالحديث عن حبه ولهوه بقرطبة المقترنة بعلاقته بولادة،فقال [3] :

ما جال بعدك لحظي في سنا القمرِ إلا ذكـــرتُك ذكر العين بالأثرِ

ولا استطلت ذماء الليل من أسف إلا على ليلة سرّتْ مع القصْرِ

في نشوة من سناتِ الوصل مُوهمَة ألاّمسافةَ بين الـوهْن والسّـحر

فالمدح يشكل له فرصة للحديث عن ذاته وبمهارة الفنان ،تنمو الملامح السير ذاتية في أجزاء القصيدة وفي مواضع متعددة ،ترتبط فيما بينها بوشائح شعورية ، تمتد شرايينها في جسد القصيدة

---

[1] انظر:القرطاجني ، حازم : منهاج البلغاء ، ص ٣١٩

[2] ستيتكفيش ، باروسلاف : صبا نجد ، شعرية الحنين في النسب العمري الكلاسيكي – د.ط ، ترجمة : حسن البنا عز الدين ، الرياض : مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ٢٠٠٤م ، ص ٣٧

[3] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ١ ، ص ٢٥٠.

فيضخ فيها دفعة عاطفية موحدة فبعد المقطع الأول السابق يتبعه ، بقوله [1]:

من يـــــسأل الناسَ عن حالي فشاهِدهَا محـــضُ العيان الذي يغنى عن الخبرِ

قبل الثـــــــلاثين إذْ عهد الصبا كثبٌ وللـــــــشبيبـة غـصن غير مـهتـصر

إن طال في السجن إيداعي فلا عجب قد يـــــودع الجفن حدُّ الصارم الذكر

وإن يـــــــــثبط أبا الحزم الرضى قدر عن كشف ضرّي فلا عتب على القدر

وحتى في مواطن المدح ،يدلف بذاته عليها ؛ليكشف الفروق الذاتية ويثبت أن بناء القصيدة هو محاولة تبلورٌ مثالي للتجربة[2]من خلال البناء ،الذي يفترق من شاعر إلى آخر وعندما، يختم القصيدة يعود لذاته مستعطفاً ،فيقول [3]

واستوفر الخَطّ من نُصْح وصاغيةٍ كلاهما العـلْق لم يوهِبْ ولم يُعرَ

هبني جهلت فكان العلق[4]سيئةً لا عذر منـها سوى أَنّي من البشر

لك الشـــــفاعة لا تثني أعنتها دون الـــــقبول بمقبولٍ من العُذْرِ

لم يعمد ابن زيدون لهذا البناء إلا ليعرّف بذاته، وعواطف حبه الواسعة وهذا ما أكد للدارسين ربط مقدمات ابن زيدون في مختلف أغراض شعره بذاته ربطاً دقيقاً وقوياً ، فهيمنة الذات على مقدرات المشهد الشعري ،يراها الشاعر ضرورة شكلية لتضمين ملامح من سيرته الضاغطة والمهيمنة على قصائد شعره. .

---

[1] المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٥٩.

[2] المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٥٩.

[3] المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٦٠.

[4] العلق : المحبة أو الشئ النفيس .

٤- بناء التضاد والتباين :

يقوم هذا البناء على الاستعانة بالتقابل بين أبيات القصيدة ، وهو جزء من أجزاء البناء الفني عام الذي تقوم عليه الصور، ليعبر به الشاعر عن المواقف المتناقضة في موضوع واحد، ليصف الحالة الشعورية، ويلح عليه الشاعر الذي يرغب في عرض أفكاره ورؤيته الخاصة ،لما يناقضها من الأفكار الأخرى ، فتصبح الأبيات كالأقطاب المتعاكسة في القصيدة من أجل بنائها بناءً عضوياً موحداً ، وهذا البناء يوجد في جلّ نصوص موضوعات السيرة الذاتية ،فيكثر في سيرة ابن زيدون، لكنه يعج ديوان الإلبيري بقصائده ومقطوعاته، ويدخل ضمن أشكال البناء الأخرى ، ومن الأمثلة عليه ، قول الإلبيري[١]

ألفْت العقابَ حـــذارِ العقابِ وعفْتِ الموارد خوف الذئابْ

وأبغــضت نفسي لعصَيانِـــها وعاتبـــــــتها بأشـدّ العَتابْ

وقلـــتُ لها بان عنك الصبّا وجرّدك الشـيبُ ثوبَ الشبابْ

وما بعـــــد ذلك إلا البلى وسُكْنى القبور وهَول الحسابْ

فأيقـــظها العَتبْ من نومِها ولكنها جـــــمة الاضطرابْ

وكـــم وعدتني بـتوبٍ وكم وما أنجزت وعدها في المتَابْ

فالشاعر على وعي بما ينظم ،وحريص على اندماج أفكاره وصورها في نسيج واحد،"ولعله يقود لِوحْدةٍ غائية في العمق، فيقوم بإبراز التناقض والتأمل واستنكار التفاوت والاختلاف بين طرفين"[٢] متقابلين بينهما نوع من التناقض وعلى هذه الشاكلة ،تجري نصوص موضوع السيرة الفكرية ،فهو بناء يتناسب مع الأداء الخطابي والوعظي للفقيه الشاعر ،ومع أدوات فكره التربوية بشكل يجعل الشاعر والموضوع والتجربة في سياق واحد ،يترددبين القصيدة والسيرة الذاتية.

---

[١] ديوان الإلبيري ، ص ٧٢.

[٢] زايد ، علي عشري : بناء القصيدة العربية الحديثة – ط١ ، القاهرة : مكتبة دار العلوم ، ١٩٨٧م ، ص ١٣٧.

٥-البناءالتوقيعي: :

تخضع طبيعة البناء ،لطبيعة التجربة ودرجة حساسيتها ونضجها وتنوع مصادرها والبناء التوقيعي هو بناء قصير داخل فضاء هيكل القصار من النصوص، أو البناء المقطعي والبناء التوقيعي ،مأخوذ من معنى التوقيعات المتداولة بين الأدباء[١]، وهو عبارة عن رأي أو تعليق أو تعقيب يكتبه الحاكم أو الوزير في رسالة أو ما يشبه الخاطرة، فيما يتجاوز الأربعة أبيات، وهو ما يمكن وصفه، "بالضربة الشعرية التي تحقق أكبر قدر ممكن من التركيز والتكثيف والتبئير على النحو، الذي يستوعب عموم التجربة بأقل مسافة كتابية"[٢]،وتمتاز بالطرافة والجدة، ومثال هذا البناء قول المعتمد في موضع وقف فيه أثناء رحلته للمنفي، فرأي أهل البلد خارجين للاستسقاء، فقال[٣] :

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم دَمْعي ينوبُ لكمْ عن الأنواءِ

قالوا حقيقٌ في دموعك مقنعُ لكـــــــنها ممزوجة بدماءِ

كان هذا هو تعليق المعتمد على المستسقين ،الذين ربط عطشهم للمطر بعطشه لبلاده وغزارة دمعه بغزارة الغيث الذي يرجون، فالموقف لا يستدعي أكثر من أن يبني له بيتين من الشعروعندما وقعت عينه على المشهد ،فكانت كالتصوير الفوري يعلق بها على الحادثة قبل أن تغيب عن الأذهان والوجود.

وقد غَدَت نصوص المعتمد بهذا البناء كمتحف فني مؤلف من عشرات الصور الفردية، يعرض فيها لمحات سريعة من سيرته ، لم تصل إليها القصائد الطويلة خاصة في الأندلس، وأثناء فترة الملك والترف الذي لم يكن الشاعر ؛ليجهد عقله وفكره في استنهاض همة شاعريته، فاكتفى بالقريب يلتقط فيه ملامح من سيرته، كما في قوله يتغزل في إحدى جواريه التي راعها البرق[٤] :

ريعت من البـــرقِ وفي كفِّها بـــــــرق من القهوة لماعُ

---

[١] انظر:النجار ، محمد رجب : النثر العربي القديم – ط٢ ، الكويت : مكتبة دار العربية ، ٢٠٠٢م ، ص ٩٦.

[٢] عبيد ، محمد صابر : عضوية الأداة الشعرية ، ص ٣٢.

[٣] ديوان المعتمد بن عباد ، ص ٩٠.

[٤] المصدر السابق ، ص ٢١.

يا ليت شعري وهي شمس الضحا كيـــــــــفَ من الأنواءِ ترتاعُ

فهذا البناء كالسجل لما وقعت عليه عينه، ويرتبط هذا البناء كثيراً بمن يمارس السياسة والحكم والكتابة، لذلك نرى هذا البناء يظهر عند ابن زيدون والمعتمد وَيشيع في الموضوعات السير ذاتية جميعها، كتعليق الإلبيري على عدم القدرة وتنفيذ الوعد في قوله[1] :

أيا قـــوسُ خرّاطٍ[2]يشيرُ ولا يبري ويا سيف رَعديدٍ يرضّ ولا يرمي

تعلمتُ خُلفَ الوعد من برْقِ خُلَّبٍ فـــبرقك لا يُثْري ولكنهُ يُعْمِي

ويقلّ عند الألبيري، بينما يؤدي مهمته في التعبير عن موقف ابن زيدون من آل جهور الذي اختصره في بيتين لا يحتاج معهما لزيادة، ليبين حزنه وإحراق آماله التي طالما سعى إليها[3] :

بِني جهورٍ أحرقتمُ بجـفائكم ضميري فَما بالُ المدائح تَعبقُ

تعدونني كالمندلِ الرطبِ إنما تطيب لكم أنفاسه حين يحرقُ

وقد ربط النقاد بين البناء وبين المعاناة الذاتية للشاعر بقول: "الشعراء يعانون في صياغة الشعر ما يرهقهم، إلى حد كان يدفعهم إلى محاولة اقتضاب القصيدة والفكاك منها"[4].. فالشاعريعمد إلى الإيجاز والتكثيف في مثل قول ابن زيدون ،يتحدث عن أخلاصه وكثرة مدائحه لآل جهور ،التي انتهت بإخراجه من قرطبة واكتشف ،أنه كان يكذب على نفسه[5]:

قل للـوزير وقد قـطعتُ بمدحهِ زمناً فكانَ السجنُ من ثوابي

لا تخش لائمتي بـما قد جـئته من ذاك فـــيّ ولا تـوقَّ ثوابي

لم تُخط في أمري الصوابُ مُوفقاً هذا جزاءُ الـشاعرِ الكـذّابِ

فاختصر السنين الطوال التي قضاها في مدح ابن جهور،وخدمته ثم لم يكن الجزاء إلا السجن

---

[1] ديوان الإلبيري ، ص ١٢٣.

[2] قوس خراط : نداف القطن ، والصوف.

[3] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ٢ ، ص ٥٩٠.

[4] بكار ، يوسف : بناء القصيدة ، ص ٨٢.

[5] ديوان ابن زيدون ورسائله ، جـ ٢ ، ص٥٩١.

لتظهر له حقيقة ولائه وطاعته بأنها مجرد كذب وخديعة تحت هذا المعاني ،تضمّن معانٍ كثر، لكنها كانت بمثابة التعقيب على مَنْ لامه، أو عاتبة على ترك قرطبة ، فهو شكل يتماشى مع طبيعة الشاعر الذاتية على قِصر هذا البناء الشعري، لكنه إشارة إلى تغيير وتطور مفهوم البناء الشعري الذي أصبحت مهارة الشاعر، والذوق الجمالي والحضاري السائدُ وانعكاس بيئته الشعراء وظواهرها المختلفة تفرض تقنية بنائية جديدة للشعر تختصر المواقف وتكثف الرمز .

إن ارتباط البناء الشعري بملامح سير ذاتية ،ينبع من كونه الإطار الهيكلي التخطيطي الشكلي الذي يحيط بالنصوص الشعرية، ويميزها عن غيرها من النصوص الأدبية، ويتسع للأبنية التي ترتبط بالخصائص والمقومات الفنية الظاهرة للملامح لتتكامل بها.

وخلاصة هذا الفصل تبين أن اللغة الشعرية بإمكانياتها الصوتية واللفظية والتركيبية، هي البنى الأولية التي تدخل في التفاصيل والجزئيات والهوامش والظلال بلا قيد أو شرط ، لفتح منافذ متجددة وذات مرونة عالية، وكفاءة مضاعفة تتطور باستمرار في سبيل تحقيق إضاءات متوالدة للنصوص السير ذاتية ، وتعكس بكثافة دلالاتها بخصائصها الإيجابية والرمزية، قدرتها على تأليف وعكس ملامح من سيرة الشاعر.

كما يعكس البناء الفني الهيكلي للنصوص الشعرية مقطعات وقصائد قدرته على احتواء أبنية تقرب البناء المعماري الشكلي للنصوص السير ذاتية ،التي لا تأخذ موضعها إلا من خلال ترتيبها البنائي الفني في النصوص الشعرية.

الخاتمـــــــــــــة:

وبعد أن منّ الله علي بإتمام هذا البحث،وعنوانه"**ملامح و مقومات السيرة الذاتية في الشعر الأندلسي من القرن الرابع إلى القرن السادس الهجري**"،يحسن أن أبين النتائج التي خرجت بها من هذه الدراسة من أجل إكمال الفائدة،ولمّ شتات الموضوع.

وكان من أهم النتائج التي أسفرت عنها دراسة هذا الموضوع :

١ | كان تحديد الموضوع منذ العنوان بكلمة(ملامح)يبدد فكرة الظن بأن الشعر سيعطينا سيرة كاملة،أو شبه كاملة لحياة الشاعر،أوصورة غير منقوصة عن مجتمعه،وما يحيط به من مكونات ومؤثرات .

٢ | أكدت الدراسة على أن علاقة الأدب بالواقع علاقة جدلية من خلال الفنون الأدبية،وتأخذ أشكالاً متنوعة،ومستويات مختلفة في إنتاج الأديب مرتبطة بطبيعة الفن،ومساحة تجربة الأديب الفنية.

٣ | إن علاقة فن السيرة بالشعر ،بدأت بذورها في أعطاف الشعر منذ العصر الجاهلي،وبقي الفن الأقدر والأنسب بمقوماته المتوافقة مع الذوق السائد؛ليضمنه الشاعر ملامح من سيرته حتى بعد أن توافرت مقومات فن السيرة لدى الشعراء.

٤ | بينت الدراسة تضافر الكثير من العوامل و المقومات،والأسباب داخل الشعر،وخارجه أهلت الشعر الأندلسي–فترة الدراسة–للتفاعل الصادق مع قائله؛ليحمل ملامح من سيرته الذاتية،وعلى الأرجح أن الشاعر لم يكن يعرف فن السيرة بما هو عليه الآن،ولكنه كان على وعي بما ينظم،وبما يصوغه من أفكار ومعان عن الذات والآخر.

٥ | أثبتت الفصول التطبيقية في الباب الأول بأن الشعر ،يحمل ملامح من سيرة الشاعر وأعان الجانب التاريخي ، لمكونات سيرة كل شاعر على معرفة أهم الجوانب من سيرته التي تتبعتها الدراسة في الشعر،ومقدار ظهورها ودوره في ذلك .

٦ | وضح في الفصل الأول ملامح كثيرة من سيرة المعتمد تكاد تكون كافية؛لرسم الخطوط العامة لحياة هذا الملك إلى درجة أن القارئ لن يجهد نفسه في تلمسها،ورسم أبعاد كثيرة من أطوارها،و مراحلها لوفرة القرائن المرجعية من أسماء،وأماكن،ورموز تاريخية تحيل إلى حياته،وعصره واتضح اعتماد المصادر على شعره وكأنه خطاب هداية للحقيقة،فأغفل النظر إلى شعر المعتمد في الأندلس،وما يكشف عنه من ملامح عن سيرة ملك عابث كانت محنتة نتيجة لهذا العبث واللهو.

٧ | أثبت الفصل الثاني الذي تناول ملامح من سيرة الإلبيري الفكرية بأن الإلبيري الحقيقي هو مجموع شعره؛لندرة سيرته في المصادر،وتركيزه على موضوع واحد لديوانه الشعري،كان تجسيداً لهويته السيرذاتية،ومضمونها الثوري والديني والزهدي.

٨ | يبين الفصل الثالث الذي يتناول سيرة ابن زيدون العاطفية،انسياقه في شعره للجانب العاطفي من حياته،فأغرم بتحقيق عاطفة الطموح وسعى بقوة ؛لتحقيق منصب سياسي مرموق في مدينته قرطبة التي آثارها على غيرها،وكشف شعره أن ولاّدة لم تكن إلا تجربة لهو عارضة في حياته أُحيطت بهالة إعلامية كبيرة،فارتبطت سيرة ابن زيدون بها مع أن حياته،ورغباته،وطموحاته أكبر من أن تقتصر على حب ولاّدة .

٩ | تبين من رصد أهم مكونات سيرة الشعراء الواردة في المصادر والتراجم والسير الأندلسية وتتبعها في سيرة كل شاعر بأن سيرة المعتمد في شعره، تسير متوازية لما ورد عنها في المصادر ولكنها في شعره أكثر إثارة،ووضوحاً لجانب محنة الأسر،بينما كان شعر الإلبيري هو الهادي إلى السيرة المتميزة لهذا الشاعر لاقتضابها في المصادر،أما شعر ابن زيدون ،فكان انعكاساً حقيقياً لسيرته في المصادر،وزاد شعره بأنه كان توسيعاً وشرحاً وتفسيراً للمختصر المبالغ فيه من سيرته وتوضيحاً للآراء المتضاربة،وغير المتفقة حول حقيقة سيرته.

١٠ | كشفت دراسة المقومات الفنية لهذا الشعر،امتياز النصوص الشعرية لموضوعات السيرة بخصائص ومقومات ،تفترق بها عن المشترك العام من الخصائص الفنية للشعر .

١١ | ظهر اشتراك موضوعات السيرة في بعض الظواهر الأسلوبية أهمها:الأسلوب التصويري والأسلوب المباشر.

١٢ | وضح من خلال الدراسة قدرة اللغة الشعرية،والبناء الفني على استيعاب ملامح من سيرة الشعراء بما يتوافق مع أعراف وتقاليد الشعر،ولم تشكل عائقاً أمام الشاعر في احتواء سيرته.

١٣ | عمقت دراسة المقومات الفنية بأشكالها المختلفة استجلاء ملامح من الجوانب النفسية للشعراء اندست في ثنايا ملامح سيرهم الموضوعية المختلفة .

١٤ | اتضح من الدراسة أن الشعر الأندلسي مجال خصب للسيرة الذاتية متى ماأراد الشاعر ذلك.

التوصيـــــات :

١ | ترى الدراسة ضرورة الاستعانة بالشعر الأندلسي،بوصفه مصدراً من المصادر الأندلسية في ظل المفقود من المصادر،والتراجم،ولما يمتاز به هذا الشعر من صدق اقترابه من الواقع الأندلسي.

٢ | الاستعانة بالإمكانيات الواسعة لانفتاح الفنون الأدبية،وتداخل خصائصها في وقتنا الحاضر في الدرس النقدي الحديث،كانفتاح الشعر على فن السيرة يعِدُ بنتائج جديدة،وآفاق أوسع لدراسة الشعر الأندلسي تكشف عن أسراره وخصوصيته الإقليمية .

٣ | إن القيام بدراسات مقارنة بين الشعراء المشارقة،والأندلسيين الذين يحملون اوجه اتفاق وتشابه واضحة مع الاستعانة بآليات فن السيرة المتاحة؛سيكشف عن ملامح من سيرهم الذاتية أكثر دقة،وعمقاًخاصةعند أولئك الشعراء الذين نظموا الشعر لذواتهم والتعبير عنها دون جعله وسيلة للتكسب.

والحـــــمدلله رب العالمـــــين ..

المراجع والمصادر

المراجـــع و المصـــــادر

١. ابن الآبار:الحلة السيراء،ط١،تحقيق:حسين مؤنس،القاهرة:الشركة العربية للطباعة والنشر،١٩٦٣م،ج٢ .
٢. ابن خاقان،الفتح:قلائد العقيان في محاسن الأعيان–ط١،تحقيق:حسين خربوش،الأردن:مكتبة المنار ١٩٨٩م،ج٣ .
٣. ابن قتيبة(ت٢٧٦هـ):تأويلمشكل القرآن–د.ط،تحقيق:سيد صفر،بيروت:المكتبةالعلمية،١٩٨١ .
٤. أبو ديب ،كمال : في الشعرية د .ط بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٨٧م
٥. أبو زيد،إبراهيم:سيكولوجية الذات والتوافق–د.ط،الإسكندرية:دار المعرفة الجامعية،١٩٨٧.
٦. إدلبي، بهجة مصري:السيرة الذاتية في الخطاب الروائي العربي–ط١،د.ن:مكتبة الوراق،٢٠١١
٧. إسماعيل ، عز الدين : التفسير النفسي للأدب — د. ط ، بيروت : دار العودة ، د.ت
٨. إسماعيل،عز الدين:الأسس الجمالية في النقد العربي–ط٣،القاهرة:دار الفكر العربي،١٩٧٤م
٩. إسماعيل،عز الدين:الشعر العربي المعاصر–قضاياه وظواهر الفنية والإجتماعية–د.ط،القاهرة دار الكاتب العربي،١٩٦٧م .
١٠.أشباخ،يوسف:تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين،د.ط،تحقيق:محمد عنان،القاهرة.
١٠. أمين طه ، نعمان : السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري — ط١ ، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر، ١٩٨٧م.
١١. أنيس ، إبراهيم : موسيقى الشعر — ط د ، القاهرة ، مكتبة الإنجلو المصرية ١٩٨١م.
١٢. باسم،حموي: الشعر و الأداء القصصي–د.ط،مهرجان المربد الحادي عشر،دار الشؤون الثقافية العامة،١٩٩٦م.
١٣. باشلار،جاستون:جدليلة الزمن–ط١،ترجمة:خليل أحمد خليل،بيروت:الؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٩٨٢م.
١٤. بالنثيا،آنخل:تاريخ الفكر الأندلسي،د.ط،تحقيق:حسين مؤنس،القاهرة:مكتبة النهضة المصرية

١٩٥٥م.
١٥. بدوي ، أحمد : أسس النقد الأدبي عند العرب – د .ط ، القاهرة ، دار نهضة مصر
١٦. البكري ، أبو عبد الله : فضل المقال في شرح كتاب الأمثال – د. ط ، تحقيق : إحسان عباس وعبدالمجيد عابدين ، بيروت : دار الأمانة ، د. ت
١٧. بلقين،عبدالله:مذكرات الأمير عبدالله–المسماة كتاب التبيان–د.ط،تحقيق:ليفي بروفنسال القاهرة:دار المعارف ،١٩٥٥م .
١٨. التطاوي،عبدالله:تقاطعات الحركة الشعرية بين الموروث الفردي–مدخل إلى فن المعارضات–ط١،القاهرة:الدار المصرية اللبنانية،٢٠٠٧م
١٩. التطاوي،عبدالله عبد الفتاح:قضايا الفن في قصيدة المدح العباسية،القاهرة:دار الثقافة للطباعة والنشر،١٩٨١م.
٢٠. التميمي،أمل:السيرة الذاتية النسائية في الأدب المعاصر–ط١،الدار البيضاء:المركز الثقافي العربي،٢٠٠٥م .
٢١. ثقفان،عبدالله:الملامح والمقومات في القصيدة الأندلسية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين–د.ط،الرياض:مكتبة الملك عبدالعزيز العامة،٢٠٠١ .
٢٢. الجاحظ،أبو عثمان عمرو بن بحر:البيان والتبيين–ط٤،تحقيق:عبدالسلام هاون،بيروت:دار الفكر .
٢٣. جاد،عمر حسن:سيكلوجية الإبداع–ط١،عمان:دار صفاء للنشر والتوزيع،٢٠٠٥م .
٢٤. الجرجاني،علي:التعريفات–ط٢،تحقيق:إبراهيم الأبياري،بيروت،دار الكتاب العربي،١٤١٣هـ.
٢٥. الجيار،مدحت سعيد:الصورة عند أبي القاسم الشابي– د.ط ، ليبيا:الدار العربية للكتاب د. ن.
٢٦. حامد ، عبد القادر : دراسات في علم النفس – د.ط ، القاهرة : المطبعة النموذجية ١٩٤٩م.
٢٧. حسين،طه:حديث الأربعاء–د.ط،القاهرة:دار المعارف،د.ت،ج٢، .
٢٨. حسين، عبد الباقي محمد : سيد قطب حياته وأدبه – ط١، المنصورة : دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٦م.

٢٩. الحصري،أبو إسحاق:زهر الآداب و ثمر الألباب–د.ط،تحقيق:علي البجاوي،القاهرة: د.ن ،١٩٥٣م،ج٢ .
٣٠. الحكمي : عائشة بنت يحيى : تعالق الرواية مع السيرة الذاتية الإبداع السعودي نموذجاً – ط١ ، القاهرة : الدار الثقافية للنشر ،٢٠٠٦م.
٣١. خالص،صلاح:المعتمد بن عباد الإشبيلي–ملك إشبيلية–د.ط،مصر:مكتبة مصر،د.ت.
٣٢. خالص،صلاح:ديوان محمد بن عمار الأندلسي–د.ط،بغداد:مطبعة المهدي ،د.ت.
٣٣. الخانجي،عبدالرحمن:المعتمد بن عباد الإشبيلي،ملك ومملكتان:قراءة سياسية أدبية،الرياض :جامعة الملك سعود ١٩٩٨م.
٣٤. خضر ، فوزي : عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون – د.ط ن الكويت : مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، ٢٠٠٤م.
٣٥. الخفاجي ، ابن سنان : سر الفصاحة –ط١، تحقيق : علي فودة،مصر:المطبعة الرحمانية ١٣٥٠هـ.
٣٦. الخياط،جلال:الأصول الدرامية في الشعر العربي–د.ط،بغداد:منشورات وزراة الثقافة والإعلام ١٩٨٢م
٣٧. الداهري،صالح حسن:سيكلوجية الإبداع والشخصية–ط١،عمان:دار صفاء للنشر والتوزيع ٢٠٠٨م .
٣٨. الداهي،محمد:شعرية السيرة الذهنية(محاولة التأصيل)–ط١،القاهرة:رؤية للنشر والتوزيع ٢٠٠٨م.
٣٩. دياب،علي:الغزل الأندلسي في القرن الخامس الهجري–ابن زيدون و المعتمد بن عباد– نموجاًد.ط،دمشق:مطبعة الجمهورية د.ت.
٤٠. ديوان أبي اسحاق الإلبيري الأندلسي،ط١،تحقيق :محمد رضوان الداية،بيروت:دار الفكر المعاصر،١٩٩١م.
٤١. ديوان ابن زيدون ورسائله،د.ط،تحقيق:علي عبدالعظيم،مصر:مكتبة نهضة مصر بالفجالة ١٩٥٧م.
٤٢. ديوان المعتمد بن عباد،ملك إشبيلية–د.ط،تحقيق:أحمد بدوي،حامد عبدالمجيد ،القاهرة : المطبعة الأميرية،١٩٥١م .
٤٣. الراغب،عبد السلام أحمد:الصورةالفنية في شعر علي بن الجهم– ط١سوريا: دار الرفاعي

٢٠٠٩ م .

٤٤. الركابي،جودت:في الأدب الأندلسي–د.ط،بيروت:دار الفكر،د.ت .

٤٤. زايد ، علي عشري : بناء القصيدة العربية الحديثة – ط١ ، القاهرة : مكتبة دار العلوم ، ١٩٨٧م

٤٥. ستيتكفيش ، باروسلاف : صبا نجد ، شعرية الحنين في النسب العمري الكلاسيكي – د.ط ترجمة:حسن البنا عز الدين ، الرياض : مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية٢٠٠٤م.

٤٦. السعيد،محمد مجيد:الشعر في عهد المرابطين والموحدين–ط٢،بيروت:الدار العربية للموسوعات ١٩٨٥م.

٤٧. سعيد،أحمد:مقدمة للشعر العربي–د.ط،لبنان:دار العودة،د.ت.

٤٨. سلطان ، منير : البديع تأصيل وتجديد – ط١ ، الإسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٨٦م.

٤٩. سلمان،ياسر علي:صورة الذات بين أبي فراس الحمداني ومحمود سامي البارودي–دراسة موازنة ط١،العراق،جامعة القادسية.

٥٠. سليمان،سناد محمد:تحسن مفهوم الذات–تنمية الوعي بالذات–ط١،القاهر:عالم الكتب ،٢٠٠٥م،ط١ .

سويف،مصطفى:الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصةً–ط١،القاهرة:دار المعارف، ١٩٨٧ م .

٥١. سويف،مصطفى:دارسات نفسية في الإبداع والتلقي–ط١،القاهرة،الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩م .

٥٢. شاكر،تهاني عبدالفتاح:السيرة الذاتية في الأدب العربي،فدى طوقان،وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس–نموذجا–ط١ ،بيروت:المؤسسةالعامة للدراسات والنشر،٢٠٠٢م.

٥٣. شرف،عبدالعزيز:أدب السيرة الذاتية–ط١،القاهرة:الشركة المصريةالعالمية للنشر ،١٩٩٢م.

٥٤. شعلال ، رشيد : البنية الإيقاعية في شعر أبي تمام _بحث في تجليات الإيقاع تركيباً ودلالة وجمالاً – ط ١ ، إربد : عالم الكتب الحديث ، ٢٠١٠م.

٥٥. شلق،علي:النثر العربي–نماذجه في تطوره لعصري النهضة والحديث–ط٢،بيروت: دار القاسم،١٩٧٤.

٥٦. الشنتريني،ابن بسام:الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة–د.ط،تحقيق:إحسان عباس،ليبيا الدار العربي للكتاب ،١٩٧٥م،ق٢،ج١ .
٥٧. الصكر،حاتم:السيرة الذاتية النسوية–البوح والترميز،مجلة فصول، عدد٦٣م ،٢٠٠٤م.
٥٨. الصكر،حاتم:مرايا نرسيس–الأنماط النوعية والتشكيلات البنائية لقصيدة النثر الحديث–ط١،لبنان:المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،١٩٩٩م.
٥٩. الضاهر ، عادل : الشعر والفلسفة – ط١ ، دمشق : دار المدى للثقافة والنشر ، ٢٠٠م.
٦٠. ضيف،شوقي:الترجمة الشخصية–د.ط،القاهرة:دار المعارف،١٩٨٧.
٦١. الطاهري، الحسين : الإبداع الموحدي بين شعرية النص وأدبية المتلقي – د.ط ، فاس : المكتب المركزي ، ٢٠٠٥م .
٦٢. طحطح،فاطمة:الغربة والحنين في الشعر الأندلسي –ط١،الرباط،منشورات كلية الآداب العلوم الإنسانية ١٩٩٣م .
٦٣. الطرابلس ، محمد الهادي : في مفهوم الإيقاع – حوليات الجامعة التونسية ، العدد ٣٢ ، كلية الآداب ،جامعة تونس ١٩٩١م .
٦٤. الطربولي، محمد عويد: الصورة عند الأعمى التطيلي – دراسة فنية موضوعية .– ط١،القاهرة مكتبة الدينية ، ٢٠٠٥م.
٦٥. الطوانسي ، شكري : مستويات البناء الشعري عند محمد إبراهيم أبو سنة – دراسة في بلاغة النص – د. ط الدار المصرية العامة للكتاب ، د . ت.
٦٦. الطيب ، عبد الله : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها – ط١ ، مصر : مطبعة البابي الحلبي.،د.ت.
٦٧. عباس،إحسان:تاريخ الأدب الأندلسي–عصر سيادة قرطبة–ط١،عمان:دار الشروق،٢٠٠١م
٦٨. عباس،إحسان:غربة الراعي–سيرة ذاتية–ط١،عمان:دار الشروق،١٩٩٦م.
٦٩. عباس،محمد:جدلية القصة في الشعر–ديوان عمر بن أبي ربيعة أنموذجاً–د."،تونس:التفسير الفني صفاقس ،٢٠٠٣م .
٧٠. عبد الرحمن ، نصرت : في النقد الحديث – د.ط ، عمان : مكتبة الأقصى ، د.ت.
٧١. عبد الله ، محمد حسين : الصورة والبناء الشعري ط١، د. م : دار المعارف ، ١٩٨١م.

٧٢. عبد الله السعيد محمود : التجديد في موسيقى الشعر العربي المعاصر — د.ط الإسكندرية : دار الفنون العلمية ، ١٩٩٣م .
٧٣. عبدالصاحب،منتهى مطشر:أنماط الشخصية-ط١،عمان،دار صفاء للنشر والتوزيع ،٢٠١١
٧٤. عبدالعزيز،سعيد:المدخل إلى الإبداع-ط١،عمان:دار الثقافة،٢٠٠٩م .
٧٥. عبدالغني،محمود:فن الذات-دراسة في السيرة الذاتية لابن خلدون-ط١،عمان:دار أزمنة ٢٠٠٦م.
٧٦. عبدالله،عدنان خالد:النقد التطبيقي التحليلي د.ط،بغداد:دارالشؤون الثقافية العامة١٩٨٦م.
٧٧. عزم:عبدالوهاب:المعتمد بن عباد،الملك الشجاع المرزأ-د.ط،د.م،دار المعارف،د.ت.
٧٨. العقاد ، عباس حمود : اللغة الشاعرة — د. ط ، القاهرة : مكتبة غريب ، د. ت
٧٩. العقاد،مجموعة أعلام الشعر-ط١،بيروت:د.ن،١٩٧٠م.
٨٠. عنان،محمد عبدالله:دول الطوائف منذ قيامها حتى فتح المرابطين-ط٢،القاهرة:مكتبة الخانجي ١٩٦٩م .
٨١. العيد،يمنى:السيرة الروائيةوالوظيفة المزدوجة،مجلة فصول،العدد٤،١٩٩٧م.
٨٢. عيسوي،عبدالرحمن:سيكولوجية الإبداع_د.ط،م:دار النهضة العربية،د.ت.
٨٣. الغزيوى،علي:أدب السياسة والحرب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري-د.ط،الرباط:مكتبة المعارف ،١٩٨٧م .
.
٨٤. الغضنفري،منتصر عبد القادر: عناصر القصة في الشعر العباسي،د.ط،عمان:دار مجدلاوي للنشر و التوزيع،٢٠١٠م.
٨٥. فزيزرا:الكاتب الحديث وعالمه-ترجمة:أحمد سلامة السيد-القاهرة:الهيئة المصرية العامة ١٩٩٤م.
٨٦. فضل ، صلاح : ملامح أسلوبية في شعرية الحداثة ،مهرجان إربد العاشر الشعري، ١٩٨٩م.
٨٧. فضل ، صلاح : نظرية البنائية في النقد الأدبي — د . ط ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠م.
٨٨. القاعود،حلمي محمد:النقد الأدبي الحديث-ط١،الرياض:دار النشر الدولي،٢٠٠٦م .

٨٩. القرطبي،ابن عبدالبر:بهجة المجالس أُنس الجالس–د.ط،تحقيق:محمد مرسي الخولي،القاهرة:الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة ،١٩٦٢م.

٩٠. القط ، عبد القادر: الاتجاه الوجداني في الشعر _رؤى النقاد العرب في ضوء علم النفس الأدبي –د.ط ، د.م: مكتبة الشباب،د.ت.

٩١. قليقلة،عبده:القاضي الجرجاني الأديب والناقد–ط٢،بيروت:منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر،١٩٧٩م.

٩٢. القيراوني ، ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر ونقده _ ط ٥ ، تحقيق : محيي الدين عبد الحميد١، بيروت : دار الجبيل ، ١٩٨١م .

٩٣. القيسي،نوري حمودي:الشعر والتاريخ–د.ط بغداد:جامعة بغداد،١٩٨٠م .

٩٤. كحلوش،فتحية:بلاغة المكان قراءة في مكانية النص الشعري،ط١،بيروت:الانتشار العربي، ٢٠٠٨م.

٩٥. كوين،جون:بناء لغة الشعر _ د.ط ، تحقيق : أحمد درويش ، القاهرة :مكتبة الزهراء ،١٩٨٢م .

٩٦. المعتصم،محمد:خطاب الذات في الأدب العربي،د.ط،الرباط :مطبعة الأمنية،٢٠٠٧م .

٩٧. لوجون،فيلب:السيرة الذاتية:الميثاق والتاريخ الأدبي–د.ط،ترجمة:عمر الحلي،الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي،١٩٣٦ .

٩٨. مجاهد ، أحمد : إشكال التناص الشعري – د. ط ن القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨م.

٩٩. محرز،سامية:المفارقة عند جيمس جويس وإيميل حبيبي ألف: مجلة الأدب المقارن ، العدد الرابع ، ١٩٨٤م.

١٠٠. صابر،محمد : عضوية الأداة الشعرية فنية الوسائل ودلالية الوظائف في القصيدة الجديدة – ط١ ، عمان : دار مجد لاوي ، ٢٠٠٧م.

١٠١. مراد، يوسف : مبادئ علم النفس العام – ط٧ ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٧م.

١٠٢. مرتاض ، عبد الملك : فكرة السرقات الأدبية ونظرية التناص – مجلة علامات في النقد ، النادي الأدبي الثقافي بجدة ، ج١، ١٩٩١م .

١٠٣. المعاملي،شوقي محمد:السيرة الذاتية في التراث–د.ط،القاهرة:مكتبة النهضة المصرية.

١٠٤. المعتوق،أحمد محمد:الحصيلة اللغوية:أهميتها-مصادرهاو وسائل تنميتها،عالم المعرفة،عدد(٢١٢) -ربيع الأول _١٤١٧ هـ.
١٠٥. المغربي ، حافظ : التشكيل بالصورة وصور التشكيل في الخطاب الشعري عند عبد القادر القط — د. ط ، مصر :الدار الأزهرية للنشر والتوزيع ، ٢٠٠١م.
١٠٦. مفتاح،محمد:تحليل الخطاب الشعري-استراتيجة التناص-د.ط،الدار البيضاء:المركز الثقافي العربي،١٩٨٥م.
١٠٧. المنفلوطي:النظرات-دراسة وتحليل جميل جبرا-د.ط،بيروت:دار نوفل،١٩٩٤م-المقدمة .
١٠٨. ميشال،عاصي:الفن والأدب،بحث جمالي في الأنواع والمدارس الأدبية والفنية_ط٢،بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر و التوزيع ،١٩٧٠م.
١٠٩. ناجي،مجيد:الأسس،النفسية للأساليب البلاغية العربية_ ط١،بيروت:المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،١٩٨٤ م .
١١٠. ناصيف،علي الجندي:القصة في الشعر العربي إلى أوائل القرن الثاني الهجري- د.ط،القاهرة:دار نهضة مصر للطبع و النشر،د.ت.
١١١. النويهي،محمد:ثقافة الناقد الأدبي،د.ط،القاهرة:مطبعة القاهرة،١٩٦٩م
١١٢. هلال،محمد غنيمي : النقد الأدبي الحديث — د. ط القاهرة : مكتبة نهضة مصر للطباعة والنشر ، د. ت.
١١٣. الهوّال،حامد عبده:السخرية في أدب المازني— د.ط ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢م .
١١٤. هياس:شكري خليل:القصيدة السير الذاتية-بنية النص وتشكيل الخطاب-ط١،الأدرن:عالم ال الكتب الحديثة،٢٠١٠م .
١١٥. هيكل، أحمد: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة — د. ط ، القاهرة .دار المعارف.
١١٦. ويلك،رينية:مفاهيم نقدية،ترجمة:محمد عصفور-د.ط،الكويت:سلسلةعالم المعرفة،١٩٨٧م .
١١٧. ياكبسون،رومان:قضايا شعرية-د.ط،ترجمة:محمد الولي و مبارك حنون،د.م:دار توبقال ١٩٨٨م،
١١٨. يحي،محمد:السمات الأسلوبية في الخطاب الشعرية — ط١،إربد:عالم الكتب الحديث، ٢٠١١م.

ملخص

الحمد لله الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ، وأصلي وأسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد: فهذه أطروحة علمية بعنوان "ملامح ومقومات السيرة الذاتية في الشعر الأندلسي من القرن الرابع إلي السادس الهجري" التَمسْتُ في موضوعها الجدة والطرافة ، إذ كان الشعر العربي قديماً – أهم الفنون الأدبية ، لأنه لبّي احتياجات الشاعر في التعبير عن ذاته بأبعادها المختلفة ، لذلك فإن مشكلة هذا البحث تتلخص في الكشف عن ملامح السيرة الذاتية في الشعر الأندلسي في أزهى عصوره ، خاصةً عند أولئك الشعراء الذين ربطوا خطابهم الشعري بتجاربهم وسيرهم الذاتية وقضايا حياتهم ، ولأن الذات هي القاسم المشترك بين الشعر وفن السيرة الذاتية ، فقد تمَّت الاستعانة بما يتاح من آليات فن السيرة الموضوعية وأدواتها الفنية من خلال منهج توفيقي بينهما ، لتلّمس ملامح السيرة الذاتية ومقوماتها في الشعر ،مَحَل الدراسة ، لذا فقد جاءت الدراسة في مقدمة ،وتمهيد ناقشت فيه :-

١ مفهوم السيرة الذاتية.

٢ فن السيرة الذاتية بين الأدب والواقع.

٣ علاقة الشعر بفن السيرة الذاتية .

٤ لِمَ نبحث عن ملامح السيرة الذاتية في الشعر الأندلسي تحديداً؟

يتبعه الباب الأول ، وعنوانه : أهم الملامح السيرية لذات الشاعر ومجتمعه **في ثلاثة فصول:**

الفصل الأول : ملامح من السيرة السياسية في الشعر الأندلسي – المعتمد بن عباد – نموذجاً.

الفصل الثاني : ملامح من السيرة الفكرية في الشعر الأندلسي—الإلبيري – نموذجاً .

الفصل الثالث :ملامح من السيرة العاطفية في الشعر الأندلسي – ابن زيدون – نموذجاً.

يأتي بعد ذلك الباب الثاني ، وعنوانه : المقومات الفنية السيرية لذات الشاعر ومجتمعه **في ثلاث فصول** :

الفصل الأول : النزعة القصصية.

الفصل الثاني : الظواهر الأسلوبية المشتركة.

الفصل الثالث: اللغة والبناء الفني .

ثم الخاتمة وفيها أبرز النتائج ، وأهم التوصيات ، يليه ثبتٌ بالمراجع والمصادر.

أخيراً :أسألُ الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم .

والحمد لله رب العالمين .